

كان التاريخي

ISSN: 2090 - 0449

أول دورية عربية رقمية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م

Kan
Historical
Periodical

السنة الثامنة عشرة
العدد الحادي والسبعون

رقمية الموطن
عربية الهوية
عالمية الاصل



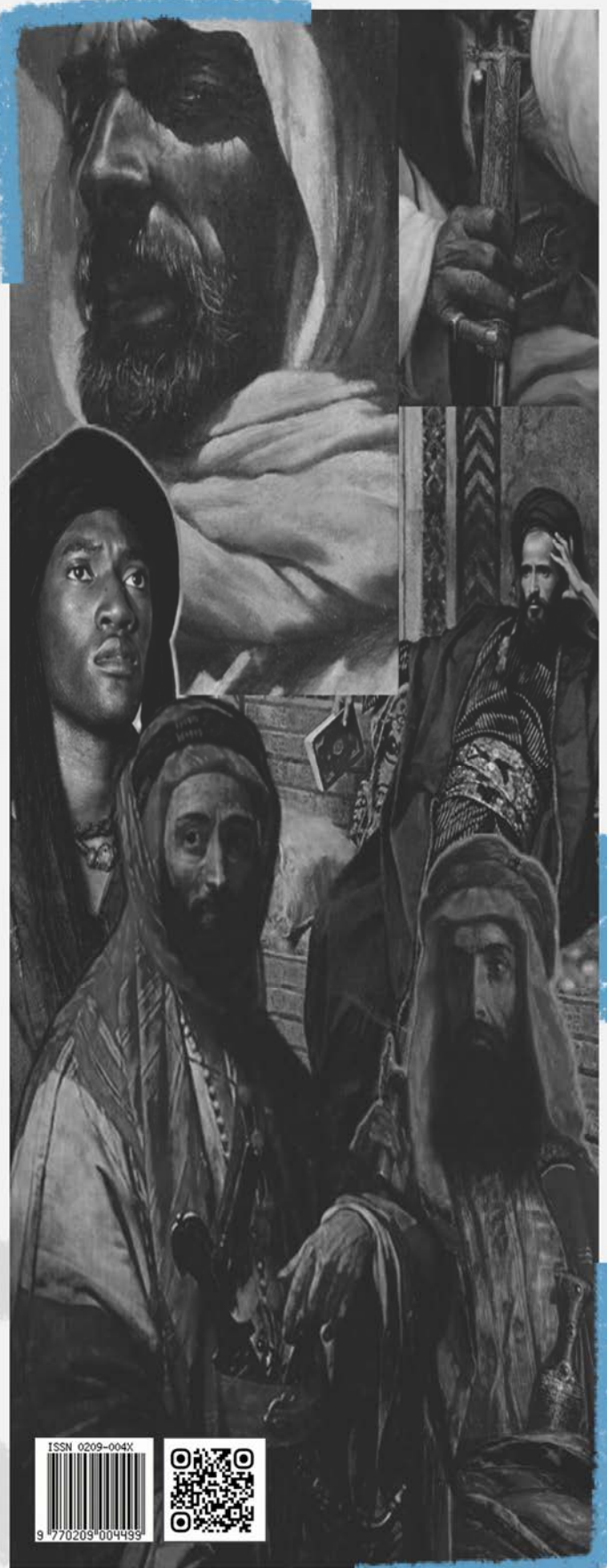
مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
Kan Foundation for Studies,
Translation and Publishing



/historicalkan



@kanhistorique



دورية كان التاريخية- س ١٨، ٧١٤ (سبتمبر ٢٠٢٥ / ربيع أول ١٤٤٧)

Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 18, no. 71 [Sep. 2025]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: <https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س ١، ١٤ (سبتمبر ٢٠٠٨). - القاهرة: المؤسسة،
٢٠٠٨ – ٢٠٢٥ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمَة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردم ٢٠٩٠ – ٠٤٤٩

٢- الآثار

١- تاريخ

٤- التراث

٣- التراجم

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:
Organization, 2008 – 2025.

Peer-reviewed, open-access journal.

Indexed and abstracted in several international databases.

ISSN: 2090 – 0449 (Online)

Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٥ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2025 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

■ النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.

■ ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.

■ الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.

■ لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

<https://kan.journals.ekb.eg>

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفَحَّكَّة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



معتمدة من مركز مؤتتر - برلين:

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالمياً.

<https://indexpolls.de>



المنتترف العام

تعتبر الدوريات شريئًا رئسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة - المملكة المغربية

الهيئة الاستشارية

أ.د. خالد بلعربي	جامعة الجيلالي اليابس	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرابية	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د. الطاهر جيلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إب	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د. عبد الناصر محمد حسن بس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د. محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د. محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمانة	جامعة البصرة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الهيئة العلمية

د. أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
د. عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
د. ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د. إبراهيم برمّة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د. زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د. غلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د. فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د. مأموؤو كان	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د. محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

” حسب الترتيب الأبجدي

”كان التاريخية“ أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ ”المعبر المفتوح“ في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية، ”كان التاريخية“ غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخية

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في معامل التأثير أرسيف.

عضو في الجمعية الدولية للمجلات العلمية الناشئة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن رشد



Magazine Cover

غلاف المجلة - تصميم خاص

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم

رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historickan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



https://kan.journals.ekb.eg



كان التاريخية علمية، عالمية، محكمة. ربع سنوية

السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون - سبتمبر ٢٠٢٥

الإلتزام القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكاتب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعميم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

أَخْلَاقِيَّاتُ النَّشْرِ وَالنَّزَاهَةُ الْعِلْمِيَّةُ

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدورية كان التاريخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهّم محرري المجلات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللازمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكمين اثنين على الأقل ممن لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكمين أو طلبهم ألا يقوم محكمون معينون بمراجعة أوراقتهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دورية كان التاريخية من متخصصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسية أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

كان التاريخية هي أول دورية عربية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دورية كان التاريخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



الأمانة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأ فادحاً في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعمالهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دورية كان التاريخية، وتوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقاً صحيحاً وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دورية كان التاريخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دورية كان التاريخية. ويجب على أي محكم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السرية، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

دورية كان التاريخية هي دورية علمية عالمية مُحكمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

تشرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرية التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال / دراسة / ترجمة / تقرير / عرض كتاب / عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

دورية كان التاريخية مجهزة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال / الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعين.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشيف وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.



أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دورية كان التاريخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممن عرفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممن أصدروا كتباً أو أبحاثاً علمية متميزة في تخصص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المقيّمون والمحكمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د. أحمد عبد الله الخسّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د. أمين محمد علي الجير	جامعة زمار	اليمن
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. الحسن تاوشينخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة زمار	اليمن
أ.د. حنفي هلايلي	جامعة جيلالي ليايس	الجزائر
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د. سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د. شعيب مقنوف	جامعة "أبوبكر بلقايد" تلمسان	الجزائر
أ.د. صالح محمد زكي اللهبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د. عبد الرحيم مرشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د. فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقا)	سوريا
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د. محمد دوکوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

- تاريخ المقارن.
- التراجم والنساب.
- تاريخ العالم القديم.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الحروب الصليبية.
- العمارة والعمران والمدن.
- المستكشفون والرحالة.
- منهج البحث التاريخي.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.

”حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجِدَّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدنا أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك، أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات / منتديات / مواقع / مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم / الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون - الموبايل / الجوال - الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٣٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتسائلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرة وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية <https://www.facebook.com/historickan>
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرة إلى رئيس التحرير: <https://kan.journals.ekb.eg> mr.ashraf.salih@gmail.com

مصر	الشيءاء فتحي محمد أحمد جامعة عين شمس	١٥	العلاقة التبادلية بين تخفيض القيمة الحقيقية للعملة وثورات المصريين ضد الحكم البطلمي (٣٠٥ ق.م - ٣٠ ق.م)
السودان	صديق مهدي عبد الرحمن جامعة بخت الرضا	٢٩	الوجود البشري في السودان وتطوره الحضاري حتى نهاية المجموعات الحضارية
المغرب	سليم احمدوش جامعة سيدي محمد بن عبد الله	٣٩	التراث اللامادي بمنطقة الريف الشرقي ودوره في تعزيز التنمية المحلية: حالة قبيلة تمسمان
المغرب	محمد مزبان جامعة ابن طفيل	٤٨	البنية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الحجاز إبان القرن الحادي عشر من خلال نماذج من الرحلات الحجية المغربية
المغرب	سماعيلي رشيد جامعة محمد الأول	٦٠	تأثير "أسلوب الإنتاج الحربي" على نوع الهدايا السلطانية في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط
المغرب	مصطفى البركة المدرسة العليا للأستاذة بفاس	٦٩	ضرائب التنقل في تاريخ المغرب الوسيط: الخلافة نموذجاً
سلطنة عُمان	أحلام بنت حمود الجهورية هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية	٧٦	العلاقات العُمانية اليمينية في ضوء النضال العُمانى ضد الاحتلال البرتغالي خلال فترة حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٩ - ١٠٩٠ هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٩ م)
قطر	عماد تبهوت جامعة مولاي إسماعيل	٩٣	الحياة الثقافية والعلمية في مدينة الزَّبارة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر: قراءة لسيرة علماء الزَّبارة من خلال كتاب سبائك العسجد لابن سند البصري
اليمن	بكيل محمد الكليبي جامعة ذمار	١٠٢	الوعظ السياسي من خلال رسالة الخديوي إسماعيل إلى أمير عسير محمد بن عايض ١٤ ربيع الاول ١٢٨٢ هـ الموافق ٣٠ يوليو ١٨٦٥ م: دراسة وثائقية
المغرب	فريد المساوي جامعة عبد المالك السعدي	١١٥	جزيرة النكور وأهالي القبائل الريفية المجاورة من خلال وثائق مخزنية ١٨٨٠ - ١٩٠٠ م
المغرب	عاهد ازحيمي جامعة سيدي محمد بن عبد الله	١٣٠	نشأة النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية وتصورها للإصلاح والنهضة ١٩١٣ - ١٩٣٦
المغرب	حنان اقشيبيل جامعة سيدي محمد بن عبد الله	١٤٢	تدبير المحاكم العرفية بقبائل زيان لقضايا خروج الزوجة بيت الزوجية خلال عهد الحماية: نماذج منتقاة
المغرب	ياسين زينون جامعة الحسن الثاني	١٥٠	التعليم العمومي الفرنسي من منظور المؤرخ جول ميشليه مساهمة في تحديد الأبعاد
المغرب	شرف أزنالك جامعة القاضي عياض	١٦٥	الجال المغربية وقوانين الحماية الفرنسية: السياق ومجالات التوظيف
المغرب	عبد الرحيم الوسيدي جامعة ابن طفيل	١٨٢	معادن مناجم الريف بشمال المغرب: المنافسة الأوروبية والاستغلال الاستعماري الإسباني

مقالات باللغة الإنجليزية

How effective was Germany in mobilizing its economy before and during the Second World War?

191
khalil M. Othman
Diman I. Ameen
University of Duhok

Iraq



المؤرخ زمن فوضى الميديولوجيا.. في منسوب التأسيس



أ.د. عبد العزيز غوردو

الحرية المطلقة فوضى مطلقة. والفوضى المطلقة تشرعن للحرية المطلقة لتبرر مقدماً كل ما ستوقعه بالعالم من كوارث وشورور. والميديولوجيا هي وسيلة التنفيذ الكبرى التي تتفرع منها بقية الوسائل والأدوات، التي تؤسس لانقلاب الأدوار في هذه العلاقة الملتبسة، لتجعل من الحرية نفسها ضحيتها الأولى، في استجابة مقبولة تجعل المعيش العقلي، والمعقول، يستحيل إلى جحيم.

انطلاقاً من انقلاب الأدوار هذا، على مستوى الإجراء، فإن المفهوم/ "الفوضى المطلقة" يكتسب مشهدياته الخاصة في عين ذاته، والآخر، من خلال الندوب والآثار التي يوقعها بالمجتمع. وبما أنه لا يمكن محاصرة الفوضى المطلقة الخالصة فإن آثارها التي تدل عليها هي تجسيدها الوحيد، والتي تنتهي بها إلى مفسدة مطلقة. هي صانعة ومحطمة لتجلياتها التي لا تتوقف عن التكيف مع استيلادات متجددة متكررة، لكن دون أن تنسى ملامحها الأصلية المشدودة إلى التفاهة. ولا يهم عند نهاية هذا التشكيل إن كان التفاهة قد أتم دورته المنطقية أو لم يتممها. فهو في لعبة التحولات الدائمة والمربية يستطيع أن يحل في كل مكان وأن يرتفع عليه، و/أو يعلن عن الفوضى أو ينفيها، وأن يلغي "المعقول" بين المتجسّد ونقيضه. ما دام المرئي يبعثر كل المشاهد عبر الشاشات، ويقصف المشاهد فلا يجعل النظرة ترتد إلا منه، لتعود إليه. الحرية المطلقة ليست هي نفسها، الحرية المطلقة، عندما تقع كارثة باسمها أو بدلائلها، عندها يُصار إلى فوضى مطلقة إذ لا توجد لفظة تدل عليها غيرها.

يقف المؤرخ المحترف خارج هذه الفوضى لأنه مسكون بعمق التفكير: المؤرخ محب للحكمة، و"الحكمة امرأة، وهي لا تحب إلا مقاتلاً" (هكذا تحدث نيتشه). ولذلك فالمؤرخ لا يكتب سطرًا إلا بعد اعتصار، لأن عقله التاريخي يشاء ألا يكون على عجلة من أمره؛ أما الميديا المتهاففة فتشاء "مؤرخًا" متهافًا/متسرعًا/عجولاً لا يلوي على عقل. يتوازي اضمحلال العقل مع نمو مفرط للتفاهة والسخيف والغوغائي بكل أشكاله، المتكررة باستمرار، بالقدر الذي تسمح به الميديا قراطية، مع ما يتبع أنظمة الإدخال في البرمجيات الإلكترونية، ليُعاد استظهاره مشهديات عبر الميديا، فلا يعود ثمة من مكان شاغر، بل كل الأمكنة ممتلئة بشغورها.

ثورة الميديا ضد الفراغ بالغوغائي، نفي معاكس للمعقول، أو لما اعتاد العقل على أن يراه كذلك، وكأنه إعادة تعريف للمعقول بتأكيد الأطروحة ونقيضها، ثورة مضادة بريكارية تائهة في الزمن الاجتماعي، بعد أن انقضى زمن الثورات التاريخية: الدينية والقومية والطبقية... حين يصبح وجه التفاهة وبائيًا سريع العدوى، فلا موانع جغرافية أو سياسية أو حتى فضائية قادرة على إقامة الحواجز والسدود للحيلولة دونه. تصير الوبائية انتشارية أمام الاستقطابات، والاستقطابات المضادة، ومضادات الاستقطابات... قبل أن تغرق في خرابها الشامل، فلا يعود منها أحد قادرًا على تسمية خرابها بعد وقوعه.

من هنا مشروعها الذي ينصبّ التفاهة في مركزه، باسم الحرية، وباسم الحرية أيضًا يذُرُ الفوضى في فضاء الميديولوجيا، بعد انهيار أيديولوجيات الحجب والمنع والإقصاء، منفلاً من تنميّطات الطاو وصوفيّات التغيب وطوبائيات الأخلاق، وقد تبددت حدوده في حدود كل شيء، وصار عنواناً لكل شيء، بعد تصحير العالم من مبادئه الخام، مما قبلية الفوضى المطلقة، فغدا قاحلاً فارغاً وقد تاه عن ذاكرته التاريخية. وعلى أساسه ينكتب تناص تاريخاني آخر للقيم مقطوعة عما يسبقها أو يلحق بها، لأنها لشدة خفتها وتلاشيها الأنطولوجي، لا تحتل مكاناً ولا تستمر زماناً. لا تكاد تهدأ إلا وقد تجاوزت نفسها، ذلك أن تاريخ الدهنيات الذي كنا نعتقد أنه يسير ببطء شديد لم يعد كذلك، أو على الأقل لم يعد يتغير بذلك البطء الذي اعتقدنا زماناً طويلاً؛ والتفاهة، كنبته شر لا تتوقف عن التكاثر، تغزو المجتمع بغير استئذان. يتحدى التفاهة التفاهة بالتفاهة ولحساب التفاهة، لشرعنة ما هو غير شرعي. ليس صدفة أن يحتل الفضاء وتُختزل استراتيجيته في نمذجة حرب المواقع، وتبادل الأدوار والتوقعات اللانهائية، وإعادة تدوير نفايات الميديا.

انتهت برلثة الميديولوجيا إلى تسليع الإنسان، بما هو منجز تاريخي كما انتهى بعد موجة الحداثة/ الحداثات، كامل التشيئي. بات الجسد والمتجسد فيه: المنطق والشرف وأضرابهما، مستحاثات أركيولوجية متصخّرة عصيّة على أية أنظمة تمفهمية؛ ذلك بأنها فقدت ذاكرتها الدلالية، بما أنها استحالّت من نظام معرفي مقدس إلى رموز في الحوسبة والمعلومات؛ مفسحة المكان، والإمكانية، للتفاهة حتى يعيد اكتشاف ذاته فجأة، بعد أن اكتشف مفعولات رموز السلطة التي تراكمت بين يديه، فأصبح يفتي في السياسة والمجتمع والاقتصاد وعلم الفلك ومناهج تطوير التعليم... وإعادة كتابة التاريخ.

العلاقة التبادلية بين تخفيض القيمة الحقيقية للعملة وثورات المصريين ضد الحكم البطلمي (٣٠٠ ق.م – ٣٠ ق.م)

د. الشيماء فتحي محمد أحمد

مدرس التاريخ اليوناني والروماني
كلية التربية – جامعة عين شمس
جمهورية مصر العربية

ملخص

اتبع البطالمة سياسة نقدية قائمة على تخفيض القيمة الحقيقية للعملة، من خلال خفض وزنها، أو خفض درجة نقاء المعدن المسكوكة منه. وقد ارتبطت الاضطرابات الداخلية، والعوامل البيئية، مثل الجفاف والمجاعة، ارتباطاً وثيقاً بالتغيرات التركيبية للعملة البرونزية بينما ارتبط تخفيض قيمة العملات الفضية بشكل أساسي بالقضايا الخارجية مثل خسائر الحروب وفقدان الممتلكات الخارجية. وقد نتج عن سياسة البطالمة في تخفيض قيمة العملات في مصر، حدوث تضخم في الأسعار، وخصوصاً منذ عهد بطلميوس الخامس، والتي اشتدت بشكل كبير في القرن الأخير لحكم البطالمة. وبمقارنة بسيطة بين معدل ارتفاع أسعار القمح منذ عهد بطلميوس الرابع وحتى القرن الأخير من حكم البطالمة، والبالغ حوالي ٢٦٦ مثل، ومعدل ارتفاع متوسط الأجور البالغ ٢٤ مثل، يتبين لنا بكل وضوح أن الأسعار كانت ترتفع بنسبة أعلى بكثير من ارتفاع الأجور، وهو ما يعني تدهور مستوى معيشة المصريين، وازدياد شدة معاناتهم من الفقر، الذي كانوا يعانون منه أصلاً منذ بداية العهد البطلمي. لذلك فقد كانت عواقب التضخم البطلمي وخيمة، إذ أدى لحدوث الاضطرابات الاجتماعية واندلاع الثورات الشعبية عدة مرات، كما أدت الاضطرابات الاقتصادية إلى إعاقة التجارة والاستثمار، وهو ما كان يدفع لإجراء المزيد من التخفيض في القيمة الحقيقية للعملة، وحدث ارتفاعات جديدة في الأسعار. وإلى جانب تلك العوامل الاقتصادية كانت هناك عوامل أخرى سياسية أدت في النهاية إلى سقوط دولة البطالمة في مصر، بعد هزيمتهم في موقعة أكتيوم البحرية ثم انتحار كليوباترا آخر ملوك البطالمة في مصر سنة ٣٠ ق.م.

كلمات مفتاحية:

مصر؛ البطالمة؛ النقود؛ العملات؛ الفضة؛ البرونز؛ القمح؛ الأسعار؛ الأجور؛ الثورة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٩ فبراير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٨ مارس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.359248.1208

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الشيماء فتحي محمد أحمد، "العلاقة التبادلية بين تخفيض القيمة الحقيقية للعملة وثورات المصريين ضد الحكم البطلمي (٣٠٥ ق.م – ٣٠ ق.م)". دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥. ص ١٥ - ٢٨.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: alshaimaa.fathy15@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Creative Commons Attribution (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

ومن الثابت تاريخياً أن تخفيض القيمة الحقيقية للعملة غالباً ما يؤدي إلى ارتفاع المستوى العام للأسعار، وبالتالي يتدهور مستوى معيشة غالبية المواطنين وخصوصاً الطبقة الكادحة؛ ما لم تكن هناك زيادة مناسبة في دخولهم.^(٥) وكلما اشتد هذا التدهور زاد الغضب الشعبي ضد الحاكم، ووقعت الاضطرابات والقتال والثورات. وهذه الثورات غالباً ما كانت تؤدي إلى اضطرابات اقتصادية غالباً ما تدفع الحاكم لإجراء تخفيض جديد في قيمة العملة، ومن ثم ترتفع الأسعار مرة أخرى، فيقوم الشعب بالثورة مرة تلو الأخرى وتدخل البلاد في حلقة مفرغة.

وستقوم هذه الدراسة بالتركيز على تلك العلاقة التبادلية بين تخفيض قيمة العملة وأثره على الأسعار ممثلة في سلعة القمح باعتبارها السلعة الاستراتيجية الأكثر أهمية لعامة الشعب، مع مقارنة نسبة الزيادات في سعر القمح مع متوسط نسبة الزيادة في الأجور، للوقوف على مدى تناسبها مع ارتفاع الأسعار، وبالتالي الوقوف على تدهور مستوى معيشة المصريين ومعاناتهم، والتي كانت تمثل أحد الدوافع الاقتصادية لقيامهم بالثورات ضد الحكم البطلمي الذي امتد من عام ٣٠٥ ق.م. حتى عام ٣٠ ق.م.

أولاً: النقود في مصر البطلمية

كانت النقود البطلمية تتكون من عملات مصنوعة من الذهب والفضة والبرونز. وغالباً ما كانت تصور على العملة الفضية المعتادة صورة بطلميوس الأول، واسم بطلميوس الذي حمله كل ملوك هذه الأسرة. وأما العملات الذهبية والفضية التذكارية فكانت تحمل صورة بطلميوس الأول وغيره من الملوك والملكات وأحياناً ألقابهم الإلهية. والعملات الذهبية عادة لم تكن تسك في حياة الملوك الذين تحمل صورهم. وأما العملات البرونزية فقد كانت تتميز بصور مأخوذة من الأساطير الدينية في الكثير من الحالات.^(٦)

ويعتبر الأوبول من بين أصغر الوحدات النقدية الإغريقية، وهو مشتق على الأرجح من لفظ أوبيولوس ومعناه سفود حديدي أي عود أو شيخ حديدي يشوى عليه اللحم، بينما كانت الدراخمة هي وحدة النقد

لم يكن غريباً أن يكره المصريون حكم البطالمة؛ هذا الاستعمار الذي قام بتصرفات عنصرية ضد أصحاب الأرض وحط من قدرهم. ورغم صبر المصريين فإنهم لم يدعوا فرصة للثورة على المستعمر البغيض إلا واغتموها، فقد برهنت الحوادث التاريخية على القوة الكامنة داخل هذا الشعب، وصموده أمام الصعوبات، ومثابرتة على الثورة ضد الاستعمار مرة تلو أخرى حتى يتحرر منه.^(١) وقد وقع خلاف بين المؤرخين حول أسباب ثورات المصريين ضد البطالمة، فالمؤرخين الأجانب المحدثين يرون أن دوافع الثورة المصرية كانت دوافع اقتصادية بحتة، ولم تكن دوافع قومية وطنية تحريرية تهدف لاستقلال البلاد.^(٢) وهو رأي يتسم بالعنصرية، ويقلل من وطنية المصريين ونزعتهم التحريرية. لذلك وعلى النقيض من ذلك يرى المؤرخون المصريون أن ثورات المصريين ضد البطالمة كانت تركز على عاملين لهما أقوى الأثر في كل زمان ومكان وهما الدوافع القومية والدوافع الاقتصادية.^(٣) وهذا هو الرأي الراجح، فإننا لا نستطيع استبعاد الدافع الوطني التحرري كأبرز دوافع المصريين للثورة على المستعمر البطلمي، كما إنه ليس من الموضوعية استبعاد الدافع الاقتصادي كذلك.

ومن الأمور المتعارف عليها تاريخياً أن الحكام يلجؤون لتخفيض القيمة الحقيقية للعملة، سواء بتخفيض وزنها أو بتخفيض درجة نقاء معدنها. وذلك عند مواجهتهم للأزمات الاقتصادية، أو عند عجز مواردهم عن تمويل حروبهم، أو عند تعثرهم في سداد ما عليهم من الديون. وتعرف هذه العملية باسم رفع القيمة الاسمية للعملة. وقد ورد في كتاب علم الاقتصاد المنقول عن أرسطو أن ديونيسيوس طاغية سيراكوزة اقترض من الشعب أموالاً وعد بردها إليهم، وعندما طالبوه بالوفاء بوعده أمرهم بإحضار كل ما لديهم من فضة، وعقوبة المتخلف عن ذلك هي الموت. وعندما جاءوه بالفضة قام بسك دراخمات بنصف الوزن، ليصنع من كل دراخمة دراخمتين، واستخدم تلك الدراخمات الجديدة في سداد دينه.^(٤)

قبل الناس القيم التي حددتها الدولة لعملتها.^(١١) وعلى الرغم من هذه التغيرات في الوزن، ظل تكوين السبائك للعملات الفضية لبطليموس الأول نقياً بشكل ملحوظ، مما يشير إلى أنه كان قادراً على الحصول على الفضة اللازمة للاقتصاد المصري المتنامي من خلال خفض الوزن خفضاً طفيفاً.^(١٢)

وقام بطلميوست الثاني بإجبار ممتلكاته على استعمال نظامه النقدي وعملته المصرية، فلم يسمح للمدن الإغريقية التي كانت تحت حكمه أن تبقى على عملتها المحلية، وفي الحالات الخاصة التي كان يسمح لها بذلك كان لزاماً على البلد المصرح له أن تحول عيار عملته إلى العيار الفينيقي، يضاف إلى ذلك أن هذا الحظر الذي فرضه بطلميوست على النقد قد فرض على المدن الفينيقية وفلسطين، وعلى ذلك توقف العمل بنقدهم، وكان من جراء هذه السياسة أن أصبح النقد البطلمي هو النقد الوحيد المستعمل في الأملاك البطلمية.^(١٣) كما قام بإغلاق النظام النقدي المصري، فجعل استبدال العملة الأجنبية المستوردة بعملة محلية أمراً إلزامياً، كما حظر تصدير العملة المحلية للخارج.^(١٤) إن فوائد هذا النظام واضحة فطالما أن مصر لديها شيء للتجارة، فسيكون هناك تدفق ثابت من الفضة يصل إلى دور سك العملة الملكية.^(١٥)

وهو ما يصوره لنا خطاب أرسله موظف يدعى ديمتريوس في عام ٢٥٨ ق م إلى أبولونيوس وزير المالية في عهد بطلميوست الثاني، ونقرأ فيه ما يلي:^(١٦) "من ديمتريوس إلى أبولونيوس تحياتي، أتمنى أن تكون بصحة جيدة وأمورك تسير على ما يرام. أما أنا، فأنا أعمل وفقاً لما كتبته إليّ لأهتم به، وقد تلقيت ٥٧٠٠٠ قطعة نقود ذهبية أعدت سكها وأعدتها. كان من الممكن أن نتلقى أضعافاً مضاعفة، ولكن كما كتبت إليك سابقاً، فإن الأجانب الذين يبحرون إلى هنا والتجار والوكلاء وغيرهم يحملون كلاً من العملات المحلية الدقيقة والترشريسا لكي يحصلوا على (عملات) جديدة وفقاً للمرسوم الملكي الذي يأمرنا باستلامها وإعادة سكها. [ولكن مع عدم سماح فيلاريثوس لي بقبولها] وليس لدينا أي شخص نرجع إليه، فإننا مضطرون إلى عدم قبولها." والناس منززعون لأن ذهبهم غير مقبول لا من

اليونانية الرئيسية، وتعني في الأصل ستة سفايد. لذلك كانت الدراخمة تعادل ستة أوبولات، وكان هناك أيضاً الاستاتر والذي كان يعادل أربعة دراخمات.^(١٧)

وجدير بالذكر أنه من الصعوبة بمكان التأريخ لنقود البطالمة وتصنيفها، لا سيما البطالمة الأوائل، وذلك لعدة أسباب من أبرزها ما يلي:^(١٨)

- صعوبة ترتيبها؛ إذ إنها جميعاً تحمل صورة بطلميوست الأول، ومكتوب عليها اسم بطلميوست الذي حمله جميع ملوك البطالمة.
- عدم سك العملات الذهبية والفضية التذكارية في عهد الملوك الذين تحمل العملات صورهم.
- عدم تغير شكل العملات بشكل كبير طوال فترة حكم البطالمة.
- ندرة كمية العملات التي تم العثور عليها والتي ترجع للبطالمة الأوائل.

ثانياً: النظام النقدي وأسعار القمح والأجور في عهد البطالمة الثلاث الأوائل

أسس البطالمة الأوائل نظاماً مالياً مكّن العملات المعدنية من خدمة أغراضهم السياسية، ولكن ندرة الموارد المعدنية في مصر، وخاصة الفضة، كانت تعني أنه كان من الصعب عليهم دائماً إنتاج ما يكفي من العملات المعدنية لتلبية احتياجاتهم منها. ولتعويض ذلك، بدأ بطلميوست الأول، ممارسة التلاعب بمعيار وزن عملاته المعدنية لإنتاج المزيد من العملات المعدنية، وهي الممارسة التي أصبحت أساس السياسة النقدية البطلمية.^(١٩) فقد كانت العملات في مصر في عصر الإسكندر الأكبر تسك وفقاً للمعيار الأتيكي، ولكن بطلميوست الأول قام بسك عملة فضية أخف وزناً، باتباعه للمعيار الرودسي، ثم عاد ليتخلى عنه ويستعمل المعيار الفينيقي في أواخر حكمه، وهو أخف وزناً من المعيار الرودسي.^(٢٠) وبذلك تم فصل قيمة العملات المعدنية عن محتواها المعدني ووزنه، عكس ما كان معمولاً به في السابق؛ حيث كان المعروض النقدي محدوداً بالمعروض من المعادن النفيسة، ولكن بمجرد إضعاف الرابط بين القيمة الاسمية والقيمة المعدنية، أصبح من الممكن زيادة المعروض النقدي باستمرار، طالما

قبل البنوك ولا من قبلنا ... ولا يستطيعون إرساله إلى الريف لشراء السلع، لكنهم يعتقدون أن ذهبهم خامل وأنهم يعانون من خسارة ليست قليلة، بعد أن أرسلوا في طلبه من الخارج ولا يستطيعون التصرف فيه بسهولة لأشخاص آخرين حتى بسعر مخفض. ويجد جميع الناس في المدينة صعوبة في الاستفادة من الذهب البالي. لأنه لا أحد منهم يعرف من يمكنه الرجوع إليه ويحصل مقابل أجر على ذهب أو فضة جيدة. والآن، مع الوضع الحالي، أرى أيضاً أن عائدات الملك تعاني كثيراً. لذلك كتبت هذه (الكلمات) لك فقد تعرف كيف تتمكن من الحصول على المال الذي تحتاجه. وإذا أُوحى إليك، فيمكنك أن تكتب إلى الملك بشأن هذه الأمور، وأن تخبرني أيضاً بمن يمكنني الرجوع إليه بشأن هذه الأمور. لأنني أرى أنه من المفيد استيراد أكبر قدر ممكن من الذهب من البلدان الخارجية وأن تكون عملات الملك جيدة وجديدة دائماً، دون أن يتحمل أي تكلفة. أما عن الطريقة التي يعاملنا بها بعض الناس، فليس من الجيد أن اكتبها، ولكنك ستسمعها عندما تحضر ... اكتب لي بشأن هذه الأمور حتى أتصرف وفقاً لذلك. وداعاً."

في هذه الرسالة، يكتب ديميتريوس إلى أبولونيوس، رئيسه ووزير المالية في عهد بطليموس الثاني، بشأن المشاكل التي يواجهها فيما يتعلق بالعملات المعدنية (العملات الذهبية على وجه الخصوص). ففي أواخر سبعينيات القرن الثالث (أي قبل هذه الرسالة بعقد من الزمان بقليل)، كان بطليموس الثاني قد سك سلسلة جديدة من العملات المعدنية الذهبية التي كانت أخف وزناً من العملات الذهبية القديمة من فئة كريسوي (بقيمة ١٠٠ دراخمة فضية) وتريشريسا (بقيمة ٥٠ دراخمة فضية). وقد تسببت العملات المعدنية الجديدة الأخف وزناً في حدوث بعض الارتباك بشأن أسعار الصرف بين العملات الفضية والذهبية، ولكن قبل هذه الرسالة، يبدو أن العملات الذهبية القديمة والجديدة كانتا متداولتين في نفس الوقت. وهنا يذكر ديميتريوس مرسوماً ملكياً جديداً يتطلب الآن سحب العملات الذهبية القديمة وإعادة سكها. يذكر أنه تلقى بالفعل ٥٧٠٠٠ قطعة نقود ذهبية وأعاد سكها، ويبدو أن مكتب أبولونيوس كان مكاناً معتاداً للانتقال إلى استبدال

العملات الثقيلة بالعملات الخفيفة. ومع ذلك، يشعر ديميتريوس بالحاجة إلى الكتابة إلى أبولونيوس لأن زميله فيلاريثوس يفرض الآن قبول العملات الثقيلة في المكتب لإعادة سكها. ويشير فون ريدن إلى أن فيلاريثوس ربما لم يكن متأكداً من أسعار الصرف الصحيحة بعد المرسوم الملكي الأخير (أي ما إذا كان ينبغي استبدال العملات الذهبية الثقيلة بالفضة بناءً على وزنها الفعلي أو قيمتها الاسمية) وكان ينتظر بالتالي التوجيه من أبولونيوس قبل إجراء أي تبادلات أخرى. وعندما رفض ديميتريوس وفيلاريثوس استقبال أصحاب هذه العملات الثقيلة، حاولوا استبدال أموالهم في البنوك، التي رفضتهم أيضاً، ربما بسبب نفس الارتباك وربما لأن المرسوم الملكي لم يصل إليهم جميعاً في نفس الوقت، ونتيجة لذلك وجد جميع التجار والوكلاء المختلفين الذين لديهم عملات ثقيلة أنفسهم مقيدون حتى يتم تحديد أسعار الصرف، وهي فترة انتظار كانت محبطة بوضوح. كما يناشد ديميتريوس بدافع المصلحة الذاتية للملك نحو نهاية الرسالة في طلبه توضيح هذه المسألة بشكل أفضل، مؤكداً أنه سيكون من الجيد للملك أن يدخل المزيد من المال إلى خزائنه من خلال الاستعادة وإعادة سك العملات. ويوضح الخطاب أنه في حين أن التحولات في السياسة النقدية للبطالة الأوائل أضافت إلى حجم العملات المتداولة في مصر في نهاية المطاف، إلا أن العملية لم تكن سلسلة دائماً. ولم يكن نشر المراسيم الملكية فوراً، وكان التواصل عبر رسائل مثل هذه بطيئاً للغاية وفقاً للمعايير الحديثة. ومن الواضح أن إحدى الاستجابات لعدم وجود معلومات موثوقة كانت ببساطة وقف العمل، ولكن القيام بذلك كان مرهقاً، لأن الوقت الضائع أثناء حل مشكلة أسعار الصرف وغيرها من القضايا يعني خسارة الأرباح المحتملة بينما تظل الأموال خاملة. وكان هذا سبباً في إبطاء حجم المعاملات.^(١٧)

ولما كان البطالة قد أثقلوا كاهل المصريين بالضرائب الفادحة، وقاموا بالاستيلاء على موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل، كما حصلوا على أخصب الأراضي وأوسعها، وامتدت أيديهم لداخل بيوت المصريين. وقد ضاق المصريون ذرعاً بهذا النظام الاقتصادي الجديد

أي أن بطلميوس الثالث تصدى للثورة بطريقتين الأولى هي إخماد الاضطرابات بقوة السلاح، والثانية هي اتخاذ سياسات اقتصادية عاجلة لإرضاء المصريين، وبالفعل نجح في إخماد الثورة وكسب رضا الشعب المصري.

إلا أن هناك نقطة مثيرة للاهتمام يجب مراعاتها وهي أنه حوالي عام ٢٤١ ق.م بدأ سك العملات البطلمية بشكل كبير في فينيقيا في الانخفاض، ربما لأن العملات التي تم سكها هناك كانت تستخدم بشكل أساسي للإنفاق الحربي وبما أن الحرب قد انتهت، لم يعد هناك طلب مرتفع بما فيه الكفاية على العملات مما تسبب في انخفاض مستويات الإنتاج. بالإضافة إلى أنه خلال النصف الثاني من القرن الثالث، أصبح من الصعب على البطالمة الحصول على الفضة، ويعطي هذا سبباً لاهتمامهم بآسيا الصغرى ورواسب الفضة الموجودة هناك.^(٢٣) وبالرغم من ذلك فقد كانت العملات الفضية لبطلميوس الثالث نقية، وقد يشير هذا إلى أن البطالمة لم يواجهوا أي نقص حقيقي كبير في الفضة، ويرجع ذلك على الأرجح إلى أن تبادل وإعادة تدوير العملات الأجنبية الواردة لمصر كان يلبي الطلب، يمكن أيضاً تفسير نقاء العملات الفضية كنتيجة لغنائم الفضة التي أعيدت من آسيا الصغرى بعد انتصارات بطلميوس الثالث، والتي تم دمجها في سك العملات المعدنية الجديدة.^(٢٤)

وتشير عدة برديات إلى أن سعر أردب القمح كان مستقراً خلال فترة البطالمة الثلاثة الأوائل، ودارت حول ١,١٦ دراخمة،^(٢٥) ودراخمة ونصف.^(٢٦) وكانت الأجور اليومية لفئات كثيرة من العمال عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد تتراوح ما بين نصف أوبول وأوبولين.^(٢٧) وأما عمال المهاجر فكانوا يحصلون على أوبولين ونصف الأوبول يومياً بالإضافة إلى أردب من الحبوب شهرياً، وكمية من الزيت السوري. وعندما أرسل بطلميوس الثالث إلى أهل رودس ١٠٠ بناء و٣٥٠ عاملاً، كان مخصص للعامل أجر يومي أوبولين ونصف، وللبناء أربعة أوبولات، وللمشرف ستة أوبولات. وهنا تجدر الإشارة إلى: أن عصر البطالمة كان يتسم بالقسوة ضد العمال، فكان محظوراً عليهم الاستراحة لأكثر من يوم

(الذي أسسه بطلميوس الأول)، ف وقعت في عهد بطلميوس الثاني الإضرابات بين المزارعين وقاموا بالفرار إلى المعابد للاحتباء بالآلهة. كما وقعت الاضطرابات بين المشتغلين بالصناعة والتجارة الذين كانوا يقومون بتهرب السلع وبيعها دون تصريح، وكان البطالمة يقابلون هؤلاء المتذمرين بعقوبات صارمة زادت من حدة غضب المصريين، فلم تنقطع الاضطرابات التي بدأت في عهد بطلميوس الثاني، بل ازدادت في عهد خلفاءه عنفاً وشدة.^(١٨)

اضطر بطلميوس الثالث لخوض غمار الحرب السورية الثالثة، وكالمعتاد فإن الملوك يحتاجون للمزيد من النقود لتمويل الحروب، لذلك فقد لجأ إلى زيادة الضرائب والإتاوات المفروضة على الشعب، كما لجأ لزيادة قيمة الإيجارات بشكل مجحف بالفلاحين.^(١٩)

وبالفعل تمكن بطلميوس الثالث من الانتصار، واجتاح سوريا السلوقية، وكان بمقدوره القضاء على الدولة السلوقية تماماً، ولكن في نهاية عام ٢٤٥ ق.م جاءت الأنباء سيئة من مصر تفيد بأن فيضان النيل جاء منخفضاً، مما سبب القحط والمجاعة وأدى إلى حدوث اضطراب في البلاد.^(٢٠) ونشبت أول ثورة مصرية على البطالمة في عام ٢٤٦ ق.م، ولكنها لم تتجاوز أنحاء الدلتا، ونجح بطلميوس الثالث في إخمادها بقوة الجيش.^(٢١) ولكنه في المقابل خسر ما حققته حملته العسكرية في الحرب السورية الثالثة، فقد استغل سلوقس الثاني الفرصة، وقام في عام ٢٤١ ق.م باستعادة كل ما استولى عليه بطلميوس الثالث، الذي بقيت ضمن ممتلكاته سوريا الجنوبية وتشمل فلسطين وساحل فينيقيا. وقد سارع بطلميوس الثالث إلى إقامة علاقات طيبة مع الكهنة، وحظي بعد ذلك بحب المصريين عندما أعفاهم من الضرائب المفروضة عليهم، وقام باستيراد كميات من الغلال لإنقاذ البلاد من المجاعة، واعتراضاً له بالفضل قام الكهنة في عام ٢٢٧ ق.م بإصدار قرار عُرف بقرار كانوب (نسبة إلى البلدة التي عقد فيها الاجتماع الذي صدر خلاله القرار) قدموا فيه الشكر للملك لما أظهره من عطف على شعبه ومنحوه لقب "فاعل الخير" وهو في الأصل من ألقاب الإله المحبوب أوزوريس، وتمت ترجمته في اللغة اليونانية إلى يوريجيتيس.^(٢٢)

السلوقي على الفرار من ميدان القتال.^(٢٢) عاد بطلميوس منتصراً إلى مصر، ووفقاً لمرسوم رفع، كافاً جيشه المنتصر بثلاثمائة ألف قطعة من الذهب.^(٢٣)

وعندما عاد الجنود المصريون بعد هذا الأداء المشرف، وأخذوا يباشرون حياتهم العادية، زاد شعورهم بالألم من مركزهم الوضيع في بلادهم بالنسبة للأجانب المحتلين، فهبوا ثائرين على هؤلاء المستعمرين الطغاة وكل من لاذ بهم، أو انتصر لهم، أو تخلف عن ركب الوطنية، وقد أسفرت هذه الثورة عن استقلال إقليم طيبة عن حكم البطالمة في عهد بطلميوس الخامس نحو عشرين عاماً (من عام ٢٠٦ ق.م إلى عام ١٨٦ ق.م).^(٢٤) وقد كانت هذه الثورة أخطر من سابقتها؛ لأن الجنود المصريين كانوا أفضل تدريباً وتسليحاً، ومعنوياتهم وثقتهم بأنفسهم كانت مرتفعة، فقد تأكدوا في ميدان المعركة أنهم لا يقلون كفاءة عن الإغريق.^(٢٥)

وقد حدثت هزة اقتصادية بسبب جهود الحرب ونفقاتها، وحياء "الرخاء" التي عاشها بطلميوس الرابع والثورة التي قام بها المصريون. فأصبحت الفضة نادرة، وتم استخدام البرونز بشكل أكبر وقد أوضحت "كاثرين لوربر" أن الفضة اختفت تقريباً من الخورا (القرى) في عهد بطلميوس الرابع؛ وتم استبدالها بالكامل تقريباً بالبرونز.^(٢٦) فقد استنفذت الحرب احتياطي مصر من الفضة، في وقت تعذر عليها فيه تكوين احتياطي جديد لسد حاجتها من هذا المعدن. فقد كانت تجارة مصر الخارجية هي المصدر الرئيس لما تحصل عليه من الفضة، وفي النصف الثاني من عهد بطلميوس الرابع تأثرت هذه التجارة تأثراً كبيراً بسبب اندلاع ثورة المصريين، ودخول الحرب البونية الثانية في دورها الحاسم.^(٢٧)

ووفقاً لـ "سيجري"، كان تضخم قيمة العملات مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بكل من الوضع السياسي في أواخر القرن الثالث والجهود البطلمية للحفاظ على مصر كقوة عالمية عظمى. وعلاوة على ذلك، يرتبط انحدار العملة المصرية بالسنوات التي سبقت الحرب السورية الرابعة.^(٢٨) ويخلص "ريكمائز" إلى أن بطلميوس الرابع قد ضاعف القيمة الاسمية لجميع العملات البرونزية بين ٢٢١ ق.م و٢١٦ ق.م.^(٢٩)

واحد وبدون أجر، كل عشرة أيام، وكان محظور عليهم الانقطاع عن العمل وإلا فرضت عليهم عقوبات صارمة.^(٣٠)

ثالثاً: التلاعب بقيمة العملة وثورة

المصريين في عهد بطلميوس الرابع

على عكس سياسة البطالمة الثلاثة الأوائل، قام بطلميوس الرابع بإدخال المصريين في قوات الجيش كجنود محاربين، عندما أدرك أن قواته اليونانية ليست كافية لصد الجيش الذي كان يقوم أنطيوخس الثالث بتجهيزه للهجوم على مصر. وتم تدريب عشرين ألف مقاتل مصري على فنون القتال اليونانية، وسلحهم بأسلحة يونانية.^(٣١) كان هذا أمراً غير معتاد للغاية، فبينما خدمت مجموعات مصرية (تُعرف باسم ماخيموي) ذات حجم كبير في الجيش البطلمي، إلا أنها لم تفعل ذلك إلا من حين لآخر، ولم يتم تدريبها على الطريقة اليونانية في القتال ولم يتم تسليحها بشكل مناسب.^(٣٢) لذلك فقد كان ذلك تغييراً خطيراً في السياسة البطلمية في مصر، يرجع لعدة أسباب محتملة، فربما كان ينم ذلك عن رغبة بطلميوس الرابع في استرضاء الكرامة المصرية، وإعطاء الحرب طابعاً قومياً مصرياً؛ خشية أن تتكرر ثورة المصريين على غرار ما حدث خلال الحرب السورية الثالثة في عهد بطلميوس الثالث. ولكن من المرجح أن السبب الرئيس لهذا التغيير هو ما لمس بطلميوس الرابع وسوسيبيوس من استرخاء المقاتلين الإغريق وفقد روح القتال لديهم، مع صعوبة تجنيد مرتزقة جدد من الإغريق.^(٣٣)

وفي الثاني والعشرين من يونيو ٢١٧ ق.م زحف أنطيوخس الثالث بقواته الجرارّة حتى تجاوز مدينة رفح، والتقى بالجيش البطلمي، وتمكن بقيادته لميمنة جيشه بنفسه من اجتياح سلاح الفرسان البطلمي في الميسرة التي كان يقودها بطلميوس الرابع الذي ولى الأدبار، واستمر القتال بين قوات المشاة، وفوجيء الجميع باندفاع الجنود المصريين إلى قلب المعركة وأثاروا اندهاش الجميع، لما أظهره من بسالة قتالية منقطعة النظير، فانقلبت بفضلهم موازين المعركة وتحولت الهزيمة إلى انتصار ساحق، وأجبروا جنود الجيش

التجارية في صور وصيدا). ووفقاً لكل من "موركهولم" و"كرومان" كان من المقرر أن تملأ قبرص الفراغ الذي خلفته الأراضي المفقودة.^(٤٦)

وبينما كانت الحرب السورية الخامسة جارية، كان الوضع داخل مصر نفساً يتدهور. ففي عام ٢٠٥ قبل الميلاد في طيبة، أعلن النبيل هارونوفريس فرعوناً، مما بشر ببداية أخطر ثورة أهلية ضد البطالمة. واستمرت هذه الثورة حتى عام ١٨٦ ق.م. وكانت إحدى القضايا الأكثر خطورة التي نتجت عن هذه الثورة هي أن الضرائب من طيبة، بل ومن معظم صعيد مصر، توقف تدفقها من حوالي عام ٢٠٧ قبل الميلاد ولم تستأنف حتى عام ١٩٢/١٩١ ق.م.^(٤٧) فقد استمرت الثورة في الوجه القبلي حتى عام ١٨٤-١٨٣ ق.م، وهو عام القضاء على الثورة في الدلتا، عندما استولت قوات بطليموس الخامس على مدينة سايس. وقد وصلت الوحشية بهذا الملك أنه قد أعدم زعماء الثورة، ناقضاً عهده لهم بأن حياتهم لديه في أمان.^(٤٨)

وفيما يتعلق بحالة العملات البرونزية والفضية البطلمية خلال هذه الأوقات المضطربة، فقد تم تعويض خسارة دور السك في سوريا وفلسطين، من قبل دور السك في قبرص مع بدء الإنتاج المنتظم لعملات التترادراخما من النوع البطلمي القياسي في دور السك في سلاميس Salamis. وفي عهد بطليموس الرابع بالإضافة إلى خفض قيمة العملات البرونزية المذكورة بالفعل، بدأ إصلاح آخر لوزنها (بهدف خفضه) واستمرت هذه الممارسة في عهد بطليموس الخامس. إن خفض الوزن لكلا الحاكمين هو دليل واضح على نقص الموارد والحاجة إلى استغلال الموارد الموجودة. ولعل هذا كان أكثر وضوحاً في عهد بطليموس الخامس، حيث كانت تكاليف الحرب وما ترتب عليها من خسارة الأراضي تعني خسارة الموارد. ولعل الأمر الأكثر أهمية هو حقيقة أن إحدى أكبر المقاطعات في مصر لم تدفع الضرائب الملكية لمدة ١٦ عاماً تقريباً. وإذا افترضنا أن العملات البرونزية المدفوعة كضرائب كانت تُستخدم، عند الحاجة، لإنتاج عملات معدنية جديدة محدثة، فهذا من شأنه أن يفسر سبب عدم قدرة العرض الحالي من العملات المعدنية على مواكبة الإنفاق وبالتالي كان من

وكما سبق القول، فإن رفع القيمة الاسمية للعملة يتبعه بالضرورة ارتفاع في الأسعار، وبالفعل فقد ارتفع سعر أردب القمح من دراخمة ونصف في المتوسط،^(٤٩) ليصبح سبعة درخمت ونصف الدراخمة في عهد بطليموس الرابع.^(٤١) أي إنها ارتفعت لتصبح خمسة أمثال ما كانت عليه من قبل.

وفي المقابل فقد كانت الأجور اليومية التي يدفعها أصحاب الأعمال للعاملين في خدمتهم تقدر بخمس دراخمت (أي ٣٠ أوبول)^(٤٢) في النصف الثاني من عهد بطليموس الرابع. بعد ما كانت لا تتجاوز أربعة أوبولات قبل ذلك، أي أنها ارتفعت لأكثر من سبعة أمثال ما كانت عليه في عهد بطليموس الثالث، وهو ما يعني أن الزيادة في الأجور خلال فترة حكم بطليموس الرابع كانت متناسبة مع ارتفاع الأسعار.

رابعاً: التلاعب بقيمة العملة وثورة المصريين في عهد بطليموس الخامس

توفي بطليموس الرابع في عام ٢٠٣ ق.م، وترك ابنه بطليموس الخامس طفلاً لم يتجاوز عمره السابعة. وكان من المقرر أن تتولى أمه الملكة أرسينوي الثالثة الوصاية عليه، ولكن سوسيببوس وأجاثوكليس دبوا مؤامرة أودت بحياة هذه الملكة، وأعلنوا توليها الوصاية على الملك الصغير، وادعيا أن هذه وصية الملك الراحل.^(٤٣) وهي وصية يرى كثيرون أنها موضع شك.^(٤٤) وقد امتلأ البلاط الملكي بالمؤامرات والمنكرات، واندلعت الثورة على القصر في الإسكندرية وتم قتل الوصي وأخته، وعين وصي آخر ولكن الثورة لم تنقطع عن الوجهين البحري والقبلي.^(٤٥) وخلال فترة الاضطرابات والاقتتال الداخلي بين مستشاري هذا الملك الشاب أشعل أنطيوخس الثالث من الإمبراطورية السلوقية الحرب السورية الخامسة. واستمرت الحرب حتى عام ١٩٥ ق.م عندما تم التوصل إلى السلام من خلال خطبة بطليموس الخامس الذي كان يبلغ من العمر ١٦ عاماً آنذاك وابنة أنطيوخس الثالث، حيث أقيم حفل زفافهما في رفح في عام ١٩٤ / ١٩٣ ق.م. وكجزء من تسوية السلام، تخلت مملكة البطالمة عن ممتلكاتها في آسيا، وبالتالي فقدت أراضي في آسيا الصغرى وجوف سوريا (وخاصة المراكز

من العمر ست سنوات فقط هو بطليموس السادس. وقد قبلته النخبة في الإسكندرية، وأصبحت والدته كليوباترا الأولى شقيقة الملك السلوقي الجديد وصية عليه. وعلى الرغم من وجود خطط للحرب مع السلوقيين، إلا أنه بسبب علاقتها الأسرية قررت الملكة عدم القيام بذلك. ولكن بعد أن توفيت كليوباترا في عام ١٧٦ قبل الميلاد تاركة المملكة في وضع غير مستقر مع خضوع الدولة بشكل أساسي لسيطرة الأوصياء الجدد لينيوس ويولايوس.^(٥٢) ومن أجل تأمين مكانة بطليموس السادس على العرش، وبالتالي مكانتهم الخاصة، رتبوا له الزواج من أخته كليوباترا الثانية في عام ١٧٥ ق.م. وفي غضون ذلك، تولى عرش الامبراطورية السلوقية، أنطيوخس الرابع، وهو الأخ الثاني لكليوباترا الأولى، والذي أصبح ملكاً عام ١٧٥ ق.م وبعد ذلك بوقت قصير أرسل مبعوثاً للإسكندرية لحضور مهرجان كبير هناك، وعند عودته أبلغ المبعوث الملك السلوقي أن الموقف المصري تجاه السلوقيين قد تغير بالتأكيد وأصبح عدائياً بعد موت أخته.^(٥٤)

وبالفعل اشتعلت نار الحرب في عام ١٧٠ ق.م بين بطليموس السادس والملك السلوقي أنطيوخس الرابع الذي انتصر على الملك البطلمي في بيلوزيوم، ووصل إلى منف، واستطاع أن يقبض على بطليموس السادس، فنادى السكندريون بتنصيب أخيه الصغير بطليموس الثامن ملكاً، فاستجد بروما لحمايته، ولكنها لم تتدخل لأنها كانت على وشك الدخول في الحرب المقدونية الثالثة، وأنقذت الأقدار الإلهية مصر آنذاك، لما وقعت الاضطرابات في الدولة السلوقية، واضطر أنطيوخس إلى مغادرة مصر، تاركاً وراءه فيها ملكين؛ بطليموس السادس في منف، والثامن في الإسكندرية، معلقاً الأمل في أن الخلاف بين الأخوين سيمهد له الطريق للاستيلاء على مصر في المستقبل. إلا أن أختهم كليوباترا الثانية نجحت في الصلح بينهما، واشترك ثلاثتهم في الحكم سوياً. ثم عاود أنطيوخس الرابع الهجوم على مصر في ١٦٨ ق.م، وحينئذ تدخلت الجمهورية الرومانية وأجبرته على الانسحاب من مصر.^(٥٥)

الضروري توسعتها. ربما كان تفسير آخر محتمل لانخفاض الوزن في هذا الوقت المحدد في تاريخ البطالمة هو فقدان مؤقت للوصول إلى رواسب النحاس في الصحراء الشرقية في مصر والتي كان يتم الوصول إليها عادةً من مستوطنات مثل قفط وطيبة نفسها، وهي مستوطنات كانت خارج السيطرة الملكية بسبب ثورة طيبة. إن فقدان السلطة الملكية في المنطقة كان من الممكن أن يؤدي إلى تقليص مهام الحصول على هذه الموارد من هذه المناطق، مما يقلل بشكل أكبر من قدرة الدولة على الوصول إلى النحاس. يتضح مدى خطورة هذه المشكلة من خلال انخفاض كميات النحاس والقصدير وزيادة محتوى الرصاص في العملات البرونزية مع انخفاض وزنها. بغرض زيادة كمية العملات المتاحة بهذه الطريقة، يمكن إعادة سك العملات النحاسية التي يتم جمعها كضرائب على شكل كمية أكبر من العملات المحتوية على المزيد من الرصاص والتي تم تصنيعها أيضاً أصغر وزناً وحجماً.^(٤٩)

وكان من أثر ذلك على الأسعار ارتفاع أردب القمح إلى ١٨٠ دراخمة في عهد بطليموس الخامس.^(٥٠) بعد ما كانت لا تزيد عن سبعة دراخمات ونصف في عهد بطليموس الرابع، أي أن الأسعار أصبحت تعادل ٢٤ ضعف ما كانت عليه. في الوقت الذي ارتفعت فيه الأجور على أقصى تقدير من خمسة دراخمات في أواخر عهد بطليموس الرابع إلى عشرة دراخمات في أوائل عهد بطليموس الخامس،^(٥١) ثم إلى ٣٠ دراخمة في أواخر عهده. أي أنها أصبحت تعادل ستة أمثال ما كانت عليه، وهذا أقل بكثير من معدل ارتفاع الأسعار، ويوضح شدة المعاناة التي كان يعانيها المصريون بسبب التلاعب بقيمة العملة وأثره على الأسعار في عهد بطليموس الخامس.

خامساً: التلاعب بقيمة العملة وثورة

المصريين في عهد بطليموس السادس

تسمم بطليموس الخامس على يد جنرالاته في عام ١٨٠ قبل الميلاد لأنهم اعتقدوا أنه يخطط لخفض دخلهم من أجل تمويل إعادة غزوه جوف سوريا. وهذا يعني أن العرش المصري قد ترك مرة أخرى لطفل يبلغ

سادساً: التلاعب بقيمة العملة وثورات المصريين في القرن الأخير من حكم البطالمة لمصر

خلال القرن الأخير من حكم البطالمة، تبين للشعب المصري مدى ضعف الحكومات البطلمية، وحاجة المتنافسين على العرش إلى تأييد الرأي العام لهم، مما ضيق الهوة بين وضع المصريين واليونانيين، فتمكن بعض المصريين من الوصول لمراكز لا بأس بها من الأهمية في بعض الوظائف المدنية، وكذلك في المجال العسكري. فزاد شعور المصريين بأهميتهم، وزادت رغبتهم في تحرير البلاد، واشتدت العداءة للمستعمر البغيض.^(٥٨)

١/٦- بطليموس الثامن

بعد وفاة بطليموس السادس ومقتل طفله بطليموس السابع، آل حكم مصر إلى أخيه بطليموس الثامن، وكانت سمعته سيئة إذ كان فاسداً قاسياً، وهو ما أجاج نار العداء ضده، فاشتعلت ضده الثورة في كافة أنحاء مصر، وكانت تتسم بكونها خليطاً من النزاع العائلي على الحكم، والثورة الوطنية التحررية، وبعد مشقة نجاح الملك في إخماد الثورة بكل قوة ووحشية، ثم جنح لإصدار قرارات العفو في عام ١١٧ ق.م، بهدف التهدئة.^(٥٩)

وقد أظهر تحليل "نيكولوا" للعملات الفضية في عهد بطليموس الثامن دليلاً واضحاً على التخفيض في حجم العملة، فبدلاً من نسبة نقاء السبائك البالغة ٩٩-٩٨٪ التي شوهدت في نتائج الملوك الأوائل، تنخفض هذه النسبة إلى ٩٢٪. بالإضافة إلى ذلك، بدأت مستويات النحاس داخل العملات المعدنية في الارتفاع بشكل مطرد، بمستويات تتراوح بين ٢٪ و ٧٪. وعلى الرغم من أنه لا يمكن إنكار التخفيض في هذه العملات المعدنية، إلا أنه لا يزال منخفضاً إلى حد ما بالنظر إلى التأثير المحتمل للحرب الأهلية. ولعل القضية الأكثر خطورة أثناء الحرب فيما يتصل بالعملات المعدنية كانت تأثيرها على التجارة في الإسكندرية، وذلك لأن الجزء الأكبر من الفضة المستخدمة في سك العملات البطلمية كان على الأرجح المادة التي تم استلامها من خلال العملات الأجنبية المتبادلة في الميناء. ويبدو أن مستويات التخفيض المستمرة تشير إلى أنه على الرغم من

وبناءً عليه، فقد باتت مصر البطلمية تحت حماية الجمهورية الرومانية، وهو ما أثار المشاعر الوطنية ضد القصر الملكي، فقامت الثورة في عام ١٦٥ ق.م بزعمارة ديونيسيوس بتروسابيس، الذي كان مصرياً من أفراد الحاشية الملكية. وبالفعل قاتلت جموع الثوار المحتشدة في الاسكندرية قوات بطليموس السادس، ولكن تمت هزيمة الثوار، وانتقلت الثورة إلى الوجه القبلي فانتصرت قوات الملك على الثوار أيضاً في أخميم. وعندما اشتد النزاع بين الأخوين تدخلت روما لتزيد ضعف عرش البطالمة في مصر، بتقسيمه بين الأخوين، فباركت اتفاق عام ١٦٣ ق.م لتكون مصر وقبرص من نصيب بطليموس السادس، وبرقة من نصيب بطليموس الثامن، وهكذا نجحت روما في تفكيك الحكم البطلمي لمصر، وباتت تحكم فيما ينشأ من نزاعات داخلية في مصر.^(٥٦)

لقد قامت "ديانا نيكولوا" بمناقشة دقة تأريخ عملات بطليموس السادس وتوصلت لعدم وجود دليل مباشر على تخفيض قيمة العملات الفضية خلال هذه الفترة مع بقاء نسب السبائك عند حوالي ٩٩٪. ولكن هذا ليس هو الحال بالنسبة للعملات البرونزية. فقد تم تخفيض قيمتها من خلال خفض وزنها وزيادة نسبة الرصاص فيها، وهذا ليس مفاجئاً بالنظر إلى سوء الإدارة وخسائر الحرب إلى جانب الثورات المحلية. وهنا مرة أخرى أصبحت الحاجة إلى العملات البرونزية المستخدمة لدفع الرواتب في جميع أنحاء المملكة أكبر بشكل واضح من الدخل الذي توفره الضرائب المحصلة، مما أدى إلى تخفيض قيمة العملات البرونزية مرتين، من حيث درجة نقاء المعدن والوزن. وأشارت "نيكولوا" إلى أنه في عام ١٦١/١٦٠ ق.م في ممفيس، تم استبدال التترادراخما الفضية بـ ١١٠٠ دراخمة برونزية ولكن هذا المبلغ تضاعف أكثر من الضعف إلى ٢١٣٠ دراخمة في عام ١٥٩ ق.م.^(٥٧)

دليلاً على الممارسات المستمرة منذ حكم بطليموس الثامن. ونظراً لوجود عملتين فقط، فمن الصعب جداً تحديد ما إذا كانت كمية الفضة قد انخفضت بمرور الوقت لصالح النحاس. ومع ذلك، يبدو أن هذا هو الحال بالتأكيد بالنسبة لعملات بطليموس العاشر، حيث تبلغ أعلى نسبة سبائك فضية ٩٥٪ وحيث تتراوح مستويات النحاس بين ٤٪ إلى ١٤٪. وهذا مؤشر واضح على انخفاض القيمة وأن الفضة كمورد أصبحت أكثر صعوبة في الحصول عليها. وإذا افترضنا أن غالبية الفضة المستخدمة في العملات كانت من عملات فضية أجنبية أعيد تدويرها واستخدمت بشكل أساسي في التجارة، فربما يكون أحد التفسيرات لانخفاض قيمة الفضة هو أن مستويات التجارة في هذا الوقت استمرت في الانخفاض. ويمكن تفسير ذلك بدوره، على نحو مماثل لعهد بطليموس الثامن، بالتخلي عن الأراضي الزراعية وبالتالي فقدان واحدة من أغلى السلع في مصر، الحبوب. وإذا لم يكن هناك ما يكفي من الحبوب للتجارة، فلن تذهب الفضة الكافية إلى خزائن الحكومة، مما يستلزم، على غرار البرونز، خفض جودة العملات الفضية من أجل استنزاف الموارد المتاحة. أما بالنسبة للعملات البرونزية فقد تم أخذ عينات من ثلاث عملات فقط، وبسبب عدم وجود أي تأريخ على العملات فمن الصعب نسبها إلى بطليموس التاسع أو العاشر ولكن ما لوحظ هو الزيادة المستمرة في الرصاص بكميات بلغت جميعها حوالي ٢٠٪ على عكس عهد بطليموس الثامن حيث كانت هناك عملة واحدة فقط تحتوي على مثل هذه الكمية العالية. ويمكن اعتبار هذا بمثابة إشارة إلى إضافة متعمدة للرصاص لزيادة كميات العملات البرونزية المنتجة على خلفية انكماش الدخل الضريبي نتيجة لهجر المستوطنات والأراضي الزراعية وفقدان قوريني.^(٦٣)

٣/٦-بطليموس الثاني عشر

لم يتوقف المصريون عن الثورة ضد الحكم البطلمي، بل ازدادت بسبب تدخل الجمهورية الرومانية لحماية من تراه خاضعاً لها من ملوك البطالمة. حتى اعتلى بطليموس الثاني عشر عرش مصر، وجاهر بولائه لروما،

الاضطرابات في الإسكندرية، فقد استمر النظام البطلمي، وإن لم يكن بنفس الكفاءة التي كان عليها خلال العهود السابقة. وأما في نتائج سك العملات البرونزية، فقد لوحظ إضافة الرصاص، وهو أمر غير مفاجئ نظراً للوضع في الخورا المصرية في ذلك الوقت.^(٦٠) وقد لخصه "ماكجينج" ببراعة في قوله: "إذا لم يكن المزارعون يدفعون مستحقاتهم، فإنهم أيضاً أهملوا عملهم في السدود الحيوية؛ ولم يزرعوا كما هو مطلوب؛ وكانوا يقطعون الأشجار، وكلها أمور ذات أهمية كبيرة في إدارة البلاد".^(٦١) وكان عدم دفع الضرائب يعني عدم وجود عملات برونزية كافية تذهب إلى دور السك الملكية، مما استلزم استنزاف الموارد المتاحة. وربما يفسر التخلي عن الأراضي الزراعية انخفاض قيمة الفضة، حيث وصل أهم صادرات مصر - الحبوب - إلى الإسكندرية بكميات أقل، مما أدى إلى انخفاض مستويات التجارة في هذه السلعة. وتوضح هذه الأحداث مدى الارتباط بين العملات والوضع السياسي في مصر خلال هذه الفترة الزمنية.

٢/٦-بطليموس التاسع والعاشر

توفي بطليموس الثامن في عام ١١٦ قبل الميلاد وترك عرشه لكليوباترا الثالثة ولمن اختارته من أبنائها بطليموس التاسع (الأكبر)، والعاشر (إسكندر) الذي كانت تؤثره على أخيه الأكبر، فشاعت المؤامرات في القصر، ولكن أكرهها الشعب على اختيار الابن الأكبر شريكاً لها في الحكم، وقبلت ذلك مرغمة. ولم يمض عامان حتى تجددت الثورة، وخاصة في مصر الوسطى والصعيد. وأطلق بطليموس التاسع جيشه على الثوار فحاصروهم في طيبة التي كانت معقل الثورة، وانتصر عليهم، ودمر المدينة بصورة وحشية في عام ٩٥ ق.م تقريباً.^(٦٢) وتشير "نيكولوا" إلى أن أثر الحروب الأهلية والمكائد على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر واضح في تركيب كل من العملات الفضية والبرونزية في تلك الفترة. فقد قامت بأخذ عينات من عملتين فضيتين فقط من الحكم الأول لبطليموس التاسع ولم تقم بأخذ عينات من أي عملة فضية من الحاكم الثاني. كانت درجة نقاء المعدن فيهما هي ٩٦-٩٥٪ والتي يمكن اعتبارها

والبرونزية المصرية، حيث كانت العملات الفضية، كعملة دولية، عرضة بشكل خاص لقرارات السياسة الخارجية مثل الرشاوى واسعة النطاق، في حين كانت العملات البرونزية الداخلية أكثر عرضة للاضطرابات الداخلية مثل التخلي عن الأراضي الزراعية وتقلص عائدات الضرائب.^(٦٥)

٤/٦- التلاعب بقيمة العملة في عهد كليوباترا السابعة

ترك بطليموس الثاني عشر بنتين هما كليوباترا وكانت في الثامنة عشرة من عمرها، وأرسينوي وكانت في السادسة عشرة، وولدين هما بطليموس الثالث عشر وكان في الثالثة عشرة، وبطليموس الرابع عشر وكان صغيراً. وقد أوصى بطليموس الثاني عشر بأن تخلفه كليوباترا السابعة وبطليموس الثالث عشر. إلا أن كليوباترا كانت تتطلع لحكم مصر منفردة، ومن هنا نشأ النزاع على العرش، وفي بداية الأمر انحاز المصريون لبطليموس الثالث عشر متعاطفين معه ضد طمع أخته وسعيها لاغتصاب العرش من أخيها، فثاروا عليها، وخرجت من الإسكندرية لتدبر المؤامرات لانتزاع الملك لنفسها، وبالفعل كونت جيش من البدو المتاخمين للحدود الشرقية لمصر، بهدف دخول مصر على رأس هذا الجيش، وكان أنصار الملك الصغير قد اجتمعوا ليصدوها. وفي صيف عام ٤٨ ق.م تواجه الجيشان بالقرب من بيلوزيوم. وفي نفس العام وصل يوليوس قيصر إلى الإسكندرية متعقباً خصمه بومبي والذي كان قد قُتل قبالة شاطئ بيلوزيوم قبل ذلك بفترة وجيزة. وعلى عكس ما ظن أنصار بطليموس الثالث عشر، فإن يوليوس قيصر لم يغادر الإسكندرية، بل مكث فيها، واتخذ من قصر البطالمة مسكناً له، وكان ذلك بمثابة اعتبار مصر ولاية رومانية. فأصدر الأوامر لكل من كليوباترا وأخيها بتسريح جيشهما، والحضور إلى الإسكندرية ليفصل في النزاع بينهما، وفقاً لوصية أبيهما. وبالفعل نجح ظاهرياً في التوفيق بينهما. إلا أن أخيلاس قائد الجيش البطلمي ونصير بطليموس الثالث عشر ضد كليوباترا قام بمباغثة قوات يوليوس قيصر الذي لم يكن لديه قوة كافية لصد هذا الهجوم المفاجيء. وعندما وصل إليه المدد نجح في التغلب على الجيش

وطلب منها تثبيتته على العرش. فذهب إلى روما في عام ٥٨ ق.م وظل هناك حتى عام ٥٥ ق.م، ونجح في شراء ذمم رجال السياسة في روما لتأييده، وزاد من ضغطه على المصريين واستنزافه لهم، ليتمكن من سداد ديونه للمرابين الرومان. وترك وصيته بأن يخلفه على العرش أكبر أولاده، وهما كيلوباترا السابعة بالاشتراك مع أخيها بطليموس الثالث عشر. ولعدم ثقته في تنفيذ المصريين لهذه الوصية، بسبب كراهيتهم له، فقد عهد بها إلى الجمهورية الرومانية للإشراف على تنفيذها. وهو ما يعتبر اعترافاً منه بحماية روما لمصر. وتوفي بطليموس الثاني عشر في عام ٥١ ق.م، محترقاً من المصريين والرومان معاً.^(٦٤)

وعلى الرغم من أن بطليموس الثاني عشر تمكن من الحفاظ على سيادة مملكة البطالمة، فإن سياسته في الرشوة وتكديس الديون، فضلاً عن اعتماده على روما، كانت بداية النهاية لسلالة البطالمة. ويتضح الوضع المالي المروع من خلال تركيبة العملات الفضية التي يرجع تاريخها إلى عهده. فمن بين العملات الفضية الخمس التي تم أخذ عينات منها وتحليلها، فإن عملة واحدة فقط تحتوي على نسبة سبائك فضية تزيد عن ٩٠٪، بينما تقل النسبة في البقية عن ٧٥٪، حيث وصلت أدنى نسبة إلى ٤٥٪، مع نسبة نحاسية تبلغ ٥٥٪. وهذا تخفيض واضح يهدف إلى استبدال الفضة بالنحاس وكان من الواضح أنه نتيجة مباشرة للسياسات الاقتصادية السيئة التي انتهجها بطليموس الثاني عشر. ومن الواضح أنه على الرغم من السلع المعروضة في الإسكندرية، كانت حاجة الملك أكبر بكثير من الدخل الذي يمتلكه مما أجبره على تقليل محتوى الفضة في العملات المعدنية التي تم سكها حديثاً بسرعة. إن هذا التخفيض كان مرتبطاً على الأرجح بالتاريخ، فكلما تأخر تاريخ العملات في عهده، كلما قل محتوى الفضة في تركيبها. وربما يمكن ربط ذلك بين الإفراط في اقتراض بطليموس الثاني عشر وانخفاض محتوى الفضة. واتبعت العملات البرونزية نفس النمط الذي كان سائداً في الأوقات السابقة من حيث تناقص الحجم وزيادة محتوى الرصاص، والذي بلغ في الغالب نحو ٢٠٪. وهذا يؤكد على الطبيعة الثنائية للعملات الفضية

الرصاص، ولكن ما يُلاحظ هو أنه بناءً على ما قدمه لوربر عن العملات البرونزية المُصلحة، فإنها تحتوي، لأول مرة منذ عهد بطليموس الرابع، على قيم قصدير تزيد عن ٩٪، مما يوضح بوضوح هذا الإصلاح. ولعل ما يفسر الكميات العالية المتبقية من الرصاص هو حقيقة مفادها أنه على الرغم من هذا الإصلاح، وربما إضافة موارد جديدة، فإنها لم تكن كافية لإحياء ودعم نظام يعتمد بشكل كبير على العملات المتدهورة لفترة طويلة من الزمن.^(٦٨)

ونتيجة لذلك فقد ارتفع سعر أردب القمح ليصبح ٣٠٠ دراخمة في عام ١٨٦ ق.م، أي في بداية عهد بطليموس السادس.^(٦٩) وتشير الوثائق البردية المختلفة من حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إلى ارتفاع سعر أردب القمح إلى ٥٠٠ دراخمة في عام ١٦٢ ق.م،^(٧٠) ثم إلى ٩٠٠ دراخمة في عام ١٥٩ ق.م،^(٧١) ثم إلى ١٠٠ دراخمة في عام ١١٨ ق.م،^(٧٢) وتدل الوثائق أن التدهور قد استمر حتى وصل سعر أردب القمح في القرن الأخير لحكم البطالمة إلى ٢٠٠٠ دراخمة.^(٧٣) أي أن سعر أردب القمح أصبح يعادل حوالي ٢٦٦ ضعف ما كان عليه في عهد بطليموس الرابع.

وفي المقابل فقد ارتفعت الأجور اليومية التي يدفعها أصحاب الأعمال للعاملين في خدمتهم بما لا يتجاوز ٨٠ دراخمة في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد،^(٧٤) وبما لا يتجاوز ١٢٠ دراخمة في القرن الأخير من حكم البطالمة.^(٧٥) أي أن الأجر اليومي أصبح يعادل حوالي ٢٤ ضعف ما كان عليه في عهد بطليموس الرابع.

وبمقارنة بسيطة بين معدل ارتفاع أسعار القمح منذ عهد بطليموس الرابع وحتى القرن الأخير من حكم البطالمة، والبالغ حوالي ٢٦٦ ضعف، ومعدل ارتفاع متوسط الأجور البالغ ٢٤ ضعف، يتبين لنا بكل وضوح أن الأسعار كانت ترتفع بنسبة أعلى بكثير من ارتفاع الأجور، وهو ما يعني تدهور مستوى معيشة المصريين، وازدياد شدة معاناتهم من الفقر، الذي كانوا يعانون منه أصلاً منذ بداية العهد البطلمي.

لذلك فقد كانت عواقب التضخم البطلمي وخيمة، فقد أدى لحدوث الاضطرابات الاجتماعية واندلاع الثورات الشعبية عدة مرات، كما أدت الاضطرابات

البطلمي، ومات بطليموس الثالث عشر غرقاً أثناء الانسحاب. وانفردت كليوباترا بحكم مصر معتمدة على سلطة يوليوس قيصر، الذي أنجبت منه فيما بعد قيصر، وسافرت به إلى روما، ومكثت هناك إلى أن لقي يوليوس قيصر مصرعه في عام ٤٤ ق.م، فعادت إلى مصر، وتسببت في الكثير من الاضطرابات بسبب سلوكها وطمعها، حتى تمت هزيمة قواتها المساندة لقوات أنطونيوس في معركة أكتيوم البحرية في عام ٣١ ق.م، ثم انتحر أنطونيوس وانتحرت كليوباترا في عام ٣٠ ق.م، وكان انتحارها هو نهاية الدولة البطلمية.^(٦٦)

ربما لا تكون الصورة الاقتصادية لهذه الفترة واضحة مثل الأوقات السابقة، نظراً لاستعادة كليوباترا بعض الأراضي، ولكن في نفس الوقت كانت الخسائر المالية مستمرة والتي تكبدتها كليوباترا من الدعم المستمر للحملات العسكرية لأنطونيوس. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك قضايا بيئية ومجاعات، والتي من شأنها أن تسبب المشاكل سواء فيما يتعلق بإطعام السكان أو تأمين السلع الكافية للتجارة وأيضاً مشاكل تتعلق بإخلاء القرى وتراكم الضرائب غير المدفوعة. إن العملات الفضية لكليوباترا أكثر تدهوراً من تلك التي كانت في عهد بطليموس الثاني عشر: من بين العملات المعدنية السبع التي أخذت "نيكولوفاً" عينات منها وتحليلها من هذا العهد، فإن عملة واحدة فقط بها نسبة سبائك فضية تزيد عن ٧٠٪، أما العملات الخمس المتبقية فجميعها في حدود ٣٠٪ وبالتالي فإن العنصر التركيبي السائد في هذه العملات هو النحاس وليس الفضة. وهذا بالطبع ليس مفاجئاً نظراً لأن الملكة ورثت عملات فضية منخفضة القيمة بشكل كبير، فضلاً عن اقتصاد غير مستقر للغاية، لذا على الرغم من أنها استعادت بعض الأراضي، ومن المرجح أن تكون قد حصلت على غنائم نتيجة لذلك، فإن نفقاتها لم تتخفف بأي حال من الأحوال. على العكس من ذلك، نظراً للحملات التي خاضتها هي وأنطونيوس. وفيما يتعلق بالعملات البرونزية، يذكر "لوربر" أنه كان هناك إصلاح برونزي يهدف إلى "إحياء الفئة المتوسطة الحجم" وتحسين الصنعة بشكل كبير.^(٦٧) ومع ذلك، من الناحية التركيبية، احتفظت العملات المعدنية بكميتها العالية من

الإحالات المرجعية:

- (١) عبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة** (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧)، ص ١٦٦، ١٧١، ١٧٧.
- (٢) الحسين أحمد عبد الله، **مصر والشرق الأدنى في العصر الهلنستي** (الطبعة الأولى، القاهرة: عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٥)، ص ١٣٦.
- (٣) إبراهيم نصحي، **تاريخ مصر في عصر البطالمة** (الطبعة السادسة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨)، الجزء الرابع، ص ١٨٠، ١٨١.
- (٤) Pseud-Arit., *Oecon.* II, 2, 20.
- (٥) فيكتور مورجان، **تاريخ النقود**، ترجمة نور الدين خليل (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣)، ص ١٨.
- (٦) إبراهيم نصحي، **تاريخ مصر في عصر البطالمة** (الطبعة السادسة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨)، الجزء الثالث، ص ٧٥.
- (٧) فيكتور مورجان، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٤.
- (٨) عزت زكي حامد قادوس، **العملات اليونانية والهلينستية** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٨)، ص ٢٠٠.
- (٩) Brittany Hayden, "Price Formation and Fluctuation in Ptolemaic Egypt", A DISSERTATION SUBMITTED TO THE FACULTY OF THE DIVISION OF THE HUMANITIES IN CANDIDACY FOR THE DEGREE OF DOCTOR OF PHILOSOPHY, The University of Chicago, June 2018. P183.
- (١٠) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة** (الجزء الرابع عشر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠)، ص ٥٤٣، ٥٤٤.
- (١١) Brian Muhs, "Money, coinage, and the ancient Egyptian economy" *Oriental Institute News and Notes* 233 (Spring 2017): 4-9.
- (١٢) Diana Teodorova Nikolova, "Debasement and Currency Fluctuations in Hellenistic Egypt: Compositional Analysis of Ptolemaic Silver and Bronze Coinage" Thesis submitted in accordance with the requirements of the University of Liverpool for the degree of Doctor in Philosophy, 2021. P. 167.
- (١٣) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة** (الجزء الرابع عشر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠)، ص ٥٥٢.
- (١٤) آلان بومان، **مصر ما بعد الفراعنة: من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي**، ترجمة السيد جاد وآخرون (الإسكندرية: بدون ناشر، ٢٠١٣)، ص ١٢٢.
- (١٥) Jenkins, G. 'The Monetary Systems in the Early Hellenistic Time with Special Regard to the Economic Policy of the Ptolemaic Kings' in A. Kindler (ed.), *Proceedings of the International Numismatic Convention*, Jerusalem 1963. Tel Aviv: Schocken. P. 64.
- (١٦) P. Cairo Zenon I, 59021.

الاقتصادية إلى إعاقه التجارة والاستثمار، وهو ما كان يدفع لإجراء المزيد من التخفيض في القيمة الحقيقية للعملة، وحدوث ارتفاعات جديدة في الأسعار، فيزيد الطين بلة، وهكذا كانت هناك علاقة تبادلية بين تخفيض قيمة العملة، وثورات المصريين ضد البطالمة.

خاتمة

اتضح من خلال هذه الدراسة أن البطالمة قد اتبعوا سياسة نقدية قائمة على تخفيض قيمة العملة، من خلال خفض وزنها، أو خفض درجة نقاء المعدن المسكوكة منه أو كلاهما معاً. وقد ارتبطت الاضطرابات الداخلية، مثل الثورات المحلية، والحروب الأهلية، والعوامل البيئية، مثل الجفاف والمجاعة، ارتباطاً وثيقاً بالتغيرات التركيبية للعملات البرونزية من حيث تخفيض درجة نقاء المعدن بزيادة نسبة الرصاص وتخفيض نسبة النحاس، فضلاً عن تخفيض وزن الدراخمة البرونزية، وكان تخفيض نسبة النحاس في الدراخمة البرونزية يرجع للرغبة في استخدامه في تخفيض درجة نقاء الدراخمة الفضية بإضافته للدراخمة الفضية، وقد ارتبط تخفيض قيمة العملات الفضية بشكل أساسي بالقضايا الخارجية مثل خسائر الحروب وفقدان الأراضي الخارجية.

وقد نتج عن سياسة البطالمة في تخفيض قيمة العملات في مصر، حدوث تضخم في الأسعار وخصوصاً منذ عهد بطلميوس الخامس، والتي اشتدت بشكل كبير في القرن الأخير لحكم البطالمة، وهذا الارتفاع الكبير في الأسعار زاد من معاناة المصريين وفقيرهم، وهو ما يمكن اعتباره أحد أهم الأسباب الاقتصادية لانفجار المصريين بالثورات ضد البطالمة.

- (47) McGing, B.C. 1997. 'Revolt Egyptian Style: Internal Opposition to Ptolemaic Rule'. Archiv für Papyrusforschung und verwandte Gebiete, 13. pp. 285-288.
- (٤٨) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٨٣.
- (49) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit. P. 175-176.
- (50) P.Koln 5 217,8.
- (51) P. Tebt. 885,III.
- (٥٢) أبو اليسر فرح، **مرجع سبق ذكره**. ص ٧٣.
- (53) Walbank, F. W. 1979. A Historical Commentary on Polybius III. Clarendon Press, Oxford. P. 323.
- (54) Hölbl, G. 2001. A history of the Ptolemaic Empire. Routledge, London. PP. 143-145.
- (٥٥) أبو اليسر فرح، **مرجع سبق ذكره**. ص ص ٧٣-٧٥.
- (٥٦) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ص ١٨٤، ١٨٥.
- (57) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit. pp. 178, 179.
- (٥٨) هارولد إدريس بل، **الهيلينية في مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي**. ترجمة الدكتور زكي علي (القاهرة: دار المعارف بمصر، بدون تاريخ) ص ٨٣.
- (٥٩) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ص ١٨٤، ١٨٥.
- (60) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit. pp. 183, 184.
- (61) McGing, B.C. OP.Cit.. p. 296.
- (٦٢) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٨٥.
- (63) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit. pp. 186, 187.
- (٦٤) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٨٦.
- (65) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit. pp. 189.
- (٦٦) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٨٧-١٩٢.
- (67) C. Lorber, OP.Cit. pp.146, 147.
- (68) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit. p. 192.
- (69) P.Heid. 8 412, 13-14. (186 B.C.)
- (70) P.Tebt. 910,III
- (71) U.P.Z. 69
- (72) Grenf.I
- (73) P. Tebt. 109, I
- (74) P. Tebt. 893, III.
- (75) P. Tebt. II
- (17) Von Reden, "Money in Ptolemaic Egypt: From the Macedonian Conquest to the End of the Third Century BC". Cambridge: Cambridge University Press, 2007. P. 46-48.
- (١٨) إبراهيم نصحي، **تاريخ مصر في عصر البطالمة** (الطبعة السادسة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨)، الجزء الرابع، ص ص ١٨٠، ١٨٢.
- (١٩) عبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة** (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧) ص ١٧٩.
- (٢٠) أبو اليسر فرح، **الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والروماني** (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٥) ص ٥٩.
- (٢١) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٧٩.
- (٢٢) أبو اليسر فرح، **مرجع سبق ذكره**. ص ٥٩.
- (23) Jenkins, G. OP.Cit. P. 65.
- (24) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit., P. 170.
- (25) P. Lond. 1974.
- (26) P. Cairo. Zen.V. 59698.
- (27) P. Cairo. Zen,II, 59176.
- (٢٨) إبراهيم نصحي، **مرجع سبق ذكره**. الجزء الثالث، ص ٣٧.
- (٢٩) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٨٠.
- (30) Goudriaan, K. Ethnicity in Ptolemaic Egypt. Amsterdam, 1988. Pp. 121-125.
- (٣١) إبراهيم نصحي، **مرجع سبق ذكره**. الجزء الرابع، ص ١٨٥.
- (٣٢) أبو اليسر فرح، **مرجع سبق ذكره**. ص ٦٣.
- (33) Diana Teodorova Nikolova, OP.Cit., P. 172.
- (٣٤) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٨١.
- (٣٥) إبراهيم نصحي، **مرجع سبق ذكره**. الجزء الرابع، ص ١٩٠.
- (36) C. Lorber, "Overview of Egyptian Silver Hoards under the First Five Ptolemies," in Egyptian Hoards I: The Ptolemies, eds. Thomas Faucher, Andrew Meadows, and Catherine Lorber (Paris: IFAO, 2016), 35- 40.
- (٣٧) إبراهيم نصحي، **مرجع سبق ذكره**. الجزء الثالث، ص ص ٩٤، ٩٥.
- (38) Segre, A. 1942. 'The Ptolemaic Copper Inflation, CA. 230-140 B.C.'. American Journal of Philology, 63. P. 190.
- (39) Reekmans, T. 1951. 'The Ptolemaic Copper Inflation'. Studia Hellenistica, 7. P. 67.
- (40) P. Cairo. Zen,III, 59499.
- (41) U.P.Z., 149.
- (42) P. Tebt.III, 884.
- (٤٣) أبو اليسر فرح، **مرجع سبق ذكره**. ص ٦٦.
- (44) Polyb. XV. 25. 3-11.
- (٤٥) عبد الرحمن الرافعي، **مرجع سبق ذكره**. ص ١٨٢.
- (46) Mørkholm, O. and Kromann, A. 1984. 'The Ptolemaic Silver Coinage on Cyprus, 1921/1 – 164/3 B.C.'. Chiron 14. pp. 149-173.

الوجود البشري في السودان وتطوره الحضاري حتى نهاية المجموعات الحضارية

د. الباقر بدوي عمر الشيخ

مدير الإدارة العامة
للسياحة والآثار بولاية النيل الأبيض
جمهورية السودان

د. صديق مهدي عبد الرحمن

أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة
كلية الآداب – جامعة بخت الرضا
جمهورية السودان

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الحضاري للوجود البشري في السودان، مع تتبع تطور هذا الوجود منذ العصور الحجرية القديمة حتى المجموعات الحضارية المختلفة التي نشأت في السودان. وتعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي المقارن، مع التركيز على تحليل المصادر الأثرية والتاريخية التي تسلط الضوء على الفترات الأولى لتاريخ السودان. لقد استهدفت الدراسة بشكل خاص مواقع الآثار المكتشفة في مختلف مناطق السودان، مع التركيز على الأدوات الحجرية والفخارية التي استخدمها الإنسان السوداني في تلك الحقبة، مما يعكس التطور الثقافي والاقتصادي له. كما تناولت الدراسة تطور الحضارة السودانية من خلال استعراض حضارات العصر الحجري القديم، العصر الحجري الحديث، وحضارات المجموعات المتعاقبة. توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج المهمة، أهمها: وجود العديد من المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات ما قبل التاريخ، واستخدام الإنسان السوداني لأدوات حجرية وفخارية تشير إلى تطوره التدريجي في مجالات الحياة المختلفة. كما أكدت الدراسة على التكامل الحضاري الذي شهدته المنطقة منذ العصور القديمة، بالإضافة إلى أن الدراسات الحديثة تواصل اكتشافات جديدة تضيف إلى معرفتنا حول تلك الحضارات. أما بالنسبة للتوصيات، فتدعو الدراسة إلى تعزيز جهود البحث والتنقيب في المناطق الأثرية السودانية، وتوثيق النتائج في المتاحف السودانية والدولية لضمان الحفاظ على هذا التراث الحضاري الهام. كما تشير إلى أهمية دعم الدراسات الأكاديمية في مجال تاريخ السودان القديم لتوفير المزيد من الفهم والوعي حول الدور الحضاري الذي لعبه الإنسان السوداني في تشكيل التاريخ الإنساني.

كلمات مفتاحية:

حضارات السودان القديم؛ تاريخ السودان القديم؛ الإنسان السوداني؛
المجموعات الحضارية؛ التاريخ السوداني

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٣ مارس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.452708

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

صديق مهدي عبد الرحمن، الباقر بدوي عمر الشيخ. "الوجود البشري في السودان وتطوره الحضاري حتى نهاية المجموعات الحضارية". دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون؛ سبتمبر ٢٠٢٥. ص ٢٩ - ٣٨.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: siddig527@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يزخر السودان بموروثه الحضاري الضارب الجذور في القدم، حيث لازالت الآثار والمواقع الأثرية الخالدة منتشرة في كل ربوعه، بعصور ما قبل التاريخ ومروراً بالمجموعات الحضارية، والتي تقف جميعها دليلاً وشاهداً على استمرارية الحضارة السودانية دون انقطاع، وكل هذه الفترات التاريخية المتعددة لها مجاميع متحفية ومجموعات فنية. إن أكثر الكائنات الحية إحساساً بمرور الزمن هو الإنسان، وهذا ما يفسر حنينه الدائم للماضي وحديثه المستمر عنه ورغبته الشديدة في المحافظة على الإرث الثقافي والتعريف به، وتبدو له آثار الماضي الحضاري ككنوز لا مثيل لها، فيجد نفسه ملتزماً بموجب احترام منجزات الآباء والأجداد بالمحافظة على الموروث الثقافي. والإنسان السوداني لا يخرج عن هذا لذا وجب عليه الاهتمام بحضارات السودان والتعريف بها من خلال طرائق عرضها وإدارتها إدارة سليمة رشيدة فعالة لما تلعبه من دور هام في المحافظة على هذا التراث الحضاري.

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الحضاري للوجود البشري في السودان وتتبع التقدم الثقافي له في مرحلته الأولى. وتكمن أهمية هذه الدراسة في تبيان الاثر الحضاري البشري في لفترات الأولى من تاريخ السودان القديم. وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي المقارن بالاعتماد على المصادر والمراجع المهتمة بدراسة تاريخ الحضارة السودانية.

أولاً: العصر الحجري القديم

وفي هذه الدراسة نحاول أن نلقي بعض الضوء على الأساس الحضاري الذي قامت به حضارات السودان القديم، تبدأ هذه الدراسة بمبحث أول يحتوي على دراسة وصفية لحضارات العصر الحجري القديم في السودان، وقبل ذلك يجب أن نوضح أن هذه الفترة بالذات ما زالت الأبحاث فيها في طور النمو كما أن الحفائر تعطينا كل يوم مادة جديدة تصح بعض أفكارنا وتملاً الكثير من الثغرات. حتى الآن تتفق الأبحاث الأثرية التي تمت في أنحاء مختلفة من السودان على أن أقدم حضارات السودان الحجرية أقامها أقوام من

العنصر الزنجي الذي يختلف عن أي من العناصر الموجودة حالياً بالمنطقة، وقد اكتشف عالم الآثار أركل^(١) مخلفات حضارية للعصور الحجرية القديمة وأهمها ما عُثر عليه من أدوات، كان أوضحها ذلك السلاح المعروف بالفأس اليدوية في الموقع المعروف باسم خور أبو عنجة (Khur Abu Anga) ويقع في مدينة أمدرمان بالضفة الغربية للنيل،^(٢) على بعد كليومتر واحد من مكان التقاء النيل الأبيض بالأزرق، هناك عُثر على أدوات من العصر الحجري القديم الأسفل بنوعيه الشيلي والأشولي، وهما أقدم أزمنة العصر الحجري القديم على التوالي، كما عُثر على أدوات ترجع إلى تاريخ يسبق الحضارة النيلية.

وفي مكان آخر يسمى وادي سيرو (Wadi Sero) يقع غرب النيل أيضاً على بعد ٢٤ كم شمال أمدرمان عُثر على أدوات من العصر الأشولي المتأخر، كما عُثر أيضاً على مصنوعات أشولية في وادي عفو (Wade Afu) الذي يقع إلى الجنوب من أمدرمان بحوالي ٨٠ كم غرب النيل الأبيض، يعتبر هذا الموقع أقصى نقطة جنوباً يُعثر فيها على آثار تنتمي إلى العصر الحجري القديم في الحدود الجنوبية للسودان، أما غرباً فتعد مدينة الفاشر أقصى نقطة وجدت فيها آثاراً للعصر الحجري القديم داخل حدود السودان، حيث عُثر على بعض الآثار على سطح الأرض في الفاشر، وهي موجودة حالياً في متحف أكسفورد بإنجلترا، لكن يشكك بعض العلماء في انتمائها أصلاً للفاشر.

وفيما يتعلق بمنطقة النيل الأزرق فقد عُثر عند مدينة سنجة (Singa) في مطلع عام ١٩٢٤ على جمجمة لإنسان وبعد فحصها تبين أنها تنتمي إلى نوع قديم من إنسان من جنس (Proto-bubman)، وتعد هذه الجمجمة من أقدم المخلفات البشرية التي تم العثور عليها في السودان على الإطلاق، وقد دلت الأبحاث على أن ذلك النوع من البشر عاش في الفترة الأخيرة بين العصر الحجري القديم الأسفل والعصر الحجري القديم الأعلى، والملاحظ أن مخلفات ذلك الإنسان في كل من سنجة وأبو حجار (Abu Hugar) التي تقع إلى الجنوب منها، حيث أنه على عمق ٨,٤٠٠ متراً من سطح الأرض نجد أن التربة تخلو من مخلفات إنسان العصر الحجري القديم حيث يندر فيها ظهور الفأس اليدوية

قطع تمثل السلاح المعروف بالفأس اليدوية. كما أن هناك أماكن أخرى عديدة مثل وادي القعب (Gaab) الذي يقع بالقرب من دنقلا على الضفة النيل الغربية، ثم وادي الخور في الضفة الشرقية للنيل، وفي جزيرة صاي وعبري (Abri). أما المنطقة الصخرية المعروفة باسم (بطن الحجر) فلم تمدنا بأي آثار من العصر الحجري القديم الأعلى، هذا إذا استثنينا واحة سليمة التي تقع إلى الغرب من النيل على مسافة بعيدة حيث عُثر فيها على آثار أشولية وشيلية متأخرة، أيضاً عُثر بالقرب من وادي حلفا على مخلفات ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى.

ثانياً: حضارة العصر الحجري الحديث في السودان

عُثر على أحد أهم مراكز العصر الحجري الحديث الحضارية في موقع الشهياناب في الضفة الغربية للنيل على بعد حوالي ٤٨ كم شمال أمدرمان، تتميز تلك الحضارة بأنواع الفخار الأسود أو ذو الحافة السوداء، لكن لم يتم العثور على مدافن لأصحاب تلك الحضارة سواء داخل المساكن أو بعيداً عنها، وبسبب عدم توفر المادة الأنثروبولوجية لا يمكن الجزم إن كان أصحاب حضارة العصر الحجري الحديث من نفس عنصر أصحاب حضارة العصر الحجري القديم أصحاب الحضارة السابقة، أم أنهم من العنصر الأسمر (Brown race)، وعلى أي حال فإن المخلفات الأثرية تدل على أن إنسان العصر الحجري الحديث بالسودان قام بتطوير أدواته واستعمل الكثير من حُلَى الزينة. يعتقد أن إنسان العصر الحجري الحديث في الشهياناب قد استطاع أن ينتقل عبر النيل بما يشبه القوارب البسيطة التي ربما استعملها أيضاً للصيد، ولم يُعثر على أي شواهد تبين معرفة إنسان ذلك العصر لمبادئ الزراعة على الرغم من معرفته لاستئناس بعض الحيوان وتدل المخلفات الحيوانية أن الطقس قد بدأ يتغير عن العصر السابق.

تتتمي لتلك الحقبة من العصر الحجري الحديث الكثير من النقوش الصخرية التي عُثر عليها في العديد من مواقع الصخور في النوبة، والجدير بالملاحظة أن الكثير من مظاهر حضارة العصر الحجري الحديث

وقد وضعها (Arkell) في الفترة الواقعة بين العصر الحجري القديم الأسفل وبين بداية العصر الحجري القديم الأعلى (الصناعة الشيلية). كان إنسان ذاك العصر صياداً يعيش على صيد البر والبحر وعلى ما يجمعه من ثمار الأشجار، فلم توجد أي مخلفات تدل على معرفة الزراعة أو لاستئناس الحيوان.

خلال فترة العصر الحجري القديم كانت الصحراء الحالية تمتلئ بالحياة النباتية والحيوانية^(٣) فقد أثبتت الاكتشافات الجيولوجية التي قامت بها البعثات الحديثة في بلاد النوبة أن النيل قبل أن يشق مجراه الحالي في هضبة النوبة منذ حوالي ٥٠,٠٠٠ سنة كانت له عدة فروع داخل الصحراء، وعلى طول تلك المجاري المائية القديمة عاش إنسان العصر الحجري وعُثر على آثار حضارية تنتمي إلى ذلك العصر على مسافة ٢٠ ميلاً داخل الصحراء، ففي حدود حوالي ١٠,٠٠٠ ق.م ازدادت نسبة الأمطار التي كانت تسقط على منطقة النوبة مما هباً الجو المناسب لحياة العديد من الحيوانات الضخمة كأفراس النهر والفيلة والزراف ولا بد وأن تلك الصور والرسوم الصخرية المنتشرة على صخور النوبة تعد تسجيل قام به إنسان ذلك العصر لما حوله من طبيعة. كما اهتم إنسان العصر الحجري القديم بدفن موته بالقرب من مساكنه ووضع معهم ما ظن أنه يعينهم على حياة ما بعد الموت من متاع وأسلحة حسب اعتقاداته الدينية. وقد لوحظ أن السكاكين ورؤوس السهام الحجرية المستعملة كانت من نوع يشبه ما كان موجوداً في شمال الودادي في العصر الحجري القديم الأعلى، وأيضاً استعمل خطاف لصيد الأسماك.

أما المواقع شمال الخرطوم التي وجدت فيها آثاراً تنتمي للعصر الحجري القديم فهي ملتقي خور الهودي مع نهر عطبرة (قبل التقائه بالنيل بحوالي ١٦ كم)، حيث إنه على بعد ٣ كم تقريباً من نقطة التقاء الهودي مع العطبرة عثر على آثار أشولية وشيلية، ثم وبالقرب من الشلال الخامس عند وادي الشيخ هلال شمال جبل النخرة وجدت آثار أشولية وشيلية، أيضاً على قمة جبل نوري (Nuri) جنوب الشلال الرابع عُثر على آثار من الحضارة الأشولية والشيلية، كذلك بالقرب من تنقسي (Tangasi) جنوب نوري أيضاً عُثر على آثار عبارة عن

في مصر (٣٠٠٠ - ٢٩٠٠ ق.م). ونجد أن سمات حضارة المجموعة الأولى في شمال السودان وفي النوبة المصرية تظهر بوضوح منذ وقت ما قبل عصر توحيد شطري شمال الوادي وتكوين حكومة متحدة تحت زعامة أول ملوك الأسرة الأولى، كما يبدو في ذلك الوقت أن بلاد النوبة قد وفد عليها أقوام جدد قادمون من الشمال لا يختلفون كثيراً عن العنصر البشري الذي كان موجوداً في مصر والمنتمي إلى ما قبل الأسرات من حيث العنصر البشري وسمات الحضارة. أخذت حضارة المجموعة الأولى تزدهر في أقاليم النوبة أيام الأسرة الأولى في مصر بعد أن كانت النوبة تفتقر كثيراً للعنصر البشري ويبدو ذلك بوضوح في عدد ومحتوي الجبانات التي تنتمي إلى عصور أقدم. وأهم ما يميز حضارة المجموعة الأولى أنواع الفخار الذي عُثر عليه مع الدفقات، ومنها القدور الكبيرة ذات اللون الأحمر الفاتح (الوردي) والأواني الصغيرة ذات الحليات التي تعتبر تقليداً للسلال النباتية، وكان دفن الموتى يتم بوضع المتوفى إما في حفرة بوضعية أو يضاف لتلك الحفرة حفرة أخرى جانبية تشبه الكوة الكبيرة يتم وضعه فيها، وتكون حفرة الدفن على عمق قد يبلغ ١,٣٠ متر^(١) ويرقد الميت في وضع القرفصاء على جانبه الأيمن ويكون الرأس ناحية الغرب، وكما هو الحال في مقابر ما قبل الأسرات في مصر كان الميت يحاط بالعديد من الأواني الفخارية والحجرية وبعض الأدوات النحاسية ثم عقود الزينة من الأحجار نصف الكريمة والمحار.

وقد اكتشفت البعثة النمساوية العاملة في منطقة النوبة رسوم صخرية ترجع إلى المجموعة الأولى^(٧) وكذلك كشفت البعثة الإسكندنافية عن تمثالين صغيرين أحدهما لفتاة صغيرة والآخر لامرأة وجدا في مقبرة لسيده من المجموعة الأولى. أما آثار ملوك الأسرة الأولى التي عاصرت حضارة المجموعة الأولى على قتلها فيجب أن تدرس بعناية مثلما درست لوحة نعرمر التي اقترن فيها الرمز بالصورة والتي بواسطتها أمكن التأكد بصورة تكاد تكون قاطعة من قيام الحكومة المتحدة المصرية على يد نعرمر، فيجب كذلك أن يدرس الأثر المسجل على صخور جبل الشيخ سليمان في غرب النيل عند كور إلى الجنوب من بوهين (نقل إلى متحف السودان القومي)،

بوسط السودان لها نظير معاصر في مواقع من شمال وادي النيل، مثل مظاهر حضارة العصر الحجري الحديث بالفيوم هي أقدم حضارات العصر الحجري الحديث في مصر على الإطلاق، حيث أن كلاهما ساد في فترة الألف الرابعة ق.م، بالرغم من مساحة الأف ميل أو يزيد التي تفصلهما، أما تلك المظاهر فتتخصص في: كثرة استعمال النار في الطهي واستئناس بعض الحيوانات وعدم ظهور الزراعة، مع عدم دفن الموتى داخل المساكن، واستعمال نوع معين من رؤوس السهام، كذلك استعمال أنواع متشابهة من الفخار وخرز الزينة^(٤).

يؤكد ذلك الصلة الحضارية بين شطري الوادي منذ أقدم العصور، ورغم أننا ما زلنا نفتقر إلى الكثير من المعلومات عن الفترة الواقعة ما بين حوالي عام ٢٨٠٠ ق.م. وحوالي عام ٣١٠٠ ق.م. بالنسبة للحضارة السودانية، وهي نفس الفترة التي ظهرت فيها حضارات عصر ما قبل الأسرات في مصر.

ثالثاً: حضارة المجموعات

١/٣- المجموعة الأولى

حوالي عام ٣١٠٠ ق.م بدأت تظهر في شمال السودان مجموعة حضارية جديدة لها صفات حضارية متميزة عن ما سبقها في المنطقة أسماها مكتشفها رايزنر بالمجموعة الأولى (A Group)، معظم مخلفات هذه المجموعة عُثر عليها في النوبة السودانية والمصرية، لم يعثر على أكثر من جبانيتين لأصحاب هذه المجموعة في السودان حتي الآن واحدة في فرص شمال وادي حلفا، والأخرى في جمى جنوب وادي حلفا، مع العثور علي العديد من مخلفات تنسب لهذه المجموعة الحضارية في أنحاء متفرقة من شمال السودان ووسطه وبخاصة بالقرب من أمدردمان، وتعد الأدوات النحاسية التي عُثر عليها في مقابر المجموعة الأولى في فرص هي أقدم ما عُثر عليه من أدوات معدنية في السودان القديم حتي الآن^(٥).

تعطي العديد من مصنوعات الحضارة المصرية المستوردة والتي تم العثور عليها في مقابر المجموعة الأولى تاريخاً للمجموعة يعاصر منتصف الأسرة الأولى

كتابة الحدث بالرموز المتعارف عليها ثم يفسره أخيراً برسم يقرب إلى الصورة منه إلى الكتابة. ولو أضفنا إلى نقش الملك جر السالف ذكره أمر العثور على كثير من صناعات الأسرة الأولى في المقابر التي ترجع إلى حضارة المجموعة الأولى، وتلك القطع التي تتمثل في أواني حجرية من الطراز الخاص بعصر الأسرتين الأولى والثانية داخل قلعة بوهن إذن لتمكنا من إرجاع أول عهد المصريين بارتياح بلاد النوبة إلى أيام الأسرة الأولى في مصر، وليس هذا بمستبعد لمعرفة أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية قد احتاجوا لذهب النوبة الذي صنعوا منه كثيراً من آثارهم الملكية، فكما حدثتنا نصوص الأهرام التي يرجع الكثير منها إلى ما قبل تاريخ تسجيلها في أيام الدولة القديمة بكثير كان الذهب معدناً ملكياً مقدساً وكل ما يخص فرعون فهو ذهبي مقدس.

ومما لا شك فيه أنهم حاولوا بتلك الحملات إخضاع هذه البلاد ليضمّنوا وصول ذلك المعدن المقدس إلى القصر الملكي في الشمال. ظلت الأحوال مستقرة واستمرت حضارة المجموعة الأولى في الازدهار إلى أن وصلت لزمن الملك خع - سخم (وليس خع - سخموى كما ذكر،^(٨) هناك يبدو أن الأحوال قد اضطرتّه إلى إرسال حملة إلى الجنوب من حدود مصر،^(٩) فضمن الآثار القليلة التي تم العثور عليها في (هيراكن بولس) جزء من لوحة صور عليها تسجيلاً لانتصاره على أهل الجنوب (تاستي) ويلاحظ أن الشخص الذي صور ليرمز لأهل الجنوب ملتحيًا ويعتبر هذا من أقدم الصور التي تمثل أهل الجنوب التي وجدت. يظهر من ذلك أن حملات خع - سخم قد قضت على حضارة المجموعة الأولى في النوبة، ومع بداية عهد الدولة القديمة تظهر سمات حضارية جديدة تختلف في مجموعها عن مميزات حضارة المجموعة الأولى.

٢/٣- حضارة المجموعة الثانية

تجدر الإشارة إلى أن كثير من العلماء يعترض على وجود تلك الحضارة أصلاً والتي عاصرت زمن الدولة القديمة في مصر، أي الفترة من ٢٨٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م وتتميز بفقرها.

والخاص بالملك جر من أوائل ملوك الأسرة الأولى المصرية لمسألة بالغة الأهمية بالنسبة لدراسة تاريخ السودان القديم، ذلك أن هذا الأثر وجدت فيه نموذج من المحاولات الأولى للتسجيل بالرمز الذي يكاد يقرب من الكتابة في أول أطوارها، حيث أنه هنالك صور الاسم مكتوباً كما هي العادة المتبعة في كتابة الأسماء الملكية بالعلامة التي تقرأ في الهيروغليفية «جر» فوق ما يشبه تمثيل لواجهة القصر الملكي وفوقها جميعاً رسم الصقر رمز الإله حورس ورمز الملك كورث للإله حورس على العرش، وهو المعنى المأخوذ من التقليد القديم الذي تحول إلى أسطورة منذ أن قامت الوحدة الأولى في مصر قبل وحدة نعرمر التاريخية هناك حسب قول الأسطورة، فقد كان يحكم البلاد آلهة وكان الإله حورس هو القائم على تلك الوحدة العريقة ومن يومها تيمّن الفراعنة باسمه وأضافوا إلى أسمائهم اسم حورس.

أما أمام اسم الملك جر المذكور فقد جري تصور أحد الأسرى واقفاً بينما قيدت يداه خلف ظهره بحبل، وتصوير الأسرى مقيدتين بتلك الصورة ظل معمولاً به في التصوير الرمزي طوال التاريخ المصري القديم، وأمام الأسير رسم رمزاً لما يشبه المياه ولعل المقصود به أن موقعة حربية بين جنود ملك مصر وبين أهالي المنطقة حدثت في منطقة الجنادل حيث الملاحة صعبة، أو ربما يعني ذلك أن القتال قد دار في النهر. ثم صور الفنان دائرتين داخل كل منهما خطين متقاطعين عمودياً وفوق أحدهما طائر يشبه الصقر وفوق الأخرى علامة غامضة، تلك الدوائر عُرِفَت في الكتابة الهيروغليفية بعد ذلك على أنها رموز لكلمة مدينة بمعناها القديم، وربما كان المعنى المقصود أن القتال الذي دار في منطقة الجنادل قد نتج عنه إخضاع العصاة في مدينتين بمنطقة الملاحة الصعبة بالنوبة.

بعد ذلك حاول الفنان تفسير الرموز السابقة فصور مركباً مصرياً صميمًا مربوطاً في مقدمته أحد الأسرى بحبل يلتف حول رقبته ويديه الموثوقيتن خلف ظهره، وأسفل المركب وتحت الأسير صور أربعة رجال صرعى، وكما هي العادة في الكتابة الهيروغليفية التي أخذت محاولاتها الأولى ترسخ وتأخذ شكلها النهائي خلال عصر الأسرتين الأولى والثانية نجد أن الفنان هنا يحاول

والتي تشبه فخار الأسرة الثانية المصرية والتي يحتمل أن استعمالها قد استمر حتي أيام الأسرة الرابعة، هناك أيضاً طراز الطوب الكبير الذي تم تشييد حوائط المدينة به فهو من نفس طراز الطوب الذي بني منه عمائر الأسرة الثانية في المواقع المصرية.

كما قد عُثر على أسماء كل من الملوك خفرع ومنكاورع من الأسرة الرابعة ثم ساحورع ونفراركارع ونيوسرع من ملوك الأسرة الخامسة سواء على شكل أختام أو على قطع الفخار وغنى عن البيان أنه بناء على اكتشاف تلك المدينة السكنية التي قامت لتصبح مركزاً لاستخلاص معدن النحاس فلا بد أن مناجم ذلك المعدن كانت وما تزال موجودة في مكان ما بالقرب من بوهين تنتظر اليوم الذي يكشف فيه النقاب عنها.^(١٠) هكذا يضاف إلى محاصيل ومنتجات النوبة معدن آخر هو معدن النحاس فهل ورد ذكره في النصوص المصرية ضمن محصولات النوبة، أم إن استخلاص النحاس من المنطقة المحيطة ببوهين اقتصر فقط على زمن الدولة القديمة ثم تلاشي؟ الواقع أن هذا المعدن لم يرد ذكره ضمن قوائم منتجات النوبة أيام الدولة الحديثة كما أن الآثار التي وجدت بالمدينة المذكورة كانت قاصرة على زمن الدولة القديمة فقط ولم تتعدها.

إن علاقة مصر وبلاد النوبة أيام العصر العتيق تحتاج إلى كثير من البحث والجرأة أيضاً في استخلاص النتائج، فمثلاً هناك أثر الملك خع سخم من الأسرة الثانية والذي يسجل بطريقة مقتضبة انتصاراً على أهل الجنوب، وفيه أشير إلى اسم تلك البلاد بالإشارة التي تعارف عليها طوال التاريخ المصري القديم باسم (تاستى) وبشكل واضح ليس فيه تردد المبتدئين مما يدل على معرفة سابقة بمدلولها، ولو أخذنا في الاعتبار العديد من الشواهد السالفة الذكر لما أصبح هناك مجالاً للتردد في حقيقة أن المصريين - وعلى الأخص في النصف الثاني من العصر العتيق - قد ارتادوا تلك البقاع من بلاد النوبة وعرفوها سواء للتجارة أو لصيد الغارات، ويبدو ذلك بشكل واضح خلال التاريخ الطويل للأسرة الثانية حيث من المتعارف عليه أن العصر العتيق قد دام نحو أربعمئة وخمسين عاماً، وإن بعض المؤرخين يقدرها بحوالي خمسة قرون ونصف قرن، وهي فترة

أما أبرز الحملات التي تحمل إشارة ربما لهذه المجموعة وتم تسجيلها بصورة واضحة تلك الحملة التي قامت أيام عاهل الأسرة الرابعة الملك سنفرع ضد أصحاب حضارة تلك المجموعة حيث سجلت أخبارها ضمن حولياته على حجر بالريمو المشهور، ومن الأرقام التي ذكرها سنفرع نستطيع أن نكون فكرة عن مدى مقاومة أهل البلاد وعن محاولة المصريين الاستفادة من العنصر البشري، فرغم أن تلك المعلومات قد سجلت بطريقة مقتضبة جداً كما اتبع في كل الأحداث المسجلة على الحجر المذكور إلا إنه قد وردت أرقام الأسرى التي بلغت ٧٠٠٠ أسيراً بالإضافة إلى ٢٠٠,٠٠٠ ألف رأس من الأغنام والماشية، وقد أطلق سنفرع على سكان الجنوب وقتذاك اسم (نحسيو) وكان المقصود بهذا التسمية كل القبائل التي تسكن جنوبي الحدود المصرية. يبدو طبيعياً أن نتصور سبب اضمحلال الحضارة التي عرفت بحضارة المجموعة الأولى وكذلك حضارة المجموعة الثانية في شمال السودان وفي النوبة المصرية، فلا بد من أن هجمات خع-سخم ومن بعده الملك سنفرع كانت العوامل الحاسمة، وبعدهما كثر الحديث في الآثار المصرية عن البعثات التعدينية والتجارية من أجل الحصور على منتجات الجنوب ولعل الذهب كان أهمها جميعاً. بدأ في الدولة المصرية القديمة منذ الأسرة الرابعة استعمال حجر الديوريت في صناعة التماثيل الملكية مثل تماثيل خفرع الموجود حالياً بالمتحف المصري، وقد دلت الأبحاث على توفر هذا الحجر في المنطقة الواقعة إلى الغرب من تشقه بحوالي ٨٠ كيلو متر، حيث عثر الأثريون في منطقة المحاجر على نقوش بأسماء الملوك خوفو ومنكاورع وساحورع واسيسى من الأسرتين الرابعة والخامسة.

جدير بالذكر إن أحدث الأبحاث في منطقة بوهين إلى الجنوب من وادي حلفا قد كشفت النقاب عن وجود معدن النحاس هناك ووجود مدينة سكنية كبيرة محصنة للعمال والمشتغلين من المصريين، بالإضافة إلى عدد قليل من أهل المنطقة ينتمون إلى المجموعة الحضارية الثالثة، رغم أن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن تلك المدينة ترجع بتأسيسها إلى العصر العتيق أي قبل قيام الدولة القديمة، فبالإضافة إلى العثور على أنواع من الفخار

الحكام من زمن الدولة القديمة، ومن أمثلة حكام الجنوب الحاكم أونى من زمن (الأسرة السادسة ٢٤٢٩-٢٢٥٨) الذي سجل حياته على صفحات قبرة بموطنه أبيدوس (نقل هذا النقش الهام إلى المتحف المصري بالقاهرة)، خدم أونى زمن الملوك تيتى وببي الأول ومرنر من الأسرة السادسة، ذكر أونى حاكم الجنوب ضمن ما ذكر أنه استعان بجنود من قبائل النوبة المختلفة مثل أررت، البجا، يام، واوات، وذلك عند قيامه بتجهيز جيش لمحاربة البدو الآسيويين. كما كلف أونى من لدن ملكه بإحضار تابوت حجري كامل وقمة هرمية ليتوج بها هرم الملك في سقارة، من منطقة محاجر تدعى إبهيت بالنوبة على حد تعبيره. وفي مهمة أخرى أرسل أونى إلى واوات لإحضار خشب السنط اللازم لإعداد ثلاث مراكب للنقل وأربعة مراكب أخرى، فيبين كيف أن رؤساء أررت والبجا قاموا بإمداده بالخشب اللازم وأنه استطاع أن ينجز تلك المهمة فأنزل المراكب إلى النيل بعد أن حملها بالكثير من حجر الجرانيت اللازم لبناء الهرم الملكي. لا جدال في أن إنشاء منصب حاكم الجنوب إنما هو تنظيم لعلاقة مصر بجيرانها في الجنوب وتهذيب للعلاقات الدبلوماسية بين الدول، وبداية وضع الأسس للدبلوماسية المصرية التي اتضح دورها فيما بعد قيام الدولة الوسطى، عندما أصبحت التقاليد الدبلوماسية راسخة.

٣/٣- حضارة المجموعة الثالثة

انتهت دورة من دورات التطور وقامت الثورة الشعبية العارمة وسقطت على أثرها أعنى وأقوى العروش حينذاك ونعني بها الدولة القديمة في مصر، فانقطعت الصلات التجارية المنتظمة بين السودان ومصر، وتذكر المصادر الأدبية التي تردد صداها بعدئذ أن جنود الجنوب الذين كانوا ضمن حرس فرعون وقتها قد ساهموا في إذكاء نار الثورة، ويحدثنا أمير إقليم أدفو أيام فترة المحنة الأولى في مصر بعد سقوط الدولة القديمة على جدران قبره في (المعلا) عن إرسال الحبوب إلى واوات إثر انتشار المجاعة هناك للمساهمة في حل الأزمة، وفي ذلك إشارة إلى استمرارية وجود الصلات بين مصر والنوبة في ذلك الوقت.^(١٢)

كافية بلا شك لرسوخ أقدام الحضارة المصرية التي مرت خلال تجارب رائدة لإرساء دعائم حضارة عريقة وذلك قبل بداية العصر العتيق وقبل قيام الوحدة على يد نعرمر - منا مؤسس الأسرة الأولى في تاريخ الحضارة المصرية. وفي تلك العصور السحيقة أطلق المصريون على جيرانهم في الجنوب اسم (تاستيو) وسموا أرضهم (تاستي) بمعنى أرض أهل الأقواس، كما كتبوا أسمهم بالإشارة الدالة على الأقواس مع العلم بأن إقليم أسوان هو أول أقاليم الصعيد الواقع في أقصى حدود مصر الجنوبية، كان يطلق عليه نفس الاسم ولعلمهم قصدوا بذلك أنه أقرب لأهل الجنوب. وبذا فهم كادوا أن يعتبروه ضمن أقاليم النوبة، والحقيقة أن أهل النوبة امتازوا منذ القدم بمهارة استعمالهم للأقواس والسهام في الأغارة، ودائماً ما قامت بعض جماعاتهم بمهاجمة الحدود الجنوبية لمصر وكذلك البعثات العديدة للمصريين فيما وراء الشلال الأول، ويكاد يتفق الرأي على أن غارات أهل النوبة السفلى على حدود مصر في عصورها المختلفة وبخاصة في تلك المرحلة من التاريخ القديم إنما مردها إلى طبيعة البلاد الجغرافية التي أصيبت بالجفاف فقلت مواردها.^(١١)

ازداد اهتمام المصريين بالجنوب منذ أواخر الأسرة الخامسة المصرية وأخذوا بتنظيم علاقاتهم بجيرانهم فيما وراء الشلال الأول فظهر منصب جديد هام أطلق على صاحبه (حاكم الجنوب) كانت مهمته سياسية واقتصادية، فهو المسئول عن حراسة الباب الجنوبي لمصر، والقضاء على الاضطرابات العديدة التي غالباً ما سببتها هجرات غربية عن المنطقة، كما كان يقوم بتنظيم التبادل التجاري بين حاصلات القارة وحاصلات مصر، أيضاً كان عليه أن يمهّد وسائل المواصلات لبعثات التجارة والتعدين المصرية فيما وراء الشلال الأول حيث كان يشترط في شاغل المنصب عدا عن الخبرة بشئون التجارة أن يجيد لغات ولهجات القبائل المقيمة في النوبة ليسهل الاتصال بها، ويعد ذلك كأوضح مثال للدبلوماسية في العالم القديم. سميت أسوان بهذا الاسم ومعناه بالمصرية (السوق) وهي إشارة إلى مهمة المدينة الفعلية حيث كان يقيم بها حكام الجنوب وقد كشفت الحفائر عن سلسلة من المقابر الصخرية لهؤلاء

خاتمة

تعتبر هذه الدراسة خطوة مهمة في تسليط الضوء على الوجود الحضاري للبشر في السودان وتطوراتها عبر العصور المختلفة. من خلال استعراض المواقع الأثرية والأدوات الحجرية والفخارية، تم التأكيد على أن السودان كان مركزاً حضارياً هاماً في فترات ما قبل التاريخ وفيما بعد. وقد أظهرت النتائج أن الإنسان السوداني قد تقدم بشكل ملحوظ في مجالات مثل الصيد، صناعة الأدوات، وتطور الفخار، ما يعكس التقدم في تنظيم حياته اليومية وتعامله مع البيئة المحيطة به.

علاوة على ذلك، أظهرت الدراسة أن السودان شهد العديد من المجموعات الحضارية التي أثرت في الثقافة الإنسانية بطرائق متعددة. سواء كانت من خلال الأدوات التي استخدمها الإنسان القديم أو من خلال النقوش الصخرية التي خلّدها، فإن هذه الحضارات تسهم بشكل كبير في تشكيل الصورة الحالية لفهم التاريخ السوداني. وبالنظر إلى ما تم التوصل إليه، فإن هذه الدراسة تفتح المجال لمزيد من الأبحاث التي قد تسهم في استكشاف جوانب جديدة تتعلق بتاريخ السودان الحضاري، فضلاً عن أهمية توثيق هذه الاكتشافات في متاحف المحلية والدولية، لضمان الحفاظ على هذا التراث الثقافي الثمين.

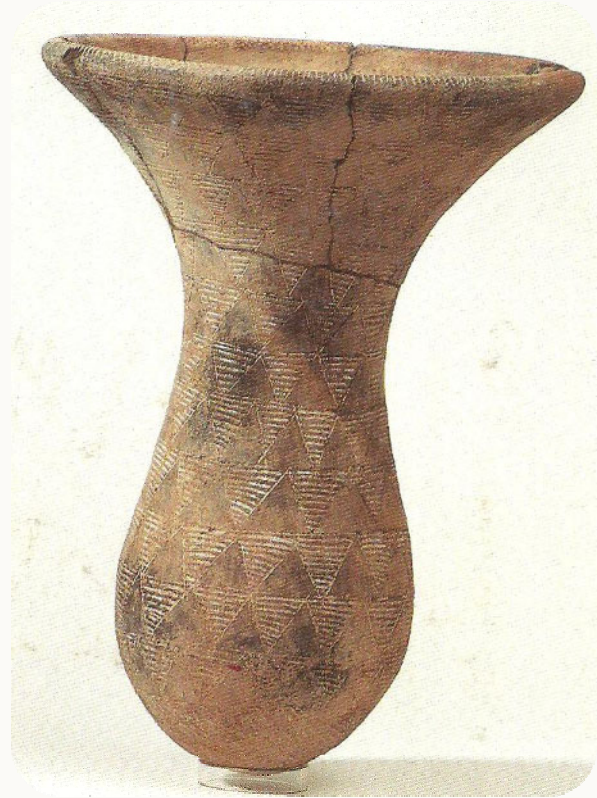
كذلك ظهر الجنود النوبيون ضمن فرق أمراء الأقاليم أيام ازدهار الإقطاع بعد سقوط الدولة القديمة وكان لهم دور فعال في الصراع الذي احتدم بين الأقاليم بعضها البعض، حيث كون منهم الأمراء فيالق كاملة وحاولوا الاستفادة من شهرتهم في استعمال القوس والسهم في الإغارة. فعلى سبيل المثال كان أمير إقليم أسيوط يحتفظ في جيشه بفيلق نوبي، فإذا ما غادر الأمير هذا العالم أمر بأن يصنع نموذج لذلك الفيلق مع غيره لكي يوضع معه في القبر ويرافقه في رحلة الخلود، ويحتفظ المتحف المصري بالقاهرة بهذه المجموعة التي تجسد فكرة اهتمام القوم وتقديرهم لأولئك الجنود النوبيين. كما نلمح في تلك الفترة ظهور شعب جديد في منطقة النوبة السفلى سميناه بالمجموعة الثالثة التي كانت أقصى حدودها الشمالية في قرية الكبانية (Kubenieh)، الواقعة إلى الشمال من كوم أمبو،^(١٣) أما حدودها الجنوبية فقد كانت في موقع فرص.^(١٤)

كانت الحرفة الرئيسة لأهل تلك الحضارة رعي الأبقار وغيرها، كما تميزت حضارتهم بأنواع خاصة من الصناعات اليدوية أهمها الفخار حيث ينسب إليهم نوع معين من القدور السوداء ذات الزخارف بالخطوط البيضاء المتقاطعة، ويلاحظ عدم وجود فوارق كبيرة بين حجم المقابر المختصة بهذه الحضارة وكذلك فيما يختص بشكلها المستدير.

الملاحق



صورة رقم (٣)
فخار المجموعة الأولى
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف



صورة رقم (١)
مزهرية في شكل كأس فترة العصور الحجرية
المكان: متحف بوزنان



صورة رقم (٤)
حجرة تخزين للحضارة المجموعة الأولى
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف



صورة رقم (٥)
رأس تمثال أنثوي المجموعة الثالثة
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف



صورة رقم (٢)
نماذج لفخار العصر الحجري الحديث
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

الإحالات المرجعية:

- (1) Arkell, A. J. : A history of the Sudan, London 1955, "Visa Sudanese" in JKA, XXXVI p. 36
- (2) Adams W. Y: Nubia, Corridor to Africa. Princeton, London, 1977.p.199.
- (3) Emery-Kirwan, Excavations between Wadi Ea Sebu and Adindan 1929-1931, Service des Antiquités de l' Egypte 1935.
- (4) Arkell, op . cit . p 36.
- (5) Emery.op . cit . p 100.
- (6) Emery. op . cit . p 101.
- (7) محمد إبراهيم بكر، **مدخل إلى تاريخ السودان القديم**، (القاهرة: دار النشر والتوزيع، م٣، ١٩٦٩م).
- (٨) محمد حامد إبراهيم: "مقترح لمشروع متحف الآثار والتراث بالولاية الشمالية"، **مجلة الدراسات الإنسانية**، جامعة دنقلا، كلية الآداب والدراسات الإنسانية، العدد ٣، يناير ٢٠١٠م.
- (9) Junker, H. Bericht neber die Grabungen der Akademie der Wisaenachafthen in Wien anf den Friedhogen von Ermenne im Winter 1911/12, Wien 1925.
- (10) Verconfter ,J. New Egyptian texts from the Sudan, Kush IV, PP. 66-82
- (11) Save-Soderbergh, T. Aegypten and Nubien. Lubien. Luad1941. p.55
- (١٢) حسن حسين ادريس، **دور الآثار والمتاحف في تنمية السياحة في السودان**، جامعة وادي النيل، كلية الدراسات العليا ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الفلسفة (الآثار) ١٦ . ٢٠م.
- (١٣) أسامة عبد الرحمن النور: **دراسات في تاريخ السودان القديم**، إصدار مركز عبد الكريم مرغني الثقافي، أمدردان، ٢٠٠٦م.
- (١٤) أحمد محمد علي الحاكم وشارلس بونيه: **كرمة مملكة النوبة – تراث أفريقي من عهد الفراعنة**، ترجمة أحمد محمد علي الحاكم، إشراف صلاح الدين محمد أحمد، نشر بروفيسير شارلس بونيه والهيئة القومية للآثار والمتاحف، طباعة شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، السودان، ١٩٩٧م.



صورة رقم (٦)

قاعدة مزهرية حضارة المجموعة الثالثة
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف



صورة رقم (٧)

وعاء حضارة المجموعة الثالثة
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

التراث اللامادي بمنطقة الريف الشرقي ودوره في تعزيز التنمية المحلية حالة قبيلة تمسمان

سليم احمدوش

باحث دكتوراه في التاريخ والتراث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – ظهر المهرارز
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية



ملخص

يشمل التراث اللامادي الممارسات والتقاليد والمعارف التي تنتقل عبر الأجيال ويشكل جزءاً أساسياً من الهوية الثقافية. في منطقة الريف الشرقي بالمغرب، تتميز قبيلة تمسمان بتراث ثقافي غني يتضمن العادات والتقاليد والفنون والموسيقى واللغة المحلية. هذا التراث يعكس تاريخاً طويلاً من التفاعل الاجتماعي والاقتصادي. ومع ذلك، يواجه التراث تحديات من العولمة والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية السريعة التي قد تؤدي إلى تآكله وفقدانه. لذلك، يأتي هذا المقال ليهتم بالتراث اللامادي ودوره في التنمية المحلية، حيث يمكن أن يكون عاملاً محفزاً للتنمية الاقتصادية والاجتماعية. كما يسعى المقال الراهن إلى فهم دور التراث اللامادي لقبيلة تمسمان في تحقيق التنمية المحلية في منطقة الريف الشرقي من خلال آراء السكان ومواقفهم، ويسلط الضوء على أهمية الحفاظ على هذا التراث واستثماره في العمليات التنموية المحلية. ويمكن التأكيد من خلال دراسة الوضع الحالي للتراث اللامادي في قبيلة تمسمان بالريف الشرقي، وربطه بالدور الذي لعبته هذه العناصر عبر تاريخ الإنسان الأمازيغي الريفي، على أهمية ضرورة لصونها واستثمارها بالشكل المناسب. فهذا التراث يلعب دوراً أساسياً في تعزيز التنمية المحلية، من خلال تفعيل دوره في القطاع السياحي، وتعزيز الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المنطقة، مما يعزز التفاعل الإيجابي بين السكان المحليين والزوار.

كلمات مفتاحية:

التراث اللامادي؛ قبيلة تمسمان؛ الريف الشرقي؛ التنمية المحلية؛ الإنسان الأمازيغي الريفي

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٩ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٦ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.351603.1203

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سليم احمدوش، "التراث اللامادي بمنطقة الريف الشرقي ودوره في تعزيز التنمية المحلية: حالة قبيلة تمسمان". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥. ص ٣٩ - ٤٧.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: sallimahamdouch@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُورِيَّة كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

تسليط الضوء على أهمية الحفاظ على هذا التراث واستثماره في العمليات التنموية المحلية.

أولاً: خطوات منهجية للبحث

١/١- إشكالية البحث

في السنوات الأخيرة، شهد العالم اهتماماً متزايداً بالتراث الثقافي كعنصر أساسي للحفاظ على الهوية الثقافية وتعزيز التنمية المحلية، خاصةً في ظل التحديات الحديثة مثل التغيرات الاقتصادية والتقنية. يُعدّ التراث مصدراً غنياً للمعرفة والابتكار، ويمكن توظيفه كأداة فعّالة لجذب الاستثمارات وتعزيز السياحة المستدامة. ومنطقة الريف تمتلك تراثاً ثقافياً لا مادياً متنوعاً يمثل إرثاً حضارياً مهماً، ولكنها تواجه تحديات كبيرة تتعلق بالحفاظ على التراث وتتميمته بشكل مستدام. يتطلب الأمر استراتيجيات شاملة تتضمن التعاون بين الحكومات المحلية والمجتمعات المحلية والقطاع الخاص، مع التركيز على الاستفادة الاقتصادية والاجتماعية من التراث بما يحترم البيئة ويعزز الثقافة المحلية. كما يحتل التراث مكانة بارزة في الاستراتيجيات التنموية المحلية والإقليمية، مما يستوجب تنفيذ استراتيجيات متكاملة لإدارته بشكل فعال كمحرك للتنمية، مع الحفاظ على التوازن بين الاستفادة الاقتصادية والاحترام للسياق الثقافي الهش. وهذا ما يدفعنا إلى طرح الإشكالية الآتية:

- ما هو التراث المادي واللامادي الحالي في منطقة تمسمان؟ وإلى أي حد يمكن لهذا التراث أن يساهم في تعزيز التنمية المحلية؟

٢/١- أهداف البحث

يروم البحث الراهن إلى:

- تعزيز وحماية التراث اللامادي كمورد هام للتنمية المحلية.

- السعي إلى فهم دور التراث اللامادي لقبيلة تمسمان وتأثيره على الهوية المحلية وكذا إسهامه في خلق التنمية المحلية.

يشكل التراث اللامادي جزءاً أساسياً من الهوية الثقافية لأي مجتمع، حيث يتضمن مجموعة واسعة من الممارسات والتقاليد والمعارف والمهارات التي تنتقل عبر الأجيال من خلال التفاعل الاجتماعي. هذا النوع من التراث ليس ملموساً كالمباني أو القطع الأثرية، ولكنه ذو أهمية كبيرة في تشكيل الهوية الجماعية والحفاظ على التماسك الاجتماعي والثقافي. وفي منطقة الريف الشرقي من المغرب، تتميز قبيلة تمسمان بثراء تراثها اللامادي، الذي يشمل مجموعة متنوعة من العناصر الثقافية مثل العادات والتقاليد والفنون والموسيقى واللغة المحلية. وتعكس هذه العناصر الثقافية تاريخاً طويلاً من التفاعل الاجتماعي والاقتصادي والبيئي الذي عاشه سكان هذه المنطقة. ومع ذلك، يواجه التراث اللامادي العديد من التحديات في العصر الحديث، مثل العولمة والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية السريعة، التي قد تؤدي إلى تآكله وفقدانه. لذلك، تأتي هذه الدراسة في سياق الاهتمام المتزايد بالتراث اللامادي ودوره في التنمية المحلية، حيث يمكن أن يكون هذا التراث عاملاً محفزاً للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ويمكن للتراث اللامادي أيضاً أن يلعب دوراً مهماً في تعزيز السياحة الثقافية، حيث يمكن جذب السياح المهتمين بالثقافات والتقاليد المحلية، مما يساهم في تحسين الاقتصاد المحلي وتوفير فرص عمل جديدة. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لدعم الصناعات التقليدية المرتبطة بالتراث اللامادي أن يساهم في تعزيز الاقتصاد المحلي، حيث يمكن أن تكون هذه الصناعات مصدراً مهماً للدخل بالنسبة للسكان المحليين. علاوة على ذلك، يساهم الحفاظ على التراث اللامادي في تعزيز الفخر والانتماء بين أفراد المجتمع، مما يعزز الاستقرار الاجتماعي والتنمية المستدامة.

يأتي هذا البحث في سياق التوجه الحالي نحو تعزيز وحماية التراث اللامادي كمورد هام للتنمية المحلية. ويسعى إلى فهم دور التراث اللامادي لقبيلة تمسمان في تحقيق التنمية المحلية في منطقة الريف الشرقي من خلال آراء الساكنة ومواقفهم. وترمي الدراسة أيضاً إلى

المنطقة ويجعله يمتاز بالاعتدال طوال السنة من جهة، كما أن المنطقة تزخر بالعديد من المميزات الثقافية والتراثية التي تغري الزوار بالتوافد إلى المنطقة ومن ثم تساهم في إقامة سياحة ثقافية.

٢/٢- الخصائص الديموغرافية لقبيلة تمسمان

تمتاز قبيلة بخصائص ديموغرافية تعكس تراثهم الثقافي العميق والمتنوع، ومعظم سكان المنطقة يعبرون عن هويتهم الثقافية من خلال اللغة الأمازيغية الريفية التي تعكس جذورهم الأمازيغية وتفرّد تقاليدهم. حيث يُمارس أفراد القبيلة تقاليدهم التي تعبر عن تراثهم العريق بكل فخر، مما يجعلهم يحافظون على هويتهم التي تشكل جزءاً من نمط حياتهم البسيط^(٣). وفيما يلي تطور عدد السكان الجماعات المكونة لقبيلة تمسمان ما بين سنتي ٢٠٠٤ و٢٠١٤.

جدول يمثل تطور عدد السكان المشكلين لجماعات قبيلة تمسمان

تمسمان	بودينار	بني	أولاد	اتروكوت
مرغنين	أمغار			
١٥٩٣٧	١٠٥٠٤	٧١٥٨	٦٣٤٢	١١٥٤١
١٤٩٣٧	٩٩٠٦	٧٠٨٧	٦٠١٠	١١٦٤٥
إحصاء ٢٠٠٤				
إحصاء ٢٠١٤				

مونوغرافيات جماعات إقليم الدريوش

تشير المعطيات الديموغرافية للجماعات المشكلة لقبيلة تمسمان في الريف الشرقي من المغرب بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠١٤ إلى تغيرات سكانية ملحوظة. شهدت جماعات تمسمان وبودينار وأولاد أمغار انخفاضاً في عدد السكان، بينما حافظت بني مرغنين على استقرار نسبي. في المقابل، شهدت اتروكوت زيادة طفيفة في عدد السكان. هذه التغيرات قد تكون نتيجة للهجرة أو التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة.

ثالثاً: المفاهيم المؤطرة للبحث

يُعدّ التدقيق في المصطلحات الأساسية التي ترتكز عليها هذه الدراسة أمراً بالغ الأهمية، إذ يساهم في فهم عميق للمفاهيم التي تنطوي عليها الدراسة

٣/١- منهجية البحث

قمنا باعتماد منهجية شملت الاطلاع على المراجع والأبحاث ذات الصلة لإثراء الموضوع، مع التركيز على المعطيات التي تطرقت لمجال الدراسة. بالإضافة إلى ذلك، ركزنا بشكل كبير على العمل الميداني كون الإجابة عن التحديات المعقدة مثل هذه تتطلب الاعتماد على البيانات المستمدة مباشرة من الميدان من خلال عقد العديد من اللقاءات في شكل مقابلات معمقة، التي هدفت إلى فهم شامل لجوانب متعددة من المنطقة المدروسة وجمع معطيات كثيرة ساهمت في بناء الأساس اللازم للبحث.

ثانياً: قبيلة تمسمان بالريف الشرقي (مجالاً للدراسة)

تتميز قبيلة تمسمان بخصائص طبيعية فريدة توفر موارد ومناظر طبيعية خلابة منذ القدم، وقد تفاعلت هذه المنطقة مع مختلف شعوب البحر الأبيض المتوسط من فينيقيين وقرطاجيين ورومان ووندال... الذين تركوا إرثاً ثقافياً مهماً يساهم اليوم في تعزيز السياحة الثقافية. بالإضافة إلى ذلك، تحمل هذه الموارد الطبيعية أهمية اقتصادية كبيرة، خاصة الشريط الذي يستقطب السياح من جميع أنحاء المغرب. ترى ما هي الحدود الجغرافية لهذه القبيلة؟ وما هي خصائصها الديموغرافية؟

١/٢- الموقع الجغرافي

تتنتمي قبيلة تمسمان تاريخياً إلى الريف الشرقي، وإدارياً تنتمي إلى جهة الشرق وبالضبط إلى إقليم الدريوش. وتضم هذه القبيلة خمس جماعات ترابية هي: جماعة تمسمان، بودينار، بني مرغنين، أولاد أمغار واتروكوت^(١). فيما يخص حدودها الجغرافية، فيحدها من الشرق قبيلتي آيت وليشك وآيت سعيد، ومن الغرب تحدها قبيلة آيت ورياغل، ومن الجنوب قبيلة آيت توزين أما من الناحية الشمالية فيحدها البحر الأبيض المتوسط^(٢). وبحكم موقع القبيلة الاستراتيجي المنفتح على البحر الأبيض المتوسط، وساحل يمتد على مسافة ٥٠ كيلومتر هذا الأخير الذي شكل نواة أساسية للجذب السياحي لكون البحر يلعب دور مهماً في تلطيف مناخ

التراث، والفنون والتقاليد وأداء العروض، والممارسات الاجتماعية، والطقوس والاحتفالات، والمعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون، والمهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية^(٥).

وعليه، فالتراث غير المادي يشمل كل التقاليد وأساليب المعيشة الموروثة من الأسلاف والمنقولة إلى الأبناء^(٦)، كالتقاليد وأشكال التعبير الشفوية وفنون الأداء مثل الموسيقى والرقص الشعبي والمناسبات الاحتفالية والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون والمعرفة والمهارات اللازمة لطرق الطهي وإنتاج الحرف التقليدية^(٧).

١/٣) ٢- خصائص التراث اللامادي

يبدو أن التعريف المقدم للتراث اللامادي واسع وشامل بما يكفي ليغطي أشكالاً متعددة من عناصره. ويتميز هذا التعريف بعدة خصائص تجعله أكثر مرونة وشمولية، مما يسمح له بالاحتواء على مختلف جوانب التراث الثقافي غير المادي، ومن أبرز هذه الخصائص^(٨) نذكر ما يلي:

- لامادية عناصره حيث التراث اللامادي يتميز بكونه غير مادي، مما يعني أنه لا يمكن للأشخاص لمسه أو رؤيته بشكل مادي بسيط، بل يتم التعبير عنه من خلال الأداء أو الشعور أو الإبداع.
- طبيعته الديناميكية والمتغيرة التي تعكس التراث اللامادي التغيرات الثقافية والاجتماعية عبر الزمن، حيث يتطور ويتكيف مع البيئة والتغيرات المجتمعية.
- الترسخ الثقافي والهوية إذ يسهم التراث اللامادي في تعزيز الهوية الثقافية للمجتمعات والأفراد، ويعكس قيمهم ومعتقداتهم وممارساتهم اليومية ومن ثم احترام التنوع الثقافي.
- التركيز على الفردية والجماعية: يمكن أن يكون التراث اللامادي مرتبطاً بالأفراد وممارساتهم الفردية، ولكنه أيضاً يمكن أن يكون جماعياً حيث يشمل مجموعات واسعة من الناس.
- النقل حيث ينتقل التراث اللامادي عبر الأجيال من خلال الأساليب التقليدية للتعليم والتدريب، مما يحافظ على استمراريته ونقله.

واستخداماتها المختلفة، وكذلك الروابط والعلاقات المتداخلة بينها. في هذا السياق، يتعين تسليط الضوء على مفهوم التراث الثقافي غير المادي والتنمية المحلية، نظراً لأنهما يمثلان جوهر هذه الدراسة ويشكلان الأساس الذي تقوم عليه، فالتأمل في دلالات هذين المفهومين وكيفية تفاعلها يمكن أن يعزز من إدراكنا للموضوعات المطروحة وأبعادها المتعددة، مما يسهم في تقديم تحليل دقيق وشامل

١/٣- التراث اللامادي:

(المفهوم والخصائص)

١) ١- تعريف التراث اللامادي

إن مصطلح التراث اللامادي مصطلح جديد لا تكاد دلالاته تصل إلى كثير من المثقفين، وذلك لحدثة تداوله في الأوساط الثقافية العربية، ويعود تاريخ ظهور بشكل رسمي بداية الثمانينيات، وبالضبط خلال إعلان المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية لعام ١٩٨٢، المعروف باسم "Mondiacult" الذي أقيم أول مرة في ميكسيكو سيتي، والذي يعرف الثقافة باعتبارها "المجموعة الكاملة من السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية المميزة التي تميز المجتمع أو المجموعة الاجتماعية. فهو لا تشمل الفنون والآداب فحسب، بل تشمل أيضاً أنماط الحياة والحقوق الأساسية للإنسان وأنظمة القيم والتقاليد والمعتقدات"^(٩). ويقصد به حسب الاتفاقية المتعلقة بصون التراث الثقافي غير المادي التي اعتمدها منظمة اليونسكو الممارسات، والتصورات، وأشكال التعبير، والمعارف والمهارات- وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية- التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحياناً الأفراد، جزءاً من تراثهم الثقافي، وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلاً عن جيل تبده الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بالهوية والشعور باستمراريتها، ويعزز من ثم احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية. وعليه، يتجلى التراث الثقافي غير المادي في مجالات متعددة من بينها التقاليد وأشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عن هذا

٢/٣- مفهوم التنمية المحلية

تهدف التنمية المحلية إلى تعبئة جميع الفاعلين والمتدخلين لتحقيق إدارة جيدة للتراب، بهدف تلبية متطلباته مع التركيز على الرهانات الداخلية والخارجية. تسعى هذه التنمية إلى تعزيز نقاط القوة في المجال وتقليل نقاط الضعف. وبهذا الشكل، تُعتبر أسلوباً من أساليب التدخل السياسي التي تمنح للتراب قيمة أساسية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وتسعى التنمية المحلية إلى تجميع الجوانب المختلفة التي تهم المجال الترابي لتحقيق تنمية شاملة ومستدامة ترفع من مستوى الوحدات الترابية، بهدف تحسين نوعية حياة السكان وتلبية احتياجاتهم الأساسية في مجالات الصحة والتعليم والبنية التحتية مثل الطرق والكهرباء والمياه الصالحة للشرب^(٩). "أصبحت السياسات التنموية بمثابة حركة وتوجه عام يتزايد باستمرار في جميع أنحاء العالم، لمواجهة آثار العولمة المتنامية التي تسهم في تدمير الهويات والثقافات المحلية وتعميق الفوارق الاجتماعية والمجالية"^(١٠).

عموماً، يمكن القول إن التنمية المحلية تسعى إلى تحسين إدارة الموارد المتاحة وتعزيز التنمية المستدامة لمختلف المجتمعات البشرية، بهدف تحسين جودة الحياة وتلبية الاحتياجات الأساسية، ومواجهة تحديات العولمة التي تهدد الهويات المحلية وتزيد الفوارق الاجتماعية.

٣/٣- التراث اللامادي كمورد للتنمية المحلية

يُعدّ التراث اللامادي عامل مهم بل محوري في التنمية، ولا بد من أي تنمية تستهدف المناطق أن تأخذ في الحسبان هذه المسألة، خاصة وأن منطقة تسمان تجمع بين التراث المادي واللامادي، وتقوم فلسفة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) على المحافظة على هذا التراث، والاستثمار فيه بوصفه أحد آليات التنمية^(١١)، وتسعى العديد من دول العالم اليوم إلى إعادة الاهتمام بالشأن الثقافي، باعتباره مفتاحاً أساسياً لتحقيق التنمية المستدامة، ونشر قيم العدالة والمساواة والتنوع، وترسيخ المحبة والأمن والاستقرار والتسامح والتعايش بين الشعوب لمواجهة العنف والتطرف والصراعات المدمرة. كما يُعدّ الثقافة

عاملاً محركاً للإبداع والتنمية الاقتصادية وخلق الثروة^(١٢). الرهان في المستقبل هو تشجيع الإنتاج الثقافي، حيث من المتوقع أن يكون القرن القادم قرناً ثقافياً بامتياز، خلافاً للقرن العشرين الذي تميز بالعسكرية والسياسة، والقرن الواحد والعشرين الذي يتميز بالاقتصاد. من يملك ناصية الثقافة سيكون قادراً على السيطرة والتغلب. عدم الاهتمام بالتراث يؤدي إلى تدمير ونهب وضياح ثروات هامة، وهو أخطر من إهدار الثروات الطبيعية. الاهتمام بالتراث يساهم في ربط اللحمة الوطنية، وترسيخ الهوية، والحفاظ على الاستقلال بمعناه الواسع، كونه مصدر إلهام وفخر واعتزاز في مواجهة تهديدات العولمة للعديد من الكيانات^(١٣).

وفي هذا الصدد يمكن القول، أن الحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى، إلى إعداد مجموعة من التوازنات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تتماشى والبنود التشريعية بين مختلف الشعوب والدول، حيث تعمل هذه الأخيرة على تحقيقها عبر عدة مؤسسات وهيئات وطنية منها ودولية. علاوة على ذلك، أصبح للتنمية دوراً كبيراً في فرض عدة تدابير قانونية من خلال إيجاد عدة حلول تهدف إلى وضع مسارات لحفظ وتأمين التراث اللامادي من أجل استغلال مختلف الثروات التي لها علاقة بحياة الإنسان في بيئته الاجتماعية والثقافية^(١٤).

رابعاً: واقع التراث اللامادي بقبيلة

تسمان من خلال نتائج الدراسة الميدانية

للتراث الثقافي اللامادي دوراً هاماً في تعزيز التنمية في مكان تواجده، فهذا الموروث الثقافي بكل أشكاله يمكن أن يدفع بالتنمية بكل عناصرها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية إلى الأفضل، ويساهم كعامل أساسي في تحديد الوظائف الاجتماعية وإعادة إحيائها عبر الأجيال والمحافظة على الهويات الثقافية للمجتمعات ناهيك عن تحقيق التنمية المحلية وتعزيزها، كما يشكل أيضاً مصدراً أساسياً لتفعيلها من خلال توفير فرص عمل في مختلف القطاعات من قبيل القطاع السياحي والترويج للحرف التقليدية والتفاعل بين ثقافات المحلية وخلق الاحترام بينها. ولقبيلة

٢/٤- عناصر التراث اللامادي المتواجدة بقبيلة تمسمان حسب آراء المستجوبين

عناصره	مجال التراث اللامادي
رقص محلي: شَطِيحْ، أَرَأَيْسْ، رَعِيَاثْ/ ...	تقاليد أداء العروض الفنية
غناء محلي: إِزْرَانْ/ تعبير شفهي: أمثال، حكايات، حكم/...	أشكال التعبير الشفهي
طب شعبي: كي، الأعشاب الطبية، التبرك بالمنابع المائية، زيارة الأضرحة والزوايا...	الطقوس الاستشفائية
ثويزة، العنصرة، الألعاب الشعبية، جني الزيتون، طقوس دورة الحياة: طقوس الزواج، العقيقة، الختان، مراسيم الدفن ...	الممارسات الاجتماعية والطقوس الاحتفالية
تربية النحل، عيزبيان، زمو، كسكس: طعام، ...	المنتجات التقليدية
الفخار الريفي: ثَرَاخْ، السلات، الخشب: الأواني الخشبية...	المهارات الحرفية

المصدر: البحث الميداني

من خلال المعطيات الواردة في الجدول يتبين لنا أن عناصر التراث اللامادي لقبيلة تمسمان في الريف الشرقي تتنوع بين تقاليد أداء العروض الفنية مثل رقصات شَطِيحْ وأَرَأَيْسْ ورَعِيَاثْ، وأشكال التعبير الشفهي كالغناء المحلي إِزْرَانْ مثلاً، والأمثال والحكايات، والطقوس الاستشفائية باستخدام الطب الشعبي كالأعشاب الطبية والكي، والممارسات الاجتماعية والاحتفالية مثل ثويزة، العنصرة، وطقوس دورة الحياة كالزواج والختان. وتتضمن أيضاً المنتجات التقليدية مثل تربية النحل وإعداد الكسكس (طعام)، والمهارات

تمسمان بالريف الشرقي موارد ثقافية شأنها شأن باقي المناطق الأخرى التي تشكل قبلة للعديد من الزوار سواء بالمناطق المجاورة للقبيلة أو من مناطق مختلفة بالمغرب، من أجل الاستجمام أو الاستشفاء والتبرك بالمنابع المائية أو للاطلاع على الثقافة المحلية في شموليتها... إلخ.

وعلى الرغم من هذه الموارد الثقافية كلها فالتممية المحلية ليست لها مكانة قوية داخل المنطقة، ويعود ذلك إلى انعدام تصور واضح لاستثمار هذه الموارد من طرف القائمين على الشأن المحلي الثقافي بالمنطقة، من خلال خلق بنية تحتية مؤهلة وإنشاء مراكز الإرشاد والتوجيه لاستقبال الزوار وتوجيههم إلى أماكن احتضان العناصر التراثية بالمنطقة. ومن أجل الكشف عن بعض ملامح التراث اللامادي بالمجال المدروس "حالة قبيلة تمسمان" والتعرف على الوسائل الممكنة التي تساهم في عجلة التنمية بها، ركزنا في دراستنا هذه على معاينات ميدانية بغرض استقصاء آراء السكان حول العناصر المتدخلة لاستثمار العناصر التراثية وبالأخص غير المادية منها في تعزيز التنمية.

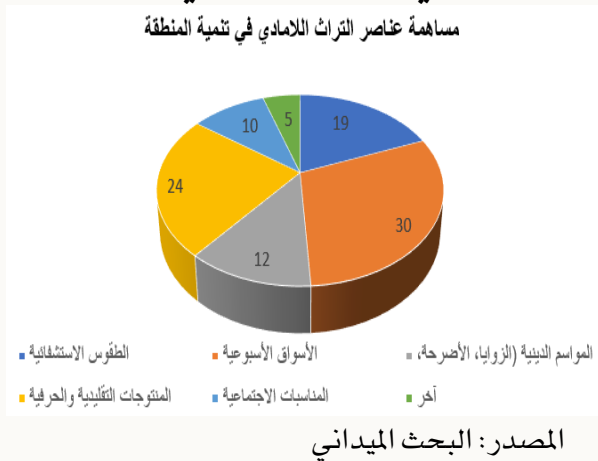
وقد تناولت أسئلة المقابلة الجوانب الآتية:

١/٤- تعريف التراث اللامادي حسب آراء السكان المحلية

هو كل العناصر التي تدل على أشياء موروثة من الأسلاف والتي تحمل في طياتها الأبعاد الثقافية والتاريخية للمنطقة بمعناها الشامل، ويعني كذلك القيم التي يتم تعلمها بسهولة عبر الأجيال، وتشمل هذه العناصر: الأمثال، الحكم، الأحاجي، المعارف الفلاحية والحرفية، الخبرات الاستشفائية، والطقوس الاحتفالية.

مما يقوي الروابط الاجتماعية ويعزز التلاحم بين الناس من جهة. وتعتبر وسيلة للحفاظ على التراث الثقافي ونقله من جيل إلى جيل. من خلال المشاركة في هذه الاحتفالات، يتعلم الشباب عن تقاليد وأساليب حياة أجدادهم ومن ثم تساعد على تعزيز هويتهم الثقافية والشعور بالانتماء إلى مجتمعهم والفخر بتاريخهم وثقافتهم. من جهة ثانية. أما الحرف التقليدية فالإقبال عليها قليلاً مقارنة بالعناصر التراثية الأخرى، حيث بلغت نسبة الزوار لأماكن ممارسة هذه المهارات الحرفية ١٣%، وهو ما يعني أن هذه الممارسة في طريقها إلى الاندثار شأنها شأن بعض الممارسات الاجتماعية كثويزة والعنصرة وغيرهما.

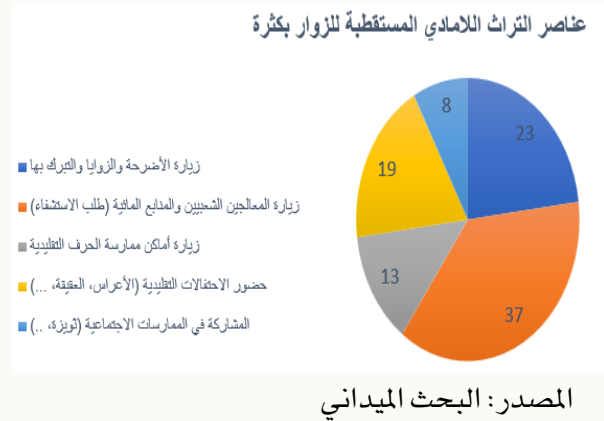
٤/٤- عناصر التراث اللامادي الأكثر مساهمة في تنمية المنطقة في نظر الساكنة



يُظهر المبيان أن الأسواق الأسبوعية تمثل أهم عناصر التراث اللامادي في تنمية المنطقة من منظور الساكنة المحلية، إذ تُسهم بشكل كبير في تنشيط الحركة التجارية وتوفير دخل إضافي للسكان، بالإضافة إلى تعزيز التواصل الاجتماعي والتبادل الثقافي. بعدها تأتي المنتجات الحرفية والتقليدية في المرتبة الثانية، حيث تعكس التراث الثقافي والفني وتوفر فرص عمل للسكان المحليين، مما يُعزز الاقتصاد المحلي ويجذب السياح. كما تلعب المناسبات الاحتفالية، مثل الأعياد والمهرجانات الثقافية، دوراً هاماً في تعزيز الروح الجماعية والاحتفال بالتراث الثقافي، مما يزيد من السياحة الداخلية. علاوة على ذلك، تحتل المواسم الدينية المرتبة الرابعة من حيث

الحرفية كالفخار الريفي وصناعة السلالات والأواني الخشبية. تعكس هذه العناصر هوية المجتمع الثقافية وتحافظ على تراثه العريق.

٣/٤- العناصر التراثية الأكثر جذباً للزوار حسب آراء الساكنة المحلية



يبدو من خلال المعطيات الواردة في المبيان أعلاه، أن طلب الاستشفاء يشكل العنصر التراثي الأكثر استقطاباً للزوار حسب آراء ساكنة القبيلة مجال الدراسة نظراً لتوارثهم تقاليد وعادات علاجية قديمة تعتمد على الطب الشعبي والأعشاب والتدليك والحمامات التقليدية والكي بنسبة بلغت ٣٧%. فيما حصلت زيارة الأضرحة والتبرك بها المرتبة الثانية بنسبة ٢٣% إذ يعتقد الزائرون أن الأضرحة تجلب البركة والشفاء وتحقيق الأمنيات، مما يعزز إيمانهم ويقربهم من الله. كما تعكس هذه الزيارات جزءاً من التراث الثقافي والتقاليد المجتمعية، حيث تنتقل من جيل إلى جيل وتشكل جزءاً من الهوية الثقافية للمجتمع. بالإضافة إلى ذلك، تساهم الأضرحة في تعزيز التواصل الاجتماعي. تُعتبر الأضرحة أيضاً وجهات للسياحة الدينية، مما ينعش الاقتصاد المحلي ويجذب الزوار من مختلف المناطق. وبالنسبة لبعض الأشخاص، فإن زيارة الأضرحة توفر لهم السلام الداخلي والراحة النفسية، مما يساعدهم على تجاوز التحديات الشخصية.

وبعدها احتلت الاحتفالات الاجتماعية التقليدية المرتبة الثالثة بنسبة ١٩% حيث تكون هذه الاحتفالات فرصة للتواصل الاجتماعي واللقاء بين أفراد المجتمع،

استنتاجات الدراسة

من خلال دراستنا، تبين أن منطقة الريف الشرقي تحتضن مجموعة غنية ومتنوعة من العناصر اللامادية لتراثها الثقافي، بما في ذلك التقاليد الشفهية والفنون التقليدية والممارسات الاجتماعية التي تعكس تاريخاً يمتد لعدة أجيال.

يعتبر التراث اللامادي في منطقة الريف الشرقي، وخاصة في قبيلة تمسمان، عنصراً حيوياً في تعزيز التنمية المحلية. يُسهم هذا التراث في الحفاظ على الهوية الثقافية وتعزيز الانتماء الجماعي والفخر بالتراث المحلي، مما يعزز من تماسك المجتمع. كما يُشكل مصدراً مهماً للتنمية الاقتصادية من خلال السياحة الثقافية، حيث يمكن أن يجذب الزوار ويوفر فرص العمل ويزيد من الإيرادات المحلية.

وقد سجلت الدراسة أيضاً أن التنمية القائمة على التراث اللامادي يجب أن تكون مستدامة وموجهة نحو تحسين حياة السكان المحليين. من خلال الاستثمار في التدريب والخبرة يمكن للمجتمع المحلي أن يستفيد بشكل مباشر من تراثه الثقافي.

توصلت الدراسة إلى أن الأسواق الأسبوعية، التي تضم منتجات تقليدية، تُعدّ من أبرز عناصر التراث اللامادي التي تسهم في تعزيز التنمية المحلية. تقوي هذه الأسواق الروابط الاجتماعية وتشجع على جذب السياحة المستدامة.

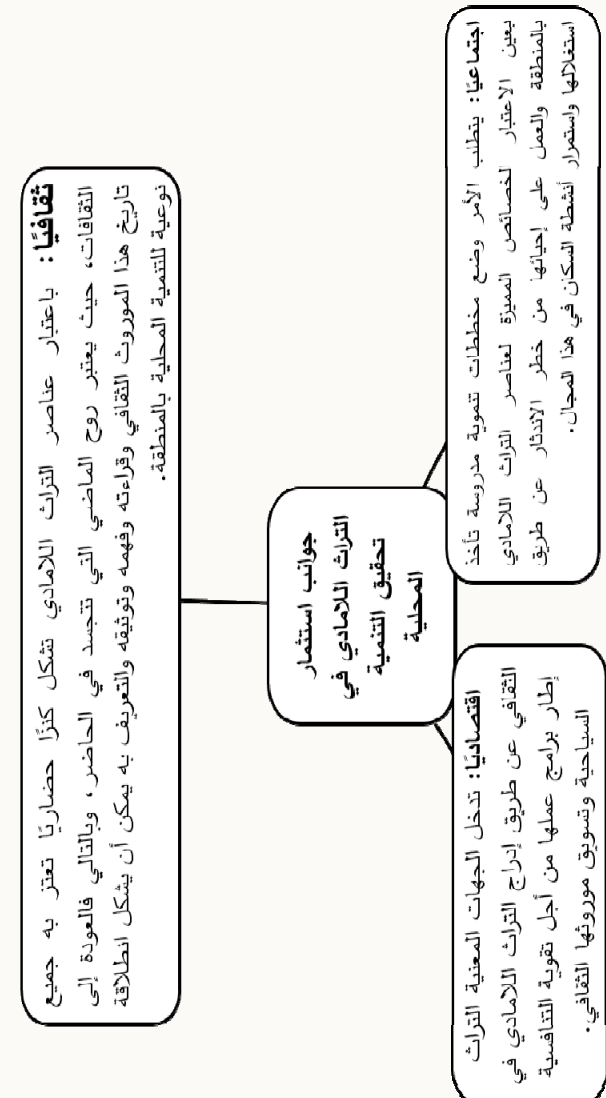
خاتمة

يمكن التأكيد من خلال دراسة الوضع الحالي للتراث اللامادي في قبيلة تمسمان بالريف الشرقي، وربطه بالدور الذي لعبته هذه العناصر عبر تاريخ الإنسان الأمازيغي الريفي، على أهمية ضرورة لصونها واستثمارها بالشكل المناسب. فهذا التراث يلعب دوراً أساسياً في تعزيز التنمية المحلية، من خلال تفعيل دوره في القطاع السياحي، وتعزيز الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المنطقة، مما يعزز التفاعل الإيجابي بين السكان المحليين والزوار.

مساهمتها في التنمية المحلية، إذ تُعزز الروابط الروحية والدينية وتساهم في تثبيت القيم والتقاليد الدينية، وتشكل فرصة لتعزيز السياحة الدينية. أخيراً، تُسهم المناسبات الاجتماعية، مثل حفلات الزفاف والاحتفالات العائلية، في تعزيز الروابط الاجتماعية ونقل الثقافة المحلية إلى الأجيال القادمة. مجمل هذه العناصر يُسهم بشكل فعال في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمنطقة، مما يعكس أهمية الحفاظ على التراث اللامادي وتعزيزه لضمان استدامة التنمية المحلية.

٥/٤-الفرص المتاحة لاستثمار التراث

اللامادي في تعزيز التنمية المحلية



الإحالات المرجعية:

- (١) موسى أفرماس وسليم احمدوش، "قبيلة تمسمان بالريف المغربي: التاريخ والثقافة والمجتمع"، ضمن: الريف التاريخ والمجال والإنسان، إعداد وتنسيق: أيوب الشاوش ونور الدين أحميان، دار القلم، الرباط، ٢٠٢١، ص ٨٠-٨١.
- (٢) موسى أفرماس، "الثقافي بالريف المغربي: الأضرحة والزوايا بقبيلة تمسمان أنموذجاً"، ضمن: القبيلة المغربية المجال والتاريخ والتراث، مراجعة وتقديم: محمد دحمان، تنسيق: جواد التباعي وآخرون، مركز رؤى للدراسات والأبحاث، مطبعة وراق بلال، فاس، ج ٢، ط ١، ٢٠٢٢، ص ١١.
- (٣) أوجيست موليراس، المغرب المجهول: اكتشاف الريف، الجزء الأول. ترجمة: عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز ن أريف، مطبعة الحمامة تطوان، الطبعة الثانية، ٢٠٢١، ص ١٣١-١٣٦.
- (4) Federico Lenzerini (2011): «Intangible Cultural Heritage: The Living Culture of Peoples», The European Journal of International Law, Vol. 22, p: 104.
- (٥) المادة ١٢ الفقرة ١٢ من الاتفاقية المتعلقة بصون التراث الثقافي غير المادي لعام ٢٠٠٣.
- (٦) منزي ابتسام وآخرون، "دور التراث الثقافي في دعم وتنمية السياحة: دراسة حالة تركيا"، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، المجلد ٩، العدد ١، ٢٠٢٢، ص ٢٥٦-٢٧٦.
- (7) Skounti, Ahmed, « Le patrimoine culturel et le tourisme au Maroc et à Marrakech ». Communication interculturelle, patrimoine et tourisme, publication de la FLSHM, p: 81.
- (٨) حسام عبد الأمير خلف، "تحولات الحماية للتراث الثقافي في القانون الدولي: من المادية إلى اللامادية: تطور مفاهيم"، مجلة جامعة الأنبار للعلوم القانونية والسياسية، مج ٩، ع ٢، ٢٠١٩، ص ٣٠٢.
- (٩) نسرين بنرياح، "تثمين استثمار التراث المادي واللامادي في تنمية السياحة الجبلية المستدامة: نموذج جماعة مقريصات إقليم وزان"، مجلة المجال والتنمية، العدد ٤، مطابع الرباط نت، ٢٠١٩، ص ٣٣١.
- (١٠) المختار الأكل، "أية منهجية لتدخلات العمومية من أجل التنمية المحلية بالمجالات البورية. هضبة بن سليمان"، ندوة: مناهج البحث في الوسط الريفي الغربي، تنسيق موسى الكرزازي. نقلاً عن: نسرين بنرياح، مجلة المجال والتنمية، نفس المرجع.
- (١١) اليونيسكو، الحفاظ على التراث العالمي قاطرة التنمية المستدامة: أخبار الأمم المتحدة، على الرابط التالي: <https://news.un.org/ar/audio/2018/01/376222>
- (١٢) عبد الرزاق التجاني، راهنية التراث في عالمنا المعاصر، جريدة الشرق الأوسط، عدد ١٠، ٢٠٠٦، <https://aawsat.com/home/article/781471> (تاريخ الاطلاع: ٢٠٢٤..٧..١)
- (١٣) مبارك جعفري، التراث المادي واللامادي ودوره في خدمة التنمية المستدامة بتوات، مداخلة أقيمت في المؤتمر الدولي الموسوم بـ "الموروث الثقافي والسياحي ودوره في خدمة التنمية المستدامة" يومي ١١ و ١٢ نونبر، ٢٠٢٠، جامعة أحمد دراية-أدرار، ص ٥.
- (١٤) عبد الكريم خبزاوي، "التراث اللامادي حمايته وتثمينه، وأبعاده المستدامة"، مجلة عصور، العددان ٣٤-٣٥، ٢٠١٧، ص ٢٠.

توصيات الدراسة

- توعية جميع فئات المجتمع الريفي بأهمية جمع وتوثيق وتصنيف عناصر التراث الثقافي اللامادي للمنطقة.
- إلزامية إشراكهم في جهود الحفاظ على هذا التراث الثمين.
- تنظيم عروض ثقافية ومعارض في مناطق مختلفة من الريف، تتيح للأفراد والجماعات عرض وتبادل عناصر تراثهم بفاعلية والترويج لها.
- دعم المشاريع الصغيرة والمبادرات الريادية من خلال تقديم دعم مالي وفني للأفراد والجمعيات المحلية لتطوير وتسويق المنتجات ذات الصلة بالتراث اللامادي، مما يعزز الدخل المحلي ويشجع على الابتكار.
- تعزيز السياحة الثقافية المحلية عن طريق تنظيم فعاليات ثقافية محلية وجولات سياحية تعرض التراث اللامادي وتجذب الزوار، مما يعزز الوعي بالتراث ويدعم الاقتصاد المحلي.
- تطوير استراتيجيات الحفاظ على التراث من أجل تعزيز جهود الحفاظ على الممارسات والتقاليد التقليدية من خلال برامج دعم الحفاظ والتوعية بأهمية التراث الثقافي.
- الترويج والتسويق الفعال من خلال استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتكنولوجيا للترويج للتجارب والمنتجات المتعلقة بالتراث اللامادي، وتعزيز الوعي بأهميتها للمجتمع المحلي والزوار.

البنية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الحجاز إبان القرن الحادي عشر من خلال نماذج من الرحلات الحجية المغربية

محمد مزiane

أستاذ مساعد

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية



ملخص

تحاول هذه الدراسة تتبع البنيات الاجتماعية والاقتصادية وتطورها في بلاد الحجاز خلال القرن السابع عشر ميلادي الموافق للحادي عشر هجري من خلال رصد ما جاء في متون الرحلات الحجية المغربية إلى هذه المناطق. على اعتبار أن الرحلات الحجية أوفر عددًا نظرًا لاستمرار الصلة بين جهات العالم وهذه البقاع التي يأتيها الناس من كل فج عميق، فرغم أن الصيغة الدينية هي الطاغية على مضامينها إلا أنها احتوت على معلومات ومعطيات في غاية الأهمية تساعد في دراسة جوانب ظلت مغيبة من تاريخ المنطقة. لهذا سنركز على تحليل هذه البنية خلال الحادي عشر هجري – القرن السابع عشر الميلادي من خلال الرحلات الحجازية التالية: أنس الساري والساربي من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٢م)، لأبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي. المعارج المرقية في الرحلة المشرقية لمحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني الذي حج عام (١٠٩٦هـ). نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس في سنة (١١٠٠هـ/١٦٨٨م) للقادري.

كلمات مفتاحية:

البنية الاقتصادية والاجتماعية؛ الحجاز؛ الرحلات الحجية؛ التاريخ الاقتصادي؛
التاريخ الحديث والمعاصر

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ فبراير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٨ أبريل ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.362105.1210

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد مزiane، "البنية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الحجاز إبان القرن الحادي عشر من خلال نماذج من الرحلات الحجية المغربية"، - دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥، ص ٤٨ - ٥٩.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: mohammed.meziane@uit.ac.ma

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تحاول هذه الدراسة تتبع البنيات الاجتماعية والاقتصادية وتطورها في بلاد الحجاز خلال القرن السابع عشر ميلادي الموافق للحادي عشر هجري من خلال رصد ما جاء في متون الرحلات الحجية إلى هذه المناطق. على اعتبار أن الرحلات الحجية أوفر عدداً نظراً لاستمرار الصلة بين جهات العالم وهذه البقاع التي يأتيها الناس من كل فج عميق، فرغم أن الصيغة الدينية هي الطاغية على مضامينها إلا أنها احتوت على معلومات ومعطيات في غاية الأهمية تساعد في دراسة جوانب ظلت مغيبة من تاريخ المنطقة.

لهذا سنركز على تحليل هذه البنية خلال الحادي عشر هجري - القرن السابع عشر من خلال الرحلات الحجازية التالية: أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م)، لأبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي^(١). المعارج المرقية في الرحلة المشرقية لمحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني الذي حج عام ١٠٩٦هـ^(٢)؛ نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس في سنة (١١٠٠ / ١٦٨٨م) للقادري^(٣).

نلاحظ من خلال هذه العناوين تنوع الأغراض وتعدد الموضوعات مما يعكس رواسب ثقافية وذهنية ثاوية في فكر هؤلاء الرحالون، وعليه سنعتمد عليهم في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الحجاز خلال القرن الحادي عشر، متسلحين بالمنهج التحليلي والمنهج المقارن للوقوف على ما جادت به هذه المتون من معلومات تحتاج إلى التدقيق والنقد والتحليل، في محاولة منا للإجابة على الإشكالتين المركزية للدراسة وهي: ما معالم الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للحجاز خلال القرن الحادي عشر/ السابع عشر؟ إلى أي حد تساهم هذه الرحلات في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة؟

تستمد هذه الإشكالات مشروعيتها من كون نصوص الرحلات الحجية بشكل عام لم تول كبير العناية والاهتمام بالجوانب السالفة الذكر ما دام أن الغرض

الرئيس من الرحلة وغايتها الفضلى هي حج بيت الحرام، وزيارة الأماكن المقدسة وارتداد آفاق العلم والأخذ عن علماء مكة والمدينة المنورة. بالمقابل نجد كذلك أن المصادر العربية التقليدية قد أغفلت التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات في المجتمعات الإسلامية. فالمؤرخون القدامى عزفوا في الغالب الأعم عن هذه المواضيع، وأبعدوا هذه المجالات البحثية من دائرة اهتماماتهم رغم أهميتها في تفسير التاريخ، ومن ثم عملوا على تهमيش مخزون الذاكرة الجماعية للشعوب، وإن كانت بعض الاستثناءات تشكل - على قلتها - تجارب مهمة نبشت في هذا الحقل، وأفرزت مجموعة من النصوص والنظريات التي تشكل معالم مضيئة في التراث العربي والإسلامي.

وإذا كان هذا التهميش والإقصاء من جانب المؤرخين القدامى يشكل مطبة حقيقية تجعل مهمة الباحث في استقصاء الحياة اليومية والعادات والتقاليد والاقتصاد في المجتمعات الإسلامية بما فيها مجتمع الحجاز مدار هذا البحث مهمة تشوبها العديد من الصعوبات، بسبب ندرة النصوص والمرويات التاريخية، فإن كتب الرحلات تعمل على لثم هذه الثغرة التي تركتها الحوليات التاريخية^(٤).

وعليه، سنحاول التقاط الإشارات التي جادت بها هذه الرحلات علها تسعفنا في رسم صورة عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمنطقة الحجاز خلال القرن (السابع عشر/ القرن الحادي عشر)، وحتى تكتمل عناصر الصورة ينبغي الانفتاح على بعض المؤلفات التي تناولت تاريخ المنطقة إما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر لتساعدنا في القيام بالتحليل أو المقارنة أو التحقق من معلومة جاءت هنا وهناك.

أولاً: نماذج من الرحلات الحجية المغربية

خلال القرن (الحادي عشر/ السابع عشر)

من الثابت تاريخياً أن بلاد الحجاز من أقدم المناطق تعميراً واستقراراً، وهوما انعكس على عمقها التاريخي، فهذه الأرض المباركة التي يأتيها الناس من كل فج عميق أصبحت محط أنظار المسلمين تهفو إليها قلوبهم وتخضع لها نفوسهم، لهذا نظمت إليها الرحلات الحجية، وهوما

فتتطابق الرحلات في مستوى الرحلة الزمانية أو المكانية، وتندمج الذات في صياغة المرئي. كما تداخلت في صياغة هذه النصوص جوانب متعددة منها: السيكلوجي والوجداني والروحي، لهذا جاءت هذه النصوص زاخرة بالوصف والسرد لكل مراحل السفر.

فلا تقتصر الرحلات على فعل الارتحال ماديا، بل إن السفر يعاد إنتاجه على مستوى الكتابة. السفر ارتحال من خلال النص الذي يصبح رحلة جديدة تضيء الرحلة الفعلية السابقة. وبفضل السفر، في الكتابة، يصبح بإمكاننا أن نتحدث عن خصائص نوعية ميزت الرحلة عن غيرها مثل طغيان الوصف النابع من رحم السرد، إن لم يكن خادما له، فضلا عن خصائص جمالية متعددة أنتجت السارد الجوال، السفر، أخيراً، ينتج لنا، عن طريق الرحلة، ما يمكن تسميته بالصورة السردية، أو الفعل الوصفي السرد، استناداً إلى أن المكان، أي مكان، لا يخضع للثبات، بل يحمل، في صلبه حركيته الزمنية المرئية وغير المرئية، مما يفتح حواراً - على مستوى تفاعل الأمكنة - خصباً بـ "الهنا" و "الهناك". الرحلة أخيراً، وليس آخراً، حكاية سفر، تعكس تجربة ذاتية غنية^(١).

بخصوص السياق العام للرحلات موضوع البحث في هذه الدراسة، فهي تتأطر زمنياً بنهاية الدولة السعديين وظهور الدولة العلوية وعملها على توحيد مناطق المغرب تحت لوائها مما فرض عليها الدخول في علاقات متقلبة مع الامبراطورية العثمانية من خلال مناوشات أتراك الجزائر للدولة المغربية على مستوى الحدود انتهت بتوقيع اتفاقية جعل وادي تافنا حداً فاصلاً بين المغرب والايالة العثمانية^(٢). أما فيما يخص بلاد الحجاز فقد كانت إدارياً خاضعة للإمبراطورية العثمانية التي حافظت على الأوضاع السائدة في الحرمين الشريفين، ولا سيما الوضع الثقافي والاجتماعي والإداري، وكان التقسيم الإداري في أوائل الحكم العثماني للحجاز يختلف عن آخره؛ فمع تسمية الوالي - الذي يتم تعيينه من استانبول - في البداية بأمير الأمراء، وتسمية أمير المدينة المنورة - الذي يُعين من استانبول - بشيخ الحرم، وتسمية أمير مكة المكرمة - الذي يُختار من الأشراف - بشريف مكة، إلا أنه تغير اسم بعض تلك الوظائف في العهد الأخير، حيث أصبح يُطلق على الأول والي

خلف لنا نصوصاً تاريخية تؤرخ لمسار الرحلة ولمختلف المشاهد والمعانيات التي عاينها الرحالون. ومن تمت جاءت كتاباتهم حافلة بالكثير من المعطيات التي تهم عالم السياسة والمؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع، فأهميتها تتجلى فيما تحويه من مادة علمية عن تلك المناطق، وغالباً ما تكتب بأسلوب أدبي منسق، يطغى عليه الجانب الفقهي وأحياناً أخرى بأسلوب علمي تقريرى وصفى، ولكنها في كلتا الحالتين لا تخلو من اعتمادها على السماع ومشاهدة وملاحظة الظواهر ليتم تدوينها، إما في حينه أو عند الرجوع إلى أرض الوطن. ومن المعلوم أن الرحلات تعد من مصادر كتابة التاريخ؛ لأنها تعتمد على الإدراك المباشر للأحداث، وليس على النقل والسماع فقط، مما يجعل منها شهادة حية لوقائع وظواهر مُعاشة في فترة زمنية محددة. لهذا تعتبر كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاثنوغرافية التي يمكن الاعتماد عليها في هذا الباب.

ونتفق مع سعيد بن سعيد العلوي حين القول: "إن الرحلة تتبى عن صاحبها أكثر مما تخبر عن موضوع المشاهدة. ذلك أن الرحالة إذ يجتهد في تصوير البلاد والمناظر التي يرحل إليها ويطلب تحقيق الامتاع والمؤانسة بما ينقله إلى قارئه من غرائب وعجائب، فإن ذلك كله لا ينفك من الحديث عن الذات تصريحاً أو تضميناً ولا يملك أن يخرج عن الإهاب الحضاري الذي يصدر عنه ولا يبتعد عن الثقافة التي ينتمي إليها"^(٣). وبذلك كانت الذات هي محور الرحلة وهي منطلق المقارنة والمعارنة لذلك نجد ضعف حضور الآخر بمستوياته المختلفة.

مهما تنوعت الرحلات وتعددت أغراضها تظل الرحلة الحجازية مختلفة تماماً عن سواها، فرغم تناولها لجوانب مهمة من تاريخ بلاد الحجاز، وهي جوانب لم تحظ بتغطية وافية من طرف المصادر الأخرى، حتى وإن كانت الرحلة الحجازية دينية بالأساس، لأداء فريضة الحج، فإنها كانت كذلك علمية، لاستكمال التحصيل العلمي والحصول على الإجازات. ورغم التباين الكبير فيما بين كتب الرحلات إلى الحجاز؛ إلا أن الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها،

٢/١- رحلة أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي. الشهير بالسراج والملقب بـ (ابن المليح)

دَوَّنَ رحلته تحت عنوان: أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (١٠٤٢-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م)^(١٢)، رحلة لها طعم خاص بما احتوته من معلومات مهمة عن تعلق المغاربة بالحرمين الشريفين وبمدى سعيهم من أجل الحصول على رضى تلك البقاع ومن تحتضنهم... وقد تمت أيام السلطان الوليد بن زيدان بن المنصور أحمد الذهبي^(١٣)... الوليد الذي بعث بهدية فريدة للحرمين بواسطة القائد جوهر... تتحدث الرحلة عن ميقات أهل مصر والمغرب: رابع قبيل محطة الجحفة التي يحرم منها الحجاج.... يخبرنا ابن المليح أنه دخل مكة (ذو الحجة ١٠٤٢/ يونيو ١٦٣٣) من موقع كداء الشية التي بأعلاها، والأصوات تصافح المسامع بالتلبية لقد قطعوا رباً مكة ربوة ربوة... وتبدت لنا يقول ابن المليح الكعبة الغراء في أستارها، وتجلت لنا المليحة بأنوارها^(١٤). تكمن أهمية هذه الرحلة في اعتماد صاحبها على مجموعة من المصادر المكتوبة، على غرار أغلب الرحلات التي اعتمدت إلى جانب الملاحظة المباشرة والرواية الشفوية على مصادر لفقهاء أو مؤرخين أو رحالون، وهكذا نجد ابن المليح ذكر عددا لا يستهان به من الكتب منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الحكم، لأبي العباس أحمد بن عطاء الله؛
- خلاصة الوفا، لنور الدين السهمودي؛
- دلائل الخيرات، للإمام الجزولي؛
- المدونة، للإمام سحنون.

وقد كان خروج الركب الذي يضم ابن المليح من مصر في ٢٧ شوال (١٠٤١هـ/ ١٦٣١)، فمروا على عجرود وعقبة آيلة وقصبتها حيث تلتقي الركبان القادمة من الشام، ثم بعد ذلك قصبة المويلح ثم قصبة الوجه ثم ينبع ثم رابع، ثم دخل مكة يوم ٧ ذي الحجة آنئذ قال: "فسبحان من شرف الكعبة البيت الحرام بالإجلال والإعظام واصطفاه، وجعل حماه مباحا رحبا لمن حول

الحجاز، وعلى الثاني محافظ المدينة المنورة، واحتفظ الباقي بالتسمية نفسها، وكانت ولاية الحجاز تتكوّن من ثلاث سناجق: مكة المكرمة وهى مركز الولاية، والمدينة المنورة وجدة، في الوقت الذي كانت جدة تشكّل مع الحبشة إمارة في بدايات عهدها، وكان والي جدة نفسه شيخاً للحرم المدني، ولا سيّما إذا حاز رتبة الوزارة^(٨).

قبل الغوص في تحليل ما جادت به هذه الرحلات الحجية من معلومات حول الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الحجاز، يجدر بنا أن نقدم تعريفاً مختصراً لهذه الرحلات - التي سنعتمدها في هذه الدراسة- وللظروف التي أحاطت بها. مع الإشارة إلى أنه الحديث لن ينصب على رحلة في غاية الأهمية خلال الفترة المعنية بالدراسة هي رحلة العياشي الموسومة "بماء الموائد"، حتى لا يتم اجترار ما قيل حولها من قبل.

١/١- رحلة ابن أبي محلي: ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي محلي الفيلاي العباسي المتوفي سنة (١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م) في أعقاب تمرد على الأمير المولى يزيد ابن السلطان أحمد المنصور الذهبي. له رحلة تحمل ثلاث عناوين: الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت" أو عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرّج" أو "الرسالة"^(٩) وقد حقق الأستاذ عبد المجيد القدروي هذه الرحلة وعلق عليها في كتاب بعنوان "ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت"^(١٠). والرحلة عبارة عن فهرسة عرض في بابها الأول شيوخه في التصوف، بينما ذكر في الباب الثاني أساتذته في العلوم بالمغرب ومصر وكذا بالحجاز، مضيفاً إلى ذلك رأيه عن طريقة تدريس بعض الشيوخ ونصوص مراسلاتهم له مع نص إجازة له من شيخه أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي... ثم تناول في الباب الثالث ارتساماته عن رحيله إلى مصر والحجاز وما دار خلالهما من مناقشات في موضوع نظرة الاسلام إلى تناول عشبة "التبغ"^(١١).

ذكر في رحلته الحجازية، والموجودة بخزانة محمد داوود، أنه ابتداء رحلته مع رفقائه من بلده تطاوين عقب صلاة الجمعة من يوم ثامن جمادى الأولى عام ستة وتسعين وألف هجرية وأنهم لبثوا ستة أيام كاملة في (حلق الوادي) وادي مرتيل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم من الله عليهم بريح طيبة فركبوا سفينة شرعية سارت باسم الله مجراها ومرساها. كما وصف الرفاعي الصعوبات التي واجهت ركب الحجيج المغربي سواء في البحر أو البر وما اجتازوه من صعوبات حتى وصلوا إلى مكة التي وصفها ووصف ما تضمنه من معاهد وأماكن وآثار، وأثبت نصوص الدعوات التي تقال في مختلف المناسبات والمواقف وكل ذلك بشعور فياض وعواطف متأججة^(٢٠). كما أعلن عن دوافعه الدينية ورغبته في الحج بشوقه لزيارة المقام الشريف إذا قال: "لما أصابني من الشغف وخامرني من الوجد والكلف، صاحب خير الأنام طه، وأعظم الخلق قدرا وجاها، والتلذذ بفروع من رق وعلا".^(٢١)

ثانياً: ملامح من الحالة الاجتماعية لبلاد الحجاز

نسجل من خلال الاطلاع على الرحلات الحجازية خلال الفترة المعنية بالدراسة، ضعف الإشارات إلى البنية الاجتماعية لمنطقة الحجاز، وطفيان السردية وهاجس التوثيق، لهذا جاء الحديث عن هذا الموضوع عرضياً، أو جاء وردت المعلومة في سياق يجمع بين الجانب الاقتصادي والاجتماعي لمحات عن الجانب السياسي، فما دام الهدف من الرحلة ومن تدوينها كما أسلفنا هو الحديث عن تجربة الحج وعن أهوال السفر، وبالتالي طفحت نصوص هذه الرحلات بالجانب الروحي والوجداني، لهذا وحتى تتضح عناصر الصورة كان لابد من الرجوع إلى بعض الدراسات التي تناولت عن تاريخ المنطقة خلال المدروسة.

وعلى كل حال فقد أكدت هذه الرحلات على تنوع العناصر السكانية للحجاز إذا كانت التركيبة البشرية تتكون من العناصر التالية:

-الأشراف^(٢٢): أمراء البلد وهم من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما والملقبون ببني قتادة أو بني أبي

حماء، وحرماً آمناً لمن دخل عليه ووفى ما عليه حين وافاه هذا كله والتلبية تتجدد عند كل صعود وهبوط^(٢٣) بعد ذلك توجهوا إلى المدينة يوم الجمعة ٣ محرم (١٠٤٢هـ/ ١٦٣١م) وأثناء مقامه بالحجاز وصف الأحوال السياسية لهذه البلاد.

٣/١- نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس

حج أبو العباس سيدي أحمد بن محمد «فتحاً» بن عبد الله معن الأندلسي سنة ١١٠٠هـ، ورافقه في حجته تلميذه أبو العباس القادري فألف رحلة سماها: نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس تمتاز بأسلوب جميل حي يجعلها من أبدع الرحلات التي ألقت في المغرب. وقد سافر سيدي أحمد بن عبد الله في جماعة كبيرة من أصحابه مع الركب المغربي^(٢٤) على طريق البر، وقد ذكر القادري كل المراحل من فاس إلى مكة، لكن باختصار لا يخلو مع ذلك من فائدة عن أحوال طريق الحج في أوائل القرن الثاني عشر.

وخلال هذه الرحلة يتتبع القادري تسجيل المراحل التي يقطعها الشيخ ابن معن، والوفد الكبير المرافق له، ويصف نشاطه في الطريق، وأثناء تأدية مناسك الحج. ويتحدث عن لقيه من الرجال أو من تبرك به من الرجال علماء أو صلحاء، أحياء وأمواتاً. ولما كانت الرحلة من إنتاج أديب سبق له ممارسة الأدب، فقد اهتم القادري بهذا الجانب في كتابة الرحلة، فجود أسلوبها وحسن صياغتها. وأضاف إليها من النصوص الأدبية والشعرية المناسبة التي أنتجها خلال المواقف التي واجهها، أو من النصوص الأدبية التي عرضت له. فكانت بذلك نصاً أدبياً جيداً يرسم أسلوب الكتابة الفنية عند أحمد القادري، ويحدد مستواه الأدبي فيها.^(٢٥)

٤/١- المعارج المرقية في الرحلة المشرقية^(٢٦)

لمحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني الذي حج عام ١٠٩٦هـ:^(٢٧) فهو من أعلام حاضرة تطوان قال عنه صاحب تاريخ تطوان بأن الرافعي الأندلسي عاش في القرن الحادي عشر وتأخرت وفاته إلى القرن الثاني عشر، لم يكن مشهوراً رغم إنتاجه العلمي الغزير الذي تنوع بين الرحلة والنظم، والرسائل، والأدعية، والأوراد.

تؤكد الرحلات الحجازية في فترات لاحقة على هذا التعدد^(٢٨).

كذا هناك فئة العبيد المشتغلين كجمالين، وتذكر الرحلات أن هؤلاء العبيد من أوطان متعددة، استقدموا إلى الحجاز لخدمة الأشراف أو الوجهاء أو أداء مهام معينة مرتبطة بموسم الحج.

نفس التركيبة البشرية المشار إليها أعلاه نجدها في المدينة المنورة مع التغيرات البسيطة فزيادة على الأشراف الذين كانوا يتمتعون بنفس مكانة وحظوة أشراف مكة المكرمة، نجد فئة الأنصار من ذرية الأوس والخزرج ثم المجاورين من جنسيات مختلفة وشكلوا نسبة مهمة من المجتمع المدني، ثم المجاورون الذين قال عنهم الرافعي أنهم قادمون من بلاد المغرب وفارس وفولان وسجلماصة والسند وتركيا والشام^(٢٩)، كما يعطي القادري مثالا على ذلك بذكره لأبو العباس أحمد بن عمر الحسيني السجلماسي المجاور بالمدينة المنورة^(٣٠). وصف الرحالون أيضاً أخلاق أهل مكة، فالرافعي خصهم بالمديح فقال عن شخص أراد مساعدته على الطواف بالمسجد الحرام كان بوجهه سماح، وقد اعترف لأهل مكة بفضيلة المجاورة لذلك حكم لجميع أهل مكة المكرمة بحسن الخلق^(٣١) وقال ابن المليح القيسي: "خرج أهل المدينة لملاقاتنا بالتعظيم والاحلال والترحيب والإقبال أبقاهم الله بأحسن شمائلهم... تخلقوا بأقاهم الله بأخلاقه (ﷺ) وتأدبوا من حسن آدابه (ﷺ)"^(٣٢)، كما وصف لحظة الوداع بالآتي: "خرج أهل المدينة مشيعين لنا كباراً وصغاراً، باكين متحسرين على انفصالنا عنهم بعد الألفة لأيام قلائل، وخوفا علينا من غوائل الطريق"^(٣٣) ويخلص إلى كرم أهل المدينة وحسن أخلاقهم وتأديبهم إذ يبرز بصيغة من المتعجب: "فما أحلى شمائلهم رضي الله عنهم وما أكرم على الله أخلاقهم"^(٣٤). وقال الرافعي: "قوم حسان وأخلاقهم مستحسنة"^(٣٥). زيادة على ذلك، كانت هذه التركيبة المجتمعية تزخر بالعلماء حيث أورد ابن أبي محلى في رحلته العديد من العلماء الذين التقى بهم في الحجاز ونهل من علمهم وأجازوه كما تحدث أيضاً عن أهل الحجاز وماهم عليه من قرب إلى الله تعالى وما يسود عباداتهم من الصفاء، وما هم عليه من حرص على أداء

نمة. وخلال العهد العثماني فإن هذه الطبقة قد قامت بتدعيم مكانتها الدينية ومركزها الاجتماعي والسياسي، في الحاضرة والبادية على الرغم من اعتبارهم موظفين عثمانيين يعينون بأمر من الباب العالي، فقد كان أمراء مكة والمدينة على عكس الولاة العثمانيين في الحجاز يتصرفون دون الرجوع إلى الباب العالي أو الحصول على رضاه. زيادة على ذلك فقد كانوا يتحصلون على جزء من مداخيل ميناء جدة فيما النصف الباقي يكون من نصيب الباب العالي. كما كانوا مميزين على مستوى المظهر العام والحظوة والمكانة داخل المجتمع وحتى في أعين وفود الحجاج.

- القرشيون: هم قلة بقيت من سلالة القرشيين الأوائل، وإن كانت غالبيتهم نزحت إلى البلدان المجاورة إثر موجات الفتح الإسلامي وجزء منهم استوطن الطائف، نواحي مكة المكرمة وجدة، ومنهم من غادر الحجاز عقب الثورات العلوية^(٣٦).

الأغوات^(٣٧): وهم عبيد من الأجناس المختلفة، أوقفوا على المسجدين المكي والمدني بقصد الاعتناء بهما، ولم يكن لهم تأثير اجتماعي، كانت مهمتهم تتحدد أيضاً في ضبط الأمن والحفاظ على النظام داخل الحرم المكي والمسجد النبوي. وسيصبح لهم تأثير سياسي حسب ما ذهبت إليه إحدى الباحثات.

المجاورون: تشير كتب الرحلات الحجية إلى وجود جاليات مجاورة في مكة المكرمة منهم المغاربة والهنود والجزائريون والتونسيون والطرابلسيون والمصريون والسودانيون واليمنيون والحضارمة والسنود، والأعاجم، والبصريون، والاحسائيون.

وقد أشار القادري إلى وجود جاليات مجاورة في مكة المكرمة منهم المغاربة والهنود والمصريون والأعاجم والبصريون والاحسائيون^(٣٨) أخبرنا أيضاً ابن المليح أن السيد عبد العزيز بن محمد الكبير، نجل سيدي أبي عمرو قد أقام بالحرمين مجاوراً^(٣٩). وقال صاحب الاصلية الخريت عن وجود شيخ هندي مجاور في مكة^(٤٠). وقد استطاعت هذه الفئة الاندماج في التشكيلة الاجتماعية لمكة. كما تمكن هذا الخليط من خلق توليفة مجتمعية انصهرت في بوتقة المجتمع المكي خلال القرن السابع عشر واستمرت في التواجد إلى ما بعد ذلك إذ

في غاية الأدب والذكاء والنجابة. ركز الرافعي على بعض العادات والتقاليد المرتبطة بالأمور الدينية للبقاع التي مر منها بطريقة مجردة، إذ أنه لا يتحدث عن العادات والتقاليد كممارسات يومية سواء بشكل فردي أو جماعي أو سواء فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية أو دور المرأة واللباس والأكل وهذا شيء متوقع من رحالة مركز على الأشياء التي لها قيمة روحية دينية ومعرفية لهذا غابت المعلومات المجتمعية وجاءت بشكل بانورامي^(٣٨).

انفتحت بعض نصوص الرحلات أيضاً على مسألة الذهنيات والمعتقدات الشعبية، فالخيال الشعبي يتغذى دائماً بخليط من الموروث الديني والاجتماعي، ومن ترسبات ظنية تراكمت عبر الزمن، ليفرز بعض أشكال التفكير والمعتقدات، من ذلك مثلاً قضية التبرك بالماء والاعتسالة به لأنه يداوي من الأمراض والعلل.

ثالثاً: تجليات البنية الاقتصادية للحجاز من خلال النصوص الرحلانية خلال القرن الحادي عشر

تحفل نصوص الرحلات الحجية بمعلومات عامة حول الوضعية الاقتصادية دون الدخول في التفاصيل وهو ما جعل وضع صورة للأسس الاقتصادية للحجاز خلال الفترة المدروسة يشوبها عدم الوضوح، فمن الإشارات العامة نجد الحديث عن المقومات الزراعية للمدينة حين أجملها الرحالون في أن المدينة المنورة تتوفر على بساتين عامرة بأنواع متعددة من المزروعات حيث يستشف من مختلف الاشارات التي استقينها من النصوص الرحلية أن اقتصاد الحجاز كان قائماً أساساً على النشاط الفلاحي كما نجد إشارات حول أبرزت أهمية الرواج التجاري، ذلك أن كمية ونوعية السلع المعروضة في أبواب وأسواق المدينة ومحلاتها مفتوحة ليلاً ونهاراً طوال أشهر رجب وشعبان، ورمضان، ويضيئون المدينة ليلاً بمئات الألوف من القناديل، ولكن العيد الحقيقي للأهالي هو مجيء الحجاج المسلمين. ذلك أن الوصف أظهر تداخل الجانب الاجتماعي بالاقتصادي دون تمييز أو فصل بينهما.

التكاليف الشرعية أو تفريط فيها حسب رؤيته وحسب مذهبه، كما ناقش مسألة اختلاف المذاهب وأن المذهبين الحنفي والشافعي هما الأكثر انتشاراً عكس المذهب المالكي، حيث يصرح: "ولقد شاهدت بالحرم النبوي اليوم-شرفه الله- محرابين في مسجده (ﷺ) الذي كان يصلي فيه أيام حياته، قبل أن يزداد عليه في زمن عثمان -رضي الله عنه- ومن بعده، أما أحدهما فمحرابه عليه السلام، وهو الذي بإزاء قبره الرفيع، والآخر أحدثوه عن يمينه، ليصلي فيه الحنفي أو الشافعي، مناوبة دون المالكي والحنبلي، لقلّة أتباع أحمد اليوم، أدلة أصحاب مالك من الغربية، لأن السلطان وجنده من الترك حنفيون، فكانت لهم السطوة والجاه. وعامة الحجاز كمصر شافعي "رضي الله عنهم جميعاً". فمن هنا تقوى المذهبان هنالك خصوصاً دون الآخرين^(٣٦).

بناءً على ما تقدم نلاحظ شبه إجماع هذه الروايات على وضع الملامح العامة لمجتمع الحجاز وإبراز التشابه والاختلاف بين الأعراب وأهل الحضر خاصة سكان المدينة المنورة ومكة المكرمة، إذ يبرز الاختلاف على مستوى السلوكيات والمعاملات، وهو ما يؤكد انعكاس المجال المقدس في نفسية وسلوك قاطنيه ذلك ما يستشف من قول ابن الميخ: "تخلقوا أبقاهم الله بأخلاقه (ﷺ) وتآدبوا من حسن آدابه (ﷺ)"^(٣٧)، كما يبرز الاختلاف في الأخلاقيات من منطقة إلى أخرى. حيث تتحدث الرحلات الحجازية عن قساوة الأعراب والبدو خارج مكة والمدينة، بل الأكثر منهم من امتهن قطع الطريق والسرقة.

وهو ما يبرز مستوى التحضر والترف إلى حد ما والاهتمام بالمظهر الذي بلغته ساكنة المدينة المنورة. بسبب الرواج التجاري الذي تعرفه المدينة وقت الحج، وبسبب انفتاحهم على ثقافات عابرة علاوة على وجود العنصر التركي في المدينة. ارتباطاً بذلك اقتحمت النساء عالم التجارة فقد أورد جلبي أن نساء قرية صاجمان (وهي قرية في الطريق إلى مكة) يبعن فيها ما يملكن من فواكه، أو تمور.

أما فيما يخص العادات فقد أوردت النصوص الحجية كرم الضيافة الذي يعتبرونه من كرم الاخلاق، وأيضاً فهم أصحاب مذاهب ملتزمة وطاهرة وأطفالهم

والخانات والأفران والبيوت وقد خربت ودمرت منها أماكن كثيرة جداً وتتصب به سوق عظيمة لبيع القماش وغيره من المأكولات والدقيق والفل والغنم وعلى مرحلة منه البندر الذي بساحل البحر الملح غرباً وبه خان ... وجماعة الشريف يأخذون المكس من أهل المراكب المارة بهذا البندر وهي عادة لأمر ينبع يستعين بها على مصروف إمرته وعلى أمير الينبع عوائد ومصاريق لجماعة أمير الحاج بطريق المكارمة وحسن القيام بخدمة السلطنة والينبع من المناهل الكبار ويوجد فيه من المأكولات والأغنام والسمن والعسل والتمر والرطب الذي لا نظير له والدجاج والاوز والملوخية ... والليمون والفجل ... وأنواع المخللات وغير ذلك ما لا يوجد^(٤٠) وأما موضع بدر به كثير العمارة والدشور والمياه والنخيل وفيه مسجد الغمامة^(٤١) لم يغفل الحديث عن الأنشطة الموسمية التي تحدث عنها هي مهنة الحلاقة حيث يكون الحاج مضطراً للتحلل قص شعره وبذلك كان الاقبال شديداً على هؤلاء مما كان يشكل مورداً اقتصادياً إضافياً وموسمياً استفادة منه ساكنة المنطقة.

يقول الرافعي أيضاً: "أما الصفا والمروة فهما خارجتان عن البيت، وبينهما سوق عظيم"^(٤٢) بينما اكتفى القادري بذكر السوق فقط. وقال بوجود سوق قرب المسجد الحرام يسمى بسوق الشام (الشامية). أم القرى أسواقها معمورة، وخاناتها بالمناجر مغمورة طيبة الهواء عذبة الماء. غير أننا نلاحظ أن أغلب الرحلون لم يبينوا طبيعة هذه الأسواق هل هي دائمة أم موسمية مرتبطة بموسم الحج؟ فالواقع أنهم اغفلوا هذا الجانب ومرد ذلك في نظرنا إلى أنهم اكتفوا بنقل المشاهد الاقتصادية والاجتماعية دون التمهيد في طبيعتها أو تصنيفها.

زد على ذلك فقد كان القطاع التجاري منظماً، بشكل جيد إذ تم توزيع الأسواق وتسميتها بناء على نوع المنتج الذي تشتهر به أو مصادر البضائع المتداولة، فإلى جانب السوق المصري الذي تباع وتشترى فيه المنتجات المصرية وهناك السوق الشامي والسوق اليمني والسوق العراقي... والسوق الهندي.

من مصادر الدخل وتنشيط الاقتصاد أيضاً قيام أهل الحجاز بكراء الرواحل لوفود الحجاج سواء الزاهبين إلى مكة أو إلى المدينة "فأسرعنا إلى كراء الجمال" يقول

وهنا يمكن أن نطرح التساؤل التالي لماذا غابت دقة وغزارة المعلومات حول الأوضاع عامة بالحجاز في عن الرحالين المغاربة. هل لأنهم اهتموا فقط بتدوين مسار الرحلة وطريقة أداء مناسك الحج؟ دون البحث في الأوضاع العامة لبلاد الحجاز؟ أم لأن الأمر يتعلق بفن التدوين وفن الكتابة؟ كلها أسئلة تحتاج إلى مزيد من الدرس والتحليل وتفكيك خطابه لإبراز قيمته العلمية. بالرجوع إلى متن الرحلة الحجازية نلاحظ أنها تخصص جانباً لوصف معالم الطريق وخصوصياتها وكذا للبيوت والآبار الفاصلة بين كل مرحلة ومرحلة وبعض القرى وكذا عن عادات موكب الحجيج في الأماكن المقدسة مثل مكان موقعة بدر وكيف يضيء الحجاج الشموع، كما يتحدث بإسهاب عن ينبع ويعتبرها أولى بلاد الحجاز.

ونلاحظ أن هذا الوصف يشمل الطبيعة السياسية والاجتماعية والأنشطة الاقتصادية مثل عملية البيع الموسمية المرتبطة بمرور مواكب الحج، وكذا مكس المرور الذي يعد مورداً اقتصادياً للشرفاء. ولم يقتصر الوصف على الأماكن المقدسة، بل امتد إلى وصف الطريق والقرى والآبار الممتدة على طوله وأيضاً المراكز الحضرية مثل الينبع التي كانت مزدهرة خلال هذه الفترة حيث لخص ابن المليح هذا المشهد بقوله: إن "الينبوع فيه كثرة النخيل والعمارة والأسواق"^(٤٣). تجدر الإشارة إلى أن هذا التطور استمر إلى ما بعد القرن السابع عشر وهو ما تخبرنا به رحلات لاحقة في مستهل القرن الثامن عشر منها على الخصوص رحلة ابن الطيب الفاسي الذي قال: "والينبع مدينة بالقرب من المدينة وورد عند ذكرها في الحديث قال ابن سعيد والينبع بها عيون وحفير وحصن وهي منازل بني الحسن رضي الله عنه وقال ابن حوقل وينبع حصن به نخيل وماء وزرع وبه وقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ... بقرب ينبع جبل رضوى المطل عليها من شرقيها ومن رضوى يحمل حجر المسن ساير الأقطار وبينه وبين المدينة سبع مراحل ورضوى جبل منيف ذو شعاب وأودية وبين ينبع مياه جارية ونخيل وزرع وبها جامعان معطلان من الخطبة وغالب أهلها على مذهب الزيدية، يستبيحون دماء الشافعية وإذ أنهم حي على خير العمل وبها الحقائق

علاوة على ذلك، لم يغفل الكاتب أن يشير إلى وجود أمكنة للترفيه والنزهة مثل ما قال عن وجود المقاهي عادية مبنية بالألواح الخشبية ومفروشة بحصير من عسف النخل حوالي أربعين بمكة تضم ما لا يقل عن ألف أو ألفين من الفلاحين. كما أن بعض الحجاج وفي المناطق الجافة والبعيدة عن الآبار.

خاتمة

قصارى القول، فقد أبرزت النصوص الرحلاتية الوضعية السكانية والتركيبية المجتمعية المكونة للحجاز وهي تركيبة متنوعة عرفت تراتبية واضحة على مستوى الطبقات والمهام. كما أبرزت أن بلاد الحجاز هي أرض التعايش وقبول التعدد وتقبل الآخر، فقد استقر بها غير الحجازيين وحملوا صفة مجاور. وانتشر التعليم بهذه الربوع حيث كان الهدف من الرحلة زيادة على تأدية مناسك الحج هو التعلم والنهل والأخذ عن علماء مكة والمدينة.

اهتمام أهل الحجاز بالنشاط الزراعي، وهو ما يستشف من قولهم البساتين الكثيرة التي تحيط بالمدينة تتراءى لكل قادم عليها، وكان التنصيص على أهم المنتجات لحقول المدينة ولاسيما التمور التي تعد من أهم المحاصيل، وما يفهم من رصد الرحالين عن كثرة المياه في بعض المناطق هو ازدهار الزراعة التي كانت تعتمد على مصادر مياه متنوعة أهمها الأمطار، ومياه الآبار والعيون مثل عين الزرقاء. وبالتالي كانت المساحة الزراعية وكمية الإنتاج في انسجام ما هذا المورد الحيوي كما رصدت أعين الرحالين بعض المناطق الجافة التي تقل أو ينعدم فيها الماء وبالتالي تقل فيها الزراعة والمغروسات بشكل عام.

الرافعي، مما يعني نشاط تجاري وحركة دؤوبة بين المكانين خلال هذه الفترة من السنة. فقد وجد في المدينة فئة سميت بالجمالين يعقدون صفقة الكراء مع الحجاج الذين يرمون السفر إلى مكة أو ينبع.

كما شكلت مكة والمناطق القريبة منها كمنى نقطة ارتكاز وتجميع للمواد حيث تنظم الأسواق، وتجدر الإشارة إلى أن الحجاج المغاربة كانوا كذلك يبيعون مواد يحملونها معهم إلى الحجاز ولم يقتصر الأمر على الركب المغربي، بل كذلك ساهم الركبين الشامي والمصري في تنشيط هذه الحركة التجارية^(٤٣)، وهو ما يبرز اهتمام المجتمع المكي بالتجارة وتفضيلهم لها على باقي الأنشطة الاقتصادية الأخرى.

ما ينبغي التنبه إليه هو وجود مبادلات تجارية من الطرفين بحيث أن ركب الحجيج كان يضم تجاراً يبيعون منتوجاتهم لأهل الحجاز إما لتغطية مصاريف الحج أو لنقص بعض المواد في هذه المناطق والتي يتم جلبها إما من القاهرة أو دمشق أو من المغرب الأقصى أو حتى من المدينة ليتم بيعها للأعراب في طريق العودة، يقول ابن المليح عند رجوعه: "نزلنا مقابر سيدنا شعيب فالتقينا هناك بشرذمة من العرب جاؤوا مرمدين (مسرعين) بالطعام والتمر واللبن والغنم فبئنا لهم وابتغنا منهم"^(٤٤). وهو ما يوضح استفادة الطرفين من عملية البيع والشراء، فقد ورد لدى أغلب الرحلات أن عملية البيع كانت تتم مع أعراب القبائل، وأن أهم السلع المعروضة هي اللحم، والماء، والفواكه، والسمن، واللبن، والجبن، والتمر، والحبوب، والحبيب والعسل، والقرب وملابس الإحرام والنعال والحطب^(٤٥).

ما قيل عن مكة والمدينة يمكن أن يقال عن بعض المناطق الأخرى كجدة، ذات الميناء العظيم التي تخصص جزءاً من مداخل جمرتها لتأدية مخصصات الشيوخ والمؤذنون والأئمة، ثم ينبع والعقبة... كمنافذ بحرية تُستجلب منها السلع التي توزع في مكة والمدينة. وقد ذكر القيسي قصبة المويلح على البحر ترسو به القوارب^(٤٦) وقال في موضع آخر: "فهناك وجدنا أهل مصر في محلة عظيمة وجيش حملت من الأزواد ما تشتهيه الأنفس..."^(٤٧).

الملاحق

الصورة الأولى من مخطوط نسمة الآس^(٤٨)



يمكن أن نستشف أيضاً، اعتماد بلاد الحجاز على النشاط التجاري خاصة خلال فترة الحج حيث يتزود الحاج بما يلزمه من حاجيات. وحيث كان للتجارة نصيب كبير من اقتصاد المدينة النبوية وشمال الحجاز بسبب كثرة الزوار من شتى بقاع المعمورة ومن بينهم كثر من التجار، وكان طبيعياً أن تزدهر هذه التجارة في فترات الاستقرار وتتأثر في فترات الاضطرابات والفتن. بيد أن الملاحظ هو غياب أو ضعف الحديث عن حجم هذه التجارة ومدى تأثيرها على الاقتصاد المحلي بشكل عام سواء خلال فترة الحج أو بعدها. فالمستفاد هو تأثير الزوار والحجاج على النشاط الاقتصادي خلال فترة الحج لهذا فدراسة التطور الاقتصادي وسيرورته تقتضي الاتجاه نحو رحلات أخرى في فترات لاحقة لوضع تصور عام ومدقق عن اقتصاد الحجاز.

لم يستفص الرحالون في رصد الحرف والصناعات التي عرفها الحجاز الحرف والصناعات. فالأكيد ان هناك مهن ارتبطت بغير موسم الحج كانت مورداً اقتصادياً لمجتمع الحجاز لكن تم اغفالها ولم تتم الإشارة إليها، إذ أوضح الرحالون الذين اعتمدناهم في هذه الدراسة كيف ارتبط الحج بتنوع وازدهار النشاط الاقتصادي، بسبب النفقات التي يتطلبها أداء شعيرة الحج وبالمقابل ظهور خدمات موسمية تسهياً للزيارة، لكن ما ذهب إليه جلبي هو أن أهل المدينة لا يفضلون ممارسة المهن والحرف ويعتمدون على العطايا (الصرة) المقدمة لهم من طرف العثمانيين وأمراء الركب المختلفة. انفردت الرحلات بمعلومات فريدة لأنها اعتمدت على المشاهدة والاحتكاك كما ساهمت في تعميق التكوين الروحي والخلقي للمسافر لكون أهدافها دينية وداخل أرض الإسلام وبالتالي فهذه الرحلات قد نقلت صورة حية عن الوضعية الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة، يمكن أن تساعد الباحثين من تخصصات مختلفة على كتابة تاريخ المنطقة. لأن المؤرخ بات يعتمد على كل ما يمكن أن يساعده من معلومات ووثائق والانفتاح على مختلف التخصصات والأجناس الأدبية في تقديم معرفة تاريخية دقيقة وعلمية وبعيداً عن التفسيرات اللامنتطقية فالتاريخ هو منذور لإعادة الكتابة بسبب ضغط أسئلة يلقيها الحاضر على الماضي.

الإحالات المرجعية:

١٦٦٦م حيث ظهرت إمارات معارضة للحكم السعودي الذي انحصر في مدينة مراكش وهو ما مهد لقيام الدولة العلوية سنة ١٦٦٦م. يُنظر: الفشتالي (عبد العزيز): **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، (الرباط، ١٩٧٢)؛ محمد القبلي (إشراف)، **تاريخ المغرب تركيب وتحيين**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ، الرباط ٢٠١١.

(١٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، **أنس الساري**،... م س ص ٧٨. (١٥) أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، **أنس**... م س، ص ٧٨.

(١٦) حول أهمية الركب المغربي ومكوناته والطرق التي كان يسلكها وأماكن الميقات يُنظر كتاب المنوني محمد، **من حديث الركب المغربي**، تطوان مطبعة المخزن ١٩٥٣

(١٧) على الرابط http://rihlaromoc.blogspot.com/2012/01/blog-post_7048.html تاريخ الاطلاع ٢١-١١-٢٠١٧

(١٨) سجلت إحدى الطالبات بكلية الآداب تطوان أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان: **"المعارج المرقية في الرحلة المشرقية لابي عبد الله محمد بن علي الرافعي التطواني"** دراسة وتحقيق تحت إشراف الأستاذ مصطفى الغاشي. وبذلك ستخرج هذه الرحلة إلى حيز الوجود ويتمكن القراء من الاطلاع عليها، بعد أن ظلت لقرون مخطوطة وحبيسة الرفوف.

(١٩) تحدث عنها وعن صاحبها مؤرخ تطوان الأستاذ داوود في كتابه الموسوم **بتاريخ تطوان**، الجزء الأول من الصفحة ٣٩١ إلى ٣٩٦.

(٢٠) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، الجزء الأول، المطبعة المهدية ١٩٩٥، ص ٣٩١.

(٢١) نفسه، ورد أيضاً عند مصطفى عبد الله الغاشي، **"صورة الشرق من خلال المعارج المرقية في الرحلة المشرقية للرافعي التطواني"** ١٩٦٨هـ/ ١٩٨٤م، الدارة، العدد ١ من السنة ٢٥، ١٤٢٠هـ، ص ١٨١-٢٠٠.

(٢٢) كانت مكة عاصمة الحجاز حتى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م تابعة لبغداد العباسية، ولما استولى الفاطميون على مصر في امتداداتهم على أقاليم عديدة بتفاهم قوتهم السياسية على حساب الرقعة العباسية. كان الأشراف الحسينيين يستقرون بمكة. وأولهم جعفر بن محمد الحسين بن محمد الثائر. وينقسم هؤلاء الأشراف إلى أربع طبقات أسرية هي: ١- الموسويون (بنو موسى) ٢- السليمانيون (بنو سليمان) ٣- الهاشم (بنو هاشم) حكمت هذه الطبقات حوالي ٢٤ سنة. ٤- القناديون (بنو قتادة) حكموا مكة لفترة طويلة امتدت من ٥٩٨هـ إلى ١٢٠٩هـ / ١٢٠٩م إلى ١٩٢٥م أي ٧١٦ سنة.

حتى عندما خضعت مصر لسليم الأول ١٥١٧م سارع أشراف مكة للاعتراف به سلطاناً عثمانياً على البلاد العربية، لهذا بقي الحجاز تحت السيطرة العثمانية على غاية اندلاع الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م. وقد سار حكم الأشراف لمكة جنباً لجنب مع السلطة الروحية القديمة، واعتمد البلاط العثماني عليهم كثيراً، لاسيما منذ بداية القرن السادس عشر، إذ استطاع العثمانيون أن يوظفوا هذا النظام العربي القديم لصالحهم وفي أهم بقعة إسلامية وبقيت العلاقة بين الأشراف والعثمانيين ثابتة في تحالفها مادام الأشراف لم يثيروا أي حقوق سلطوية عربية لهم بمقتضى النظرة الشرعية القديمة للسلطان في الإسلام، ولكن كان التناحور والصراع الداخلي على أشده عند الأشراف وبنيتهم كطبقة عربية

(١) القيسي أبو عبد الله محمد بن أحمد، **أنس الساري والساري من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب** ١٠٤٠-١٠٤٢هـ. / ١٦٣٣-١٦٣٤م، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد الفاسي، (فاس ١٩٦٨)

(٢) يشير محمد داوود وكذا مصطفى الغاشي أن مخطوط هذه الرحلة موجود بالخزانة الداودية بتطوان تحت رقم ١٣٤.

(٣) موجودة في عدة نسخ مخطوطة، منها مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية تحت رقم ٣٢١٦-ك - ومخطوط خزانة حسنية رقم ٨٧٨٧.

(٤) إبراهيم القادري بوتشيش، **"العادات والتقاليد في المدينة المنورة من خلال الرحلة العياشية (القرن ١١ هـ / ١٧ م)"**، مجلة التاريخ العربي، العدد ٥٢، ربيع ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ٥٧-٩٤، ص ٥٧.

(٥) سعيد بن سعيد العلوي، **أوريا في مرآة الرحلة: صورة التخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة**، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس (الرباط ١٩٩٥).

(٦) عبد الرحيم مؤذن، "رحلة أدبية أم أدبية الرحلة؟" **مجلة فكر ونقد** عدد ٢٠، متاح على موقع المجلة الرسمي على شبكة الإنترنت من خلال الرابط http://www.aljabriabed.net/n20_09mudan.htm تاريخ الاطلاع ١٢-١٢-٢٠١٧

(٧) حافظ السلاطين الدولة العلوية على علاقات متميزة مع أشراف الحجاز وكانوا يرسلون لهم أيضاً الرسائل والهدايا منها مثل الرسالة التي أرسلها المولى إسماعيل إلى الشريف سعد بن يزيد بن محسن الذي تولى الحكم سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م ينظر، محمد أمين، "رسالة من سلطان المغرب اسماعيل بن علي الشريف الحسني إلى الشيف سعد بن زيد سلطان الحرمين الشريفين ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م"، الدارة، العدد ٣ رجب ١٤٢٧ السنة ٣٢، ص ١٠٧-١٤٢.

(٨) سهيل بن محمد صابان، **"جوانب من الحياة العلمية في الحجاز من خلال بعض الوثائق العثمانية"**، متاح على موقع الألوكة من خلال الرابط: <http://www.alukah.net/culture/0/26860/#ixzz535SJ7WUB> تاريخ الاطلاع ١-١٨-٢٠١٨

(٩) عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة ورحلة**، مراجعة عباس صالح طاشنكدي، (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٥) ص ١٧٧.

(١٠) في الأصل هو رسالة جامعية نوقشت في جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط سنة ١٩٨٤)، طبعت بالرباط، منشورات عكاظ سنة ١٩٩١م.

(١١) عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة ورحلة**، م س، ص ١٧٧.

(١٢) تم تحقيق ونشر والتعليق على هذه الرحلة من طرف العلامة محمد الفاسي، في كتاب يحمل نفس العنوان من منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل ضمن سلسلة رحلات حجازية، (سنة ١٩٦٨) كما سبقت الإشارة إلى ذلك..

(١٣) سلطان مغربي من الدولة السعودية حكم مراكش بين (١٠٤٠ هـ - ١٠٤٥هـ / ١٦٣١ - ١٦٣٦م). تعود قصر فترة حكمه إلى الاضطرابات السياسية التي عرفها المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي سنة

قديمة. أدى في كثير من الأحيان إلى تطاحنات ضارية مثل ما حدث سنة ١٦٣١م بعد انقسام الأشراف على أنفسهم بعد وفاة الشريف سعود بن إدريس وظهر شرفاء بني عبد المطلب وشرفاء بن إدريس. يُنظر، سيار الجميل، **تكوين العرب الحديث**، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢٣) عواطف بنت محمد يوسف نواب، **كتب الرحلات في المغرب الأقصى**

مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر

الهجريين، دراسة تحليلية نقدية مقارنة، سلسلة الرسائل الجامعية،

(دائرة الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص ١-٤٠٢.

(٢٤) مفرداها "أغا"، وهو مصطلح تركي يشير إلى معنى الرئيس أو قائد

الجيش، لكن المعنى المقصود هنا هو العبيد الخصيان الذين نذرهم

السلطان العثماني لخدمة الحرم الشريف، وكان بعض المسلمين

يوقفونهم كذلك على الخدمة حيث كانوا يقومون بخدمة وحراسة

المسجد والحجرة الشريفة بالمدينة المنورة. ورد عند إبراهيم القادري

بوتشيش، "العادات..." م، س، هامش ١٠٥، ص ٩٠.

(٢٥) القادري، **نسمة التمس**، ص ٧٥.

(٢٦) ابن المليح، **انس الساري**، م س ص ١٢٦.

(٢٧) ابن أبي محلي، **الاصلييت الخريت**، م س، ص ١٠٦.

(٢٨) نذكر على الخصوص **رحلة ناصر الدرعي**. **والرحلة الحجازية** لابن الطيب

الفاوسي خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر.

(٢٩) الرافعي، **المعارج**، م س ص ١٦٣؛ القادري، **نسمة التمس**، ص ٨١-٨٢.

(٣٠) القادري، **نسمة التمس**،

(٣١) الرافعي، **المعارج**، م س، ص ١٣٣.

(٣٢) ابن المليح، **انس الساري**... م س، ص ٩٦.

(٣٣) نفسه، ص ١٢٥.

(٣٤) نفسه.

(٣٥) الرافعي، **المعارج**... م س، ص ٢٠٢.

(٣٦) ابن أبي محلي، **الاصلييت**... م س، ص ١٢٣.

(٣٧) ابن المليح، **انس الساري**... م س، ص ٩٦.

(٣٨) مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في**

رسم الصورة، (مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٥)، ص ٢٨٥.

(٣٩) ابن المليح، **انس الساري**، م س، ص ٧٢.

(٤٠) ابن الطيب الفاسي، **الرحلة الحجازية**، م س، ص ١٣٥.

(٤١) ابن المليح، **انس الساري**، م س، ص ٧٢.

(٤٢) ورد عند عبد الهادي التازي، **مكة**... م سابق ص ٢٤٦.

(٤٣) عواطف بنت محمد يوسف نواب، **م س**، ص ٢٤٩.

(٤٤) القيسي، **أنس الساري**، ص ١٢٧.

(٤٥) نفسه.

(٤٦) نفسه، ص ٧١.

(٤٧) نفسه، ص ١٢٧.

(٤٨) المخطوط موجود في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط تحت

رقم ٣٢١٦-ك، كما أن جزءاً منه متاح للتحميل بعدة مواقع الكترونية.

تأثير أسلوب الإنتاج الحربي على نوع الهدايا السلطانية في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

د. سماعيل رشيد

دكتوراه في التاريخ الوسيط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة
جامعة محمد الأول - المملكة المغربية



مُلخَص

يهدف هذا المقال إلى دراسة تأثير «أسلوب الإنتاج الحربي» في تحديد نوعية الهدايا السلطانية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، انطلاقاً من تحليل مضامين الحوليات الوسيطية التي تمحورت في الغالب حول التاريخ السياسي والدبلوماسي وتاريخ عليّة القوم، وتجاهلت ما عداها من فئات المجتمع. يستند البحث إلى مقارنة تحليلية نقدية تستنطق النصوص التاريخية لاستخراج المسكوت عنه، وتكشف العلاقة البنوية بين التوجه الاقتصادي الحربي للدولة الوسيطية وطبيعة الهدايا التي كانت تُقدّم بين السلاطين والملوك. يبيّن البحث أن غالبية الهدايا السلطانية كانت أدوات ومعدات حربية كالسيوف، الدروع، السروج، الخيول، الأقواس، العبيد، والجلود العسكرية، ما يعكس اندماج النظام الاقتصادي في خدمة المجهود الحربي وتعبئة الموارد البشرية والمادية للدولة. كما يوضح أن هذه الهدايا لم تكن رمزية بقدر ما كانت تُوظف لتعزيز القدرات العسكرية، وتأمين الحلفاء، وشراء الولاءات، وفرض الهيبة. ويبرز البحث أن طبيعة الجغرافيا الجبلية والسهلية كانت تؤثر في نوع وقيمة الهدايا، وأن وفرة الغنائم والجبايات في «طور تحصيل الثمرات» سمحت بظهور نمط ثانٍ من الهدايا ذات طابع ترفيهي وترفيهي، شمل الحيوانات النادرة والبزاة والأسود والزرافات وغيرها، والتي عكست تحول الدولة من طور الفتح والجهاد إلى طور البذخ والدعة. يخلص المقال إلى أن الهدايا السلطانية كانت انعكاساً مباشراً للبنية الاقتصادية والعسكرية للدولة الوسيطية، وأداة لإظهار القوة وبناء الشرعية السياسية، إضافة إلى دورها في التبادل الثقافي بين المغرب والأندلس ومناطق الجوار.

كلمات مفتاحية:

الإنتاج الحربي؛ الهدايا السلطانية؛ المغرب والأندلس؛ الحوليات الوسيطية؛
التاريخ الوسيط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٦ مارس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٠ أبريل ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.453507

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سماعلي رشيد، "تأثير أسلوب الإنتاج الحربي على نوع الهدايا السلطانية في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط"، - دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥، ص ٦٠ - ٦٨.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: smmailirachh@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

إن الباحث في تاريخ المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط قد "ينتبه" إلى أن الدولة الوسيطة تُمثل في جوهرها تاريخ الغالب أو المغلوب. وأن الباحث يعلم "أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره".^(١) وأن العامل السياسي هو الذي يطفئ في كتابات مؤرخي العصر الوسيط، وأن "أرزاق المجتمع مرتبطة باستعمال رماحهم". وانسجاماً وتطور الكتابة التاريخية يعتمد الباحث على التاريخ الإشكالي والتركيب من خلال تحليل العلاقة بين "أسلوب الإنتاج الحربي"،* ونوع الهدايا السلطانية فيما بينهم، حيث كان توجيه الاقتصاد الوسيطي لخدمة الحرب بشكل عام. لكن سنقتصر في هذا المقال التفاعل مع الإشكالية الآتية: كيف انعكس "أسلوب الإنتاج الحربي" على تحديد نوع الهدايا السلطانية؟ كيف يمكن فهم هدية سلطانية تتكون من سبعمئة فرس، وألف درعة لمطية، ومائة سيف دون استحضار تأثير "أسلوب الإنتاج الحربي" في ذلك؟ هل هناك علاقة بين هدايا سلطانية تهدف للترفيه والتسلية "بطور" من "أطوار" الدولة الوسيطة؟

أولاً: طبائع الحوليات الوسيطة

يدرك "القارئ" للحوليات الوسيطة انطلاقاً من عناوينها وديباكتها دواعي تأليفها التي تتمحور حول السلطان من خلال ذكر مناقبه، إنجازاته، انتصاراته، ديبلوماسيته... يرسم المؤرخ الوسيطي في ذهنه تصوراً معيناً لنوعية كتاباته، فهو "ينتقي" الأخبار ضمن حولياته، لذلك يقف عند بعض السنوات، في حين يسكت عن أخرى.

من بين انتقائه للأحداث تركيزه على الهدايا السلطانية، فإذا أخذنا كتاب "البيان المغرب" الجزء الأول يقول: وفي سنة ٣٥٩هـ وصلت هدية حافلة من جوهر إلى مُعد بن إسماعيل المعز لدين الله العبيدي^(٢)، وفي سنة ٣٦٥هـ بعث أبو الفتوح أمير إفريقية إلى العزيز بالله هدية^(٣)، وفي رجب من سنة ٣٧٤هـ قدم المنصور إلى رقادة، وأتاه العمال بالهدايا والأموال^(٤). وفي سنة ٣٨٢هـ جاءته الهدايا من البلدان ومن كل جهة ومكان^(٥). وفي سنة ٣٨٤هـ كان وصول الهدية من مصر مع جعفر بن

حبيب ومعه فيل عظيم^(٦)، وفي سنة ٣٨٦هـ كان أبو مناد قد هياً هدية لبيعها للعزيز^(٧)، وفي سنة ٣٨٨هـ وصلت إلى نصير الدولة هدية من مصر تشتمل على الجوهر والأعلاق النفيسة^(٨)، ويستمر^(٩) في تدوينه "لتاريخ من أعلى" معتمداً على منهج يمكن وصفه بمنهج "الانتقاء"، لكن تختفي في المقابل ضمن حولياته أحداث "التاريخ من أسفل" هدايا الفقراء، والحرفين، والفلاحين، والرعاة، والهدايا المقدمة للأطفال وغيرهم من شرائح المهمشين. مما يتطلب من الباحث طرق أبواب "المصادر الغميسة" منها ماورد في كتب المناقب في ترجمة أبي يعزى الذي جاءه رجل بحمارة فأهداها أبو يعزى لأحد زواره^(١٠).

إذا كان صاحب "البيان المغرب" قد انتقى في حولياته أخبار الهدايا السلطانية، فصاحب "المسند الصحيح" عنون الباب الثلاثين من أبواب كتابه بعنوان: "في مقابلة الهدايا والتحف"^(١١)، كما عنون الباب الواحد والخمسين من كتابه بعنوان: "في هدايا الملوك وفيه فصلان"^(١٢).

من جهة أخرى يتفنن المؤرخ الوسيطي في توظيف مرادفات الهدية في حولياته حتى يتفادى الإساءة للحاكم والسلطة يذكرها بصيغة الجائزة^(١٣)، والصندل^(١٤)، والطرف^(١٥)، والتحف^(١٦)، الصدقة^(١٧)، والقطيع^(١٨)، والألطف^(١٩)، لكن قد تكون في الأصل "رسوم جمركية"، مثل إعفاء سكان أيشتوم من الإتاوات لكن يقدمون كل سنة هدايا^(٢٠)، حتى تخول لهم السفر إلى فاس في أمان^(٢١). كما تأتي ضمن الحوليات ضرائب مغلفة باسم الهدية، حيث كان سكان جبل مسطاسة لا يقدمون للملك ضريبة، بل هدايا بسيطة والسبب أنهم يتحصنون بالجبل^(٢٢). أيضاً كان ملوك تلمسان يقدمون هدايا للأعراب لتهدئتهم^(٢٣). كما أن بعض القبائل التي كانت تحت رحمة العرب تقدم هدايا مهمة لهم لقاء لشهرهم، الشيء الذي كان يغضب أمراء مراكش^(٢٤). فهل هي هدية أم خفارة من أجل الأمان؟

قد تأتي الهدية تارة للتعجب دخول السجن كما حدث مع أحد النبلاء المقيم بقسنطينة حين سكّ دنانير، فلما سمعه الملك استدعاه، فأرسل النبيل له دنانير وهدية عظيمة، فسكت الملك^(٢٥)، وسكت المؤرخ كذلك وتستمر عن ذكرها باسم الرشوة. أيضاً كان أحد القضاة يأخذ

أسجل عددها^(٤٤). مما يتطلب من الباحث استنتاج هذه النصوص التاريخية، ومحاولة طرح سؤال: هل هذه الهدايا "الصامتة" هي الأخرى انعكاس "لأسلوب الإنتاج الحربي"؟

ثانيًا: انعكاس "أسلوب الإنتاج الحربي" في تحديد نوع الهدايا السلطانية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

١/٢- إيلاء أهمية كبرى للهدايا التي تخدم

"أسلوب الإنتاج الحربي"

قد لا يكون مبالغاً ابن خلدون عندما أشار إلى أن المجتمع الوسيط يمتثل "رزقهم في ظلال رماحهم"^(٤٥)، إضافة إلى مجمل المصادر التاريخية التي تعج بأخبار الحروب التي شكلت بنية الدولة الوسيطة، فالمرينيون كانوا "لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارة"^(٤٦)، التي توفر غنائم تملأ بها خزينتها سواء قبل أم بعد استيلاء على السلطة. تشكل تلك الغنائم والجبايات فائض الإنتاج، حيث كانت الدولة الموحدية مثلاً تتعم على طلبتها بالتحف من المخزن^(٤٧). قد ينتبه "القارئ" إلى طبيعة الهدايا السلطانية المتبادلة والتي غالباً تتجسد في السيوف، السروج، الدروع، الخيول وغيرها من الأدوات الحربية الوسيطة، ما قد يدفعه إلى التخمين في مدى انعكاس "أسلوب الإنتاج الحربي" في تحديد نوع الهدايا السلطانية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط.

تذكر المصادر التاريخية أن يهودا مدينتي تدنست^(٤٨)، ومدينة تيبوت^(٤٩) كانا يقدمان هدايا للأعيان لحمايتهم^(٥٠)، في المقابل لا يدفعون جزية. وتمثل الآية القرآنية ((قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)) إلى قوله عز وجل ((حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ))^(٥١) العلاقة بين النظام الجبائي، واستمرارية القتال (الحرب).

دأب رئيس جبل تنزيتة (شمال زاكورة) وملك فاس على تبادل الهدايا فيما بينهم، منها الهدية التي بعثها له رئيس الجبل ذات مرة وتشمل على خمسين عبداً أسود، وخمسين أمة، وعشرة خصيان، واثني عشر من جمال الركوب، ونحو ستمائة جلد حيوان يدعى اللمط تصنع

الرشوة وقدموا به شكاية للسلطان المريني، إلا أن مستشاري السلطان نبهوه إذا لم يقبض القاضي الرشوة في الأحكام، "فمن أين يأتيك بما يأتي به إليك من الهدايا"^(٣٦). فهي بالنسبة للقاضي رشوة، لكن هدية بالنسبة للسلطان حسب المؤرخ. وقد تكون الهدية في أصلها غنيمة، يشير ابن عذاري إلى أن عقبة بن قدامة توجه إلى الشام سنة ١١٤هـ فأخذ من المغرب معه الهدايا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك^(٣٧). وقد يوظفها المؤرخ بصيغة هدية، لكن هي بدافع الخوف والحفاظ على السلامة البدنية، حيث لما استولى عقبة بن نافع على المغرب، ووصل إلى سبتة، فخرج إليه يليان بهدايا وتحف فأمنه عقبة^(٣٨). ولما تقدم موسى بن نصير إلى غزو سبتة صانعه صاحبها يليان الغماري بالهدايا^(٣٩). فهل صانعه أم اشترط عليه نوع وحجم الهدية؟

ينطلق المؤرخ الوسيط في تأليفه من المركز ومن الإيديولوجية الرسمية^(٣٠)، لذلك يرى من جهة، أن الأخبار التي تستحق تدوينها كل ما ارتبط بتاريخ عليا القوم، كالتاريخ الدبلوماسي الهدايا السلطانية، بل في كثير من الأحيان يكتب كتابه وبعد ما ينهيه يقدمه هدية للسلطان. فقد أهدى ابن خلدون نسخة من مقدمته، وتعرف بالنسخة الفارسية، حيث أهداها للسلطان المريني أبي فارس^(٣١)، ومن جهة أخرى يلجأ المؤرخ الوسيط إلى أسلوب "ذكي" في اختيار ألفاظه فهو يتغاضى عن ذكر الرشوة، في المقابل يستعيز عنها بالهدية لذلك يتطلب من القارئ والباحث استنتاج النص التاريخي ومساءلته لاستخراج المسكوت عنه في الكتابة التاريخية.

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التاريخية غالباً ما تسكت عن ذكر مكونات الهدية السلطانية، بل تقتصر فقط على ذكرها بصيغة هدايا حسنة^(٣٢)، هدايا ثمينة^(٣٣)، وصلت هدية للسلطان^(٣٤)، كما وصلت يوسف المريني من تونس هدايا وتحف^(٣٥)، وهناً طاغية الإفرنج السلطان أبا الحسن الأكحل بهدية نفيسة^(٣٦)، وأخرج له هدية عظيمة^(٣٧)، وترد بصيغة تحف عظيمة^(٣٨)، وهدية جليلة^(٣٩)، ووصلته الهدايا^(٤٠)، والأمتعة^(٤١)، وبعث إليه بالبيعة والهدية^(٤٢)، واستعد لذلك بالهدايا الخطرة^(٤٣)، وصيغة بتعبير وكان في هذه الهدية أشياء أخرى لم

وعشرين من البغال الذكور والإناث، وسبعمئة جمل^(٦٢). وهي أدوات حربية وقاتلية موجهة لخدمة "أسلوب الإنتاج الحربي" الوسيط، ربما لو كانت الهدية تضم فرسا واحدا وسيفا واحدا قد تكون وظيفتها التعبير عن الاحترام، لكن العدد يؤكد أهميتها في الحرب، خلال معركة الزلاقة ٤٧٩هـ "انتدب المرابطون الناس من سائر الجهات وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المرتزقة والمتطوعة زهاء عشرين ألفا"^(٦٣). وما يستشف من ذلك أن الحرف التي عرفت تطوراً^(٦٤) خلال الفترة المدروسة حسب قانون الطلب والعرض هي الحرف المرتبطة بصناعة الأسلحة.

تذكر المصادر كذلك أن أبا بكر بن عمر حينما عاد من الصحراء اقترحت زينب النفوسية على زوجها يوسف بن تاشفين ملاطفته بهدايا منها ألف بغير^(٦٥)، وقد ذكرها صاحب "بيوتات فاس"^(٦٦) نقلاً عن صاحب "الحلل الموشية"^(٦٧) الذي أشار في سياق ذكره خبر هذه الهدية أنها تتضمن خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب، والخيل المسومة، وسبعون فرسا، خمسة وعشرون منها مجهزة بجهاز محلى بالذهب، وسبعون سيفاً، وعشرون زوجاً من المهاميز، وأنواعاً من الملابس، وسبعة بنود كبار، ومائتين جارية بكر، ومائة خادم، وواحد وخمسون خادمة، ومائة وخمسون بغلاً، والبقر، والغنم، والقمح، والشعير^(٦٨). والهدف من هذه الهدايا كما يفصح النص التاريخي ليستعين بها على بلاد الصحراء التي أقام بها مواظباً على الجهاد في كفار السودان^(٦٩).

حينما راسل صالح الدين الأيوبي السلطان الموحي يعقوب المنصور يطلب منه إعانتة بالأساطيل لمنازلة ثغور عكا وصور، بعث مع الوفد هدية تشتمل على خمسين قوساً عربية بأوتارها، وهي الأدوات التي تعتمد عليها فئة الرماة في الحرب، وعشرين نصلاً هندي وسروج عدة مثقلة^(٧٠)، لتوظيفها من قبل الفرسان في حروبهم.

لما خلع أبو البهار بيعته للمنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٧هـ، فكتب ابن عامر إلى زيري بن عطية يأمره بقتاله، فهزمه زيري، فكتب إليه بالنصر، وبعث إليه بهدية فيها مائتا فرس من عتاق الخيل، وخمسون جملاً، وألف درقة

منه دروع خفيفة جداً^(٥٢)، وهي من المعدات القتالية التي كان يستعملها الفرسان، كما لا تخفى أهمية العبيد من الناحية السياسية والعسكرية، حيث يصف البيدق طريقة دخول الموحدين مراكش سنة ٥٤١هـ، وزع عبد المومن الكومي السلاليم للأسوار على القبائل، وقسمهم على أبوابها فدخل عبيد المخزن بسلمهم من باب الدباغين^(٥٣). في المقابل تلقى صاحب الجبل خيلاً بسروج فخمة^(٥٤).

تحضر في كثير من المصادر التاريخية هدايا في قالب أدوات حربية خصوصاً وأن النص يشير إلى أن جيش السلطان لما حل بتادلة في المرة الأولى خضعت تادلة "له في الحين"، وفي المرة الثانية لما حل عليهم قائد السلطان، قدموا له هدية من خمسة عشر فرساً، وخمسة عشر عبداً، ومائتا رأس غنم، وخمس عشرة بقرة^(٥٥)، لذلك لم يكن بعض العلماء والفقهاء يقبلون الهدايا من الملوك لأن أموالهم حرام^(٥٦). كما أعفى ملك فاس سكان أيشتوم من دفع إتاوتهم، لكنهم يقدمون كل سنة له هدايا حسنة وافرة^(٥٧) كثمن للأمن. والملاحظ من خلال المصادر أن هناك علاقة بين نوع وحجم الهدية، ومجال الجبل باعتباره مجال وعمر، عكس مجال السهل السائع، حيث كان سكان ندرومة يقدمون هدايا بسيطة للسلطان ليتمكنوا من إدخال سلعهم إلى تلمسان لأن الجبل يحصنهم^(٥٨).

ومن بين الهدايا التي قدمها السلطان المريني يوسف بن يعقوب المريني إلى الملك الناصر صاحب مصر هدية عظيمة فيها "أربعة مائة جواد من عتاق الخيل بجهازتها برسم الجهاد"^(٥٩)، غالباً يوضح النص التاريخي لنا سبب تقديم الهدية السلطانية التي تخدم "أسلوب الإنتاج الحربي". كما بعث أبو الحسن لكحل إلى سلطان مصر سنة ٧٣٨هـ هدية تضم خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب، والفضة، ولجمها خالصاً، وخمسمائة حمل من متاع المغرب، وماعونه، وأسلحته^(٦٠)، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء^(٦١)، ويضيف صاحب "المسند الصحيح" ضمن هذه الهدية السيوف، والسروج، والعلامات، والرايات، وثلاثون جلداً شرك، وأربعة آلاف درقة لمط، وخباء قبة من مائة بنية، وثلاثمائة وخمسة وثلاثين من عتاق الخيل العراب، ومائة

لمطية^(٧١)، ولولا سكوت النص التاريخي حيث اكتفى المؤرخ بذكر "كفأه المنصور" لوقفنا على نوع المكافأة/ الهدية، واستمر هذا النوع من الهدايا الحربية بين أبنائهم، حيث بعث المعز بن زيري بن عطية إلى عبد الرحمن بن منصور بن أبي عامر هدية عظيمة تضم مائة وخمسون فرسا^(٧٢)، التي ستضيف له فوجا من الفرسان يرهب بها عدوه.

بلغ إلى المعز بن زيري بن عطية خبر تولية عبد الرحمن بن أبي عامر فأهدى له هدية عظيمة تتكون من "سبعمائة من عتاق الخيل، وأحمال كثيرة من درق اللط، وجملة كبيرة من المال والسلاح"^(٧٣). ما الغاية من إرسال هدية من سبعمائة من عتاق الخيل إذا لم تكن موجهة لخدمة الحرب؟

لما بعث عبد الرحمن بن عامر إلى المغرب ابن المعز المرتين بقرطبة واسمه المعنصر، فرح المعز بذلك وجمع تسع مائة فرس، وأرسلها إلى قرطبة تصفها المصادر أنداك بأنها لم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها^(٧٤). وغالبا ما يأتي عدد الخيول مرتفعا في الهدايا مائة فرس بالسروج^(٧٥). خصوصا وأن الآية القرآنية تدعو إلى الاستعداد للحرب بالاعتماد على الخيول: ((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ))^(٧٦).

في سنة ٤١٥هـ استقبل شرف الدولة هدية من والي بسكرة تضم ثلاث مائة حصان، ومائة فرس أنثى، وعشرون بغلة بسروج محلاة، ومائة حمل من المال^(٧٧). نفس الهدايا السلطانية التي تدخل في حقل الأدوات الحربية وردت ضمن كتاب "فيض العباب" منها الكسوة، الخيول، البغال، السيوف، السروج، الألبام^(٧٨). علما أن هذه الحركة السعيدة التي خطط لها أبو عنان ونفذها تهدف إلى الاستيلاء على قسنطينة، حيث قبل الانطلاق، أمر السلطان المريني "بإقبال الجيوش والعساكر"^(٧٩).

ما يدعم هذا الطرح هو تكرار في كثير من الهدايا السلطانية الأموال والأغذية حيث "كان الصنهاجيون بإفريقية إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فإنهم يعطونهم المال أحمالاً، والكساء تخوتا مملوءة، والحمالان نجائب عديدة"^(٨٠). كما تذكر المصادر ضمن الهدايا السلطانية التمور^(٨١)، منها ألف

حمل من التمر الجيد^(٨٢)، الذي سيحقق أمنا غذائياً للجنود في حركاتهم. وحين تبادل السلطان المريني أبو الحسن الأكل الهدايا مع سلطان المصري بعث الأول له البرانس، والعائم، والحرير والجوهر، والياقوت، وبادله المصري بثياب الإسكندرية والفسطاط^(٨٣)، وهذه الهدايا ستسهم في التلاقح الثقافي بين البلدين، ربما قد تستمر من العصر الوسيط إلى يومنا هذا. يمكن العودة إلى الهدايا التي قدمها يوسف بن تاشفين لابن عمه والتي تضم مائة عمامة ومائة غفارة (سلهام)، ومائتا برنس، وسبعمائة كساء، واثنان وخمسون جبة، واستمر ثلاث سنوات يمدده بالهدايا والتحف^(٨٤). وترد كذلك الأموال، الذخائر، الياقوت، وعشرة آلاف مثقال^(٨٥) ضمن الهدايا السلطانية، مما يعني أن اختيار هذا النوع من الهدايا هو لخدمة الأهداف الحربية، لأن هذا النوع من الهدايا السلطانية يشكل ميزانية للتجيش والتجنيد من جهة، ومن جهة أخرى لدفع رواتبهم. لكن ما أثار انتباهنا هو أن طبيعة ونوع المصادر التي اعتمدتها لا تذكر بعض المعدات الحربية^(٨٦) بالمغرب والأندلس الوسيطية منها: الطبول، مكونات الأسطول الحربي، المنجنيق، البارود وغيرها.

٢/٢-فائض "أسلوب الإنتاج الحربي"

خلال "الطور الثالث": هدايا سلطانية

للترفيه والصيد

يستمد أسلوب الإنتاج الحربي مداخله من الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها في انتصاراته وتمتلى خزينة الدولة، ولا يمكن تقديم الهدايا في المرحلة الأولى (الطور الأول) من تأسيس الدولة بشكل كبير، لكن خلال "الطور الثالث" وهو طور "تحصيل الثمرات" وبعدما "يستفرغ وسعه في الجباية" يشرع صاحب الدولة في تقديم هداياه^(٨٧)، وعرض جنوده، والإجزال لهم في العطاء حتى "يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وأسلحتهم"^(٨٨). وبحكم أن هذا الطور يتميز "بالدعة" فالى جانب الهدايا التي تتسجم مع خدمة "أسلوب الإنتاج الحربي" تأتي ضمن الهدايا السلطانية هدايا للترفيه والتسلية.

الحديد لصيد الأسود والضواري فكان يتحیل علیها فیصیدها ویدخلها فی أقفاص حديد ویسوقها إلى عبد المومن ویتحفه بها^(٩٨). ووجه عبد الرحمن بن حبيب بهدية إلى أبي جعفر المنصور فیها بزاة وکلاب^(٩٩). وتوضح نوع الهدية طريقة من الطرق المعتمدة بالمغرب والأندلس الوسيطی فی الصيد بالطيور والکلاب بالنسبة لعلية القوم.

تطرقنا سابقاً إلى طريقة تألیف بعض المؤرخین حولياتهم بذكر أخبار الهدايا السلطانية، سندرج فی هذه الفقرة الهدايا التي تهدف إلى الترفيه والتسلية. یذكر ابن عذاري فی سنة ٣٨٢هـ "وفیها وصلت هدية من بلد السودان فیها زرافة، فخرج المنصور حتی دخلت علیه"^(١٠٠). وفی سنة ٣٨٤هـ كان وصول هدية من مصر مع جعفر بن حبيب ومعه فیل عظیم^(١٠١). وفی سنة ٤٢٢هـ وصلت من ملك السودان إلى المعز هدية عظیمة فیها زرافات وأنواع من الحيوانات الغريبة^(١٠٢). تجدر الإشارة إلى أن الهدايا القادمة من جنوب الصحراء أو المتوجهة نحو ملوك الإفرنج كانت تضم ضمن الوفد مترجماً. إضافة إلى أن هذا النوع من الهدايا يستشف منها وجود حدائق و"محمیات" سلطانية وما يتطلبه من إنفاق لرعايتها.

كما كان من عادة یلیان الغماری تقديم شذائفات للذریق التي كان یأخذها للصيد^(١٠٣). وصاد جواهر سمكا من بحر المحيط وجعله فی قلال الماء وأرسله كهدية لمولاه المعز بن زيري بن عطية^(١٠٤). یتبین من مكونات الهدايا السلطانية أن طبيعة المغرب والأندلس الجبلية كانت تتوفر علی أنواع عديدة من حیوانات الصيد.

تأتي ضمن هدية السلطان المرینی أبي الحسن الأكلح إلى سلطان مصر ثلاثون بازاً^(٩٩)، لتوظيفها فی الاصطياد. أما وفادة السودان من أهل مالی لما وصلوا إلى فاس واستقبلهم السلطان أبي سالم المرینی جلبوا فی هديتهم زرافة له^(٩٠)، تصفها المصادر بالهدية "الغريبة" وبروز الناس وازدحامهم لرؤيتها، هل الأمر یتعلق بأن مجال المغرب الأقصى لم یکن یعرف حیوان الزرافة خلال العصر الوسيط؟

تخبرنا المصادر التاريخية أنه لما هزم زيري بن عطية أبا البهار كتب إلى المنصور بن أبي عامر بالانتصار وبعث له بهدية عظیمة فیها قطوط الزبد (نوع من القطط الآسيوية)، والزرافة، وأصناف من الوحوش الصحراوية كاللمط وغيرها^(٩١)، وسر بها المنصور وكافأه علیها^(٩٢). وإذا ما قارنا بین أخبار صاحب "روض القرطاس" وصاحب كتاب "مفاخر البربر" یتبین أن صاحب "المفاخر" یؤرخ لهذه الهدية فی سنة ٣٨٤هـ، أما "روض القرطاس" یذكرها فی سنة ٣٨١هـ، كما ذكر صاحب "المفاخر" حیوانات كانت ضمن الهدية لم یذكرها مؤلف "روض القرطاس" منها حیوان غریب الخلق لا عهد للناس بها، وطائر عجیب الصوت بديع المنظر والخلقة، ودابة من دواب المسك، ونمر عجیب الخلق، أما فیما یخص الزرافة فقد أضاف أن زيري بن عطية حرص علی وصولها حية، إلا أنها "نفقت فی بعض الطريق فجيء بجلدها محشواً وكثر التعجب منه"^(٩٣).

ولما استدعى ابن عامر المنصور زيري بن عطيةً للقدوم إليه للأندلس حمل زيري بن عطية هدايا من جملةا "طیر فصیح یتکلم بالعربية والبربرية"^(٩٤)، ودابة من دواب المسك، ومهابة وحشية (جنس من الطباء الوحشية)، وحیوانات غريبة، وأسدان عظیمان نقل فی قفصین من حديد^(٩٥)، واحتفل المنصور لقدمه احتفالاً عظيماً وبرزت الخاصة والعامة له^(٩٦). وكانت هذه المناسبات تشكل بالنسبة للعوام زمناً وفضاء ترفيهياً للترويح عن النفس.

كان ابن حماد بمراكش یصطاد الأسود ویهدیها للخليفة عبد المومن، حیث أهدى له ذات يوم شبلاً، كما أهدى له زرزورا یتکلم بأنواع الكلام^(٩٧). ویوضح ابن عذاري طريقة صيد الأسود فی قوله "واستعمل شباك

خاتمة

بناءً على ما سبق، يتبين أن طبائع الحوليات الوسيطية اهتمت بشكل كبير بالتاريخ السياسي، وتاريخ السلاطين، وتاريخ الدبلوماسية، لذلك نجدها انتقت في حولياتها أخبار الهدايا السلطانية، حيث وقفت عند بعض السنوات، في المقابل سككت عن ذكر سنوات أخرى. ضف إلى ذلك أنها اهتمت "بالتاريخ من أعلى" هدايا السلاطين، في حين أدارت ظهرها لهدايا المهمشين والمنسيين. كما أن هناك إيلاء كبير بأهمية الهدايا السلطانية التي تخدم "أسلوب الإنتاج الحربي" هدايا تضم معدات حربية منها الخيول، الدروع، السيوف، السروج، الأقواس العبيد وغيرها، في المقابل سجلنا غياب بعض المعدات الحربية ضمن الهدايا السلطانية كالبارود، مكونات الأسطول الحربي، المنجنيق. كما كانت هناك هدايا سلطانية موجهة للترفيه والصيد والتسلية بعد تحصيل ثمرات الحروب من جبايات وغنائم، إضافة إلى أن هذه الهدايا السلطانية تسهم في التلاقح الثقافي بين الجهات.

الإحالات المرجعية:

* اعتمدنا في مقالينا على "أسلوب الإنتاج الحربي" للمرحوم الحسين بولقطيب، علماً أن الباحثين بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط تبَنوا أنواعاً من أنماط الإنتاج منها: "اقتصاد الغزو" للمرحوم محمد عابد الجابري، واعتمده بعده الباحث إبراهيم القادري بوتشيش، إضافة إلى نمط الإنتاج الإقطاعي، المجتمع العبودي، نمط الفئانة، أسلوب الإنتاج الاصطناعي، اقتصاد الندرة.. للتوسع يُنظر الحسين بولقطيب، "أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق: حالة المغرب الوسيط". ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، العدد ٢، السنة ١٩٩٥، صص ٩١-٧٣. يُنظر كذلك رشيد الميملوي، "مقولات اقتصاد الغزو ونمط الإنتاج الحربي"، ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. يُنظر:

<https://2u.pw/zPvMO8vX>

- (١) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. ٣ أجزاء، تحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي، ط. ٧، دار نهضة مصر، ٢٠١٤، ج. ٢، ص. ٦٦.
- (٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**. تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٣، ج. ١، ص. 244.
- (٣) **نفسه**، ص. ٢٤٦.
- (٤) **نفسه**، ص. ٢٦٠.
- (٥) **نفسه**، ص. ٢٦٦.
- (٦) **نفسه**، ص. ٢٦٧.
- (٧) **نفسه**، ص. ٢٦٨.
- (٨) **نفسه**، ص. ٢٧٠.
- (٩) **نفسه**، يُنظر السنوات الآتية: ١١١٤/٥٤٠.٣/٥٤٠.٥/٤٢٣/٥٤١٥/٥٤٢٦. وفي سنة ٤٠٣ هـ وصل إلى المهدية مركب فيه هدية جلية تم استقبالها بالبنود والطبول. وفي سنة ٤٠٥ هـ أخرج نصير الدولة هدية جلية إلى الحاكم. وفي سنة ٤١٥ هـ وقف شرف الدولة لهدية والي بسكرة فعرضت عليه. وفي سنة ٤٢٣ هـ وصلت من ملك السودان إلى المعز هدية جلية. وفي سنة ٤٢٦ هـ وصلت إلى المعز بن بادس من ملك الروم هدية لم ير مثلاً في كثرة. يُنظر كذلك السنوات الآتية: ٥٣٩٩/٥٦٦٧/٥٦٧٥/٥٦٨٠/٥٦٩١، علي ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، صص. ٤٠٣-٤٠٤. ٣-٢-١١٧.
- يُنظر** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**. تحقيق محمد ماضور، ط. ٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، صص ١٢٢-١٢٦-١٢٩-١٥٠-١٥٥-١٥٤.
- (١٠) أبو العباس العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين مناقب الشيخ أبي يعزى**. تح أحمد التوفيق، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٥٢.
- (١١) محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**. تح ماريا خيسوس بيغيرا، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ١٩٨١، ص. ٣٢٩.
- (١٢) **نفسه**، ص. ٤٥٤.
- (١٣) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. ٣ أجزاء، تحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي، ط. ٧، دار نهضة مصر، ٢٠١٤، ج. ٢، ص. ٥٤٤.

- (١٤) أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجلالي القرطبي، **أمثال العوام في الأندلس**: (مستخرجة من كتابه: **ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام**)، جزآن، تح محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الصل، فاس، ١٩٧٥، ج٢، ص٣٦٦.
- (١٥) **نفسه**، ص٣٦٦.
- (١٦) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ٩ أجزاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ج٣، ص٨.
- (١٧) **نفسه**، ص١٢٩.
- (١٨) ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص٣٧.
- (١٩) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ص٢١٣.
- (٢٠) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، جزآن، ترجمة محمد حجي، محمد الخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ج١، ص٣٣٥.
- (٢١) **نفسه**، ص٣٣٥.
- (٢٢) **نفسه**، ص٣٦٨.
- (٢٣) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج٢، ص٨.
- (٢٤) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص١٢٤.
- (٢٥) **نفسه**، ص٥٨.
- (٢٦) إسماعيل ابن الأحمر وآخرون، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص٥١.
- (٢٧) ابن عذاري، **البيان المغرب**، م.س، ج١، ص٨٠.
- (٢٨) **نفسه**، ص٢١٤.
- (٢٩) الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج١، ص١٥٢.
- (٣٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٤، ص٢٨.
- (٣١) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، م.س، ج١، ص٢٠.
- (٣٢) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص٣٣٥.
- (٣٣) **نفسه**، ج٢، ص٧٣.
- (٣٤) الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج٣، ص٥٣.
- (٣٥) **نفسه**، ص٨٠.
- (٣٦) **نفسه**، ص١٦٣. قدم سانشو هدايا نفيسة لأمير المسلمين سنة ٦٨٤هـ، علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، م.س، ص٣٦٣. يُنظر الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج١، ص٢٤٥.
- (٣٧) تلقى يوسف المريني وهو محاصر لتلمسان هدية عظيمة من صاحب مصر، ص٣٨٧. كما بعث ابن الأحمر هدية عظيمة إلى يغمراسن بن زيان، ص٣٣٥، علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، م.س، ص٨٥-٣٨٤. يُنظر الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج١، ص٢٦٧. يُنظر الزركشي، **تاريخ الدولتين**، م.س، ص١٢٦.
- (٣٨) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، م.س، ص٣٦٣.
- (٣٩) ابن عذاري، **البيان المغرب قسم الموحدين**، م.س، ص٢١٣.
- (٤٠) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، م.س، ص٣٨٧.
- (٤١) مجهول، **مفاخر البربر**، م.س، ص١١٤.
- (٤٢) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، م.س، ص٣٩١.
- (٤٣) ابن سماك، **الحلل الموشية**، م.س، ص٥١.
- (٤٤) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص١٧٤.
- (٤٥) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، م.س، ج٢، ص٥٠٨.
- (٤٦) الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج٣، ص١٦٣.
- (٤٧) أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص٥٩.
- (٤٨) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص٩٩.
- (٤٩) **نفسه**، ص١١٧.
- (٥٠) يُنظر الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج١، ص٤٤. "وفي سنة ٦٧٤هـ ثارت العامة باليهود بفاس بسبب أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهوديا ولولا أن السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت إياها".
- (٥١) **سورة التوبة**، الآية: ٢٩. يقول عز وجل: ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)).
- (٥٢) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص١٧٤.
- (٥٣) البيدق، **أخبار المهدي بن تومرت**، م.س، ص٦٤.
- (٥٤) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص١٧٣.
- (٥٥) **نفسه**، ص١٨٤.
- (٥٦) **نفسه**، ص٢٨٩.
- (٥٧) **نفسه**، ص٣٣٥.
- (٥٨) **نفسه**، ص١٤.
- (٥٩) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص٣٨٧.
- (٦٠) الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج٣، ص١٢٨.
- (٦١) **نفسه**، ص١٢٨.
- (٦٢) ابن مرزوق، **المسند الصحيح**، م.س، ص٤٥٤.
- (٦٣) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٩٤، ص١١٨.
- (٦٤) حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني ٦٠٩-** ١٢١٢/١٤٦٥م **إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص٢٥٧.
- (٦٥) الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج٢، ص٢١.
- (٦٦) إسماعيل ابن الأحمر وآخرون، **بيوتات فاس**، م.س، ص٣٠.
- (٦٧) ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية**، م.س، ص٢٨.
- (٦٨) **نفسه**، ص٢٨.
- (٦٩) الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج٢، ص٢١.
- (٧٠) **نفسه**، ص١٨٢.
- (٧١) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، م.س، ص١٠٣.
- (٧٢) **نفسه**، ص١١٧.
- (٧٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**، م.س، ج١، ص٢٧٦.
- (٧٤) الناصري، **الاستقصا**، م.س، ج١، ص٢٥٧. ربما اشترط عليه عبد الرحمن بن عامر هذه الهدية مقابل إطلاق ابنه المرتهن بقرطبة.

- (٧٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج. ١، ص ٢٨٤.
- (٧٦) **سورة الأنفال**. الآية: ٦.
- (٧٧) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج. ١، ص ٢٩٨.
- (٧٨) النميري، **فيض العباب**. م.س، صص. ٢٥-٤٣٤.
- (٧٩) **نفسه**. ص. ١٦.
- (٨٠) ابن خلدون، **المقدمة**. م.س، ج. ٢، ص ٤٨٥.
- (٨١) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج. ١، ص ١٧٤.
- (٨٢) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص ١٠٣.
- (٨٣) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج. ٣، ص ١٣.
- (٨٤) ابن سمالك العاملي، **الحلل الموشية**. م.س، ص ٢٨.
- (٨٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج. ١، ص ١٨١.
- (٨٦) يُنظر نورالدين أمعيط، **"مصطلحات العتاد الحربي بالمغرب المريني من خلال المصادر العربية"**. ضمن مجلة كان التاريخية، السنة السابعة عشرة، العدد الثالث والستون، مارس، ٢٠٢٤، صص ٩٦-٨٠.
- (٨٧) ابن خلدون، **مقدمة**. ج. ٢، ص ٤٤٤.
- (٨٨) **نفسه**. ص ٤٤٤.
- (٨٩) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج. ٣، ص ١٣.
- (٩٠) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج. ٤، ص ٣٥.
- (٩١) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص ١٠٣.
- (٩٢) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج. ١، ص ٢٦٦.
- (٩٣) مجهول، **مفاخر البربر**. م.س، ص ١١٦.
- (٩٤) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص ١٠٤.
- (٩٥) **نفسه**. ص ١٠٤.
- (٩٦) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج. ١، ص ٢٦٧.
- (٩٧) ابن سمالك العاملي، **الحلل الموشية**. م.س، ص ١٤٩. ربما كان يقصد طائر الببغاء.
- (٩٨) ابن عذاري، **البيان المغرب قسم الموحدين**. م.س، ص ٤٦.
- (٩٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج. ١، ص ٩٩. يُنظر الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج. ١، ص ١٧٥.
- (١٠٠) **نفسه**. ص ٢٦٧.
- (١٠١) **نفسه**. ص ٢٦٧.
- (١٠٢) **نفسه**. ص ٣٠٠.
- (١٠٣) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج. ١، ص ١٥٤. شذائفات هي نوع من الطيور الفارمة.
- (١٠٤) **نفسه**. ص ٢٥٥.

ضرائب التنقل في تاريخ المغرب الوسيط الخفارة نموذجاً

د. مصطفى البركة

أستاذ مادة الاجتماعيات في السلك الثانوي
وأستاذ زائر بالمدرسة العليا للأساتذة
فاس – المملكة المغربية



ملخص

يناقش موضوع المقال ضريبة من ضرائب التنقل وهي الخفارة التي أصبحت واقعاً ملموساً في تاريخ المغرب الوسيط، حيث فرضتها القبائل المستقوية على الرعايا، ويبدو أنها ارتبطت بانعدام الأمن، وعدم بسط الدولة لنفوذها على الطرق والمسالك التجارية والبدو، إذ يظهر أن مصطلح الخفارة أصبح في القرن (١٣هـ/ ١٣م) يحضر في النصوص المصدرة بشكل واضح ولافت، خاصة بعد تفكك الإمبراطورية الموحدية، وسيطرة القبائل العربية على العديد من المجالات، حيث أضحت هذا المصطلح مقترناً بالإضافة إلى تأمين الطرقات بحماية الأهالي والسكان في المدن والبدو، مقابل مبلغ معين، ولا نعلم على وجه الدقة إن كانت هذه الحماية طالب بها الأهالي أنفسهم، أم أنها مفروضة بقوة السيف، ومهما يكن فإن الأمر لا يختلف كثيراً إذا كانت النتيجة في النهاية هي دفع الضريبة التي كانت إيراداتها في الغالب خارجة عن سيطرة الدولة. ولا تدخل ضمن ما تجبیه السلطة من السكان، لكن واقع الحال يشير إلى أن الأهالي كانوا يدفعونها قهراً تحت ضغط التهديد والوعيد. ورغم محاولات العديد من السلاطين لإزالتها وتوفير الأمن والضرب على أيدي القبائل التي تفرض الخفارة، إلا أن الأمر لم ينجح. بل إن مصطلح الخفارة تطور في معناه ليصل في الفترة الحديثة إلى مصطلح له نفس الدلالة، ولكن بلفظ مغاير هو مصطلح الزطاطة.

كلمات مفتاحية:

الخفارة؛ المغرب؛ القبائل؛ الطرق؛ الأمن؛ الزطاطة

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣٠ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٨ مارس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.356874.1205

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مصطفى البركة. "ضرائب التنقل في تاريخ المغرب الوسيط: الخفارة نموذجاً". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون: سبتمبر ٢٠٢٥. ص ٦٩ - ٧٥.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: mostafaelbaraka27@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية. and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تتضمن المصادر العديد من المصطلحات، التي تحيل مضامينها على معنى الجبايات، غير أن الأمر لا يخلو من تعقيد، فالكثير من المفاهيم تكتسي طابع العمومية المفرطة، أو التداخل الدلالي. وبما أن المصطلحات الجبائية لم تظل جامدة وراكنة، بل تطورت ونمت، حينما جالت في السياق الاجتماعي للمغرب الإسلامي في العصر الوسيط، نرى من المهم أن ننظر هنا في دلالة المصطلحات المرتبطة بالجباية، حتى تتضبط وتتحدد بدقة تحاشيا للتشوش الدلالي، وتجنباً للغموض الذي طالما أحاط بها.

ومن المصطلحات الجبائية التي لم تتلحقها في الدراسة مصطلح الخفارة الذي شكل ممراً واسعاً لتمرير جملة من الرموز والتصورات، فهي حسب ما يبدو لنا لم تقتصر على مجرد الحصول على الأموال، بل كانت أداة لممارسة الحكم، وإخضاع الرعايا مما جعل السلاطين يحاولون جاهدين ضبط إيقاعها، لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة.

كما حاول الفقهاء - بفتاويهم المحرمة للخفارة لكونها مكس لا تجوز بأي حال-، التخفيف عن الرعية من ثقل هذه الضريبة الثقيلة، لكن الواقع التاريخي تطلب تعديل هذا الرأي وتبرير هذا النوع من الكلف. وسنعمل على ضبط مصطلح الخفارة لغة واصطلاحاً ثم في نقطة ثانية سنتتبع ظهور وتطور الخفارة في مغرب العصر الوسيط وفي محور ثالث سنرى تدخل الدولة لضبط هذه الضريبة، وفي محور أخير سنخرج على آراء الفقهاء في الخفارة والتحول الذي عرفته فتاويهم في هذا الأمر.

أولاً: الخفارة (لغة واصطلاحاً)

خَفَرَ الرجل، وَيَخْفِرُ خَفْراً، وَخَفَرَهُ تَخْفِيراً، بمعنى أجاره ومنعه وأمنه، وكان له خَفِيرًا يَمْنَعُهُ، وكذلك تَخَفَّرَ بِهِ. وَخَفَرَهُ: استجار به وسأله أن يكون له خَفِيرًا وَحَامِيًا وكفيلًا. وَخَفِيرُ القوم أيضا مُجِيرُهُم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده، والاسم من ذلك كله الْخَفَرَةُ وهي الذمة، يُقَالُ: وَقَتَّ خَفَرْتُكَ. وَأَخْفَرَهُ: نقض عهده وخأس به وغدره، وَأَخْفَرَ الذِّمَّةَ: لَمْ يَفِ بِهَا^(١). وَالْخَفَارَةُ وَالْخَفَارَةُ بالكسر والضم، كلاهما صحيح وتعني

الذِّمَامُ^(٢)، وقيل الْخَفَرَةُ والخفارة والخَفَارَةُ والخَفَارَةُ تعني الأمان^(٣)، كما تعني أيضاً جُعْلُ الْخَفِيرِ^(٤)، أي ما يتقاضاه الْخَفِيرُ لقاء حمايته وتأمينه للرجل. من كل ما سبق يتضح أن الْخَفَارَةَ هي حفظ المسافرين أو المتنقل، وضمان سلامته ومروره في المناطق الْمُخَوَّفَةِ، لِمَا قد يتخللها من مخاطر كقطاع الطرق^(٥). وَالْخَفَارَةُ (بضم الخاء) هي أَجْرَةُ الْخَفِيرِ^(٦)، التي يدفعها المار أو المسافر لمن يخفزه ويحميه أثناء سفره أو مروره، ويؤدي عنها سلفاً لمن يضمن الأمن والسلامة^(٧).

ثانياً: ظهور الخفارة وتطورها بمغرب العصر الوسيط

تجدر الإشارة في البداية على أن إيرادات ضريبة الخفارة خارجة عن سيطرة الدولة، ولا تدخل ضمن ما تجبیه الدولة من السكان، لكن بما أن هؤلاء يدفعونها على كل حال، حُقَّ لنا التعرض لها. والظاهر أن هذه الضريبة ارتبطت بانعدام الأمن، وعدم بسط الدولة في بلاد المغرب لنفوذها على الطرق والمسالك التجارية أو غيرها^(٨). فمهما كانت الجهود التي بذلتها الدول والإمارات القائمة لتوفير الأمن، والضرب على أيدي قطاع الطرق، إلا أن هذا الأمر كان صعب التحقيق لطول المسافات وطبيعة المجتمع القبلي، فلا يخلو الأمر من وجود قبائل تجد في الغزو والنهب والسلب مورداً لها^(٩). وهو ما يفسر ظهور ضريبة الخفارة التي يرجعها أحد الباحثين للصراع بين بنية اقتصادية مرتكزة على المدن وممثلة لمصالح الأرستقراطية الحاكمة، وبنية متخلفة مثلتها القبائل^(١٠).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ولا تتيح لنا المصادر الإجابة عنه إجابة شافية، هو كالتالي: مَنْ مِنَ القبائل كان يمارس حرفة قَطْعِ الطرق ونهب القوافل التجارية، لتظهر بعد ذلك عملية حمايتها مقابل الْخَفَارَةِ؟ وإذا كنا لا نملك كما ألمحنا إجابة تضيء جوانب هذه الضريبة، فإن المصادر لا تخلو من إشارات لها تلميحا أو تصريحاً. فقد استفادت القبائل الواقعة على طريق القوافل التجارية من حركة التبادل التجاري، عن طريق تسلم بعض اللوازم والمكوس من التجار العابرين لأراضيها، لقاء حمايتهم من هجمات قطاع الطرق^(١١). وفي هذا

الحمايين للأعراب مهمة جباية الخراج، وصولاً لفرضهم الخفارة على الأهالي.

وخلال القرن ٧هـ، يورد ابن سعيد المغربي أثناء حديثه عن بعض القبائل العربية المعروفة باسم دباب التي تمتد "من حد قابس إلى بئر السدرة من برقة، وبعد لبدة يأخذ البحر في الدخول إلى الجنوب وعلى ساحله هنالك عمائر لبطون من هواراة تحت خفارة دباب"^(١٩). وهنا نلاحظ تحولاً عميقاً في دلالة مصطلح الخفارة من ضريبة كانت تؤدي على المرور في عهد ابن حوقل - تفرض على المجتازين من التجار حماية لهم وتأميناً لمتاعهم - إلى ضريبة تؤديها قبيلة (مغلوبة على أمرها) إلى أخرى أقوى منها (دباب) في عهد ابن سعيد، مقابل الحماية والرعاية، التي شملت على حد سواء المسلمين، وكذا اليهود المستقرين بقصر في طلميثا، والداخلين في خفارة العرب أيضاً^(٢٠).

وعلى ما يبدو فإن مصطلح الخفارة أصبح في القرن السابع الهجري يحضر في النصوص المصدرية بشكل واضح ولافت، مقترناً بالإضافة إلى تأمين الطرقات بحماية الأهالي والسكان في المدن والبادي، مقابل مبلغ معين، ولا نعلم على وجه الدقة إن كانت هذه الحماية طالب بها الأهالي أنفسهم، أم أنها مفروضة بقوة السيف. وعلى كل حال فإن الأمر لا يختلف كثيراً، إذا كانت النتيجة في النهاية هي دفع الضريبة. في هذا السياق وفي سنة ٦٣٨هـ وصل بنو عسكر إلى مكناسة وجهاتها "مستمدين من عرب المعقل أعظم عسكر، فأحدقوا بها من كل ناحية... وألزموهم أربعة آلاف دينار خفارة"^(٢١).

وكان أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (٦١٤ - ٦٣٧هـ/ ١٢١٧ - ١٢٣٩م) قد فرض هذه الضريبة على قبائل المغرب الداخلة تحت حكمه سنة ٦١٧هـ فوضع على كل قبيلة مالا وزرعا معلوما يؤديه في كل سنة خفارة على بلادهم، وأخرج عليهم الحفاظ، وصالح أشياخ مدينة مكناس ورباط تازة وقصر كتامة على أموال معلومة له في كل سنة خفارة على بلادهم على أن يؤمن لهم الطرقات، ويكف عنهم الغارات، ويدفع عنهم إذا من كان يؤذيهم من القبائل المجاورين^(٢٢). اعتبر أحد الباحثين^(٢٣) أن هذه الضريبة - الخفارة التي فرضها

السياق فقد استعانت السلطة الرستمية ببعض وجوه زناتة ليجيروا ويؤمنوا وصول قوافل قد أقبلت من المشرق، وفيها أموال لا تحصى^(٢٤).

وقد تعرضت زناتة إلى وفد كان أبو عبد الله الشيعي قد أرسله بأموال إلى عبيد الله المهدي في سجنه في سجلماسة^(٢٥)، مما جعل أبو عبد الله يجعل أكد واجباته "إظهار العدل وإحياء الحق، إلى غاية يشرب لها الذئب والشاة من منهل، ويجتمع العدو مع عدوه في منزل رضى بالحق، واصطلاحاً عليه، ويسلك السفر والسيارة بلا خفير ولا سفير"^(٢٦). وهو ما يرجح أن المسافرين والتجار كانوا يدفعون أجراً للخفير، مقابل تأمين الطريق، فعندما مدحت المصادر ما قام به أبو عبد الله في قبائل كتامة من إصلاح، أشارت إلى أن التجار أصبحوا "يسافرون بالأموال الصامته، والنعم الظاهرة، يمر بها الواحد والاثنان في الجبال والشعاب، والفلوات، والبراري، وموضع الخلاء، فيبيت حيث أمسى ويسير حيث أحب واشتهى كأنما هو في بيته، أو سوقه، يبيت آمناً ويصبح سالماً"^(٢٧).

من جهة أخرى يذكر صاحب صورة الأرض أن قبائل البربر تفرض على المجتازين من فاس إلى سجلماسة ضرائب على ما معهم من التجارة ويخفرونهم^(٢٨)، وكلام ابن حوقل خلال القرن الرابع الهجري، يكشف عن دلالة مصطلح الخفارة باعتبارها ضريبة على المرور، تلزم المجتازين من التجار، حماية لهم وتأميناً لمتاعهم.

ومع دخول قبائل بني هلال إلى إفريقية في القرن الخامس الهجري وبداية تسربها إلى المغرب الأوسط والأقصى، أصبح مصطلح الخفارة دائم التردد في المصادر، والراجح أن هذه القبائل أو بعضها على الأقل امتنعت حرفة الخفارة، فقد احتاج المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٤هـ/ ١٠١٦ - ١٠٦٢م) للثقل من صبرة إلى المهدية لخفارة رجلين من العرب، قد كان صاهرهما ببنتيه^(٢٩). وبالمثل وفي القرن السادس الهجري، يشير الإدريسي أن حصن باديس "وهو في أسفل طرف جبل أوراس ٣ مراحل وهو حصن عامر بأهله، والعرب تملك أرضه وتمنع أهله من الخروج عنه إلا بخفارة رجل منهم"^(٣٠). وقد كان هذا الواقع وليد سياق أهم معالمه: توكيل

المنبات^(٢٧)، وعفا عن أهلها ورفع مظالمهم وأصلح أحوالهم وبلادهم^(٢٨).

في نفس السياق استطاع أبو الحسن المريني (٧٣١-٧٤٩هـ/ ١٣٣٢ - ١٣٤٨م)، إخضاع المغرب الأوسط وإفريقية لسلطانه، غير أنه اصطدم بقوة القبائل العربية التي اعتزت على الدولة حسب لفظ ابن خلدون، وأصبحت تفرض الضرائب على السكان، فقام السلطان بإحداث إصلاح حيث أرغم هذه القبائل على "إسقاط الإتاوات، ونقصهم الكثير منها، وشكا إليه الرعية من البدو وما ينالونهم به من الظلمات والجور بفرض الإتاوة التي يسمونها الخفارة، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها"^(٢٩)، ويبدو أن هذه الإجراءات أسهمت بشكل كبير في تشكل معارضة لسلطة أبي الحسن بإفريقية، مما كلفه هزيمة جيوشه أمام هذه القبائل، وعودة حكم الحفصيين مرة أخرى.

وتشير مختلف الإفادات المصدية إلى أن أبا عنان (٧٤٩-٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ - ١٣٥٧م) اقتضى سيرة والده أبي الحسن، فأزال المغارم التي كانت تفرضها قبائل رياح على الرعية ومنها ضريبة الخفارة^(٣٠). مما يؤكد استمرار الحضور التاريخي المتواصل لمصطلح الخفارة في بلاد المغرب إلى نهاية العصر الوسيط، ليظهر إلى جانبه مصطلح يفيد نفس الدلالة وهو الزطاطة^(٣١). ومعناه في عامية أهل المغرب "ما يعطيه المارة لحاميتهم في الطريق المخوفة"^(٣٢)، واستمرت هذه الخدمة أو الحرفة تحت هذا الاسم إلى بداية القرن العشرين، فالحسن الوزان ذكر في أكثر من مكان أن المسافرين يستأجرون أشخاصا مسلحين لحمايتهم في تنقلاتهم واجتيازهم لأماكن معينة، إلا أنه لم يعط للعملية اسما خاصا بها^(٣٣). كما ذكر مارمول أنه نتيجة لقيام الأعراب بأعمال السلب والنهب في المسالك الكبرى بإقليم أنجاد، كان على المسافرين أن يؤدي مبلغا من المال لأول رئيس جماعة يصادفه فيسلم إليه راية صغيرة على رأس رمح حتى لا ينهب عبر منطقته كلها، ويفعل الشيء نفسه عند الوصول إلى منطقة نفوذ زعيم آخر، فيتم المرور بدون خطر^(٣٤).

المرينيون تحمل في العمق ضريبة حرب تؤديها القبيلة المغلوبة للقبيلة المنتصرة أو الغالبة لتلافي غزوها، وتصبح بعد ذلك في طاعتها وتحت رحمتها وحمايتها من القبائل الأخرى التي تطلب الإتاوة نفسها.

يتضح إذن أن الشرط الأمني كان هو حجر الزاوية الذي من أجله فرضت ضريبة الخفارة سنوياً، وعلى ما يبدو فإن القبائل العربية هي الأخرى استغلت ضعف السلطة المركزية، لتفرض الخفارة على القبائل المغلوبة على أمرها، فقد أصبحت هذه القبائل منذ القرن ٧هـ عنصراً أساسياً في معادلة السلطة بالمغرب، فعلى سبيل المثال لا الحصر تملك المنبات من ذوي منصور وجدة، وندرومة، وبني يزناسن، ومديونة، وبني سنوس، إقطاعاً من السلطان إلى ما كان لهم عليها قبل من الأتاوات والوضائع، فصار معظم جبايتها لهم، وضربوا على بلد هنين بالساحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم^(٣٥).

وما دامت هذه القبائل قوية فإنها تفرض الخفارة على من هم أضعف منها، ولكن عندما تتحول موازين القوى، فإنها تصبح مخفورة بدورها، وهذا حال زغبة التي فرضت الإتاوة على الكثير من بوادي المغرب الأوسط، لكن عندما خلا قفرهم من ظعونهم وحمايتهم فطرقتهم عرب المعقل المجاورون لهم من جانب المغرب، وغلبوا من وجدوا من مخلف زغبة هؤلاء بتلك القفار، وجعلوا عليهم خفارة يأخذونها من إبلهم^(٣٥).

ثالثاً: تدخل الدولة لمعالجة ثقل ضريبة

الخفارة على الرعايا

حاول بعض السلاطين كبح جماح هذه القبائل وشيها عن استخلاص الخفارة من الأهالي، يذكر المززوي في معرض حديثه عن حصار يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/ ١٢٥٨ - ١٢٨٦م) لمدينة سجلماسة واستخلاصها من عرب المنبات المتحالفين مع بني عبد الواد - إلى أن يغمراسن بن زيان كان يوجه من ينوب عنه لأخذ الخفارة من السكان^(٣٦)، وهو ما أبطله السلطان المريني بعد انتزاع المدينة حسب ما يفهم من السياق، بعد أن قتل عامل بني عبد الواد عليها ومن ظفر به من عرب

السودان يؤخذون بمال في الطريق، لا ينفكون عنه، فيتولى ذلك بعضهم، ويأخذ من الباقين، فقال: لا يجد الخلاص إلا بذلك، فهي ضرورة لأبد لهم منها، وأراه جائزاً^(٤٢). كما أورد البرزلي (ت. ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) أن الحافظ للطريق ليس بظالم فيما يأخذ، وإنما هو أجبر فوجب أن يؤتمن، وهكذا فأجرة الدليل وما يأخذه الذي يحفظ الحاج من اللصوص لا يسقط به الحج^(٤٣).

وفي المقابل أورد الونشريسي فتوى لأبي الحسن القابسي (ت. ٤٠٣هـ) تفيد اختلاف الفقهاء في حكم الخفير الذي يمشي مع الرفقة ويخرجها من الأمن ويدخلها إليه بجعل، منهم من أجازها ومنهم من منعه، ومنهم من قال إن كان قدر تعب وتعب فرسه، وترك أسبابه لهذا فهي جائزة وإلا فلا^(٤٤)، إلا أن الفقهاء وأمام استفحال ظاهرة الخفارة أصبحوا ملزمين على الإجابة على أسئلة التجار، الذين كانوا يطرحون أسئلة كثيرة على الفقهاء، وتمحورت الأسئلة حول حلية وجواز دفع الخفارة، وهل يدفعها جميع من وقعت عليه؟ هل تكون الأجرة على الرؤوس وعدد المسافرين؟ أم على الأحمال والأموال؟ فقد سئل الشيخ قاسم العقباني عن لزوم الخفارة على أهل القافلة فأفتى بالإيجاب^(٤٥)، وقال محمد الحطاب (ت. ٩٥٤هـ / ١٤٩٧م) أن الخفارة تشبه سائر النفقات اللازمة، لأن أخذها للجدد جائز، إذ يلزمهم الخروج معهم، فهي أجرة يصرفونها في الكراع والسلاح والزاد، كما أنها تشبه الظلم، لأن أصل توظيفها خوف قاطع الطريق، وقال عبد الباقي الزرقاني (ت. ١٠٩٩هـ / ١٦٨٨م) أن أجرة الدال على الرؤوس دون الأمتعة، إذ من معه دواب، ولو كثرت كالمجرد منها في الانتفاع به. قال: "والظاهر اعتبار عدد رؤوس التابعين والمتبوعين فقط، وإذا جرى عرف بشيء عمل به لأنه كالشرط"^(٤٦).

ولا تذكر الإشارات المصدرة المتناثرة مقدار ما كان يؤخذ من التجار والأهالي كخفارة، حاشا ما ذكرناه سابقا عن فرض بني عسكر على أهل مكناسة أربعة آلاف دينار خفارة^(٤٧)، ويذهب الباحثان محمد حجاج الطويل^(٤٨) وحسن حافظي علوي^(٤٩) أن الخفارة كانت باهظة الثمن اعتمادا على رواية العبدري، حتى أن الجماعة القليلة العدد من المسافرين تعجز عن أداء رسوم الخفارة، فتنتظر إلى أن يجتمع في القافلة العدد الكثير، وقد خرج العبدري في قافلة تزيد على الألف قال: "وقال لنا قائل على الباب - يعني باب تلمسان - أن لهم في محاولة الخروج نحواً من ثلاثة أشهر حتى تسنى لهم بخفارة على أداء خفارة"^(٥٠).

والظاهر أن فترات الاضطرابات وانعدام الأمن كانت تزيد الحاجة إلى الخفر والخفارة، وبالتالي تصبح قيمة ما يدفعه المسافر والتاجر مرتفعاً، خصوصاً في المناطق التي ينشط فيها قطاع الطرق كالصحاري، والمسالك التجارية الكبرى والممرات، والخوانق، مثل الطرق الصحراوية التي تنشط فيها القوافل القادمة والذاهبة إلى السودان والمحملة بالتبر، ومثل ممر تازة، والممرات الجبلية في جبال درن وفازاز وغمارة وغيرها^(٥١).

رابعا: تطور موقف الفقهاء من الرفض إلى التبرير

لا يختلف رأي الفقهاء على اعتبار الخفارة عمل غير شرعي، يقول ابن تيمية: "وأما من كان لا يقطع الطريق، ولكنه يأخذ خفارة أو ضريبة من أبناء السبيل على الرؤوس والدواب والأحمال، ونحو ذلك فهذا نخاس مكاس عليه عقوبة المكاسين"^(٥٢). وبما أن حضور الخفارة في بلاد المغرب في العصر الوسيط أصبح أمراً واقعاً، فإن تعامل الفقهاء مع ذلك أصبح أكثر مرونة، إذ اعتبروا الخفارة في حكم ما جرى العمل به^(٥٣)، وهذا ما أفتى به وسجله الفقيه أحمد بن نصر الداودي (ت. ٤٠٢هـ / ١٠١١م) بتلمسان، واعتبر ما يعطى لخفارة القوافل في الطريق، عبارة عن هدية في مقابل حراسة الأنفس والأموال، مثلها مثل أجرة "الدليل على الطريق"، كما سئل ابن أبي زيد القيرواني عن يأخذ بغرم على قدر ما لكل واحد منهم، فقال: سئل سحنون عن رفقة من بلد

خاتمة

خلاصة القول، إن ضريبة الخفارة سادت في بلاد المغرب في العصر الوسيط، واستمر تداولها بعد ذلك تحت اسم الزطاطة، وكانت تحمل مفهوم الضريبة التي يدفعها المارة والتجار مقابل حمايتهم، باعتبارها ضريبة على المرور، لكنها حملت أيضا مفهوم الإتاوة أو الضريبة الحربية التي فرضت على القبائل والبدو والمدن، في بعض فترات ضعف الحكم المركزي، وسواء أكان أداؤها يتم لصالح شيوخ القبائل الواقعة على طول المسالك، أو لفائدة الحكام والأمراء، فإن الهاجس الأمني وطلب الحماية ظل مطلباً أساسياً، وشرطاً لازماً، لأدائها لتأمين الأهالي وبضائع التجار.

الإحالات المرجعية:

- (١) بن فارس (بن زكريا أبو الحسين أحمد)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٢٠٣؛ الأزهرى (أبو منصور محمد بن أحمد)، تهذيب اللغة تحقيق مجموعة من الباحثين، الدار المصرية التأليف والترجمة، دار الكاتب العربي- مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤- ١٩٧٦م، ج ٧، ص ٣٥٦-٣٥٥؛ الجوهري (إسماعيل بن حماد)، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٦٤٨- ٦٤٩؛ ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د. ت، المجلد الثاني، ج ١٤، ص ١٢٠٩، مادة خفر؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط. الثامنة، دمشق، ٢٠٠٥م، ص. ٣٨٦-٣٨٧.
- (٢) تهذيب اللغة، ج ٧، ص ٣٥٥؛ الصحاح...، ص ٦٤٩؛ لسان العرب، م ٢، ج ١٤، ص. ١٢٠٩.
- (٣) لسان العرب، ص. ١٢٠٩.
- (٤) نفسه؛ القاموس المحيط، ص. ٣٨٧.
- (٥) الطويل (محمد حجاج)، الخفارة، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٩٨٩، ج ١١، ص. ٣٧٨١.
- (٦) نفسه؛ ١١٤؛ عمارة (محمد)، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، ط ١، دار الشروق، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص. ١٩٦.
- (٧) تاريخ المغرب تحيين وتركيب، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، عكاظ الجديدة، ط ١، الرباط، ٢٠١١م، ص. ٧٥٣.
- (٨) هوبكينز (ج. ف. ب.)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى نقله عن الانجليزية أمين توفيق الطيبي، ط ٢، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص. ٧٦.
- (٩) جودت (عبد الكريم يوسف)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (٩٠١-)، ديوان المطبوعات الجزائرية، ١٩٩٢، ص. ١٩٩.
- (١٠) حسن (محمد)، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، ط ١، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، ١٩٨٦، ص. ٩٤.
- (١١) بولقطيب (الحسين)، " المصامدة والنشاط التجاري إلى حدود قيام الدولة الموحدية "، ضمن ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، الدار البيضاء، ١٩٩٦، الجزء الثاني، ص. ٩٠.
- (١٢) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٦، ص. ٩١.
- (١٣) جودت عبد الكريم، م، س، ص. ٢٠٠.
- (١٤) القاضي النعمان (أبو حنيفة بن محمد)، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، ط ٢، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨٦، ص. ٢٧٤.
- (١٥) نفسه، ص. ١٢٢.
- (١٦) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٦، ص. ٩٩.
- (١٧) التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد)، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١،

- حجي، دار نشر المعرفة، مطابع المعارف الجديدة، الرباط ١٩٨٨-١٩٨٩، ج ٢، ص. ١٠٧-١٠٨.
- (٣٤) كربخال، إفريقيا، ج ٢، ص. ٢٩٢.
- (٣٥) ابن عذاري، البيان، ق. الموحدين، ص. ٣٥٧.
- (٣٦) الخفارة، معلمة المغرب، ج ١١، ص. ٣٧٨١.
- (٣٧) واحات بلاد المغرب من القرن ٤هـ / ١٠م إلى القرن ٨هـ / ١٤م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ٢٠٠٤-٢٠٠٥م، ج ٢، ص. ٦٧٢.
- (٣٨) العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيدري)، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، منشورات جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات ٤، الرباط، ١٩٦٨، ص. ٢٧٨.
- (٣٩) محمد حجاج الطويل، معلمة المغرب، ج ١١، ص. ٣٧٨١.
- (٤٠) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٩، ص. ١١٢.
- (٤١) هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، ج ٢، ص. ٢٨٨.
- (٤٢) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٨١، ج ٦، ص. ١٤٩-١٥٠، الوزاني (المهدي)، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بـ : المعيار الجديد الجامع المغرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب، قابله وصححه على النسخة الأصلية عمر بن حماد، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، فضالة، المحمدية، ١٩٩٨، ج ٨، ص. ٦٠.
- (٤٣) البرزلي (أبو القاسم بن أحمد البلوي)، فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ج ١، ص. ٥٨٥.
- (٤٤) المعيار، ج ٨، ص. ٢٨٢.
- (٤٥) نفسه، ج ٢، ص. ١١٦.
- (٤٦) محمد بن عبد السلام بن ناصر، الرحلة الكبرى، ص. ١٨٨ - ١٨٩، نقلًا عن حافظي علوي، واحات بلاد المغرب، م. س، ج ٢، ص. ٦٧٢.

- ص. ٣٢٩؛ يذكر ابن خلدون أن أحد حفدة المعز واسمه علي بن يحيى قدم من صفاقس إلى العاصمة في خفارة أبي بكر بن أبي جابر مع عسكر ونظرائه من أمراء العرب، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ج ٦، ص. ٢١٣.
- (١٨) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، اعتنى بتصحيحه هنري بيريس، الجزائر، ١٩٥٧ وصف إفريقيا الشمالية، ص. ٦٦.
- (١٩) كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيث خينيس، منشورات معهد مولاي الحسن، تطوان ١٩٥٨، ص. ٧٩-٨٠.
- (٢٠) نفسه، ص. ٨٠.
- (٢١) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ٣٥٧.
- (٢٢) ابن أبي زرع الفاسي (علي)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص. ٣٦-٣٧.
- (٢٣) تيتاو (حميد)، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص. ١٨٢.
- (٢٤) ابن خلدون، العبر، م. س، ج ٦، ص. ٨٠-٨١.
- (٢٥) نفسه، ج ٦، ص. ٥٤.
- (٢٦) الملزوي (أبو فارس عبد العزيز)، نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، ص. ٩٣.
- (٢٧) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م. س، ص. ١٣٩.
- (٢٨) نفسه.
- (٢٩) العبر، م. س، ج ٧، ص. ٣٦٣؛ الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ج ٣، ص. ١٥٨.
- (٣٠) ابن الحاج التميمي (إبراهيم)، فيض العباب وإفاضة قدامق الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م، ص. ٢٨٠-٢٨٢؛ ٣٨٤؛ ابن خلدون، العبر، ج ٧، ص. ٣٩٤.
- (٣١) الجدير بالذكر أن الباحث عبد الأحد السبتي ذهب إلى أنه إلى جانب مصطلح الخفارة ظهر مفهوم قريب منه أو في معناه وهو بذريقة اعتماداً على نص لابن خلدون في العبر، انظر بين الزطاط وقاطع الطريق، دار توبقال للنشر، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص. ٢٨٠.
- (٣٢) العشراوي السجلماسي، فتح الجليل الصمد من شرح التكميل المعتمد، مخطوط خاص، ورقة: ٧٧، اعتمده هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري، منتصف القرن العاشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥، ج ٢، ص. ٢٨٨.
- (٣٣) الوزان الفاسي (الحسن)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٩٨٣، ج ١، ص. ١٦٤؛ كربخال (مارمول)، إفريقيا، ترجمة مجموعة بإشراف محمد

العلاقات العُمانية اليمنية في ضوء النضال العُماني ضد الاحتلال البرتغالي خلال فترة حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي ١٠٥٩ - ١٠٩٠ هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٩ م

د. أحلام بنت حمود الجهورية

مديرة مختصة للدراسات الوثائقية

هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية

مسقط - سلطنة عُمان



ملخص

قام الإمام سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٩-١٠٩٠ هـ / ١٦٤٩-١٦٧٩ م) بدورٍ مهمٍ وحاسمٍ في إنهاء الاحتلال البرتغالي على بعض أجزاء السواحل العُمانية، كما تتبع البرتغاليين في سواحل اليمن والمحيط الهندي. وكان لهذا النضال أثره على العلاقات العُمانية اليمنية؛ لاعتبارات كثيرة يأتي على رأسها الموقع الجغرافي الاستراتيجي المهم الذي تتقاسمه عُمان واليمن. وقد تزامن حكم اليعاربة في عُمان مع حكم أئمة الزيدية في اليمن عمومًا، كما تزامن حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي في عُمان مع حكم الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤-١٠٨٧ هـ / ١٦٤٤-١٦٧٦ م) في اليمن، وخلفه في حكم اليمن الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم (١٠٨٧-١٠٩٢ هـ / ١٦٧٦-١٦٨١ م). من هذا المنطلق تهدف هذه الدراسة إلى توضيح العلاقات العُمانية اليمنية في ضوء النضال العُماني ضد الاحتلال البرتغالي خلال فترة حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي والإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم الزيدي، من خلال قراءة تاريخية تحليلية في ضوء ما جاء في بعض المصادر العُمانية واليمنية. ومن خلال استقراء وثيقة تاريخية مهمة تتمثل في رسالة أرسلت في عام ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م، من الإمام سلطان بن سيف اليعربي إلى الإمام إسماعيل بن القاسم بن محمد، وهي بحوزة هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية تحت الرمز المرجعي: (1). OM.NRAA.A.1.2.1، ومقارنتها بالرسالة التي أوردها المؤرخ اليمني ابن الوزير (ت: ١١٤٧ هـ / ١٧٢٤ م) في كتابه: تاريخ طُبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، والمعروف بتاريخ اليمن، وما ذكره بشأنها المؤرخ العُماني نور الدين السالمي (ت: ١٣٣٢ هـ / ١٩١٣ م) في كتابه: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان. تتضمن الدراسة مقدمة ومبحثين وخاتمة. يركز المبحث الأول على رصد وتحليل بعض ما أورده المصادر العُمانية واليمنية حول العلاقات بين عُمان واليمن في فترة النضال العُماني ضد الاحتلال البرتغالي. والمبحث الثاني يتناول العلاقات العُمانية اليمنية في ضوء جهود الإمام سلطان بن سيف اليعربي في إنهاء الاحتلال البرتغالي على عُمان. أما الخاتمة فتتضمن مناقشة أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

كلمات مفتاحية:

عُمان؛ اليمن؛ الإمام سلطان بن سيف اليعربي؛ الاحتلال البرتغالي؛ تاريخ الخليج العربي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ فبراير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٣ أبريل ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.359493.1209

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحلام بنت حمود الجهورية، "العلاقات العُمانية اليمنية في ضوء النضال العُماني ضد الاحتلال البرتغالي خلال فترة حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي ١٠٥٩ - ١٠٩٠ هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٩ م"، جورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥، ص ٧٦ - ٩٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: ahlam.wah2017@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تأثرت عُمان واليمن بتزايد النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي وتعاظم نمو امبراطوريتهم البحرية في القرن السادس عشر الميلادي. وقعت السواحل العُمانية تحت الاحتلال البرتغالي المباشر منذ عام ١٥٠٦م، أما اليمن فتعرضت لتبعات الاحتلال البرتغالي المباشر للسواحل العُمانية ومحاولة عدة قوى بسط نفوذها عليها كنتيجة للسيطرة البرتغالية على الطرق التجارية المهمة، فتعرضت اليمن للتوسع المملوكي على ساحل البحر الأحمر في عام ١٥١٥م، وأعقب ذلك هجوم العثمانيين على اليمن لسببين رئيسيين: ثروات اليمن وموقعها الاستراتيجي، ومقاومة الحصار البرتغالي الذي فرض على طرق التجارة إلى الهند. استطاع أئمة اليمن من الزيديين النجاح في طرد العثمانيين من الموانئ الداخلية وذلك في عام ١٥٤٥هـ / ١٦٣٦م، كما استطاع العُمانيون بقيادة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٣٤-١٠٥٩هـ / ١٦٢٤-١٦٤٩م) طرد البرتغاليين من أغلب المدن الساحلية العُمانية ولم يبق في أيديهم إلا مسقط التي نجح في تحريرها الإمام سلطان بن سيف اليعربي في عام ١٦٥٠م^(١). وتمكن العُمانيون من بناء أسطول بحري قوي قام بتتبع فلول البرتغاليين في الخليج وبحر العرب والبحر الأحمر والمحيط الهندي، ولم يكن للزيديين هذه القوة البحرية التي تمتع بها العُمانيون^(٢).

تولى الإمام سلطان بن سيف بن مالك اليعربي الحكم بعد مبايعته بالإمامة خلفاً للإمام ناصر بن مرشد اليعربي الذي توفى في عام (١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م) وحكم لمدة ٢٦ عاماً، استطاع الإمام ناصر بن مرشد توحيد عُمان وطرد البرتغاليين من سواحلها، ولم تبق في أيدي البرتغاليين سوى مسقط^(٣). كان الإمام سلطان بن سيف-قبل توليه الإمامة- والياً وقائداً عسكرياً للإمام ناصر بن مرشد اليعربي^(٤)، وهو ابن عمه، وزوج ابنته نصرى. بويع الإمام سلطان بن سيف اليعربي في اليوم الذي توفى فيه الإمام ناصر في يوم الجمعة ١٠ ربيع الآخر سنة (١٠٥٩هـ / ٢٢ أبريل ١٦٤٩م)^(٥).

قام الإمام سلطان بن سيف اليعربي بمواصلة الدور الذي بدأه الإمام ناصر بن مرشد في إنهاء الاحتلال البرتغالي، وتلقب بلقب: المعتصم بالله المتوكل عليه^(٦)، حيث يبدأ مراسلاته بهذا اللقب الذي يحمل بعداً دينياً يتمثل في الجهاد ضد المحتل الخارجي والمتمثل في البرتغاليين. وتمكن الإمام سلطان بن سيف من طرد البرتغاليين من آخر معاقلهم في مسقط في عام ١٦٥٠م^(٧)، ولم يقف دوره الجهادي النضالي المقاوم عند هذا الحد، حيث تتبّع فلولهم في المحيط الهندي والبحر الأحمر وهذا يعني أنه نقل المعركة ضد البرتغاليين إلى خارج حدود عُمان، وبالتحديد إلى الحدود اليمنية حيث كان الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم الزيدي (١٠٥٤-١٠٨٧هـ / ١٦٤٤-١٦٧٦م) على رأس السلطة السياسية في اليمن، وكان لهذه السياسة العُمانية ضد المحتل البرتغالي نتائج وآثار على العلاقات العُمانية اليمنية.

وبالانتقال إلى الجانب اليمني، فكما أشرنا آنفاً كان على رأس السلطة السياسية الإمام إسماعيل بن القاسم بن محمد الملقب بالمتوكل على الله، وتولى الحكم في عام (١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م) بعد وفاة أخيه الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في رجب من عام ١٠٥٤هـ حيث طلب البيعة لنفسه^(٨). وفي عهده شهدت اليمن رخاءً واستقراراً، حيث تم جلاء العثمانيين عن البلاد وقام الإمام إسماعيل بإحكام سيطرته على مناطق جنوب اليمن، ففي عام (١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م) سيطر على عدن ولحج، وفي عام (١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م) دخل حضرموت، واستطاع بذلك توحيد اليمن شمالاً وجنوباً^(٩). كما شهدت اليمن اهتماماً علمياً في عهده^(١٠)، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن الوزير (ت: ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م): "اتفق في دولة المتوكل من تعظيم العلماء ما لم يحدث في غيرها فعكفوا على التصنيف ومال أكثرهم إلى نشر العلم"^(١١). توفى الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم في سنة (١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م)^(١٢)، وخلفه في الحكم ابن أخيه الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد (١٠٨٧-١٠٩٢هـ / ١٦٧٦-١٦٨١م)^(١٣).

أولاً: المصادر العُمانية واليمنية (رصد وتحليل)

إن المصادر التاريخية العُمانية -بصفة عامة- التي استهدفت هذه الفترة التاريخية موضوع البحث، لم تقدم الكثير من المعلومات حول عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربي، وجهوده الكبيرة في ملاحقة البرتغاليين. ولنبدأ مع كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار^(١٤) الأمة للأزكوي (ت: ١٢٠٢هـ / ١٨٠١م)، حيث يورد أخباراً مقتضبة عن فترة حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي، ومما ذكره في حروبه ضد البرتغاليين: "فقام بالعدل وشمر وجاهد في ذات الله وما قصر ونصب الحرب لمن بقي من النصاري بمسكد^(١٥) وسار عليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وفتحها له ولم يزل يجاهدهم أينما يجدهم في بر وبحر، فاستفتح كثيراً من بلدانهم وخرب كثيراً من مراكزهم وغنم كثيراً من أموالهم فقيل إنما بنى القلعة التي بنى من غنيمة الديو^(١٦)"^(١٧). أما كتاب قصص وأخبار جرت في عُمان لمحمد بن عامر المعولي (ت: ١١٩٠هـ / ١٧٧٧م)، فيورد نفس الأخبار التي أوردها الأزكوي عن الإمام سلطان بن سيف اليعربي مع بعض التغييرات لفظاً^(١٨). أما كتاب الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين لابن رزيق (ت: ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م)، فقد قدم الكثير من التفاصيل حول تحرير مسقط في عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربي، فأورد معلومات حول الاستعداد للمعركة وتوقيتها^(١٩)؛ لكنه لم يورد أية معلومات حول العلاقات العُمانية اليمنية، أو أية مراسلات متبادلة بين الإمام سلطان بن سيف اليعربي وأئمة اليمن، ولم يورد كذلك معلومات حول معارك العُمانيين مع البرتغاليين في البحر الأحمر.

إن أبرز من تحدث عن هذه الفترة التاريخية باستفاضة هو المؤرخ العُماني نورالدين السالمي (ت: ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م) في كتابه: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، حيث استطرد الإمام السالمي في الحديث عن فترة حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي وتتطرق للكثير من الجوانب ومنها جانب مهم، تمثل في العلاقات العُمانية اليمنية وأورد نموذجاً من المراسلات المتبادلة

بين الإمام سلطان بن سيف اليعربي والإمام إسماعيل بن القاسم الزيدي^(٢٠).

وبصفة عامة فإن المصادر التاريخية العُمانية لا تورد الكثير فيما يتعلق بجهاد العُمانيين ونضالهم ضد الاحتلال البرتغالي. ونشاط الرأي ما ذهب إليه محقق كشف الغمة عبد المجيد القيسي بقوله: "ما يؤسف له أشد الأسف أن المؤرخين العُمانيين لم يكتبوا لنا أخبار حروب الإمام سلطان مع البرتغال بالتفصيل الواسع الذي اعتادوا أن يكتبوا به معاركهم القبلية المحلية، فمما لا شك فيه أن إجلال البرتغال عن شبه جزيرة العرب على يد هذا الإمام الهام كان مفخرة قومية وعملاً رائعاً، وكان نقطة تحول هامة في تاريخ المنطقة. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ جلاء البرتغال عن مسقط فبعضهم يرتفع به إلى عام ١٦٥٨م وبعضهم ينزل به إلى عام ١٦٤٥م. على أن المتواتر أن عام الجلاء هو عام ١٦٥٠م"^(٢١). ويمكن تعليل ذلك إلى السبب الذي ساقه الإمام نورالدين السالمي في تحفته حيث ذكر أن علماء عُمان أهملوا التاريخ اشتغالاً بالأهم^(٢٢).

أما مصادر التاريخ اليمني فتشير إلى الكثير من التفاصيل التي توثق أحداث متنوعة من التاريخ العُماني، وفي بعضها تفاصيل لم تتطرق لها المصادر العُمانية. كما أن المصادر اليمنية وثقت جوانب مختلفة من العلاقات التاريخية بين عُمان واليمن^(٢٣). وتكمن أهمية بعض المصادر اليمنية في معاصرتها للأحداث التي تضمنتها، ويأتي على رأس تلك المصادر أهمية كتاب المؤرخ اليمني يحيى بن الحسين بن القاسم (ت: ١١٠٠هـ / ١٦٨٩م)، وعنوانه: بهجة الزمن في حوادث اليمن^(٢٤). ولهذا المؤلف مخطوطة وحيدة بخط المؤلف في مكتبة جامع صنعاء، ومن هذا المصدر الرئيس تم تحقيق أجزاء منه في مصنفين بعنوانين مختلفين استهدفا جزءاً من المادة التاريخية في الكتاب الأصلي للمؤلف يحيى بن الحسين، وهما: يوميات صنعاء في القرن ١١هـ، وكتاب: تاريخ طبّق الحلوى وصحاف المن والسوى^(٢٥) لعبد الله بن محمد الوزير^(٢٦).

ويُعدّ هذا المصدر على درجة عالية من الأهمية فمؤلفه: يحيى بن الحسين بن القاسم (ولد: ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م) وهو ابن أخ الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم

وتتركز التفاصيل المهمة الخاصة بالتاريخ العُماني في كتاب بهجة الزمن في حوادث اليمن في الفترة بين عام (١٠٥٢هـ / ١٦٤٢م) وعام (١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م) وهذه الفترة تأتي بعد عامين من تولي الإمام سلطان بن سيف اليعربي حيث تولى الحكم في عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م وتنتهي بعام وفاته في (١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م)، كما أن هذه الفترة التاريخية تكاد تطابق فترة حكم الإمام اليمني المتوكل إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤-١٠٨٧هـ / ١٦٤٤-١٦٧٦م) والذي توحدت في عهده الأراضي اليمنية^(٢٩).

ويمكن استخراج بعض المادة التاريخية الخاصة بالنضال العُماني ضد الاحتلال البرتغالي من كتاب يوميات صنعاء في القرن ١١هـ، نرصد بعضاً منها، كالآتي:

- "وفيها (١٠٥٢هـ / ١٦٤٢م): خرج جماعة تجار من الحسا والبحرين والبصرة من البحر الفارسي، فلما عارضوا بندر مسكت الذي بيد الفرنج يومئذ انتهبهم وقتلهم فانقطع المار في ذلك البحر الزخار حتى استولى على بندر مسكت العُماني كما سيأتي تاريخه إن شاء الله وسلك الناس في البحار وأمنوا فيه من أولئك الكفار الأشرار"^(٣٠).
- "وفيها (١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م): جاء الخبر أن العُماني الخارجي الإباضي ملك بندر مسكت الذي في سواحل بلاده، وأخذه عن يد الفرنج واستولى عليه بجميع أطرافه، قال الرواة: وكان دخوله على صفة المكر والخديعة والحيلة والمكيدة، وذلك أنه أمر جماعة في صورة دراويش إرسالاً فلما اجتمعت في مسكت وخفي أمرهم وسكت، فتكوا في الرتبة من النصاري وذبحوهم بالسكاكين حتى صارت دماؤهم تجري، وملكوا القلعة وأحكموا الفعل والصنعة. قال الرواة: وهذه القلعة لا يمكن فتحها بالعنوة لحصانيتها ومعاصر جبلها في بحرهما في مدخلها ومخرجها، ومن يومئذ أمن التجار في البحر الذين يخرجون من البحرين والعراق والعجم إلى اليمن"^(٣١).
- أحداث عام (١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م): "وجاء الخبر مع الواصلين من حضرموت: أن صاحب عُمان جهز جماعة من عسكره إلى بلاد ظفار باستدعاء جعفر بن عبد الله الكثيري لهم"^(٣٢).

(١٠٥٤-١٠٨٧هـ / ١٦٤٤-١٦٧٦م)، وحفيد الإمام القاسم بن محمد. وقد تلقى العلم على يد مشاهير علماء عصره، وبالرغم من التنافس الذي كان قائماً بين مراكز القوى من أبناء الأسرة وغيرهم سواء كان على الإمامة أو على تولي بعض المناطق المهمة، إلا أن يحيى بن الحسين كان بعيداً عن هذا التنافس، ولم يدخل في شيء من ذلك، واهتم بالعلم مكتفياً بالوظيفة التي أوكلها إليه عمه الإمام المتوكل إسماعيل، وهي جباية جزية اليهود في صنعاء، حيث لزم هذه الوظيفة حتى وفاته^(٣٧).

كما تظهر أهمية هذا الكتاب في معاصرة صاحبه للأحداث فكان شاهد عيان للكثير من الأحداث التي ضمَّنها في كتابه. كما يُعد يحيى ابن الحسين أبرز المؤرخين اليمنيين في القرن السابع عشر الميلادي ومن أكثرهم اعتدلاً على الإطلاق، رغم أنه من الأسرة الزيدية الحاكمة، ورغم أن عصره كان عصر التعصب للأئمة الزيديين، وعصر انتصار هؤلاء الأئمة وامتلاكهم لمقاليده الأمور في اليمن^(٣٨). وأهم المؤلفات التاريخية لابن القاسم، والتي اعتمد عليها من جاء بعده من المؤرخين:

١. العبر في أخبار من مضى وغبر: تناول فيه المؤرخ الفترة السابقة للإسلام.
 ٢. أنباء الزمن في تاريخ اليمن: تناول الفترة قبل خروج العثمانيين الأول من اليمن سنة (١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م).
 ٣. بهجة الزمن في حوادث (أو تاريخ) اليمن: تناول الفترة منذ خروج العثمانيين (١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م)، حتى بداية عصر صاحب المواهب سنة (١٠٩٩هـ / ١٦٨٦م).
- ويتضح من المؤلفات الثلاثة السابقة حرص ابن القاسم على التسلسل الزمني فيها. وبالعودة إلى الكتاب الثالث: بهجة الزمن في حوادث اليمن، فيتضمن ثلاثة أجزاء، الجزء الأول يتضمن أحداث الفترة (١٠٤٦-١٠٨٠هـ / ١٦٦٩-١٦٣٦م)، والجزء الثاني يتضمن أحداث الفترة (١٠٨١-١٠٩٠هـ / ١٦٧٠-١٦٧٩م)، أما الجزء الثالث فيتضمن أحداث الفترة (١٠٩١-١٠٩٩هـ / ١٦٨٠-١٦٨٨م).

- "وفي شهر المحرم منها (١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م): جاءت أخبار أن الفرنج طاشت في البحر إلى حدود مسكت بجهة عُمان ثم انصرفوا"^(٣٣).
- "وفي هذا الشهر (رمضان ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م): جاء خبر العُمانيين أنه خرج جماعة منهم في غربانهم وبراشهم إلى باب المندب، وزعموا أنهم يريدون الفرنج حتى خرجوا بالبر، وكان يومئذ قد خرج أوائل الموسم من الهند فمر عليهم من المسلمين من الهند فلم يعترضوهم، ثم لما خرج إليهم الفرنج ببضاعتهم يريدون المُخا فوقع بينهم قتال استولوا على بعضهم وبقوا هنالك في المندب قريب ثلاثة أشهر ثم عادوا بلادهم"^(٣٤).
- "وفي غرة ذي الحجة من عام (١٠٧٩هـ / ١٦٦٩م): تعرّض العُمانيون بسواحل عدن والمُخا وسدوا باب المُخا وصدوا عن المنتهى، وانتهبوا من بابهِ ثلاث جلاب كانت واصله للفرنج في باب فرضة المُخا وقتلوا منهم جماعة، وانتهبوا الذي معهم وساقوه إلى بلادهم، وكان جملة العُمانيين قدر سبع براش (سفن)، وطلب السيد زيد بن علي الغارات من زبيد وغيره مما يقرب إليه من الجهات ظناً أنهم يقصدون المُخا ولم يكن لهم قصد إلا في الفرنج لما بينهم من الحروب فيما مضى، وكتب السيد زيد أيضاً إلى الإمام من صوران ولده علياً ومن حضر من العسكر فساروا إلى المُخا ووصلوا وقد عاد العُمانيون ورجعوا بعد ما محقوا في البحر ونهبوا"^(٣٥).
- "وفي نصف رمضان منها (١٠٧٢هـ / ١٦٦٢م): خرج جماعة من الفرنج من سواحل الهند من النصارى في غرابين أو ثلاثة إلى ساحل عدن فمنعوا المار إلى المُخا من التجار والجلاب معاندة للسيد زيد بن علي بن جحاف صاحب المُخا لما ضاررهم العام الأول وصدوا المراكب إلى عدن. فجهز السيد زيد عليهم جماعة من عساكره ومدفعين معهم من مدافعه فرموا عليهم أول حجر بالمدفع فحرّق البارود عليهم بحريقه الجلبة الذي هم فيها واتصل الحريق بهم وغرق بعضهم واقتض المدفع عليهم. ورماهم الفرنج فقتلوا منهم وأسروا بعضهم وانتهبوا سلاحهم"^(٣٦).
- "وفي آخر شهر رجب منها (١٠٧٣هـ / ١٦٦٣م): تغلب أهل بلاد ظفار حضرموت على الأمير خلف العُماني وأزالوا دولته من ذلك الأفق القاصي، بعد أن كان قد دخل في ممالك العُماني، وظفار هذا وبلاده متوسطا ما بين حضرموت وبين عُمان، المسافة برا من حضرموت إليه عشرون يوماً ومثلها برا إلى عُمان فقتلت قبائله من أصحاب الأمير خلفا المتولي للعُماني قدر أربعين نفساً، كان أرسلهم من ظفار إلى البلاد لبعض المطالب فحاربوهم في الطريق وتربصوا لهم في المكان الضيق وقتلوهم وقصدوا ظفار، فاحتال خلف بالفرار وركب البحر وسار، وكان قد ترك له مدفعين فيها لم يتمكن من حملها، ودخله محمد بن جعفر الكثيري، وحوّل الخطبة للإمام بعد أن كان قد خطب له في تلك الأيام، وزالت دولة العُماني عنه بالكلية، حكى لي من كان حاضراً في بلاد الحاكم العُماني حال هذه القضية في تلك النواحي، فقال: قال العُماني المسمى سلطان بن سيف أن قبضنا لظفار بإرسال أميرنا خلف ليس لرغبة منا إليه، ولا بغى عليه وإنما هو سبب استدعاء صاحبه الكثيري ولقد لزمنا لمن فيه نفقاتهم وأزوادهم وما يحتاجونه مدة بقائهم، ولم يدخل علينا منه شيء بل مجرد الإنفاق، ولا مصلحة أتنا من تلك الآفاق فلا رغبة لنا فيه ولا غرض ننافس عليه"^(٣٧).
- "وفي عام (١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م): وكان هذه الأيام حال خروج عُمان إلى باب المُخا قد طاش بعض جلابهم إلى حدود بندر جازان ودخلوه واستقوا منه وهرب عنه أهله حال دخولهم نحوه، وكان سبب وصولهم إلى هنالك أنهم تبعوا مركب بايزيد صاحب الديو لما بلغهم أنه جاوز المُخا إلى جدة فلم يظفروا به لتقدم مروره ورجعوا وبايزيد توفي بجدة كما روى"^(٣٨).
- (١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م): "وفي نصف هذا الشهر (شعبان): جاء الخبر أن الفرنج لما خرجوا في الشهر الماضي إلى سواحل بلاد الحاكم العُماني كما سبق ووقع منهم فيه ما وقع فساروا إلى البحر ورجعوا يريدون استخراج أصحاب الحاكم العُماني ورائهم في البحر فصدقت حيلتهم في ذلك ولحقهم أصحاب الحاكم العُماني في البحر، فلما توسطوا

- "وفيها (١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م)^(٤٣) ملك صاحب عُمان الخارجي الإباضي بندر مسكت الذي في سواحل بلاده، وكان في أيدي الفرنج، وما كان يظن استيلاءه عليه، ولكنه دب بالحيلة إليه بأن أنفذ إليه جماعات في قالب الدراويش فلما علم أنهم قد صاروا أنصَاباً لرتبة القلعة، أمرهم بالفتك بمن فيها بسكاكين معدة معهم ففتكوا بمن في القلعة عن آخرهم، ولما توجهت إلى نظره أمن التجار الذين يخرجون من البحرين والعراق إلى اليمن"^(٤٤).
- "ودخلت سنة أربع وستين وألف (١٠٦٤هـ / ١٦٥٣م) فيها خطب بدر بن عمر الكثيري صاحب حضرموت والشحر وظفار للإمام، فقبض عليه ابن أخيه بدر بن عبد الله بن عمر، وكبراء دولته، وخلعوه عن الأمر، ووضعوه في الحديد، وأطالوا له الزجر والتهديد، ونصبوا ابن أخيه في دسسته، وأقاموه في تحتته، وحين بلغ الإمام ما صنعوه هم بالتجهيز عليهم، وقدم الرسائل إليهم"^(٤٥).
- "وفي ذي الحجة (١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م) ثار السلطان جعفر بن عبد الله بن عمر الكثيري على عمه بدر بن عمر، فخرج من حضرموت إلى ظفار، وجمع جموعاً وقصد بها عمه، فقتل ولده وطرده واستولى على ظفار، وما إليها وذكر أن ذلك بعناية وسعاية من أخيه صاحب حضرموت"^(٤٦).
- "١٠٧٢هـ / ١٦٦٢م: "خروج الفرنج إلى ساحل عدن"^(٤٧).
- "وفيها (١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م) أُخبر تجار عُمان الواصلون إلى اليمن، إنه قد برز أمر السلطان صاحب القسطنطينية بالتجهيز على حسين باشا صاحب البصرة"^(٤٨).
- "وارتفعت الأسعار بطريق مكة هذه السنة (١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م) وعدم المطر في المشارق، فرحل أهلها عنها وقل في غيرها واتصل القحط ببلاد العجم وفارس حتى أن بعضهم باع ولده في سد رمقه، فتفرقوا في البلاد وألجأهم الحال إلى دخول عُمان، واتصل القحط بما وراء النهر، وبلاد الصين"^(٤٩).
- "وفي محرم (١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م) جاءت الأخبار أن الفرنج طاسوا^(٥٠) في البحر إلى حدود مسكت بجهة

فيه وخرجت لهم زيادة من بلادهم فوقع الحرب والمقاتلة والمرامة والمصادمة فقتل من الفريقين كثير جدا حتى قذف البحر بالقتلى إلى ساحله ثم انعطف الفرنج على العُمانيين مع ما جرى لهم من الزيادة من بلادهم فقتلوا منهم قتلاً كبيراً يقال قدر مائتين أو أكثر وانهزموا إلى بلادهم، والفرنج رسوا في البحر ومازالوا يهيجون فيه ويجولون إلى آخر هذا العام وكان خروجهم إلى المُخا"^(٣٩).

- وفي شهر محرم (١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م): "وصل كتاب تعزية من أبي العرب سلطان بن سيف بن مالك اليعربي صاحب بلاد عُمان إلى محمد بن المتوكل في والده، مضمونه: أنه بلغه وفاة والده، صدره وذكر فيه أنه بلغه قيامه في مرتبة والده وأنه استخلف خليفته ووصى في أصحابه الذين يخرجون بالبضائع العُمانية بالرعاية، فأجاب عليه محمد بن المتوكل بجواب التعزية وذكر له أن الأمر صار إلى أحمد بن الحسن"^(٤٠).

أما كتاب طُبق الحلوى لابن الوزير، فيذكر الكثير من الحوادث الخاصة بعُمان^(٤١)، ويمكن أن تتطابق تلك النصوص بما ورد في كتاب يوميات صنعاء في القرن ١١هـ، على اعتبار أن ابن الوزير نقل عن ابن الحسن مع بعض التغييرات الطفيفة. والفارق بين الكتابين، أن محقق يوميات صنعاء ركز على استخراج النصوص ذات الطابع الاجتماعي (الإنساني- السياسي) من المخطوطة الأصلية (بهجة الزمن في حوادث اليمن)، في حين أن ابن الوزير ركز على استخراج الجوانب السياسية.

ومن النصوص التي جاءت في كتاب ابن الوزير والخاصة بعُمان نذكر الآتي:

- "وفي هذا العام (يقصد ١٠٥٢هـ / ١٦٤٢م) تجهز جماعة للتجارة من الحساء والبحرين والبصرة وعبروا البحر الفارسي، فلما عارضوا بندر مسكت، وكان يومئذ بيد الفرنج. انتهبهم فخاف بعد ذلك المارة، وانقطع العبور عن البحر الزخار، إلى أن استولى العُماني على بندر مسكت كما سيأتي تاريخه، فسلك الناس في البحار، وأمن التجار، من أولئك الفجار"^(٤٢).

إسماعيل بن القاسم، القرشي العربي، أما بعد فإننا نحمد الله على سوابغ آلائه، وجميل صنعه وبلائه، ونسترشده إلى سلوك سبيل رضاه^(٥٩).

• "وفي هذه الأيام (١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م) اتفق بين العُماني والفرنجة في البحر قتال شديد، وكان ربح النصر في مبادئه مع جند العُماني، ثم عطف الفرنج عليهم فقتلوا منهم زهاء مائتي نفر، وانهمز الباقون، وثبت الفرنج في البحر يبعثون أياماً حتى خرج منهم من خرج إلى المُخا"^(٦٠).

• "منازلة الفرنج لبندر المُخا"^(٦١) (١٠٨١هـ / ١٦٧٠م) (يثبت ابن الوزير الكثير من الأحداث عن هجوم البرتغاليين على سواحل اليمن وبالتحديد المُخا) وهو ما يؤكد: "وفيها شمرَّ الهمة حاكم المُخا في عمارة القلاع المُخاوية، تحرراً من فعلات الفرنج الملاحين، مع اعتيادهم للوصول في كل حين"^(٦٢).

• "وفي صفر أو ربيع (١٠٨١هـ / ١٦٧٠م) عند رجوع الفرنج من باب المندب، وافقوا جماعة من تجار الحسا وعُمان، في مرسا بروم، ما بين الشحر وأحور، وفيهم من عسكر العُماني نحو ثلاث مائة نفر، فألجأوهم إلى الهرب إلى بروم، بعد أن انكسر غرابهم المشؤوم وتركوا لهم مراكبهم بتفاريقه، فلم يتمكن الفرنج من غير تحريقه لأن العسكر العُماني رما عليه فما جسرت الفرنج تصل إليه، ولم يذهب ما لمرماه غير واحد من العُمانيين"^(٦٣).

• "وفي هذه الأيام (١٠٨١هـ / ١٦٧٠م) بعث صاحب عُمان إلى حاكم المُخا بألفي رطل من الرصاص معونة له في دفع الفرتقال"^(٦٤)^(٦٥).

• "وفي هذه الأيام (١٠٨٢هـ / ١٦٧١م) دخل الفرنج إلى جزيرة سقطرى، من بلاد المهري فصالحهم لعدم القدرة على حربهم، وسكنوا منها بمكان يقال له قشن"^(٦٦).

• "وفي آخر ربيع الأول (١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م) وصل أول المراكب الهندية إلى المُخا وكان قد تلقاهم أصحاب العُماني بباب المندب فعشروهم فيه"^(٦٧)، "وفي هذا الشهر (شعبان ١٠٩٠هـ / سبتمبر ١٦٧٩م) وصل الخبر بأن سلطان بن سيف، ملك العُمانيين قبض ببلاده، وقعد في كرسي ملكه بعض أولاده"^(٦٨).

عُمان ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم"^(٥١)؛ "وفيه (جمادى الآخر ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م) وقعت حروب في البحر ما بين العُماني، والفرنجة بحدود بندر مسكت"^(٥٢)، "وفيها (١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م) اتفق بين الجند العُماني والرتقال حرب بالبحر، ورجع الفرنج من باب المندب، بعد أن لبثوا فيه نحو ثلاثة أشهر"^(٥٣).

• "وفي هذه الأيام (١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م) غزى صاحب عُمان إلى بندر الديو، وهي مصالحة للفرنجة، وطرقه من طريق البحر الزخار، واستغفل من فيه من التجار، فانتهب ما فيه من الرغائب، وشحن به بطون المراكب، وانقلب إلى بلاده، وفي جماعة من المسلمين ذهبت أموالهم، وانتهدت أحوالهم"^(٥٤).

• "وفي غرة ذي الحجة (١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م) تعرض العُمانيون بساحل عدن والمُخا للانتهاك، ووقعوا من مرادهم على ثلاثة جلاب، وهي مما وصل الفرنج إلى باب الفرضة، وكافح الفرنج عن أموالهم فهلك بالقتل منهم جماعة، وعجز نائب المُخا دفعهم لكثرتهم فإنهم وصلوا إلى هنالك في سبع براش، وكان قد جلب عليهم بغواثر من زييد وغيره، واستدعى من الإمام زيادة من العسكر المختارة، فلم يصلوا إلا وقد انفصلوا، واتصلوا من الأموال بما اتصلوا، فضعف البندر بسبب هذه الخارجة، وتوجه بعض المراكب إلى جدة"^(٥٥).

• "وفي هذه الأيام (١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م) طاس جماعة من أولئك العُمانيين إلى جيزان، في أثر مركب بابيزيد لأنه جاوز المُخا، فتبعوه ظناً منهم أنهم سيعودون به ففاتهم إلى جدة"^(٥٦).

• "وفيها (١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م) جاءت أخبار حضرموت بأن عشرين برشة من الفرنج غزوا بلاد العُماني، مكافأة لمغزاه الماضي إلى الديو، فدخلوا أطراف بلاده، وسواحلها وانتهبوا فيها، وقتلوا من أصحابه فوق عشرين نفساً"^(٥٧).

• "وفي ربيع الأول (١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م) وصل إلى الإمام مكتوب^(٥٨) من ملك عُمان سلطان بن سيف ولفظه: من إمام المسلمين، سلطان بن سيف، رأس العرب اليعربي، إلى عالي ذروة جناب المعظم، الهمام المكرم،

لتخفيف الضغط العُماني على مراكزهم في شرق أفريقيا.

أما أهمية البحر الأحمر للعُمانيين فتكمن في^(٧٢):

١. تنفيذاً لسياسة الجهاد الإسلامي التي انتهجها العُمانيون ضد البرتغاليين في المنطقة.
٢. وقوع البحر الأحمر على طريق الأسطول العُماني المتجه إلى مستعمرات البرتغاليين في شرق أفريقيا؛ لذلك كان لا بد من تأمين تلك الطرق.

وهذه السياسة العُمانية في تتبع البرتغاليين لم تجد تأييد أو استحسان من قبل الزيديين في اليمن والسبب في ذلك أن الصراع بين البرتغاليين والعُمانيين أدى إلى عدم الاستقرار في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي وكان من نتائجه استهداف البرتغاليين للسفن العربية عموماً- بما فيها السفن اليمنية- والسفن العُمانية خصوصاً مما سبب معاناة كبرى للزيديين الذين لم يبنوا أي أسطول أو قوة بحرية^(٧٣). وكانت هنالك بعض الحوادث بين الجانبين بسبب تتبع العُمانيون للسفن البرتغالية في البحر الأحمر. ففي عام ١٦٦٨م قام الأسطول العُماني بسبع سفن كبيرة باعتراض ثلاث سفن شرعية كبيرة تابعة للفرنسيين قرب شواطئ عدن، وتم الاشتباك بين الطرفين وكانت النتيجة وقوع قتلى فرنسيين. حاول نائب المُخا صد القوات العُمانية؛ لكنه فشل لكبر عدد القوات العُمانية وطلب نائب المُخا من الإمام اليمني المتوكل إسماعيل بن القاسم (١٦٤٤-١٦٧٦م) بإرسال قوات ومتطوعين لدعمه؛ لكن الإمداد وصل متأخراً وذلك بعد عودة العُمانيين محملين غنائم وافرة^(٧٤). وهذه الرواية يذكرها ابن الوزير: "وفي غرة ذي الحجة ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م تعرض العُمانيون بساحل عدن والمُخا للانتهاك، ووقعوا من مرادهم على ثلاثة جلاب، وهي مما وصل الفرنج إلى باب الفرضة، وكافح الفرنج عن أموالهم فهلك بالقتل منهم جماعة، وعجز نائب المُخا دفعهم لكثرتهم فإنهم وصلوا إلى هنالك في سبع براش، وكان قد جلب عليهم بغواثر من زبيد وغيره، واستدعى من الإمام زيادة من العسكر المختارة، فلم يصلوا إلا وقد انفصلوا، واتصلوا من الأموال بما اتصلوا،

تلك كانت أبرز النصوص التي أوردها ابن الوزير في كتابه تاريخ طُبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، وهي تقدم صورة دقيقة للجهود العُمانية التي بُذلت في ملاحقة البرتغاليين وحماية السواحل اليمنية من هجمات البرتغاليين. ومن الملاحظ أن المصادر اليمنية أكثر استفاضة في ذكر أخبار العُمانيين في ملاحقتهم للبرتغاليين، كما أن المصادر اليمنية تذهب إلى أن سنة تحرير مسقط من البرتغاليين في عام ١٦٤٥م^(٧٥)، في حين أن المصادر العُمانية تذكر بأنها في عام ١٦٥٠م ونرى بأن الأدق هو عام ١٦٥٠م وبالتحديد في ٢٣ يناير وهو ما تدعمه الوثائق البرتغالية كذلك^(٧٦).

ثانياً: العلاقات العُمانية اليمنية في عهد الإمام سلطان بن سيف العربي

عاصرت دولة اليعاربة في عُمان دولة الإمامة الزيدية في اليمن. ولم تشهد بين الجانبين علاقات سياسية في عهد الإمام ناصر بن مرشد اليعربي؛ لكن عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربي شهد تطورات مهمة بين الجانبين وهذه التطورات في العلاقة كان سببها الرئيس كما يبدو هو سياسة اليعاربة تجاه البرتغاليين، حيث انتهج اليعاربة في عهد الإمام سلطان بن سيف سياسة تتبع البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي لاسيما بعد الانتصار العُماني بطرد البرتغاليين من مسقط وتحرير البلاد بشكل نهائي من المحتل البرتغالي. وتوجد الكثير من الأسباب التي جعلت من البحر الأحمر منطقة صراع بين العُمانيين والبرتغاليين، وهي في جوهرها تفسر سبب تمسك كلا الطرفين بهذه المنطقة، فأهمية البحر الأحمر للبرتغاليين تكمن في^(٧٧):

١. ظهور مجموعة من القوى المنافسة للبرتغاليين ولتجارتهم في المنطقة، سواء كانت قوى محلية كالدولة القاسمية في اليمن، أو قوى دولية مثل إنجلترا أو هولندا.
٢. أهمية جنوب الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر كونه يمثل طريقاً للأسطول العُماني القادم من عُمان والمتجه لشرق إفريقيا لمهاجمة مستعمرات البرتغاليين، فأراد البرتغاليين استعماله كنقطة

فضعف البندر بسبب هذه الخارجية، وتوجه بعض المراكب إلى جدة^(٧٥).

وفي عام ١٦٦٩م أرسل الإمام سلطان بن سيف رسالة إلى الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم، هذه الرسالة وردت في المصادر العُمانية واليمنية^(٧٦). ففي المصادر العُمانية وردت عند المؤرخ السالمي في تحفة الأعيان، ونص الرسالة كاملة في كتابه^(٧٧)، ومما جاء فيها: "وهذا كتاب منه إلى ملك صنعاء اليمن: بسم الله الرحمن الرحيم. من إمام المسلمين سلطان بن سيف بن مالك رأس العرب اليعربي العربي العُماني إلى عالي ذروة الجنب المعظم الهمام المكرم إسماعيل بن القاسم القرشي العربي"^(٧٨). ومن قراءة مسار الأحداث يبدو أن الإمام المتوكل كان قد بعث رسالة إلى الإمام سلطان بن سيف اليعربي يستوضح منه حقيقة الغارة العُمانية على سواحل المُخا وأسبابها؛ لكن المركب الذي كان يقل حامل الرسالة غرق، واستطاع حاملها نقل مضمون الرسالة بشكل شفوي للإمام سلطان بن سيف اليعربي.

وبالعودة إلى رسالة الإمام سلطان بن سيف يظهر منها أن الإمام المتوكل عاتب عليه بسبب انتهاك مياهه من قبل السفن العُمانية التي كانت تطارد البرتغاليين في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، وجاء رد الإمام سلطان بن سيف موضحاً أن سياسة العُمانيين في هذه المرحلة موجهة ضد البرتغاليين أينما وجدوا، وأنه يتفهم عتاب وضيق الإمام المتوكل من هذا الأمر-انتهاك حرمة مياهه الوطنية- فيذكر الإمام سلطان في رسالته: "... واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه أنكم علينا عاتبون، ومنا واجدون، لأجل قطع خدامنا في العام الماضي مراكب رقاب المشركين (يقصد البرتغاليين) على بابكم، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنايبكم، ولعمري إنا لنُدري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة... فأنا لم نقصد إلى انتهاك ذلك سبيلاً"^(٧٩).

كما لم تخل الرسالة من لهجة التهديد والتحذير من قبل الإمام سلطان للإمام المتوكل في حال قام باعتراض السفن العُمانية، فجاء في الرسالة: "أنت تدري ما جرى بيننا وبينهم... من قبل في سواحل عُمان وفي سائر الأماكن والبلدان، وإنا لنأخذهم في كل موضع تحل به مراكبهم وتغشاه، حتى من كنج وجيرون وبندري الشاه

(يقصد بندر عباس) ولم يظهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً... وإنا لك من المنذرين وعليك من المحذرين..."^(٨٠). كما يتضح من هذه الرسالة أن الإمام سلطان غاضب من الهجوم الذي قام به السلطان الكثيري على ظفار، والذي نتج عنه خروج والي (عامل) الإمام سلطان تاركاً وراءه مدفعاً قام رعايا الإمام المتوكل بالاستيلاء عليه، لهذا طالبه الإمام سلطان بإرجاع المدفع إليه. كما وجه له دعوة لإصلاح ذات البين بينهما، قائلاً: "إنا في إصلاح ذات بيننا وبينكم راغبون طالبون"^(٨١). ويصف ابن الوزير رسالة الإمام سلطان بن سيف إلى المتوكل: "وفيه من رئاسة الألفاظ، وتخيّر كلمات الأنفة... وهذه صناعة فحول الملوك على أيدي أكابر الدولة وبلغائها فإن من البيان لسحراً"^(٨٢).

وكان لهذه الرسالة ردها من قبل الإمام المتوكل، حيث أرسل رسالة شديدة اللهجة، مما جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم: من شمس سماء الخلافة العلية، ومضرب سرادقات الشريعة المحمدية إلى قاضية أرض الملك المالك سلطان بن سيف بن مالك اليعربي العربي العُماني أراه الله نهج الهداية وجنبه مسلك الضلال والغواية. أما بعد: حمداً لله والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى وصيه الأترع البطين الحاصد سيفه رؤوس المارقين؛ وقد وصل كتابك الذي شحنته بالأبراق والأرعاد وعدلت به من تحسين العتاب إلى تخشين الخطاب، ظناً منك أن هذيان وعيدك وطنين ذباب تهديدك يزعزع من بأسنا صخرة صماء أو يحرك من وقارنا جبلاً أشماً فكيف يكون ذلك"^(٨٣).

ومما يبدو من رسالة الإمام المتوكل إلى الإمام سلطان بن سيف اليعربي عدم رغبة الإمام المتوكل بإصلاح ذات البين، ولم يدفع نجاح العُمانيين في انتصاراتهم الكبيرة ضد البرتغاليين في عُمان والخليج وشرق أفريقيا إلا رد فعل سلبي من قبل الإمام المتوكل بالرغم من تعرض اليمن لهجمات برتغالية هددت المُخا وعدن؛ لكن الإمام المتوكل لم ينسق جهوده مع العُمانيين للقضاء على العدو المشترك، وتحمل العُمانيون وحدهم عبء الجهاد ضد البرتغاليين. ويذكر السالمي أنه لم يقف على جواب الامام سلطان بن سيف اليعربي على هذه الرسالة.

سيف رسالة تعزية لابن الإمام إسماعيل يعزيه فيها بوفاة والده، فيذكر ابن القاسم: "وفي شهر محرم (١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م): وصل كتاب تعزية من أبي العرب سلطان بن سيف بن مالك اليعربي صاحب بلاد عُمان إلى محمد بن المتوكل في والده، مضمونه: أنه بلغه وفاة والده، صدره وذكر فيه أنه بلغه قيامه في مرتبة والده وأنه استخلف خليفته ووصى في أصحابه الذين يخرجون بالبضائع العُمانية بالرعاية، فأجاب عليه محمد بن المتوكل بجواب التعزية وذكر له أن الأمر صار إلى أحمد بن الحسن"^(٨٩).

كما توثق المصادر رسالة مرسلة من الإمام سلطان بن سيف إلى الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم مما جاء فيها: "من إمام المسلمين: سلطان بن سيف بن مالك، الواصل بالاله المملوك والمالك إلى أحمد بن الحسن إمام اليمن الأوسع، وصاحب المحل الأمان والمقام الأرفع. أما بعد: فقد انتهى إلينا كتابك الشريف، الجامع بين الرفق والتعنيف، ففهمناه - بحمد الله - معناه، وعرفنا فحواه. واعلم - حفظك الملك الديان، وحسم بيننا وبينك العداوة والشنآن - أنا لما بعثنا جيشنا، ولينا عليه واليا وليا عدلا مرضيا، وأمرناه بتقوى الله، وإتباع سنة نبيه الأواه، وسلطناه على جهاد عبدة الأصنام، وقتال أعداء دين الإسلام، الذين نقضوا عهودنا، ونكثوا عقودنا، وقتلوا رجالنا، واختطفوا أموالنا، وحكم ذو العظمة والجلال، إن دماءهم وأموالهم حلال، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، أو يفنى منهم الأولون والآخرون، وإن قلت مقالة إسماعيل [بن] القاسم، إنك قد أمنتهم، وأن المسلمين يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، فليس لك أن تؤمن من هو مقيم على حرب المسلمين، واختطاف أموال المؤمنين"^(٩٠). هذا وتوفي الإمام سلطان بن سيف اليعربي في ١٦ ذي القعدة ١٠٩٠هـ / ١٨ ديسمبر ١٦٧٩م، فكانت مدة إمامته ٤١ سنة و٧ أشهر و٥ أيام، وبُويع بالإمامة من بعده لابنه بلعرب (١٠٩٠-١١٠٤هـ/ ١٦٧٩-١٦٩٢م)^(٩١).

والجدير بالذكر أن علاقات الإمام سلطان بن سيف مع اليمن في تلك الفترة لم تكن مقصورة على النشاط العسكري، فيذكر ابن رزيق أن الإمام سلطان كانت له تجارة مع صنعاء^(٩٢). ويذكر ابن الوزير جانب من تلك العلاقات التجارية، فيذكر في أحداث سنة (١٠٧٧هـ/

كما شهد أواخر حكم الإمام سلطان بن سيف اليعربي حادثة قرب ميناء المُخا اليمني، ففي الحادي عشر من مايو عام ١٦٧٩م رست سفينة هندية قام العُمانيون باعتراضها واحتجازها في الميناء. وفي الشهر التالي حقق العُمانيون نصراً آخر عندما اعترضوا السفينة (ماشليفتان) التي وصلت إلى سواحل عدن، ولم يستطع عامل عدن الشيخ راجع من نجدة طاقم السفينة، الذين طلبوا نجدة الشيخ راجع بدعمهم ليلاً بالرجال، خوفاً من هجوم عُماني؛ لكن العُمانيين نجحوا في سحب السفينة بالكلايب إلى الشاطئ^(٨٤). يذكر ابن الوزير تلك الحوادث: "وفي آخر ربيع الأول (١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م) وصل أول المراكب الهندية إلى المُخا وكان قد تلقاهم أصحاب العُمانيين بباب المنذب فعشروهم فيه"^(٨٥)، "وفي هذا الشهر (شعبان ١٠٩٠هـ / سبتمبر ١٦٧٩م) وصل الخبر بأن سلطان بن سيف، ملك العُمانيين قبض ببلاد، وقعد في كرسي ملكه بعض أولاده"^(٨٦).

ولعل أوضح إشارة للانتصارات التي حققها الإمام سلطان بن سيف اليعربي في جهات متفرقة من اليمن، ما أورده الشاعر الشيخ خلف بن سنان الغافري^(٨٧) في قصيدة يذكر فيها فتوحات الإمام، مما جاء فيها^(٨٨):

ولدى زنجبار زمجر فيهم
رعد زجر لم ينج منه اعتصام
وبمبى نابهم منه ناب
لم ينبه عن المضي انتهام
وكذا في مخا قد امتخ منهم
أعظماً قبل ضيمه لا تضام
وانثنى منهم بعدة أفلاك
ترأى كأنها أعلام
ولدى باب مندم كم دم طل
ومال آماله الصمصام

توفي الإمام إسماعيل بن القاسم في عام (١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م) وتولى الحكم بعده ابن أخيه الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم (١٠٨٧-١٠٩٢هـ / ١٦٧٦-١٦٨١م)، واستمرت المراسلات بين الإمام سلطان بن سيف اليعربي وأئمة اليمن. حيث أرسل الإمام سلطان بن

فقهي من خلال تبادل الآراء الفقهية حول مشروب القهوة، على اعتبار أن اليمن كان مصدر مهم من مصادر انتاج البن.

وبصفة عامة، إن النضال العُماني ضد الاحتلال البرتغالي أثر على الموائى اليمنية وهو ما يذكره ابن الوزير في كتابه: طُبُّق الحلوى وصحاف المن والسلوى، لاسيما أن الضعف الاقتصادي كان من أهم جوانب الضعف في فترة الامامة في اليمن وهو ما انعكس سلباً على الداخل اليمني وعلى السياسية الداخلية للإمام الزيدية. إن النجاح الساحق الذي حققه العُمانيون في عهد اليعاربة على الاحتلال البرتغالي، أثار امتعاض الأصدقاء والأعداء، وكان لهذا الصراع آثاره السلبية على العلاقات العُمانية اليمنية وهو ما أوضحته ونقلته الرسائل المتبادلة بين الإمام سلطان بن سيف اليعربي والإمام إسماعيل بن القاسم الزيدي. كما يظهر ذلك التأثير على مؤرخي الأحداث التاريخية التي حدثت بين الجانب العُماني واليمني إبان فترة ملاحقة العُمانيون للبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وهو ما استشفه محقق كتاب ابن الوزير طُبُّق الحلوى وصحاف المن والسلوى، فجاء في مقدمة التحقيق للكتاب: "... وقد كان الكاتب نفسه (يعني ابن الوزير) من أقطاب النظام فإذا علمنا أن المذهب الزيدي لم يكن مذهب أهل اليمن جميعهم وأنه كان مجرد قطرة في بحر متلاطم من المذاهب في المحيط العربي الإسلامي فإننا نكون قد كشفنا وجه التعصب وسنحس بعصبية الكاتب المذهبية حين نصل إلى تقييمه للمذاهب الأخرى ابتداء من آرائه في ابتدال أهل السنة الأتراك إلى امتعاضه من انتصار الاباضية العُمانية على المستعمرين البرتغال..."^(٩٧).

عموماً، من الملاحظ أن المصادر اليمنية أكثر استفادة في ذكر أخبار العُمانيين في ملاحقتهم للبرتغاليين في البحر الأحمر؛ لذلك تُوصي الدراسة بأهمية الاهتمام بالمصادر اليمنية لأنها تقدم صورة عميقة وبتفاصيل كثيرة حول بطولات العُمانيين وتبعهم للبرتغاليين في مدخل البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، وإجهاض كل محاولات احتلالهم للمنطقة من جديد.

١٦٦٦م): "وفيها أُخبر تجار عُمان الواصلون إلى اليمن، إنه قد برز أمر السلطان صاحب القسطنطينية بالتجهيز على حسين باشا صاحب البصرة"^(٩٣). كما يوثق ابن الوزير مساعدة العُمانيين لليمنيين بالسلاح لصد البرتغاليين، فيذكر في أحداث سنة (١٠٨١هـ / ١٦٧٠م): "وفي هذه الأيام بعث صاحب عُمان إلى حاكم المخا بألفي رطل من الرصاص معونة له في دفع الفرقال"^(٩٤). وهذا يؤكد العلاقات الطيبة بين الجانبين وسمو الهدف العُماني في الجهاد ضد البرتغاليين.

كما يذكر كتاب يوميات صنعاء في القرن ١١هـ، رسالة أرسلها الإمام سلطان بن سيف اليعربي إلى الإمام أحمد بن حسن بن القاسم في عام (١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) حول القهوة، جاء فيها: "أن القهوة لا ينبغي استعمالها وأنها حرام عنده محتجاً أن فيها شبه بالإدارة بأعمال الخمر، وأنها مسكرة وأن بعض الشافعية حال خروجها أفتى بتحريمها"^(٩٥). إن موضوع القهوة يفتح مجال للدراسة كوجه آخر للعلاقات بين عُمان واليمن خلال فترة النضال العُماني ضد الاحتلال البرتغالي وهو مجال خصب إذا ما تم مناقشته من ناحية اقتصادية وفقهية^(٩٦).

خاتمة

مما سبق يمكن القول؛ إن العلاقات العُمانية اليمنية في ظل ملاحقة العُمانيين للبرتغاليين لم تكن إيجابية على الدوام بسبب تأثير ذلك على الموائى اليمنية، لكن الهدف العُماني كان واضحاً وتمثل في الجهاد ضد البرتغاليين وتطهير المنطقة العربية منهم وهو هدف خدم الجانب اليمني أيضاً وساهم في صد هجمات البرتغاليين باتجاه الموائى اليمنية وهو ما وثقته المصادر اليمنية، كما أن العلاقات لم تكن متوترة على الدوام فكانت هنالك علاقات تجارية طيبة بين الجانبين. كما توضح المراسلات التي تبادلها الإمام سلطان بن سيف اليعربي مع الإمامين اللذين عاصرا فترة حكمه، الإمام إسماعيل بن القاسم والإمام أحمد بن الحسن بن القاسم أن العلاقات لم تكن عدوانية، بل كانت هناك مراسلات دبلوماسية وتجارية، وأخذت في بعض الأحيان منحى

الملاحق:

ملحق رقم (١)

وثيقة تاريخية

رسالة من إمام عُمان سلطان بن سيف بن مالك
اليعربي (١٠٥٩-١٠٩١هـ / ١٦٤٩-١٦٨٠م) إلى إمام
اليمن المتوكل إسماعيل بن القاسم الزيدي (١٠٥٤-
١٠٨٧هـ / ١٦٤٤-١٦٧٦م).^(٩٨)



ملحق رقم (٢)

رسالة الإمام سلطان بن سيف اليعربي إلى الإمام
إسماعيل بن القاسم الزيدي من كتاب تحفة الأعيان لنور
الدين السالمي:^(٩٩)

"وهذا كتاب منه إلى ملك صنعاء اليمن: بسم الله
الرحمن الرحيم. من إمام المسلمين سلطان بن سيف بن
مالك رأس العرب اليعربي العربي العُماني إلى عالي
ذروة الجناح المعظم الهمام المكرم إسماعيل بن القاسم
القرشي العربي. أما بعد، فإنا نحمد الله على آلائه

وجميل صنعه وبلائه ونسترشده إلى سلوك سبيل رضا
ونستزيده من خزائن مواهبه وعطاه أنه بيده مفاتيح كل
خير وكفاية كل بؤس وضير وإن سألت أيها المحب عنا
ورمت كيفية الحال منا فإنا بحمد الله في حال يسر به
الودود ويساء به الحسود. ثم لتعلم أيها الملك أنه قد
وصل إلينا في مدة أيام قد تصرمت وشهور قد تحرمت
رجل من جنابكم يزعم أنكم أرسلتم بيده طروسا بها درر
من رائق لفظكم وخطابكم غير أنه يقول أن المركب الذي
أقبل فيه عابه الانكسار فغرق في اليم فأدرك الطروس
المسطرة حكم التلف ثم بيد أنه قد أفاء إلينا من نتائج
لسانه واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه أنكم علينا
عاتبون ومنا واجدون لأجل قطع خدامنا في العام
الماضي مراكب رقاب المشركين على بابكم وأخذهم
لسفنههم الواردة لجنايبكم ولعمري أنا لنندري أن العتاب
بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء وزائد محض
المودة الصادقة والوفاء غير أنه يجب عند اقتراف
الجرائم وانتهاك المحارم فإنا نحن لم نقصد إلى انتهاك
ذلك سبيلا ولا نجد لك على الزام فعل ذلك دليلا إذ كنا
لم نجهز مراكبنا ونتخذ مخالبا ليسارة رعيته ولا
استباحة دم أهل حكمك وقضيتك؛ ولكن جهزنا الجيوش
والعساكر؛ وأعدنا للهازم والبواتر لتدمير عبدة الأوثان
وأعداء الملك الديان تعرضا منا لرضاء رب العالمين،
وإحياء لسنة نبيه الأمين، ورغبة في إدراك أجر
الصابرين المجاهدين، وحاشى لمثلك أن يغضب لقتال
عبدة الأصنام وأعداء الله والإسلام؛ ألسنت من سلالة
علي بن أبي طالب الساقية للمشركين وبى المشارب، وأنت
تدري بما جرى بيننا وإياهم من قبل في سواحل عُمان
وفي سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة
الصيام وتناهب الأملاك والأموال، وإنا لنأخذهم في كل
موضع تحل به مراكبهم وتغشاه حتى من كنج وجيرون
بندري الشاه، ولم يظهر لنا من أجل ذلك عقابا ولا نكيراً،
وإن كنت في شك من ذلك فاسأل به خبيراً أولاً نذكرك
أيها الملك، والذكرى تنفع المؤمنين، وإنا لك من المنذرين
وعليك من المحذرين. إنا لما ملكنا تلك الأيام بلدة ظفار
وهي عنا نازحة الفيافي والقفار لم نر في ملكها صلاحاً
لشيء أوجبنا منا النظر وحاكته الأذهان والفكر، فتركناها
لا من خوف قوة قاهرة ولا كلمة علينا ظاهرة ولا يد

ملحق رقم (٣)

رسالة الإمام سلطان بن سيف اليعربي إلى الإمام
إسماعيل بن القاسم الزيدي من كتاب طبق الحلوى لابن
الوزير^(١٠٠):

"بسم الله الرحمن الرحيم

من إمام المسلمين، سلطان بن سيف، رأس العرب
اليعربي، إلى عالي ذروة جناب المعظم، الهمام المكرم،
إسماعيل بن القاسم، القرشي العربي، أما بعد فإننا
نحمد الله على سوابغ آلائه، وجميل صنعه وبلائه،
ونسترشده إلى سلوك سبيل رضاه، ونستزيده من خزائن
مواهبه وعطاه، إنه بيده مفاتيح كل خير، وكفاية كل بؤس
وضير، وإن سألت أيها المحب عنا، ورمت كنه كيفية
الحال منا، فإننا نحمد الله في حال يسر به الودود،
ويُسأله الحسود، ثم لتعلم أيها الملك المبجل، والسيد
المجلل، أنه قد وصل إلينا في مدة أيام قد تصرمت،
وشهور قد تخرمت، رجل من جنابكم يزعم أنكم أرسلتم
بيده طروساً بها درر من رائق لفضلكم وخطابكم، غير أنه
يقول أن المركب الذي أقبل فيه عابه الانكسار فغرق في
اليم، فأدرك الطروس المصطره حكم التلف، ثم بيد أنه
قد تنافس إلينا من نتائج لسانه، واتضح لنا من واضح
نطقه وبيانه، أنكم علينا عاتبون، ومنا واجدون، لأجل
قطع خدامنا في العام الماضي للمشاركين على بابكم،
وأخذهم لسفنتهم القاصدة إلى جنابكم، ولعمري إنا
ندري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة
والصفاء، ورائد محض المحبة الصادقة والوفاء، غير أنه
يجب عن افتراق الجرائم، وانتهاك المحارم، فأما نحن
فلم نسلك إلى ارتكاب ذلك سبيلاً، ولا نجد لك على
إلزامنا فعل ذلك دليلاً، إذ كنا لم نجهز مراكبنا، ونحشد
مخالبنا، لسيارة رعيته، ولا لاستباحة أهل حكمك
وقضيتك، لكن جهزنا الجيوش والعساكر، وأعدنا
اللهاذم والبواتر، لتدمير عبدة الأوثان وأعداء الملك
الديان، تعرضنا منا لرضى رب العالمين، وإحياء لسنة نبيه
الأمين، ورغبة في إدراك فضل الصابرين المجاهدين،
وحاشا مثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام، وأعداء الله
والإسلام، الست من سلالة علي بن أبي طالب، الساقى
للمشاركين وبى المشارب، وأنت تدري بما جرى بيننا

غالبية ولا كف سالبة، وحين ما خرج عنها عاملنا خلف
خلف بها شيئاً من مدافع المسلمين لغفلة جرت عن حملها
في ذلك الحين ولما ملكتم أنتم زمام عيسها واجتليتم
ضوء بدرها وشمسها لم تدفعوا لنا تلك المدافع كان لم
يكن وراءها ذائد ولا دافع، فاعلم أيها الملك إن البعل
غيور والليث هصور والحر على غير الإهانة صبور، ومن
أنذر فقد أعذر وما غدر من حذر على أن في اصطلاح
ذات بيننا وبينكم راغبون طالبون وفي استبقاء صحبتك
راغبون ولإطفاء الفتنة واخماد المحن بيننا وإياك مؤثرون،
فان كنت راغباً في الذي فيه رغبتنا وطالباً لما له طلبنا
فادفع لنا إياها ولا تحتس بسرعة الاعتداء حمايها، وإن
أبيت إلا الميل إلى اغتنامها والجزم على خبط ظلامها
ففي الاستعانة بالله على من اعتدى وسعة ومن كان مع
الله كان الله معه وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام عليك
ورحمة الله وبركاته".

ملحق رقم (٤)

رسالة الإمام إسماعيل بن القاسم الزيدي رداً على رسالة الإمام سلطان بن سيف اليعربي من كتاب تحفة الأعيان^(١٠١):

"بسم الله الرحمن الرحيم: من شمس سماء الخلافة العلية، ومضرب سرادقات الشريعة المحمدية إلى قاضية أرض الملك المالك سلطان بن سيف بن مالك اليعربي العربي العُماني أراه الله نهج الهداية وجنبه مسلك الضلال والغواية. أما بعد: حمداً لله والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى وصيه الأترع البطين الحاصد سيفه رؤوس المارقين؛ وقد وصل كتابك الذي شحنته بالأبراق والأرعاد وعدلت به من تحسين العتاب إلى تخشين الخطاب، ظنا منك أن هذيان وعيدك وطنين ذباب تهديدك يزعزع من بأسنا صخرة صماء أو يحرك من وقارنا جبلا أشما فكيف يكون ذلك.

وأسيافنا في كل شرق ومغرب

بها من قراع الدارعين فلول

أين ذهب حجاؤك حتى

طلبت منا المدافع بهذه الأراجيف والبقاقع،

وانما تقطع أعناق الرجال المطامع

أما علمت أن الليث إذا هيج على فريسة كان أشد إقداما وأعظم جرأة واعتزاما، لا جرم أنها لما تأت بنا وبك الديار وحالت دوننا الأمصار فاسترسلت لفظك فجاوزت في سوء المقدار حدك وانفردت بأرضك فطلبت الطعن والنزال وحدك.

يا سالكا بين الصوارم والقنا

إني أشم عليك رائحة الدم

فاقطع عرى آمالك عن هذه المدافع فهي أول غنيمة إن شاء الله من قطرك الشاسع؛ وقد دعوتنا على النزول على حكم الأطباء والأسل=

فالبث قليلا تلحق الهيجا جمل

ونحن من القوم الذين سقوا قومك يوم النهروان كؤوس الحتوف، وأنتم أتباع من سقى، فما بدأ به أوائلنا في سلفكم، ختمنا به من بقي والسلام؛ انتهى جوابه".

وبينهم من قبل في سواحل عُمان، وفي سائر الأماكن والبلدان، من سفك الدماء وكثرة الصيال، وتناهب الأملاك والأموال، وإنا نأخذهم في كل موضع تحل به مراكزهم وتغشاه، حتى من كنح وحميروية بندرى الشاه، ولم يظهر لنا من أجل ذلك عتابا ولا نكيرا، فإن كنت في شك من ذلك فاسأل به خبيرا، إلا وإنا نذكرك أيها الملك، والذكرى تتفع المؤمنين، وإنا لك من المنذرين، وعليك من الحذرين، إنا لما ملكنا تلك الأيام بلدة ظفار، وهي عنا نازحة الفياضي والقفار، لم نر في تملكها صلاحا لشيء أوجبه منا النظر، وحاكته الأذهان والفكر، فتركناها لا من خوف قوة قاهرة، ولا لكلمة علينا ظاهرة، ولا يد غالبية، ولا كف سالبة، وساعة ما خرج منها عاملنا خَلَفَ خَلَفَ بها شيئا من مدافع المسلمين، لغفلة منه جرت عن حملها في ذلك الحين ولما ملكتم أنتم زمام عنها، وأجتليتم ضوء بدرها وشمسها، لم تدفعوا إلينا تلك المدافع، كأن لم يكن من ورائها ذا يد ولا دافع، فاعلم أيها الملك أن البعل غيور، والليث هصور، والحر على غير الإهانة صبور، ومن أنذر فقد أعذر، وما غدر من حذر، على إنا لإصلاح ذات البين بيننا وبينكم طالبون، وفي استيفاء صحبتك راغبون، ولإطفاء الفتن والإحسان بيننا وبينك مؤثرون، فإن كنت راغبا في الذي فيه رغبتنا، وطالبا لما له طلبنا إخمادها، فأدفع لك الخير لنا إياها، ولا تتحسن بسرعة الاعتداء حُميّاها، وإن أبيت إلا الميل لاغتنامها، والجزم على نفس امرئ على خبط ظلامها، ففي الاستعانة بالله ممن اعتدى فسحة وسعة، ومن كان مع الله كان الله معه، والسلام ورحمة الله، انتهى المكتوب بحروفه".

ملحق رقم (٥)

رسالة من الإمام سلطان بن سيف اليعربي إلى الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم الزيدي^(١٠٣):

"من إمام المسلمين: سلطان بن سيف بن مالك، الواثق بالله المملوك والمالك إلى أحمد بن الحسن إمام اليمن الأوسع، وصاحب المحل الأمان والمقام الأرفع. أما بعد: فقد انتهى إلينا كتابك الشريف، الجامع بين الرفق والتعنيف، ففهمناه- بحمد الله- معنا، وعرفنا فحواه. واعلم- حفظك الملك الديان، وحسم بيننا وبينك العداوة والشنآن- أنا لما بعثنا جيشنا، ولينا عليه واليا وليا عدلا مرضيا، وأمرناه بتقوى الله، وإتباع سنة نبيه الأواه، وسلطانه على جهاد عبدة الأصنام، وقتال أعداء دين الإسلام، الذين نقضوا عهودنا، ونكثوا عقودنا، وقتلوا رجالنا، واختطفوا أموالنا، وحكم ذو العظمة والجلال، إن دمائهم وأموالهم حلال، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، أو يفنى منهم الأولون والآخرون، وإن قلت مقالة إسماعيل [بن] القاسم، إنك قد أمنتهم، وأن المسلمين يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، فليس لك أن تؤمن من هو مقيم على حرب المسلمين، واختطاف أموال المؤمنين.

وأما المركب الذي ذكرت أنه للسقطي [لسقطري]، فبلغ أصحابنا أنه ميناس الأرمني، فأتوا به لنستبى عنه الأخبار، ثم نتبع فيه كتاب الله العزيز الجبار، فلما بلغنا أن مياسا في ذمة المسلمين، وأن متاع هذا المركب لأحد الموحدين، خلينا سبيله قبل وصول كتابك، وانتهاء خطابك.

وأما مركب إسماعيل-المذكور- وهو مركب البانيان المزبور، فلم يقصد أصحابنا جنابهما إلا ليعرفوا أربابهما، وليس عليهم جناح ولا متعبة فيمن حمله الخوف والفرع، حتى انهزم، فكسر مركبه؛ وأما الناوريتان اللتان ذكرتهما، فإن والينا الولي، وأميننا الرضي، أقر عند أربابهما أنهما لأحد من المشركين، الذين هم في ذمة المحاربين المسلمين وانما نحن مخاطبون بحكم الظواهر، لا بحكم البواطن والسرائر، على أنهما لم يقعا في بلادنا ولم يحصل، بل أدركهما الغرق في البحر قبل أن يصلا، وأما المركب الذي ذكرت أنه جاء من فارقتن وقصد بندر عدن، فإن أصحابنا لم

يعترضوه إلا لمعرفة أهله وتمييزه، فقتله جنودك وحشودك، لأنهم أقبلوا في زورق صغير، وأصحابك في مركب كبير، وختام الكلام والمقال: أن أصحابنا إن كانوا اقترفوا ما لا يحل من الفعال فإننا من ذلك صفر الراحة، نقي الساحة، لأنني نهيتهم وزجرتهم، وخوفتهم وحذرتهم، فمن أراد منهم الإنصاف في شيء أبلغتهم إياه، وأنفذت له فيهم حكم كتاب الله. وأما قولك: إن هذا التجريء لا يجوز ولا يسوغ فعله؛ فنعوذ بالله أن نتجرأ على ملك جبار، قاضم قهار في ملكه السموات والأرض، وبيده البسط والقبض، بل سيرتنا-بحمد الله- مشهورة، وبإتباع كتاب الله وسيرة نبيه مذكورة، والفضل في ذلك راجع إلى الله، لا إلينا، وهو المسؤول أن يتم نعمته في الدنيا والآخرة".

الإحالات المرجعية:

- (١٨) المعولي، محمد بن عامر (ت: ١١٩٠هـ / ١٧٧٧م). **قصص وأخبار جرت بعمان**. تحقيق: عبد المنعم عامر، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٧٩م، ص ١١٧-١١٨.
- (١٩) ابن زريق، **الفتح المبين**، ج ٢، ص ١٤٩-١٥٥.
- (٢٠) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ١، ص ٥٨-٥٩.
- (٢١) الأزكوي، **تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة**، ص ٩٠.
- (٢٢) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ٢، ص ٤٤.
- (٢٣) الحراصي، عبد الله بن ناصر. **التاريخ العُماني من خلال المصادر اليمنية**. الندوة الدولية: التبادل الحضاري العُماني اليمني ٧-٨ فبراير ٢٠١٠م، مج ١، جامعة السلطان قابوس، مسقط: ٢٠١٠م.
- (٢٤) يوجد أكثر من مصدر تحت نفس العنوان: تاج الدين اليماني، عبد الباقي بن عبد المجيد (ت: ٧٤٣هـ / ١٣٤٣م). **بهجة الزمن في تاريخ اليمن**. تحقيق: مصطفى حجازي، ط ٢، دار الكلمة، صنعاء: ١٩٨٥م، ابن القاسم، يحيى بن الحسين (ت: ١٠٩٩هـ / ١٦٨٨م). **بهجة الزمن في تاريخ اليمن**. تحقيق: أمة الغفور عبد الرحمن الأمير. (نسخة إلكترونية غير مؤرخة، برنامج المكتبة الشاملة)
- (٢٥) **تاريخ طبّق الحلوى وصحاف المنّ والسلوى** لابن الوزير يوجد في جزئين مقسمين حسب السنوات: ج ١: (١٠٤٦-١٠٨٠هـ)، ج ٢: (١٠٨١-١٠٩٠هـ).
- (٢٦) يذكر ابن الوزير أنه اعتمد في نقل مادة كتابه من كتاب مؤرخ آخر: "وقد اطلعت على تاريخ لبعض أبناء ملوك اليمن"، "فاعتمدت في القصص عليه وأحلت جل ما نقلته إليه". ومع أنه لم يحدد اسم الكتاب ولا المؤرخ فإن كتابه هذا تهذيب لكتاب "بهجة الزمن في حوادث اليمن" ليحيى بن الحسين الذي كتبه من قلب الأحداث التي عايشها وسمع عنها. وكتاب "بهجة الزمن" يقع في ثلاثة أجزاء ويؤرخ لليمن من ١٠٤٦-١٠٩٩هـ، بينما يقف عبد الله بن علي الوزير في كتابه عند سنة ١٠٩٠هـ دون أن يبين سبب هذا التوقف، وقد اطلعت على الجزء الأول والجزء الثاني من "بهجة الزمن" والمودع في مكتبة الجامع الكبير برقم ٤٩ فوجدته يتفق من حيث الفترة الزمنية مع الجزء الأول والجزء الثاني من هذا الكتاب ١٠٤٦-١٠٩٠هـ وكذلك في المحتوى. ورغم اعتماد المؤلف على كتاب يحيى بن الحسين إلا أن بصماته واضحة على هذا الكتاب فله تعليقاته الخاصة ومناقشاته وأسلوبه في التناول والتدوين. يُنظر مقدمة التحقيق: ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ص ٢٤، ٤٨.
- (٢٧) الحراصي، **التاريخ العُماني من خلال المصادر اليمنية**، ص ٦٢.
- (٢٨) الحراصي، **التاريخ العُماني من خلال المصادر اليمنية**، ص ٦٣.
- (٢٩) الحراصي، **التاريخ العُماني من خلال المصادر اليمنية**، ص ٦٤.
- (٣٠) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ٥١.
- (٣١) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ٥٩-٦٠.
- (٣٢) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١١-١١١.
- (٣٣) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١٤٩-١٥٠.
- (٣٤) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١٥٥.
- (٣٥) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١٧٨.
- (٣٦) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١١٧.
- (٣٧) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١٢١-١٢٢.
- (٣٨) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١٢١-١٧٩.
- (٣٩) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ١٨٥.
- (٤٠) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ٢، ص ٣١١.

- (١) اختلف بعض المؤرخين غير العُمانيين في تاريخ جلاء البرتغاليين عن مسقط فبعضهم يذكر أنه كان عام ١٦٥٨م وبعضهم يذكر عام ١٦٤٥. على أن المتواتر لدى المؤرخين العُمانيين أن عام الجلاء والتحرير هو عام ١٦٥٠م.
- (٢) آ. ر. سارجنت. **النشاط الملحي العُماني على الساحل العربي الجنوبي**. ندوة الدراسات العُمانية، م ٦، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٨٠م، ص ١١٣.
- (٣) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد (ت: ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م). **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان**. ج ٢، المطبعة السلفية، القاهرة: ١٩٢٩م، ص ١٥.
- (٤) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ٢، ص ٢٤، ٤٤.
- (٥) مخطوطة لقط الآثار المؤلف بصدار نقلاً عن: البراشدي، موسى بن سالم. **الدور السياسي لعلماء عُمان خلال الفترة من ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م إلى ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م**. ط ١، الجمعية العُمانية للكتاب والأدباء، مسقط: ٢٠١٩م، ص ٢٥٥.
- (٦) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ٢، ص ٤٨.
- (٧) ابن زريق، حميد بن حمد (ت: ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م). **الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين**. تحقيق: محمد حبيب صالح ومحمود بن مبارك السليمي، ج ٢، ط ١، وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠١٦م، ص ١٤٨.
- (٨) ابن القاسم، يحيى بن الحسين (ت: ١٠٩٩هـ / ١٦٨٨م). **يوميات صنعاء في القرن ١١هـ**. ج ٣، تحقيق: عبد الله بن محمد الحبشي، ج ١، ط ١، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي: ١٩٩٦م، ص ٥٣؛ ابن الوزير، عبد الله بن علي (ت: ١١٤٧هـ / ١٧٣٥م). **تاريخ طبّق الحلوى وصحاف المنّ والسلوى**. تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، ط ٢، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء: ٢٠٠٨م، ص ٩٨.
- (٩) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ص ٩٩-١٠٠؛ الحبشي، عبد الله محمد. **مصادر الفكر الإسلامي في اليمن**. المجمع الثقافي، أبو ظبي: ٢٠٠٤م، ص ٦٩٨-٧٠٠.
- (١٠) لمزيد من التفاصيل حول إنجازات عهد الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم، يُنظر: ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ٢، ص ٢٧٣-٢٧٧.
- (١١) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ص؛ الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي، ص ٦٩٩.
- (١٢) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ٢، ص ٢٧٣.
- (١٣) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ٢، ص ٢٨.
- (١٤) يُعدّ كتاب **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة** (ألف في بداية القرن ١١هـ ومنصف القرن ١٧م) ثاني كتاب مترجم عن تاريخ عُمان بعد كتاب الفتح المبين لابن زريق. وتم نشره في مجلة الجمعية الآسيوية في البنغال عام ١٨٧٤م، بعنوان: "أخبار عُمان من أقدم العصور حتى عام ١٧٢٨م" (Annals of Oman from old days until 1728).
- (١٥) مسكّد: مسقط. وتُذكر في المصادر اليمنية (مسكّت).
- (١٦) الديو: موضع بالهند قرب خليج بومباي قامت فيه معركة شهيرة في سنة ١٦٧٠م بين العُمانيين بقيادة الإمام سلطان بن سيف اليعربي والبرتغاليين، وانتصر فيها العُمانيون وغنموا غنائم كثيرة. كما توجد معركة ديو البحرية بين العُثمانيين والبرتغاليين ١٥٠٩م.
- (١٧) الأزكوي، سرحان بن سعيد (ت: ١٢٠٢هـ / ١٨٠٨م). **تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**. تحقيق: عبد المجيد القيسي، ط ٤، وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠٠٥م، ص ١٠٧-١٠٨.

- السيب: ١٩٩٥م، ص ٤٠-٤٢؛ الهاشمي، سعيد بن محمد. **مصادر التاريخ العُماني الحديث والمعاصر دراسة مسحية وصفية**. ط ١، دار الفرق، دمشق: ٢٠١٧م، ص ٩٤-٩٦.
- (٧٧) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٦-٦٠.
- (٧٨) نص الرسالة كاملاً. يُنظر: الملاحق، ملحق رقم (٣).
- (٧٩) يُنظر الملاحق: ملحق رقم (٣).
- (٨٠) يُنظر الملاحق: ملحق رقم (٣).
- (٨١) يُنظر الملاحق: ملحق رقم (٣).
- (٨٢) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥٧.
- (٨٣) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ٢، ص ٥٨-٥٩.
- (٨٤) سارجنت، النشاط الملاحي العُماني على الساحل العربي الجنوبي، ص ١٢١-١٢٢.
- (٨٥) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٣٥٩.
- (٨٦) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٣٦٢-٣٦٣.
- (٨٧) هو الشيخ خلف بن سنان بن خلفان بن عثيم الغافري (ت: ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م). قاضي، ووالي وفقه وشاعر. وُلد في بلدة المعمور في ولاية نزوى، ودرس في مدرسة جبرين. كان من العلماء الذي عقدوا البيعة للإمام سلطان بن سيف بن سلطان اليعربي (الثاني) سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م. له ديوان مطبوع بعنوان: "إيقاظ الوسنان في شعر وترجمة خلف بن سنان"، وكتاب اسمه: (عالم الكشف). توفى هن عمر يناهز التسعين عاماً في عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م. يُنظر: بدوي وآخرون. **دليل أعلام عُمان**. ط ١، مسقط: جامعة السلطان قابوس، ١٩٩١م، ص ٥٨؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ج ٢، ص ١٥٩؛ البطاشي، سيف بن حمود (ت: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م). **إيقاظ الوسنان في شعر وترجمة الشيخ خلف بن سنان**. ط ١، مكتبة السيد محمد بن حمد البوسعيدي، السيب: ١٩٩٥م.
- (٨٨) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ٢، ص ٦٠-٦٢.
- (٨٩) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ٢، ص ٣١١.
- (٩٠) الهاشمي، مصادر التاريخ العُماني، ص ٩٧-٩٨.
- (٩١) الأزرقي، تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة، ص ١٠٩م؛ المعولي، قصص وأخبار، ص ١١٨؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٤٦، ٧٤.
- (٩٢) ابن رزيق، الفتح المبين، ج ٢، ص ١٥٧.
- (٩٣) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢١٧.
- (٩٤) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٢٧٦.
- (٩٥) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ٢، ص ٣٣٩.
- (٩٦) لمزيد من التوسع حول القهوة يُنظر: الجهورية، أعلام بنت حمود.
- القهوة جدل فقهية ومكانة اقتصادية**. منشور في: **قراءات في التاريخ الاقتصادي العُماني: السلع العُمانيّة أنموذجاً**، ط ١، الآلن ناشرون وموزعون، الجمعية العُمانيّة للكتاب والأدباء، مسقط: ٢٠٢٠م، ص ١٥-٥٢.
- (٩٧) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ١١.
- (٩٨) المصدر: هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، الرمز المرجعي: OM.NRAA.A.1.2.1(1).
- (٩٩) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ٢، ص ٥٦-٥٧.
- (١٠٠) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥٥-٢٥٧. (توجد أخطاء لغوية لكن نقلنا النص كما ورد عند ابن الوزير)
- (١٠١) السالمي، **تحفة الأعيان**، ج ١، ص ٥٨-٥٩.
- (١٠٢) الهاشمي، مصادر التاريخ العُماني، ص ٩٧-٩٨.

- (٤١) تم نشر تلك النصوص الخاصة بالصراع العُماني البرتغالي في: الحبشي، عبد الله بن محمد. البرتغاليون على ساحل البحر الأحمر، **مجلة العرب**. ع: السنة ٩، ج ١، ط ١، دار اليمامة، الرياض: ١٩٧٤م.
- (٤٢) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٨٩-٩٠.
- (٤٣) هذا التاريخ يتعارض مع التاريخ الذي أوردته المصادر العُمانيّة عن فتح مسقط في عام ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م.
- (٤٤) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٥٥-١٠٦.
- (٤٥) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ١٣٥.
- (٤٦) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ١٥٧.
- (٤٧) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ١٨١.
- (٤٨) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢١٧.
- (٤٩) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٢٦.
- (٥٠) طاسوا: أوغلو.
- (٥١) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٢٧.
- (٥٢) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٣.
- (٥٣) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٣٢.
- (٥٤) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٤٧.
- (٥٥) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥١.
- (٥٦) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥٢.
- (٥٧) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥٥.
- (٥٨) نص المکتوب (الرسالة) كاملاً. يُنظر: الملاحق، ملحق رقم (٢).
- (٥٩) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥٥.
- (٦٠) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٦١.
- (٦١) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٢٦٧-٢٧٠.
- (٦٢) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٢٧٢.
- (٦٣) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٢٧٠.
- (٦٤) الفرتقال: البرتغال.
- (٦٥) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٢٧٦.
- (٦٦) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٢٨٢.
- (٦٧) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٣٥٩.
- (٦٨) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ٢، ص ٣٦٢-٣٦٣.
- (٦٩) ابن القاسم، **يوميات صنعاء**، ج ١، ص ٥٩-٦٠؛ ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٥٥-٦٠.
- (٧٠) لمزيد من التفاصيل، يُنظر: السالمي، عبد الرحمن وآخرون. **البرتغاليون في بحر عُمان بين السياسة والدين**. ١٦ مجلد، ط ١، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط: ٢٠١٢م.
- (٧١) التوبي، أحمد بن حميد. **المقاومة العُمانيّة للوجود البرتغالي في الخليج العربي والمحيط الهندي (١٥٠٧-١٦٩٨م)**. ط ١، بيت الغشّام، مسقط: ٢٠١٧م، ص ٢٧٩-٢٨٠.
- (٧٢) المرجع نفسه.
- (٧٣) عبد الله، نغم طالب. **العلاقات الخارجية لدولة اليعاربة في عُمان (١٦٢٤-١٧٤٧م)**. ط ٢، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد: ٢٠١٨م، ص ١٢.
- (٧٤) سارجنت، النشاط الملاحي العُماني على الساحل العربي الجنوبي، ص ١١٤-١١٥.
- (٧٥) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥١.
- (٧٦) ابن الوزير، **طبّق الحلوى**، ج ١، ص ٢٥٥-٢٥٧؛ البطاشي، سيف بن حمود (ت: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م). **إيقاظ الوسنان في شعر وترجمة الشيخ خلف بن سنان**. ط ١، مكتبة السيد محمد بن حمد البوسعيدي،

الحياة الثقافية والعلمية في مدينة الزُّبارة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قراءة لسيرة علماء الزُّبارة من خلال كتاب سبائك العسجد لابن سند البصري

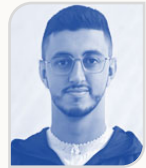
نورة خلف الحميدي

رئيس قسم المسح والأبحاث
متاحف قطر
الدوحة – دولة قطر



عماد تبهوت

باحث آثار ميداني
باحث دكتوراه في التاريخ كلية الآداب
جامعة مولاي إسماعيل – المملكة المغربية



ملخص

اختلف المؤرخون حول سنة تأسيس الزُّبارة، وتعميرها، فمنهم من ربط تأسيسها بوصول آل خليفة من العتوب، ومنهم من اعتبر وصول ابن رزق سبباً في تعميرها. إلا أنهم أجمعوا على أن الزُّبارة في عهد هؤلاء، عرفت ازدهاراً اقتصادياً وسياسياً لم يعهد له مثيلاً، سواء قبل قدومهم إليها، أو بعد نهاية حكمهم بها. لكن هؤلاء المؤرخين لم تشمل دراساتهم وأبحاثهم الحياة الثقافية والعلمية في الزُّبارة، وهذا ما يصبو إليه هذا المقال، من خلال دراسة الحياة الثقافية والعلمية بمدينة الزُّبارة خلال عهد أحمد بن رزق، من خلال كتاب "سبائك العسجد... لعثمان بن سند البصري، الذي عاش في الزُّبارة في عهد ابن رزق، كما كان من علماء الزُّبارة المساهمين في الازدهار الثقافي والعلمي بها. وفي سبيل ذلك سيقدم المقال الراهن تعريفاً لابن سند ومكانته العلمية، ومن ثمَّ الإشارة إلى الأسباب -وباء البصرة وانتقال العلماء منها إلى الزُّبارة- التي كانت وراء الازدهار الثقافي للمدينة، وبعد ذلك يتناول المقال ترجمة وافية لعلماء الزُّبارة كما هي واردة عند ابن سند البصري في كتابه "سبائك العسجد".

كلمات مفتاحية:

التاريخ الحديث والمعاصر؛ الحياة الثقافية والعلمية؛ الزُّبارة؛ أحمد بن رزق؛
عثمان بن سند البصري؛ سبائك العسجد

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٤ فبراير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٠ مارس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.357948.1206

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عماد تبهوت، نورة خلف الحميدي، "الحياة الثقافية والعلمية في مدينة الزُّبارة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر: قراءة لسيرة علماء الزُّبارة من خلال كتاب سبائك العسجد لابن سند البصري". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشر - العدد الحادي والسبعون؛ سبتمبر ٢٠٢٥. ص ٩٣ - ١٠٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: tabohout96@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

كانت الزَّيْبارة منذ التأسيس إلى غاية الاندثار نقطة الالتقاء بين الحضارات في منطقة الخليج وكذا بعض المناطق الآسيوية، نظرا لمكانتها في التبادل التجاري والثقافي شرقاً وغرباً. وهذا الالتقاء، جعل من الزَّيْبارة منطقة ثرية اقتصادياً، حيث تشهد المصادر التاريخية على ما حققته القبائل التي سكنت الزَّيْبارة من ازدهار مالي، لكن ذات المصادر، كثيراً ما تجاهلت الإشارة لآثار هذا الالتقاء الحضاري، وما يتبعه من تنوع ثقافي، وازدهار في الحياة الثقافية والعلمية للمدينة.

بناءً على هذا، يحاول هذا المقال الإشارة إلى مكانة الزَّيْبارة العلمية، من خلال دراسة الوضع الثقافي للمدينة، عن طريق دراسة كتاب "سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد" للشيخ عثمان بن سند البصري، باعتباره أحد علماءها الكبار، وممن عاصر مرحلة الازدهار الثقافي والاقتصادي للمدينة، وعاصر علماءها الذين توافدوا على المدينة، إضافة إلى كونه الوحيد الذي عرّف علماء الزَّيْبارة، وأشار إلى دورهم في إظهار المكانة العلمية للمدينة.

وفي سبيل ذلك، تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة مباحث أساسية، الأول لدراسة شخصية ابن سند، مؤلف كتاب العسجد، باعتباره من أعلام الزَّيْبارة. أما المبحث الثاني، خصص لإظهار مكانة كتاب العسجد، وتحديد نوعيته. من ثم مبحث ثالث، لدراسة تأثير وباء البصرة على ازدهار الزَّيْبارة ثقافياً، والمبحث الرابع، خصص للتعريف بعلماء الزَّيْبارة، وتحديد مدى أهميتهم العلمية، والثقافية.

أولاً: ترجمة المؤلف

الشيخ عثمان بن سند بن محمد بن أحمد بن راشد بن حمد بن ناصر بن راشد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن مدلج بن حمد بن رباح آل أبو رباح، الذين هم من آل حسني ثم آل بشر ثم من قبيلة عنزة القبلية الرباعية العدنانية^(١). ولد عام ١٧٦٦م في جزيرة فيلكا في الكويت^(٢) كما أثبت ذلك عبد العزيز الرشيد وهو مؤرخ ثقة^(٣). سكنة البصرة وبغداد، وقضى مدة يسيرة في مدينة الزَّيْبارة بالديار القطرية، بعد أن دعاه إليها أحمد

بن رزق، الذي جعله الصدر المقدم في بلده، واحتفى به احتفاءً بالغ، واعتبر قدومه إليه زينة لبلاده، وغنيمة في بساطه^(٤).

تعلم القراءة والكتابة في الكويت، ودرس قواعد الإعراب في الكتاتيب على طريقة أبناء ذلك العصر، وفيها قرأ القرآن على يد الشيخ عبد الله الشارخ^(٥). ولما تافت نفس ابن سند إلى أخذ العلم، نرح إلى مدينة البصرة القريبة من جزيته (فلكه)، واستفاد فيها، وتعلم في جامع الكواز، ومنها انتقل إلى المحمودية^(٦)، وفيها درس العلوم الطبيعية كالجغرافيا والتاريخ والعلوم العصرية، ثم انتقل إلى المدرسة الخليلية، التي استوفى ما فيها من العلوم^(٧).

وفي البصرة أخذ العلم عن العلامة الشيخ محمد بن فيروز، وعلى الشيخ إبراهيم بن ناصر بن جديد، والعالم الكبير عبد الله البيتوشي، وعلى غيرهم من علماء البصرة والزيبر. من ثم رحل إلى بغداد التي أخذ فيها عن علمائها، كالصدر السيد محمد أسعد الحيدري، مفتي الحنفية والشافعية ببغداد، والشيخ محمد أمين مفتي الحلة، والسيد أحمد الحياني، كما قرأ على يد العلامة الشيخ علي بن الملا محمد بن سعيد السويدي، وعلى الشيخ زين العابدين المدني حن وروده إلى بغداد، كما أخذ فيها العلم على يد الشيخ خالد النقشبندي^(٨). ولما حجَّ وجاور بمكة المكرمة والمدينة المنورة مدة قرأ فيها على علماء الحرميين على من يرد إليهما من العلماء^(٩).

أجمع المؤرخين على أن وفاة المترجم في بغداد، لكنهم اختلفوا في سنتها، والراجح أن وفاته كانت عام ١٢٥٠هـ، وقد دفن مجاوراً للعابد الشهير معروف الكرخي^(١٠). وقبل وفاته ترك ابن سند آثار علمي كبير، تجلّى فيما ألفه من كتب خلال حياته، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الشذرات الفاخرة في نظم الورقات الناصرة، نظم في أصول الفقه.
- منظومة في فقه المالكية سماها: الدرة الثمينة، في عالم المدينة.
- تحفة التحقيق لمعرفة الصديق، في ألغاز الفرائض.
- منظومة في العقائد سماها: (هادي السعيد في جوهرة التوحيد).

وبهذا يكتسي كتاب "سبائك العسجد ..." أهمية كبيرة، ضمن ما ألف في زمنه، إذ يعتبر من الكتب القليلة إن لم تكن الوحيدة التي ألقت حول تاريخ مدينة الزَّيْبارة، أو حول أحد رجالها الذين كان لهم الأثر الكبير فيما وصلت إليه المدينة من الازدهار الاقتصادي والثقافي والسياسي. ويكتسي هذا الكتاب أهميته، من خلال اهتمامه بعلماء الزَّيْبارة، إذ يعتبر ابن سند السباق إلى التعريف بالعلماء الذين عاشوا في مدينة الزَّيْبارة، كما يصنف ابن سند هو الآخر من العلماء الأجلاء الذين استقروا في الزَّيْبارة، ومعاصراً لهم.

ثالثاً: وباء البصرة والازدهار الثقافي في الزَّيْبارة

تعرضت مدينة البصرة في العراق سنة ١٧٧٢م حالها حال منطقة الخليج العربي، لوباء الطاعون وانتشر في بغداد والزيبر، الذي فتك بحوالي ٢٠٠ ألف نسمة من أصل ٣٠٠ ألف من سكان البصرة، وقيل في رواية أخرى أنه لم يتبقى من أهل البصرة إلا القليل، إذ أحصى ممن مات من أهلها فبلغوا ٣٥٠ ألف^(١٢) ونتيجة لهذه الأوضاع انتقال جمهور أهل البصرة ممن استطاع منهم الهروب من الطاعون، مما أدى إلى تدمير البصرة ونشاطاتها التجارية والثقافية تديماً يكاد يكون كاملاً، وهذا جعل من الكويت والزَّيْبارة الوجهة المفضلة لتجار وعلماء البصرة، نظراً للعلاقات التاريخية المبنية على الود بينهما^(١٣).

إضافة إلى وباء البصر، تعرضت مدينة البصرة للهجوم من طرف الفرس، إذ حاصروها سنة ١٧٧٥م، حيث نهبوا وفعلوا بها الأفاعيل، وتركوا أهلها ما بين طالب للنجاة وقتيل، وهذا أدى إلى انتقال كثير من أصحاب رؤوس الأموال والعلماء من البصرة إلى الزَّيْبارة، من بينهم فحول العلماء والأدباء والشعراء، مما ساهم في التطور العلمي للمدينة^(١٤) وبذلك يكون خراب البصرة جراء ما أصابها من الوباء، وهجوم الفرس، عامل ازدهار الزَّيْبارة، فكما يقال بالمثل الشعبي: "خراب البصرة عمارة الزَّيْبارة".

- الصارم القرضاب في نحر من سب أكارم الأصحاب، مجموعة شعرية تضمنت أكثر من ألفي بيت.
- كتاب نظم في التاريخ ومدح الإمام أحمد بن حنبل.
- مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، كتاب ضخيم جمع فيه وقائع القرنين الثاني عشر وأول الثالث عشر.
- سبائك العسجد في أخبار أحمد بن رزق الأرشد.
- تاريخ بغداد؟
- نظم مغني اللبيب لان هشام في خمسة آلاف بيت، وهو من أهم كتب قواعد النحو.

وهذه بعض مما ألف، وهي كثيرة جداً، ومفيدة لأنها ليست مجرد نقل، وإنما كتبها من علوم هضمها، ومعارف شربها، فجاءت مؤلفاته بأفكار حرة من معارفه الخاصة، وبمعانيه المبتكرة، وصاغها بأسلوبه الأدبي وجمله البليغة^(١٥).

ثانياً: أهمية كتاب سبائك العسجد

في البداية، يجب الإشارة إلى أن كتاب "سبائك العسجد" في أخبار أحمد بن رزق الأسعد" يتدرج ضمن كتب السيرة الغيرية، حيث حاول من خلاله ابن سند نقل سيرة أحمد بن محمد بن رزق البصري، حيث تتبع حياته منذ ولادته إلى وفاته، فدون أخبار خروجه مع والده من البصرة جراء الوباء الذي ضربها سنة ١٧٧٢م، مروراً بالكويت والاحساء، ووصولاً إلى الزَّيْبارة، كما أورد مرحلة قيادته في الزَّيْبارة، بعد خلافته لأبيه محمد بن رزق، خاصة وأن ابن سند زار الزَّيْبارة في عهد أحمد بن رزق، وأكثر من ذلك، كانت زيارته لها بدعوة منه كما أشرنا لذلك في ترجمة ابن سند.

كما يندرج كتاب "سبائك العسجد ..." ضمن كتب التراجم، إذ قام بتقديم ترجمات لعدد ليس باليسر من علماء الزَّيْبارة والبصرة وبغداد ممن التقاهم، وعاصرهم خلال إقامته أو ترحاله بين المدن التي سكنها. كما أن هذا المؤلف، يندرج ضمنياً، ضمن التاريخ المحلي، حيث قام ابن سند بنقل ما تحصل عليه من أخبار الزَّيْبارة، وعلاقتها مع المناطق المجاورة لها في الاقليم.

رابعاً: علماء الزُّبارة من خلال سبائك العسجد

١/٤- الشيخ علي بن فارس

لم يورد ابن سند، أو غيره ممن اهتم بتعريف علماء ومشاهير الزُّبارة ترجمة وافية وكافية، للشيخ علي بن فارس، لكن هناك اشارات متفرقة في بعض من كتب التراجم، إذ عرفه صاحب كتاب "علماء نجد..." بقوله: "الشيخ علي بن فارس، وآل فارس أسرة من آل أبو رباع من قبيلة عنزة، وأصل بلدهم حريملاء عاصمة بلدان الشعيب من بلدان نجد [...]. ولد المترجم في الزبير - بعد انتقال أسرته إلى العراق وصارت اقامتهم هناك- ونشأ فيه ثم قرأ على علمائه حتى صارت في مصافهم في العلم" (١٥).

لما اشتهر أمره وذاع صيته، دعاه الشيخ أحمد بن رزق إلى الزُّبارة ليجملها بإقامة أمثاله. وفي مكانته العلمية، وقربه من ابن رزق قال ابن سند: "فممن اصطفاها للمجالسة، وارتضاه للمؤانسة، ورآه معدنا لإكسير أسرارها، ومطلعا لشمس أسماره، وصدفة للآلئ أخباره" (١٦). وهذا دليل على قرب مكانة الشيخ علي بن فارس من الشيخ أحمد بن رزق.

وقال في مكارم أخلاقه: "الهمام الأملعي، الامام اللوذعي علي بن فارس، الذي هو في كل فضل فارس، الجاني ثمر الثناء إذا كان لأصوله غارس، [...] من أفياء الأدب أفيح في، ونشر مكارمه فطوى ذكر طي، وبسط موائد تزينها أخلاق..." (١٧).

وقال في مكانته العلمية: "وسبب تفضيله له، وتعاطيه تعظيمه وتبجيله، ما حوّل من النجابة، والظرافة واللبابة، إن ملك ناصية الكتابة، فقد كان فيها الصاحب، أو ابن العميد الكاتب، بلغ من الحكمة غايتها، حتى صار آيتها، سريع الترسل، بديع التأمل، إن أنشأ رسالة، فهي للبلاغة هالة، وبالجملة فهو الكامل في أدبه، [...] والامام في برهانه، صدرا في المجالس، وبدرا للمعاشر والمجالس، نهرا يمدد البحر الزاخر، بالنُّضارِ المنتثر الجوهر" (١٨).

٢/٤- الشيخ عبد العزيز بن موسى

هو الشيخ عبد العزيز بن صالح بن حسين آل موسى، أسرة آل موسى من آل راجح من آل مزروع من بني تميم أهل الروضة، نزحوا من الروضة في سدير إلى الزبير، مروراً بالأحساء التي ولد فيها الشيخ عبد العزيز، وفيها طلب العلم. (١٩) وكان من شيوخه كما ذكرهم ابن سند، "تأدب بالفاضل ابن خُنين، النازل من العلم منزلة الإنسان من العين، [...] ولقي بعده من الأجلاء شيخنا الكردي، حافظ عصره فيما عندي، وإيم الله لم تر عينه نظيره، ولا من يكاد يسير مسيره. [...] وممن أخذ عنه عبد العزيز الفاضل، محمد بن علد اللطيف، ووقعت بينها مراسلة، وإجازات ومساجلة..." (٢٠).

قال ابن سند في قرب الشيخ عبد العزيز بن موسى من أحمد بن رزق: "وأما عبد العزيز، فهو ذو أدب عزيز، وكتابه برز بها أتم تبريز، وبراعة يحتاج لها المجاز والمجيز، كيف لا وقد اتخذه المولى أحمد، صدراً في مجلسه الأنجد، وبدراً في سماء واديه، الممطور بسماء أياديه، وقدمه على جلسائه، وفضله على أعيان نظرائه..." (٢١). قال في مكانته العلمية: "عبد العزيز بن موسى الهجري [...] قرأ الأدب وهو ابن عشر، وبرع فيه حتى ضاع منه النشر، إن نظم فاق من نظم، أو نثر أراك نثر المجرة في الظلم، كم وشح فيه ورشح، كفى في مجازه وصرح..." (٢٢).

قال في وفاته: اختلفت الروايات في تاريخ وفات الشيخ عبد العزيز بن موسى، لذلك أورد ابن سند هذه الروايات بقوله: "توفي المذكور، في عام أرخه، أدب يغور سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م، سقى جدت ضمه، بشآبيب الرحمة" (٢٣). ولما أرخت وفات هذا الامام، بما اسلفته من الكلام، قيل لي أنه قد قضى قبله بعام، فأرخت وفاته ثانياً، مثلياً عليه ولحقه وافياً، فقلت أدركه الردى، في عام أرخه: راغب هدى سنة ١٢٢٢هـ ١٨٠٧م" (٢٤).

٣/٤- الشيخ راشد بن محمد خنين

الشيخ راشد بن محمد بن رشيد بن خنين، وآل خنين أسرة من عائذ، وآل عائذ قبيلة من عبيدة من جنب إحدى القبائل القحطانية، نزحوا من سراة عبيدة إلى جنوبي نجد من زمن بعيد. ولد الشيخ رشد في بلد

وفي وفاته قال: "فما زال يفيد، ويجدد ما درس ويعيد، [...] إلى أن خرج من زجّاره، وبان عن أهله وجاره، إلى البلدة التي هو فيها راشد، وأحمد فيها الزند والساعد، وجف منه العود، وأتى عليه الحمام الموعود، وغُسل بالدموع، وكُفّن بالخشوع، وحملت جنازته الاعناق، وتسابق إلى تلحيده البار والعاق، فالعيون عليه ساكبة، والقلوب برزّه واجبة، والكواكب كاسفة، والرياح عاصفة، الوجوه مغيرة، والآفاق محمرة"^(٣٢). وهذا الرثاء الذي حضي به الشيخ راشد بن محمد راجع إلى مكانة العلمية، ودوره الثقافي في الزبارة.

٤/٤- الشيخ عبد الله الكردي البيتوشي

هو عبد الله بن محمد الكردي البيتوشي، ولد ونشأ في بيتوش التابعة لإقليم سردشت في إقليم كردستان الإيراني، سنة ١١٦١هـ، هاجر في بداية رحلته العلمية إلى بغداد، من ثم انتقل إلى الاحساء لأخذ عن علمائها سنة ١١٧١هـ، وبقي فيها إلى أن أتم تحصيله العلمي، ثم رحلها عنها عائداً إلى مسقط رأسه، إلا أن وفاته كانت في الاحساء بعد أن عاد إليها دون معرفة تاريخ وفاته، وقيل أنه توفي في البصرة.^(٣٣) ووصف ابن سند رحلة البيتوشي العليمة قائلاً: رحل وهو غلام، إلى بغداد والشام، وارتفع له المقام، بلقاء الأولياء والزهاد، وروايته عن العلماء الأنجاد، وبعلو إسناد ألحق به الأحفاد بالأجداد، فاستفاد وأفاد، واستجاد وأجاد، وبحث وحقق، وقرر ودقق [...] حتى صار في الأدب الأول...^(٣٤).

وخلال تنقلاته الكثيرة، زار البيتوشي مدينة الزبار في عهد أحمد بن رزق، وأورد ابن سند في زيارة هذا العالم الفاضل ما نصه "قدم الزبارة بالمدايق المختارة، فحمد بها أحمدها، وملك زمامها، وزهرة كامها، وغرة كرامها، وزبدة أخيارها [...] كيف لا وهو لابس برودها، ومتقلد عقودها..."^(٣٥).

وكان من اهتمام أحمد بن رزق بالبيتوشي ما أورده ابن سند قائلاً: "وأنزله في منازل، هي مطالع لشموس الفضائل، وأنسة في العشي والبرق، بأدباء غرر، وبأماثل أفضل، [...] وسامره بمسامرة، تفوق على الأغاني والمسامرة، وعاشره بظرائف معاشرة، جمع له فيها أثار

الخرج، وفيها نشأ نشأة علمية، حيث أصبح من كبار فقهاء المذهب الحنفي،^(٣٥) يشير إلى ذلك ابن سند بقوله: "تخرج على علماء بلده، وعظماء محته، فشأى في العلوم أعلامها، وتصدرها فدعته إمامها"^(٣٦).

ويعتبر الشيخ راشد م أشهر علماء الزبارة والأحساء في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، إذ قبل وصوله إلى الزبارة، رحل إلى الأحساء، حيث استقبلها علمائها بالحفاوة والإكرام والتعظيم.^(٣٧) فلما أخذ من الأحساء ما أخذ من العلم، وأفاد طلبتها وشيوخها بما عنده من العلوم، رحل إلى الزبارة، ويشير إل ذلك ابن سند بقوله: "فإنه قدم الزبارة، وهي في غاية العمارة، باسمه عن محاسن النضارة، راقلة بأثواب [...] من لف ببرد المروة، وحف برواق الفتوة، وضمته المعالي بمقلها، وعمت أياديها بقبلها، أحمد بن محمد..."^(٣٨).

في قرب الشيخ راشد من أحمد بن رزق قال: "على أن راشد موصول له من أحمد الصلة والعائد، فلقد نشر علمه وقد كان مطويا، وأظهر صيته من بعد ما كان مخفيا، وكلفه بنواله وكان به حفيا، وقدمه على النظائر والأشباه، وبلغه من مآربه منتهاه..."^(٣٩).

وفي ذلك أنشد عثمان بن سند قصيدة جاء في مطلعها:^(٤٠)

ولولا فضل أحمد لم يشع من

فضائل راشد ما قد عنيت

ولكن شاع فضلاً في نزار

بمن بأبي الفواضل قد كنيته

وقال في مكانته العلمية: "قد طابق اسمه مسماه، فما زاغ عن الرشد من اقتفاه، برز في الأقطار النجدية، بروز البدر في الأقطار الفلكية، وبرع في الأحكام الفقهية، حتى أبان عن الدرر، وأغرب في النوادر الل، حتى أبان عن الدرر، وأغرب في النوادر اللوية، حتى قمر فيها ومهر، وأغرب عن المشكلات النحوية، حتى خلناه أبا عمرو -يقصد العالم النحوي اللغوي أبا عمرو بن العلاء من أئمة اللغة والنحو وأحد القراء السبعة- إذا نظر تخرج على علماء بلده، وعظماء محته، فشأى في العلوم أعلامها، وتصدرها فدعته إمامها"^(٤١).

أحمد بن عبد اللطيف من مكانة علمية، وفي ذلك يقول: "قد قرأ العلوم اللغوية، حتى صار فيها القاموس، والحكمة حتى أذعن له جالينوس، والنحوية حتى لحق ابن مالك، والحدسثة حتى كأنه مالك، والفقهية حتى انفرد عن المشارك، والبيان والمعاني، حتى برز على الجرجاني، وعني بعلو الإسناد حتى لحق الأجداد بالأحفاد، وبعلم الأعداد، حتى أقرت له لو وجدوا الأنداد..."^(٤٣).

وجاء الزَّيَّارة زمن أحمد ابن رزق، وكانت في وقتها "ذات نضارة ووجوه ناضرة [...] ممدودة من أحمد بجداول، ليس لها إلا أكف العفاة سواحل"^(٤٤). وفيها أكرمه وأحسن ضيافته وعلى الناس قدمه، وفي هذا أورد ابن سند قصيدة لهذا الشيخ يذكر فيها ما لاقاه من ابن رزق من الكرم، وذلك بعدما غادر الزَّيَّارة ونزل في قطر عمان:^(٤٥)

وقائلة أصبحت في الناس مُثريا
متى جئتُ قُطْرًا أمطرتك غمائمُ
فما لك لا تشني على كل باذل
بغرِّ العطايا ساعفتكَ مراحمُ
أقولُ لها إن الجدا يبعث الجدا
دعيني فما أعطوه أيضاً مكارمُ
وها أنا ذا أثني عليه لأنني
أرى كلَّ جود جادني فهو ساجمُ
وإني وإن شطَّت بي الدار لم أزلُ
أسامرُهُ في خاطري وأنادمُ
سقى المزن هاتيكَ الرياض وإن تكنْ
سَقَّتْهُنَّ بالدرِّ الثمين عياله

ثم لما تافت نفسه إلى الزَّيَّارة وأهلها بعد أن غادرها بسبع سنين، زارها مرة ثانية، وأرخ ابن سند هذه الزيارة بقوله، "ثم رجع لزمام العود ثانياً، وزيارتها ثانياً، فاجتمع في مجاز هذا المقصد أحمد، بالهمام القمقام أحمد بن محمد، فأجزل عطاءه لما أجزل ثناءه، وأحلّه في بحبوحة داره [...] ثم بعد هذه المرافقة فارقه، وأجفأه عليه دافقة، ومهجته إلى لقاءه وامقة..."^(٤٦). ومن مكانته هذه عند أحمد ابن رزق، أورد ابن سند تأثر هذا الأخير لما وصلته خبر وفاته في الديار العمانية، لما كان

مصر والقاهرة، فهو وإن وفد عليه، فقد شاطرته بما في يديه..."^(٣٦).

وفي مكانته العلية أورد ابن سند بعد ما ذكر رحلته العلمية في بلاد الشام كما أسلف الذكر، قائلاً: "تأدب بالفضلاء، وتهذب بالنبلاء، وكتب فملك من القلم الناصية، وصار فيه بمنزلة السنان من العالية، ووطب فأقرت له مصاقع البادية، وألقت إليه مسائل النحوية الأعنية، فاجتتى زهر رياضها المغنة [...] إن بحث في أدب البحث والمناظر، كان بغزارة العلم ناظر [...] أو في الحكمة فهو فيها الأمثال السائرة"^(٣٧)، وقال فيه أيضاً "ولو رآه التفازاني بالنناظر، لقال إن هو إلا عبد القاهر، أو السكاكي والخطيب [...] بدع في علم الميزان، حتى غدا ابن سينا في البرهان..."^(٣٨).

ولما اعتزم البيتوشي الرحيل عن الزَّيَّارة قاصدا البصرة، عز ذلك عند أحمد بن رزق، وفي هذا أورد ابن سند قائلاً: "ثم انتقل عنه راضياً، وإن كان لفراقه باكياً، ورمّت به الأقدار، على أجنحة الأسفار، إلى قبة الإسلام، ومطعن سروج الكرام، ومعدن الأفاضل الأعلام، البصرة العمرية..."^(٣٩). واستمرت علاقة أحمد بن رزق بالبيتوشي وأهله حتى بعد وفاة هذا الأخير، إذ "لما بلغ أحمدا نعيه، قال أنا على ذريته وصيه، وأمدهم من بعده بأعزر عطيه..."^(٤٠).

٥/٤- الشيخ محمد بن أحمد بن عبد اللطف الشافعي الأحسائي

لم تحظ شخصية محمد بن عبد اللطيف الشافعي، بالاهتمام الكافي من طرف الترجمين، ولم يورد في تعريفها غير أنه، العلامة الشيخ محمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي، عالم من أعلام الشافعية المشهورين في زمانه، سكن مدينة الهفوف الكويتية بالاحساء،^(٤١) ولم يعرف زمن ولادته. أورد ابن يند في عسجده أنه أخذ في بداية مساره العلمي عن والده، ومن ثم جال الأمصار في الأخذ عن علماء، ذكر منهم ابن سند الشيخ عبد العزيز بن موسى الهاجري.^(٤٢)

وإن كانت بداية حياته لم توري اهتمام المصادر التي أرخت للعلماء في منطقة الخليج العربي، فقد اهتم ابن سند بإظهار ما كانت عليه شخصية الشيخ محمد بن

أخباره، بقوله "وبالجملة ففرائد أفكاره، وخرائد أنظاره، هي حورٌ مقصوراتٌ حسان، لم يطمئنَّ إنس قبله ولا جان، ومحاسن آثاره، ونوادير أخباره، متبسّمات عن ثغور الإحسان، منظورات بكل إنسان، منشورات بكل لسان، بضيق نطاق الأزمنة، عن بعض ما أبداه، وتكلُّ الألسنة، عن عدٍّ أيسر مزياءه..."^(٥٣).

٧/٤- الشيخ ناصر بن سليمان بن سحيم

الشيخ ناصر بن سليمان بن محمد بن أحمد بن علي سَحِيم، من فخذ الحبلان من قبيلة عنزة الشهيرة، إحدى قبائل ربيعة، ولد في بلدة الزبير عام ١١٧٧، وقرأ على علمائها،^(٥٤) من ثم انتقل إلى الأحساء، وأخذ عن علمائها علوم مختلفة، حيث أخذ فن الأصول عن محمد بن عبد الله بن فيروز، وابنه عبد الوهاب، والحساب عن وابن سلوم، وأخذ عن الشيخ الكردي النحو والقرآن....^(٥٥) فلما بلغ مقصد الشيخ ناصر من العلوم رجع بلده الزَّبَّارة، وشرع يدرِّس ويفيد، وكان عالماً ورعاً، له شهرة وذكر عال، لما هو عليه من العلم والتقوى،^(٥٦) ما جعل اقرانه من العلماء يمدحونه بالنظم والنثر، وفيه أنشد ابن سند قائلاً:^(٥٧)

حَبْرٌ إِذَا وَشَى بُرْدَ أَلْوَكَةٍ
أَمَسَتْ عَلَى كُلِّ الْمَالِكِ فَآخِرَةً
وَإِذَا أَبَانَ وَجْهَهُ بِحَثِّ غَامُضٍ
نُظِرَتْ بِالْحَاضِ بِبَصَائِرِ سَافِرَةٍ
وَإِذَا جَرَى ذِكْرُ الْحَدِيثِ وَأَهْلُهُ
فَهُوَ الَّذِي بِالْحِفْظِ قَيِّدٌ نَافِرَةٍ
وَإِذَا الْأَصُولُ تَبَرَّقَعَتْ أَبْحَاثُهُ
فَسَرَّ الْبِرَاقِعَ عَنْ وَجْهِهِ وَافِرَةٍ
فَكَأَنَّمَا جَمَعَ الْجَوَامِعُ قَلْبُهُ
إِنْ قَامَ بِالتَّحْرِيرِ بِطَلْبٍ نَادِرَةٍ

وقال عليه لما عاصره: "صحبت في الصغر، وذاكرته فألفيته نسيم السحر، قبل خدَّ الزهر، فعادت عليَّ بركته، وشملتني دعوته..."^(٥٨). إلى أن قال: وبالجملة فهو الصدر في أصحابه، والنحر لقلادة الفضل وسخابه، والسماء لكواكب أدبه، إن اختصر فإليه المنتهى والغاية..."^(٥٩).

قاصدا بلاده، قائلاً: "وحين بلغ أحمد، نعيُّ الهمام محمد، سَحَّتْ عليه مآفيتها، ورثى له من فرط أساه معاديه، وودَّ لو قُبِلَ الفداء أن يفديه، فلو لا شدة صبره وتأسّيه، لقضى من شدة الجزع..."^(٤٧).

٦/٤- الحاج عثمان بن الحاج سليمان بن

داود البصري

هو عثمان بن سليمان بن داود البصري داراً، القرشي التَّيْمِيُّ نَسَبَةً ونجاراً، ولد في البصرة في حدود سنة ١١٧٠ هـ، وفيها نشأ نشأة علمية.^(٤٨) حتى صار فيها من أعلام الأدب، حيث كانت البصرة بالنسبة له "مطلع نير شمس، ومربع وردة أنسه، فقرأ فيها جملة من الأدب، ونظم الشعر كما هي سجية العرب، وكتبَ ففاخر به من كتب، وبرع في فنّي النظم والنثر، براعة سلمها له أهل العصر [...] وأبز بها نبلة، حتى لم نر في صقعِه مثله..."^(٤٩). ولم يذكر ابن سند الشيوخ الذين تتلمذ عليهم، وأخذ عنهم هذا العلوم.

وأورد ابن سند في علاقته مع الحاج عثمان، ما نصه: "له النثر الرائقُ الحسن، والشعر الذي لا يدرك شأوه الحسن، تعرّف لي ببذله، وقابل جهلي بعقله، قطعته فوصل، وملتُ عنه فعدل، وأغظبته فما أغضب، وبعدت عنه فقرب، وعاشرته فما ألدَّ وأطيب، وسامرته فما ألطف وأنسب..."^(٥٠).

وفي محاسنه وحسن خلقه أنشد قائلاً:^(٥١)

صاحبه وبلوته فوجدته
أبدأ إذا طاش المجلس موقراً
وإذا رأى ضيفاً أَلَمْ ترنحت
أعطافه طرباً وأنعم بالقرى

ونزل في الزَّبَّارة، وما نزل، بل ارتفع بالفضل وكمل، ووجد فيها الشيخ العالم محمد بن عبد اللطيف الشافعي، فأسطحبه معه في رحلته إلى الحج، فحصلت له معه إجازات، هي في البلاغة والفصاحة مجازات، فحسنت بينهما المطابقة.^(٥٢)

لم تكن المعلومات التي أوردها ابن سند بخصوصه كافية لتحديد مدى قرب عثمان بن سليمان من أحمد بن رزق، وكذلك مكانته العلمية، حيث نجده قد لخص

٩/٤- الحاج بكر لؤلؤ البصري القطري الزباري

لم تخصص كتب الأنساب والتراجم حيزاً كبيراً للمترجم له، حيث ما ورد عنه، في تعريف بسيط باسمه وبعض صفاته، وفيه جاء أنه بكر بن أحمد البصري القطري الزباري، نشأة في البصرة، مجبولاً على حسن فطرة^(٦٨). قرأ القرآن إلى أن أتقنه أتم الاتقان، ثم انصرف للاشتغال في التجارة، محققاً فيها أرباح طائلة، استثمرها في تعمير المساجد، وإرسال أقاربه ومعارف إلى الحج وغير ذلك من الأعمال التي عادت بالنفـه على محيطه^(٦٩).

وفي كرمه ودمائة أخلاقه، مدحه ابن سند بقصيدة قال فيها:^(٧٠)

ذرة قد سمح الدهر بها
عظمت عن أن توازي بالقيم
ذرة تبسم تغراً عن ندى
ما آتاه سائل إلا سجم
حرّم الجود عليه قول لا
وقضى حتماً عليه بنعم

جاء الزَّيْبارة، وسكنها وهي في أزهى مراحلها، "فسلك فيها العدل، وأوسع فيها البذل، وعظمت له فيها الرتبة، إذ جلت له العطية والقربة، وأعاد فيها نضارة الإسلام، [...] وحسن لها فيها الآثار، وصححت له أخبار الافتخار، وارتفع له فيها العرنين، وانقطع له فيها القرنين"^(٧١). وبقي على هذا الحال حتى توفي سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م^(٧٢).

خاتمة

وفي الختام، يتضح لدارس كتاب سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد لابن سند البصري، ما كانت عليه الزَّيْبارة من الازدهار الثقافي والعلمي، إذ كانت الزَّيْبارة، نظراً لموقعها الاستراتيجي، ومكانتها الاقتصادية والسياسية، حاضنة للعلماء في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي. الذين ساهموا، بطريقة أو بأخرى في إحياء الحياة الثقافية والعلمية بالمدينة.

نزل الزَّيْبارة، بعدما تاه في الأمصار، وزار العديد من البلدان العربية بغية تحصيل العلم، فمنها من استقبلته ومنها من نبذته، وبقي على هذا الحال إلى أن نزل مع رفيق له الزَّيْبارة زمن أحمد بن رزق، "فزاد إكرامهما وجدد، وأبدلتهما من الدورِ الغرف، ورفعها بعد الانخفاض إلى الشرف، ووصلهما بصلات، وعوائدها لم تضمر، وأمدتهما بتبجيلات قلأئدها النضار والجوهر، فما زالا على هذا الاكرام، حتى نقلتهما الايام، إلى البصرة قبة الإسلام"^(٦٠).

وفي مكانة الشيخ العلمية، يذكر ابن سند ما شـهده من نبوغ المترجم له في العلوم، إذ يقول "وقد حضرتُ درسه مراراً، فوجدته بحراً زاخراً، يعتقد معتقد السلف، ولا يتعرض للسادة الخلف، لم يزل جلس داره، ملازماً لسكينته ووقاره، [...] مباركاً في إirاده وإصداره..."^(٦١). كما تمكن من "العلوم النقلية والعقلية، وعنى بجمع الشوارد الأدبية، [...] وعرضت عليه المشكلات الحديثية، فأهتزت به للحديث رياض، وطار صيته في الأمصار واستفاض..."^(٦٢).

٨/٤- الشيخ عبد الله بن عثمان بن جامع

لم يورد ابن سند، ترجمة كافية وافية تعرف بعبد الله بن عثمان، ومما جاء فيه عند ابن سند وغيره، أنه هو عبد الله ابن عثمان بن عبد الله بن جمعة بن جامع بن عبد ربه، الأنصاري الخزرجي نسباً^(٦٣). البليغ في المحاضر والمجامع، والمهيب بالأبصار والمسامع، قد برع في المعارف وهو غلام، ورام المعالي فأدركها قبل الفطام، أخذ النحو عن الشيخ الكردي، وقال فيه هو أجل من قرأ عني، وروى زنده من زندي، وأخذ عن ابن فيروز ونجله، علمي الفقه وأصله، وعن ابن خنين، وغيرهم من علماء البحرين^(٦٤).

ارتحل إلى مكة والمدينة، وهناك درس الفقه والآداب والمواريث والحساب على مشايخ الحرمين، وكان قوي الذكاء في المناظرة^(٦٥). سفار إلى أشام، واتصل بعلمائها كذلك، وتحدث في علوم القرآن^(٦٦). وكان في قربه من أحمد ابن رزق، قول ابن سند المختصر: "ومن حبيه في إعلانه وإسراره، ومجاذبيه أسماره، وملازميه في ليله ونهاره..."^(٦٧).

الإحالات المرجعية:

- (٢٠) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٤٧ - ١٤٨.
- (٢١) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٤٨ - ١٤٩.
- (٢٢) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٤٦.
- (٢٣) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٤٩.
- (٢٤) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٥١.
- (٢٥) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٨٢ - ١٨٣.
- (٢٦) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٥١.
- (٢٧) علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٥٠.
- (٢٨) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٥٢.
- (٢٩) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٥٨.
- (٣٠) انظر: عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٥٩.
- (٣١) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٥٩.
- (٣٢) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٦١.
- (٣٣) علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٥٤.
- (٣٤) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٦٦ و ١٦٧.
- (٣٥) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٧٠.
- (٣٦) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٧٠ و ١٧١.
- (٣٧) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٦٧.
- (٣٨) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٦٧.
- (٣٩) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٧٣.
- (٤٠) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٧٧.
- (٤١) علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٥٨.
- (٤٢) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٨٤.
- وانظر: علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٥٨.
- (٤٣) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٨٤.
- (٤٤) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٩٣.
- (٤٥) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٩٥ و ١٩٦.
- (٤٦) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٩٦ و ١٩٧.
- (٤٧) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ٢٠١.
- (٤٨) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ٢٠٣.
- (٤٩) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ٢٠٣.
- (٥٠) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ٢٠٦ و ٢٠٧.
- (٥١) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ٢٠٧.

- (١) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، (الرياض-المملكة العربية السعودية، دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ) ج ٥، ص ١٤٣.
- (٢) اختلفت الروايات في تحديد مكان ولادته بين فيلحة بالكويت والزيبر في العراق. انظر: علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، (الدوحة - قطر، دار كتار للنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٩م)، ص ٩٥.
- (٣) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزف الأسعد**، تحقيق: حسن بن محمد بن علي آل ثاني، (الدوحة - قطر، مركز حسن بن محمد بن علي آل ثاني للدراسات التاريخية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧)، ص ١١.
- (٤) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٤٦.
- (٥) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٢.
- (٦) علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٩٥.
- (٧) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٤٤.
- (٨) انظر: علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٩٥ - ٩٧. وعبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٤٤ - ١٤٥. وعثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٢ - ١٣.
- (٩) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٤٥.
- (١٠) انظر: عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٥٥. وعلي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٩٧.
- (١١) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٤٦.
- (١٢) علي بن عبد الله فياض، **الأمراض والأوبئة في قطر والخليج العربي**، تقديم علي عفيفي، (الدوحة، وزارة الثقافة، ٢٠٢٢)، ص ٣٨.
- (١٣) أحمد مصطفى أبو حكمة، **تاريخ الكويت الحديث ١١٦٣-١٣٨٥هـ/١٧٥٠-١٩٦٥م**، (ذات السلاسل، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م)، ص ٧٣.
- (١٤) علي بن عبد الله الفيض، **العالم الجليل الشيخ أحمد بن راشد بن جمعة المريخي من علماء الزبارة**، مرجع سابق، ص ٢٨.
- (١٥) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٤٤.
- (١٦) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٤٢.
- (١٧) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٤٣.
- (١٨) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد**، ...، مصدر سابق، ص ١٤٤.
- (١٩) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٧٩.

- (٥٢) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢٠٧ و ٢٠٨.
- (٥٣) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢٠٨.
- (٥٤) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٦، ص ٤٦٥.
- (٥٥) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١١.
- (٥٦) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٦، ص ٤٦٦.
- (٥٧) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٠.
- (٥٨) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١١.
- (٥٩) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٢.
- (٦٠) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٣.
- (٦١) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٣ و ٢١٤.
- (٦٢) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٠.
- (٦٣) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٤.
- ومحمد بن ناصر، معجم أسر بريد، المجلد ١١، جامع الكتب الإسلامية، ص ١٣٥. وعبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٠٩.
- (٦٤) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٤ و ٢١٥.
- (٦٥) محمد بن ناصر، معجم أسر بريد، المجلد ١١، مرجع سابق، ص ١٣٦.
- (٦٦) محمد بن ناصر، معجم أسر بريد، المجلد ١١، مرجع سابق، ص ١٣٦.
- (٦٧) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٤.
- (٦٨) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٨.
- (٦٩) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٨ و ٢١٩.
- (٧٠) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢١٩.
- (٧١) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ٢٢١.
- (٧٢) عثمان بن سند البصري، **سبائك العسجد ...**، مصدر سابق، ص ١٢٢.

الوعظ السياسي من خلال رسالة الخدوي إسماعيل إلى أمير عسير محمد بن عايض ١٤ ربيع الأول ١٢٨٢هـ الموافق ٣٠ يوليو ١٨٦٥م دراسة وثائقية

د. بكيل محمد الكليبي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
قسم التاريخ والعلوم السياسية
جامعة ذمار – الجمهورية اليمنية



ملخص

تهدف الدراسة الراهنة إلى تحقيق وثيقة رسالة الخدوي إسماعيل إلى أمير عسير محمد بن عايض (١٤ ربيع الأول ١٢٨٢هـ / ٣٠ يوليو ١٨٦٥م)، وتسلط الضوء على أوضاع عسير، واقتضت هذه الدراسة استخدام منهج البحث التاريخي وصفاً وتحليلاً لمحتوى الوثيقة، واحتوت الدراسة على مقدمة وخاتمة وأربعة محاور، تناولت المقدمة مشكلة الدراسة وأهميتها وأهدافها، وتضمن المحور الأول نص الوثيقة ونقدها، وخصص المحور الثاني للتعريف برموز الوثيقة ومصطلحاتها في حين تناول المحور الثالث السياق السياسي للوثيقة، أما المحور الرابع والأخير تناول التحليل التاريخي لمضمون الوثيقة، واختتمت الدراسة بخاتمة تضمنت جملة من النتائج المتعلقة بالموضوع، ومن أبرزها التعريف برموز الوثيقة ومصطلحاتها التي وردت في مضمون الوثيقة، وكشف جوانب الغموض فيها.

كلمات مفتاحية:

رسالة؛ خدوي؛ سلطان؛ أمير؛ جمهورية مصر العربية؛ إسماعيل؛ عبد العزيز؛ عايض

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٦ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.453738

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بكيل محمد الكليبي، "الوعظ السياسي من خلال رسالة الخدوي إسماعيل إلى أمير عسير محمد بن عايض ١٤ ربيع الأول ١٢٨٢هـ الموافق ٣٠ يوليو ١٨٦٥م: دراسة وثائقية"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥، ص ١٠٣ - ١١٥.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: bekel2030@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان التاريخية للدراسات العلمية والبحوثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تُعَدُّ الوثائق التاريخية من المصادر المهمة التي تسلط الضوء على الأحداث التي عاصرها كاتب الوثيقة، وتحتوي على كم معرفي من المعلومات التاريخية التي تناولتها، وهذه الأحداث التي رددتها بها الوثيقة تعد بطبيعة الحال معلومات جديدة لم يسبق للباحثين التطرق لها، في دراساتهم، وهذا يمنح الوثيقة قيمة مميزة، كونها مصدر علمي موثوق للمعلومات التاريخية الجديدة، إذ تمنح الباحث فرصة لمعالجة قيمة في معالجة الفجوات البحثية التي يعثرها النقص نتيجة انعدام المعلومات الإضافية عن بعض الأحداث والوقائع التاريخية التي يكتنفها الغموض، ويعتريها جانب النقص في المعلومات التاريخية التي تحتوي تفاصيل دقيقة يحتاجها الباحثين لرصد دراساتهم بها، وإخراجها بطريقة علمية رصينة، من خلال استخدام الوثائق التاريخية الجديدة وغير المنشورة التي تمنح الدراسة قيمة متميزة نتيجة المعلومات الجديدة التي وفرتها الوثيقة التاريخية، إذ تمنح الوثيقة الباحثين اكتشاف أحداث ومسارات تاريخية جديدة لم يتطرق إليها الباحثين من قبل نتيجة انعدام المعلومات وشحة في موضوع ما.

تساهم الوثائق التاريخية على اختلاف مصادرها وأنواعها، في منح الباحثين من الوقوف العلمي والموضوعي في معالجة بعض الأحداث التاريخية التي كثر التصحيف والتزييف في تناولاتها، لاسيما أن الوثيقة تمنح الباحث الدليل العلمي من خلال وقوفه على معطيات تاريخية جديدة استنبطها من وراء إجراء عملية التحليل العلمي لمضمون الوثيقة، ونقدها بأسلوب علمي منهجي حتى يتمكن من الاستفادة المعلوماتية التي تختزنها، وهذا لا يمكن أن يقوم به إلا باحث مختص ومتمرس لاستنباط المعلومات من خلال تحليل المضمون وتتبع سير الأحداث الذي تختزنها الوثيقة بين سطورها، كي يتمكن الباحث الإجابة الموضوعية عن الأحداث التي اكتنفها اللبس والزيغ، باعتبار أن الوثيقة مستند رسمي يقدم كم معرفي ذو قيمة تاريخية كبيرة، من خلال عملية

تحقيق رصينة لمضمون الوثيقة وتحليلها وقراءة افكارها حتى يتسنى للباحث استخدامها بموضوعية.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة أنها تشكل إضافة نوعية جديدة ومتخصصة، لرصد المكتبة اليمنية والعربية بدراسة تاريخية جديدة كون الوثيقة تحقق لأول مرة.

مشكلة الدراسة

تضمنت الدراسة قيام الباحث بتحقيق وثيقة تاريخية رسالة الخديوي إسماعيل لأمر عسير محمد بن عايض، وإثارة جملة من الأسئلة حول أوضاع عسير وأسباب تدخل الخديوي إسماعيل؟ وموقف الدولة العثمانية من ذلك؟

أهداف الدراسة

- تهدف الدراسة إلى نقل مضمون الوثيقة من الخط الذي رسمت به إلى الخط العربي المعروف اليوم، ونقده بأسلوب علمي رصين.
- التعرف على رموز الوثيقة ومصطلحاتها التي وردت في سياق مضمونها الذي تناولته في ثناياها.
- توضيح السياق السياسي الذي تناولته الوثيقة.
- تفسير المضمون التاريخي للوثيقة وتحليله بطريقة علمية منهجية.

منهج الدراسة

استخدم الباحث منهج البحث العلمي التاريخي لتحقيق الوثيقة وتحليلها وتوصيف مضمونها وقراءة افكارها.

محاور الدراسة

تضمنت الدراسة المحاور الآتية: المقدمة: تناولت أهمية الدراسة ومشكلتها وأهدافها. المحور الأول: نص الوثيقة ونقدها. المحور الثاني: التعريف برموز الوثيقة ومصطلحاتها. المحور الثالث: السياق السياسي للوثيقة. المحور الرابع: التحليل التاريخي للوثيقة. الخاتمة: تضمنت النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

أولاً: النص الوثيقة ونقدها

١/١- النص الحرفي للوثيقة

"بسم الله الرحمن الرحيم....

من خديو مصر إلى صاحب المجد المنيع والشرف الرفيع الهمام الشهير محمد بن عائض أمير عسير دام في امن الملك الكبير...

الحمد لله المجيب السميع الوالي المتعالي الرفيع والصلاة على النبي الكريم الشفيع وعلى اله واصحابه الذين اطاعوا اوامر الله ورسوله واولي الامر فاحرزوا بذلك اجر المطيع وبعد فاننا معاشر المسلمين كلانا تجمعنا اخوة الديانة المحمدية وتضمننا كلمة التوحيد مع اختلاف اللسان والطبائع البشرية فيجب علينا الاتحاد آراءً وقوى ولا تتفرق كلمتنا باتباع الهوى فمن المعلوم وبمقتضى نص كتاب الله العزيز وجوب الانقياد لأمر امام اتفق اكثر المسلمين على خلافته لتكون الكلمة واحدة والقلوب متفقة متحدة فهذا عين السلامة لجميع المسلمين وصلاح الأمة المحمدية على اليقين فمن خرج من دائرة الاتحاد بسبب من الاسباب فما يوجب التحالف والتضاد فالواجب عليه الرجوع إلى الانقياد والاذعان وان لا يتمادى في العصيان فأن هذا مما يجب على من خرج من الطاعة الندامة الزائدة ويوجب اشغال العساكر الإسلامية في سفك دماء المسلمين بلا فائدة وان من مقتضيات ديانتنا ان ينصح بعضنا بعضاً بما تقتضيه الاخوة والصداقة وان نحفظ دمائنا من السفك والاراقة فبناءً على ما ذكرنا اقتضى رأينا ان نكون من الناصحين لحضرتكم لانا بسبب حبنا ديانتنا الشريفة المقرونة بالعرز والتأييد ومودتنا لجميع الامم الإسلامية التي تجمعها كلمة التوحيد لا نريد وقوع التفرق بينهم ولا نجوز حصول المخالفة بين كلمتهم فمرادنا الإصلاح بين جمع التوحيد والأيمان بأن لا يتصف احد منا بصفة العصيان والطغيان بل تكون يداً واحدة وقوة مجتمعة وسطوة كاسرة قامعة على من يريد السوء بأهل الاسلام من الاعداء اللثام ففرض على الموحدين جميعاً ان يكونوا اخوانا وان يخلصوا بينهم مودة ورضوانا وان يطيعوا أمير المؤمنين وخليفة الرسول الامين فان قبلتم نصيحتنا ورجعتم للطاعة والانقياد ودخلتم زمرة الاتحاد فنكون

نحن واسطة بين سلطاننا الاعظم ومولانا الافخم وبين حضرتكم بما يكون خيراً لكم في الدنيا والاخرة واني المحب لكم ولبيبتكم لأنني احب عمار بيوت المجد والشرف على الدوام بان تبقى مفتوحة مؤبدة مدى الايام ولا اريد لها الخراب والانهدام فان قبلتم النصح واردتم الخير والنجح فنقوم بالشفاعة لكم إلى مولانا السلطان في العفو عنما فرط منكم من الاغوا النفساني وبأصدر فرمان سلطاني بان تتركوا غامض وزهران وحلي ومعقص للأيالة الحجازية وتضم قبائل بالقرن وشمران وبيشة إلى عسير وتسمي كلها بالمتصرفية العزيزية منسوبة إلى الشريف السلطاني وتكونوا انتم أميراً عليها بشرط ان تكونوا تابعين للدولة العلية بأداء ما يقرر عليكم من المرتبات كما ان ذلك من مقتضيات التابعية وان تكون الطرق والسبل آمنة للعابرين وابناء السبيل وان لا يحصل عدوان وتسلط على احد بالنهب والسلب ويعطى لكم رتبة أمير الامرا بعنوان باشا وتكونوا انتم باشا متصرف عسير ولواحقها التي تسمى العزيزية واني متكفل في اعطاء ما ذكرناه من طرف مولانا السلطان دام بقاء فتلك منه عظيمه وعناية جسيمة فالذي ارى واعتقد انكم لا تخالفون رأينا وتقبلون نصيحتنا فان فيه خيراً لكم وحسن العاقبة وهو ولي لكم من الاصرار على المخالفات المتعاقبة وما أريد إلا الإصلاح واتفاق المسلمين على الخير والصلاح وإذا لم تقبلوا هذه النصيحة الخيرية في الدين وتصديتم للمحاربة وارقاه دماء الموحدين وهو أشد نكال واعظم وبال فعند ذلك ينقلب الامر إلى العداوة الكبرى فتكونوا انتم السبب في سوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القاهرة إلى تلك البقاع وخراب تلك الديار والرباع وسفك الدماء المحقونة واضاعة الحقوق المصونة فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة فإنه يعظم الخطب ويشد الكرب بعد الميل إلى نزغ الشيطان واشهار نزع طاعة السلطان ولا ينزل النكال الاكبر الا على من طغى واستكبر وعتا وتجبر واذا اذعنتم لما القينا اليكم من النصيحة وحسن المراد فتدوم بيننا في المستقبل الاخوة والوداد واني اعلم جيداً انكم تميلون إلى طاعة السلطان ولا ترضون بارتكاب الاثم والعدوان فإنه لا يحسن من مثل الأمير وقوع أمر ينشأ منه للمسلمين الشر والتدمير، بل في ظني انكم

- اهتمت الوثيقة بالإشارة إلى أهمية الوحدة بين الشعوب الإسلامية، وحقق دماء المسلمين.
- تناولت الوثيقة ضرورة الانقياد والطاعة تحت لواء السلطان العثماني باعتباره يشكل اجماع الأمة الإسلامية.
- تناولت الوثيقة الادعاء بان السلطان العثماني يمثل خليفة رسول الله اذ يبدوا ان هذا الادعاء له مبرراته المصلحية ذات الابعاد السياسية.
- وردت في الوثيقة عبارات التبجيل والتفخيم للدولة العثمانية والسلطان.
- أشارت الوثيقة إلى وجود تنافس سياسي واضح بين أمير عسير وشريف مكة المكرمة اذ بينت وجود حالة من الشك والريبة المتبادلة بينهما.

ثانياً: التعريف برموز الوثيقة بمصطلحاتها

تناولت الوثيقة العديد من الرموز والدلالات على النحو التالي:

خديو مصر: هو الخديوي إسماعيل (١٨٣٠-١٨٩٥م)، بن ابراهيم بن محمد علي باشا تولى حكم ولاية مصر عام ١٨٦٣م، وسار على نهج جده محمد علي باشا في تحديث ولاية مصر والاستقلال بها عن الادارة العثمانية لكن عن طريق دفع الرشاي للشخصيات العثمانية المتنفذة في العاصمة اسطنبول وحصل بذلك على لقب خديوي مصر، وكان اهم عمل قام به افتتاح قناة السويس التي ربطت البحر الاحمر بالبحر المتوسط، وحصر ولاية مصر بين ابنائه، كما قام ببناء دار الكتب المصرية عام ١٨٧٠م، وعقد معاهدة مع بريطانيا لمنع تجارة الرقيق عام ١٨٧٧م، وعزل من منصبه بضغط مباشر من بريطانيا وفرنسا، وغادر القاهرة إلى العاصمة اسطنبول، وتوفى بها ونقل جثمانه إلى القاهرة ودفن بها^(٢).

محمد بن عايض: هو ثاني امراء آل عايض في عسير ويعد اول امراء عسير يتولى الامارة بالوراثة بعد وفاة والدة عايض بن مرعي عام ١٨٥٦م، ومنذ الوهلة الاولى لتوليته امارة عسير واجه الأمير محمد بن عايض ظروف سياسية صعبة نتيجة الخلاف مع الاشراف وبعض

تحترزون من جانب شريف مكة المكرمة في بعض الامور لما عسى انكم تعتقدون انه لا يراعي نفعتكم فيما هو فيه مأمور فأني اعطي لكم الامان واتحمل على الضمان بإيفاء ما حررت لكم من طرف السلطان ان قبلتم النصيحة ورجعتم إلى الطاعة الصحيحة فأني التزمت التوسط في اتمام هذا الامر الخطير والله ميسر كل عسير وتكفلت ايضاً بأن لا يلحق بكم من طرف حضرت الشريف ضيم ولا باس بل تكونوا آمنين في ظل السلطان من كل الناس ما دتم مراعين الشروط المذكورة بالتمام والسلام ختام ١٤ ربيع الاول ١٢٨٢هـ^(١).

٢/١- النقد العلمي للوثيقة

١- (٢/١) النقد الظاهري للوثيقة

يتضمن التالي:

- تحمل الوثيقة الطابع الرسمي كونها تحمل الاعتبار الرسمي لمسلها.
- كتبت الوثيقة في ورقة بيضاء
- مصدر الوثيقة الارشيف العثماني
- الشكل الخارجي للوثيقة سليم
- كتبت الوثيقة بلغة عربية سليمة وواضحة حيث تميزت الكتابة من اعلى الوثيقة بشكل منظم ومستقيم، وفي اسفلها اصبحت السطور غير مستقيمة وبلغ عدد سطورها ٢٣ سطر كتبت في نصف صفحة.
- لون الحبر اسود

٢- (٢/١) النقد الباطني للوثيقة

تضمن التالي:

- استخدم كاتب الوثيقة اللغة العربية في تدوين الرسالة وطرزها بعبارة والفاظ غلب عليها طابع السجع.
- تشير مضمون الوثيقة إلى النصح السياسي المشفوع بالتهديد والوعيد.
- خاطبت الوثيقة أمير عسير محمد بن عايض الذي اظهر تمرده على الدولة العثمانية.
- حملت الوثيقة مضامين سياسية تحتوي على عبارات الترغيب تارة والترهيب تارة اخرى.

وأول من تلقب بذلك الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(١٣).

واسطة: يقصد بها الوساطة بين السلطان العثماني وأمير عسير.

لبيتكم: يقصد منزل الأمير محمد بن عايض في إمارة عسير.

الشفاعة: كلام الشفيع لملك في حاجة سألها لغيره، ويقال: شفع إليه في معنى طلب إليه، والشافع الطالب لغيره يتشفع به، إلى المطلوب، فيقال: تشفعت بفلان إلى فلان، فشفعني فيه^(١٤).

مولانا: كل من ولي امر او قام به^(١٥).

السلطان: هو السلطان عبدالعزيز خان بن السلطان محمود الثاني ولد في ١٤ شعبان عام ١٢٥٤هـ الموافق ٨ فبراير ١٨٣٠م، تولى عرش الدولة العثمانية، في ٧ يونيو عام ١٨٦١م، بعد وفاة أخيه السلطان عبد المجيد الثاني، حاول هذا السلطان منذ الوهلة الأولى لتوليته الدولة العثمانية السير على خطى أسلافه من السلاطين في اصلاح الاحوال العامة ومعاملة جميع الرعايا على السواء بدون النظر إلى جنسهم ولونهم أو دينهم، حتى لا يكون للدول الأوروبية سبيل في التدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة طلب المساواة بين الرعايا، تميز السلطان عبد العزيز عن غيره من السلاطين العثمانيين انه حاول تفقد احوال الدولة العثمانية وولاياتها اذ زار مصر في ١٤ شوال عام ١٢٧٩هـ الموافق ١٨٦٢م، وطاف مدن مصر بصحبة الخديوي إسماعيل والي مصر، تميز عهده بإصدار العديد من القوانين كقانون المطبوعات، وقانون الولايات، ومجلة الاحكام العدلية، وظل في الحكم حتى عزل في ٣٠ مايو عام ١٨٧٦م، وتولى بعده ابن أخيه السلطان عبد الحميد الثاني^(١٦).

فرمان سلطاني: الفرمان كلمة مشتقة من مصدر الأمر باللغة الفارسية، اي خطاب الأمر، أو المرسوم وعلامة الحاكم، وهو مرسوم سلطاني عالي يتوجب إعلانه لمن تم تعيينه في شغل وظيفة عليا في الدولة العثمانية، من قبل السلطان وهو قرار مكتوب باسم الشخص المعين^(١٧).

غامض (غامد): قبيلة كبيرة وقوية تسكن منطقة جغرافية واسعة في المرتفعات يحدها من الشمال

القبائل العربية، وكثرة الاضطرابات وعدم الاستقرار وانتشار اعمال السلب والنهب في الطرقات^(١٨).

عسير: منطقة واسعة جداً شمالي بلاد اليمن الجبلية والتهامية تتصل من الشمال ببلاد الحجاز ومن شرقه ببلاد نجد ومن غربها البحر الاحمر ومن جنوبها بلاد صعدة في الجباب وبلاد حرض وميدي في تهامة^(١٩).

كلمة التوحيد: يقصد بها الشهادتين (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله).

الالسن: تعدد اللغات داخل الشعوب الإسلامية.

كتاب الله العزيز: القرآن الكريم.

امام: لقب أطلق على حكام المسلمين إمام ليس فوقه امام أمير المؤمنين^(٢٠)، وهو من القاب الخلافة في الدولة الإسلامية مرادف للقبى الخليفة وأمير المؤمنين، كان في بداية الامر يشير إلى سلطة الخليفة أو الأمير في الناحية الدينية لا السياسية، وبالتالي فإن هذا اللقب خاص بالتقوى أكثر منه دال على صاحب السلطان السياسي^(٢١).

خلافته: من الخليفة وهو المستخلف السلطان الاعظم^(٢٢).

الاذعان: الخضوع يخضع خضوعاً ذل الرجل وخضع والعرب تقول: اللهم إني اعوذ بك من الخنوع والخضوع^(٢٣).

العساكر: اسم يطلق على الجنود العثمانيين وقد يكون فصيل أو سرية أو كتيبة من الجيش^(٢٤).

ديانتنا: يقصد دين الإسلام.

العصيان: الامتناع عن الانقياد^(٢٥).

الطغيان: طغى طغياناً وطغياناً اي تجاوز الحد المقبول، وتعاضم، اي فاض وتجاوز الحد في الزيادة، ويقال: طغى الموج، وفلان غلا في الطغيان اي تجبر وأسرف^(٢٦).

الأعداء: أعداء الدولة العثمانية.

أمير المؤمنين: مأخوذة من امر على الناس وصار أميراً عليهم اي أمير المؤمنين: وهو لقب أطلق على خليفة المسلمين أو ملك دولة إسلامية، وأول من لقب به الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢٧).

وخليفة الرسول الامين: لقب أطلق على حكام المسلمين، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم،

مشيط في منطقة ابها، وسميت بيشة نسبة إلى بيشة بن مشيط من قرى شهران في إمارة عسير. شمال اليمن (٢٥).

المتصرفية: كان التشكيل الإداري في الدولة العثمانية قبل عهد التنظيمات يتكون على هذا النحو: السناجق تشكل الولايات، والاقضية تشكل السناجق، والنواحي تشكل الاقضية، وكانت الولايات تحت إدارة أمير الأمراء، والسناجق أمير السنجق، حيث كانوا أمراء إداريين، وفي الوقت نفسه قادة عسكريين، أما في عهد التنظيمات فقد فصلت القيادة العسكرية والإمارة الإدارية عن بعضها البعض، فأصبحت كل واحدة مستقلة، فألغي وظيفة أمير السنجق، ووضع مكانه موظف يسمى المتصرف، وعلى هذا الأساس فعدة اقضية تشكل المتصرفية، وعدة متصرفيات تشكل ولاية (٢٦).

العززية: نسبة للسلطان العثماني عبد العزيز سبق التعريف به.

السبل: الطريق المسلوك، ويقال: سبيل سابلة أي مسلوكة (٢٧).

عدوان: الظلم يقول: لا تعاونوا على المعصية والظلم (٢٨).

النهب: الاباحة نهب الشي نهباً، ويقال: نهب الرجل ماله فانتهبوه نهباً أي اخذوا منه ماله عنوه، فقيل: لا تدع كلبك ينهب الناس أي يأخذ حقهم (٢٩).

السلب: سلبه الشي أي اخذه يسلبه سلباً، واستلبه إياه، قيل: الاستلاب الاختلاس، والسلب ما يسلب، وإذا اخذته سلبته، ويقال: سلب الرجل ثيابه (٣٠).

رتبه: من الرتب المدنية التي استحدثت في الدولة العثمانية عام ١٢٦٢هـ الموافق ١٨٤٥م، تليها رتبة الوزارة وازداد عدد الحاصلين عليها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بشكل مطرد في الدولة (٣١).

أمير الأمراء: مرتبة من مراتب التشريف، استحدثت في العصر العباسي الثاني، حددت مهام صاحبها بادئ الأمر بالإشراف على شؤون الدولة ورئاسة الجيش، والإشراف كذلك على الدواوين وجباية الضرائب والأموال ومع ضعف سلطان الخلافة العباسية فقد استبدل حامل هذا اللقب بالملك وتحولوا إلى سلاطين وملوك وتربعوا على عرش الدويلات الإسلامية التي

الشلوة، والشرق شمران ومن الجنوب بلقرن وبالعبان ومن الغرب زبيد وزهران وبلاد غامد غنية بالمياه (١٨).

زهران: قبيلة في أقصى الطرف الشمالي من عسير يحدها من الشمال بني مالك الحجاز، والشلوة، ومن الشرق غامد ومن الجنوب والجنوب الغربي الزبيد ومن الغرب قبائل ذي بركات، على مسافة أميال قليلة ومن ثم قبائل ذوي حسين وحدودها في الغرب تمتد مسافة ١٥ ميلاً تقريباً بعيداً عن الساحل في بعض الأماكن وفي الداخل تمتد إلى السلاسل الجبلية الرئيسية إلى ما بعد طريق ابها، وهي من البلاد الخصبة وكثيفة السكان، وبعض السكان يمارس الزراعة (١٩).

حلي: بالفتح ثم السكون، بوزن ظبي مدينة من اليمن على ساحل البحر الأحمر بينها وبين السرين يوم واحد، وبينها وبين مكة المكرمة ثمانية أيام (٢٠).

معقص: (لم يقف الباحث على تعريف لها).

للأليالة الحجازية: أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، إذ كانت الدولة مقسمة إلى إيلات والأليالات إلى سناجق والسناجق إلى اقضية، والاقضية إلى نواحي والنواحي إلى مخالف وعزل وقرى، وأشرف على الإيالات في الدولة العثمانية أمير الأمراء ثم الوزراء بعد القرن السادس عشر الميلادي، إذ كانوا يمثلون السلطان ويجمعون بين الحكم الإداري والعسكري للأليالة، ولهم نفوذ مطلق ما عدى الحالات القضائية (٢١).

بالقرن: قبيلة تمتد من بيشة عبر سلاسل الجبال حتى أسفل المنحدرات الساحلية ويحدها من الشمال شمران وخثعم ومن الشرق شهران وبدو بني شهر، ومن الجنوب بني عمر وبني شهر، ومن الغرب بالعرين وغامد (٢٢).

شمران: قبيلة في عسير تسكن في جزء من الجبال تحدها من الغرب والشمال قبيلة غامد؛ ومن الشرق شهران؛ ومن الجنوب خثعم وبالقرن، تعد شهران أكبر قبائل عسير وتغطي رقعة جغرافية من وادي بيشة بطول حوالي عشرين ميل حتى صيبا (٢٣).

بيشة: بالشين المعجمة، من مخاليف اليمن وادي، في عدة معادن، وهو واد وفيه مدينة وسميت بذلك لكثرة الرياح والسواقي فيها (٢٤)، وبيشة مدينة في خميس

والضمان: التزام بشي، مثل: كفالة الرجل على اهله، ويقال: والرجل ونحوه صار ضماناً، كفالة او التزام أن يؤدي انه ما قد يقصر في ادائه^(٣٩).

ضيم: ضامه ضيماً: ظلّمه واذله، والضيم: الظلم او الاذلال ونحوهما^(٤٠).

١٤ ربيع الاولى ١٢٨٢هـ: الموافق ٣٠ يوليو ١٨٦٥م.

ثالثاً: سياق الوثيقة السياسي

١/٣- الصلح مع الدولة العثمانية

تبين الوثيقة مكانة اماره عسير، في عهد محمد بن عايض في عسير عام ١٨٦٥م، كما تبين اوضاع الامارة منذ توليه عام ١٢٧٢ هـ الموافق ١٨٥٦م، وهو العام الذي توفى فيه الأمير عايض بن مرعي أمير عسير، وتشير الوثيقة أن اوضاع عسير منقسمة بين محمد بن عايض وابناء عمومته، وان قسم من اعيان عسير يرغبون في تعيين ابناء عمومة محمد بن عايض والقسم الآخر يفضل ابن الأمير المتوفي محمد بن عايض، ويشير كاتب الوثيقة وهو (الشيخ محمد بن علي)، من المشائخ المواليين للعثمانيين في عسير، ويعرض للوالي في جدة اوضاع عسير، وان القبائل فيها تسير نحو التمرد والخروج عن الطاعة، بعد وفاة عايض بن مرعي، كما بحث الادارة العثمانية بسرعة حث الخطى لتتلي الفراغ الذي خلفه وفاة الأمير عايض بن مرعي في عسير، عن طريق استمالة مشائخ القبائل إليها، وان الدولة اذا ما اتجهت في هذه الخطوة ستكون لها الغلبة والنصر^(٤١).

حاول محمد بن عايض استفزاز الدولة العثمانية عن طريق السيطرة على بعض الحاميات العثمانية الموجودة في عسير وخارجها، الامر الذي دفع بالخديوي مصر إسماعيل إلى التدخل والتوسط بينه وبين الدولة العثمانية آنذاك^(٤٢).

امتعض الأمير محمد بن عايض من سياسة الدولة العثمانية تجاهه، لاسيما بعد ان وصلت الاخبار بنيتها ارسال قوات كبيرة، لمواجهة، بعد ان رجع من الطائف، لمقابلة شريف مكة المكرمة المخلوع عبدالمطلب بن غالب^(٤٣)، من اجل اعادته إلى منصبه في الحجاز، فضلاً عن تحرك الأمير محمد بن عايض لدعم القبائل العربية،

نشأت في ظل الخلافة العباسية واستمروا حتى سقوط الدولة المملوكية عام ١٥١٧م^(٣٢).

باشا: لقب من أعلى القاب التشريفات في الدولة العثمانية، مأخوذ من الكلمة الفارسية بادشاه بمعنى الملك، او من كلمة باش بمعنى الرئيس، وجمع باشا باشاوات^(٣٣).

لواحقها: كل ما يتبعها من مناطق حسب ماهي معروفة عليه آنذاك.

المحاربة: القتال.

العداوة: اسم عام من العدو، يقال: عدو بين العداوة، وفلان يعادي فلان^(٣٤).

سوق الجيوش: ارسال الجيوش.

القاهرة: عاصمة جمهورية مصر العربية، وأكبر المدن العربية، والافريقية من حيث عدد السكان، وتعدّ من أكبر مدن العالم اكتظاظ بالسكان، ويمر بها نهر النيل فيقسمها إلى قسمين غربي وشرقي، وفيها طرق مواصلات برية ونهرية، وطرق سكك حديد التي تربطها بعدد من المدن المصرية الاخرى، بنيت القاهرة بجانب مدينة الفسطاط، حتى اصبحت مدينة واحدة أسسها القائد جوهر الصقلي في منتصف القرن الرابع الهجري، بعد أن أرسله الخليفة الفاطمي المنصور بن ابي القاسم للسيطرة على مصر عام ٣٥٨هـ^(٣٥).

تحتزرون: بمعنى تحذرون يقال: حذر الشي او الشخص حذر من الشي، فيقال: تحذر فلانا: حذره خافه، واحترز منه تحذر منه وتجنب الاتصال به^(٣٦).

شريف مكة: يقصد به الشريف عبد الله بن الشريف محمد بن عبد المعين وأكبر أبنائه، عرف عن الشريف عبد الله العلم والصدق، ورجاحة العقل وحسن التدبير، وله من الابناء اثنين، عين عضواً في المجلس الاعلى مع مرتبة وزارة، في شهر ربيع الثاني عام ١٢٢٧هـ الموافق ١٨٥٥م، وبعد وفاة والده الشريف محمد بن عبد المعين في ١٧ رمضان عام ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٨م، تولى مكان والده اماره الحجاز، حتى توفى في شهر جماد الثاني عام ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م^(٣٧).

الامان: مفرد مصدر أمن اي طمأنينة، وهي حالة هادئة ناتجة عن عدم وجود خطر يحدق به^(٣٨).

(٤٥)، بعد ان ادرك تكالب من حوله ضده، اذ حاول استعطاف الدولة العثمانية من خلال الرسالة التي بعثها للسلطان العثماني عبد العزيز، يعلن فيها ولاءه للدولة العثمانية، والتزامه بدفع المبالغ المالية التي كانت عسير تدفعها للدولة عن طريق ولاية الحجاز، وانه رغم الظروف الصعبة التي تمر بها عسير انه ما زال ملتزم بدفع التكاليف التي يأخذها المأمورين مع الملاحظة لجناب السلطان العثماني أن هذا الولاء نابع من القناعة بأن يكون جزء من الدولة العثمانية وتستظل بظل عدالتها والامر والفرمان في الامر لجلالة السلطان، وهذه الرسالة تعد اشارة واضحة لقبول أمير عسير بوساطة الخديوي إسماعيل للصلح مع الدولة العثمانية (٤٦).

٢/٣-الصلح مع شريف مكة المكرمة

حاول الأمير محمد بن عايض ان يحل الخلافات التي كانت حاصلة بين عسير وشريف مكة المكرمة عبد الله بن محمد بن عبد المعين الذي تولى اماره مكة بعد وفاة والده، وتبين هذه الوثيقة التزام أمير عسير محمد بن عايض بالسير نحو تحسين العلاقات مع أمير مكة المكرمة الجديد، وانه على استعداد لعقد الموثائق وان لديه رغبة في عقد الصلح وجبر الخواطر بينهما وطيب الانفس والسير نحو العمل ليكون الجميع مفاتيح للخير، ومغاليق للشر، وان استمرار الخلاف لا يخدم إلا الاعداء المتربصين بذر الفتنة بين شريف مكة المكرمة، وامارة عسير (٤٧).

يبدو أن هذا التوجه من قبل أمير عسير محمد بن عايض كان الهدف منها اغلاق ملف الخلاف الذي تسبب به شريف مكة المكرمة السابق عبد المطلب بن غالب الذي التجأ إلى عسير ووجد في أميرها السابق، حليف قوي ناصرته خلال فترة الصراع حول موضوع الرق الذي منعه العثمانيين في جميع مناطق الحجاز وعارضه شريف مكة المكرمة قبل عزلة من إمارة مكة. توصل الأمير محمد بن عايض وشريف مكة المكرمة عبد الله بن محمد على اتفاقية بينهما نصت على الاتي:

في القصيم للاستقلال عن الدولة العثمانية، فآثر بهذه التحركات حفيظة الدولة العثمانية، التي اخذت تألب الامراء العرب عليه في الحجاز، ونجد والعراق، وبعد عودته بادر بالتحركات العسكرية ضد الحاميات العثمانية في المناطق القريبة من عسير، فضلاً أن ذلك قام الأمير محمد بن عايض بتوبيخ امراء نجد بعد ان وصلته اخبار تحركهم مع العثمانيين ضده، فضلاً عن ذلك شعر الشريف عبدالله بن محمد عبدالمعين بخطر محمد بن عايض على الحجاز، فخشى على نفسه، اذ رتب الامور مع والي العثماني في جدة لتخويف الدولة العثمانية من خطر محمد بن عايض، فعملوا على ارسال معلومات مبالغ فيها للدولة اشاروا فيها إلى تعاظم خطر أمير عسير على الحرمين الشريفين والدولة المر الذي زاد من حقن الدولة العثمانية عليه (٤٤).

ساهمت التحركات العثمانية، تجاه الأمير محمد بن عايض في اظهاره ردة فعل معاكسة تماماً، تجاه الدولة العثمانية، اذ كان العثمانيين يراقبون تحركاته بمنتهى الخوف والقلق، فضلاً عن وصول اخبار عن تحركات بن عايض العسكرية تجاه الحاميات العثمانية، امام ذلك عملت الدولة على بحث اي خطوه من شأنها اضعاف طموحات الأمير محمد بن عايض، ومن ذلك محاولة اثاره القبائل للثورة عليه عام ١٢٨١هـ الموافق ١٨٦٤م، لاسيما بعد ان علم بتحركات هذه القبائل مع شريف مكة المكرمة عبدالله بن محمد عبدالمعين الامر الذي قاد ابن مرعي لقيادة حملات عسكرية لتأديب هذه القبائل وارجاعها بالقوة إلى سيطرته، فجميع هذه التحركات الداخلية، في اماره عسير تعبر عن معارضة سياسية لسياسة الأمير محمد بن عايض، من جهة، ومن جهة أخرى وجود تشجيع عثماني كبير لهذه القبائل داخل الامارة بهدف زعزعتها لكبح طموحات أمير عسير من التوسع على حساب الدولة العثمانية، لاسيما ان طموحاته السياسية زادت بعد ان قام بضم المخلاف السليماني، في بداية حكمه، وعين عليه امراء من الاشراف المواليين له، وظل المخلاف السليماني في حالة من عدم الاستقرار، اجبرت الأمير محمد بن عايض على قبول وساطة خديوي مصر وعقد صلح مع الدولة العثمانية لتقسيم تهامة اليمن بينه وبين الدولة العثمانية

يبدو أن تحرك شريف مكة المكرمة ساهم في انتهاء الاتفاقية الموقعة مع شريف مكة السابق عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون في وقت سابق، وساهمت هذه الاتفاقية في تحسين العلاقات بين مكة المكرمة وعسير حتى وفاة الشريف عبد الله عام ١٨٧٧م.

رابعاً: التحليل التاريخي للوثيقة

يُعدّ الوعظ السياسي من الوسائل السياسية الخطائية، بهدف نشر مجموعة من الرسائل والأفكار السياسية، والاقتناع بأهميتها، إذ يعتبر الوعظ السياسي أداة قوية للتأثير على الزعامات السياسية، من أجل إعادة تشكيل الاتجاهات السياسية والاجتماعية، لهذه الزعامات، لاسيما ان الوعظ السياسي من الأدوات الفعالة التي يستخدمها الزعماء السياسيين، أو الحكومات، أو الأحزاب السياسية لتعزيز حضورها في المجتمع، إذ يتضمن الوعظ السياسي استخدام بعض المفردات المتنوعة والأساليب الدينية لإقناع الجمهور وإثارة الشعور بالانتماء والتعاطف، والولاء لولي الامر، لاسيما ان الخطاب الديني المغلف بالسياسة، يهيج العواطف ويثيرها، من أجل إبراز مجموعة من الأهداف السياسية السامية، والقيم والفضيلة، من خلال تسليط الضوء على المشاكل والتحديات التي تواجهها الامة الإسلامية، وتوضيح مرتكزات علاج هذا التحديات من خلال ايجاد مسوغ ديني ذو نزعة سياسية يتماها مع الواقع دون ان يعالج جوهر المشكلة، إذ تعتمد فعالية الوعظ السياسي على قدرة الشخصية الاعتبارية، على توصيل الفكرة اين كانت اهدافها ونوازعها، بصورة فعاله مع الجمهور المستهدف، او بعبارة اخرى مع المجتمع المراد التأثير عليه، إذ يجب أن يكون الخطاب مقنعاً ومفهوماً ويتناسب مع التحديات والطموحات التي يواجهها الناس، حتي تحصل الاستجابة المتوخاه من وراء ذلك، لاسيما ان هناك اهداف واقعية من أجل ان يكون الوعظ السياسي أكثر فعالية، ومنها ان يكون شفافاً وموثوقاً، إذ تعد النزاهة والصدق أساسية لكسب ثقة المجتمع المراد التأثير عليه، ومع ان الوعظ السياسي أداة فعالة للتأثير على المجتمع، الا ان له جوانب سلبية، إذ تم استخدامه لتشويه الخصوم السياسيين، أو لتوجيه الجمهور بطرق

الباب الأول: الوفاء بعهد الله وميثاقه على ما هو محرر ادناه على القاعدة الثانية وعلى هذا وجهي وعهد الله وميثاقه.

الباب الثاني: تعهد محمد بن عايض بعدم الاستماع لمن يوشى اليه عن شريف مكة المكرمة عبد الله بن محمد، والالتزام بصحبته والسعي اليه بخير، ومنع الشر نحوه ولا خذ فيه لومة لائم.

الباب الثالث: إذا حدثت اية خلافات بين القبائل الحدودية يسند حل الخلاف إلى المشائخ بينهم مالم يرفع الامر عن طريق الرسائل وإذا لم يتم الاتفاق يتم الدعوى على يد حاكم الشرع ببركة مكة المكرمة ولا يكون غيرها.

الباب الرابع: عدم اعتراض التجار الذين يقومون بجلب السلع التجارية المختلفة من عسير إلى مكة المكرمة، ومنع اخذ الجمارك عليها، والعكس.

الباب الخامس: منع اي خلاف يحدث في مرسى الخسف من القبائل الذي لنا كراء الطريق وعدم التعدي على أحد من اهل السناييك وان حصل منهم شي من ذلك فأن الأمير متعهد بأدائه.

الباب السادس: عدم قبول اي جندي من جنود الدولة مهما كان جنسه ولونه ويلتزم أمير عسير برده.

الباب السابع: عدم قبول أحد من قبائل الشام إذا هرب إلى عسير ويلزم رفضه في اي سوق، هذا ما سار الاتفاق عليه بين الطرفين المتعاقدين شريف مكة المكرمة؛ عبد الله بن محمد بن عون ومحمد بن عايض بن مرعي، موضحة اعلاه سلع مواد يكون العمل عليها من الطرفين وبختم الوجه عام ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م^(٤٨).

تأزمت العلاقات السياسية بين الأمير محمد بن عايض، وبين أمير مكة المكرمة الجديد حسين بن محمد بن عون^(٤٩)، من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى، إذ ان العثمانيين لم يتحملوا مشاغبة أمير عسير، لاسيما بعد ان نجح في التغلب على عدد من المناوئين له في عسير، فضلاً عن ذلك ساهمت قوات شريف مكة المكرمة التي وصلت عسير، في تأجيج الصراع مع أمير عسير، وسبب ذلك احراج كبير لشريف مكة المكرمة حسين بن محمد بن عبد المعين^(٥٠).

- ارقدة الدماء بين المسلمين بدون وجه حق من خلال ارسال الجيش العثماني إلى عسير وما يترتب على ذلك من قتال ودماء كلها مسلمة.
- اضعاف وتمزيق الدولة العثمانية التي تعاني من اوضاع وظروف صعبة في جميع الولايات التي تسيطر عليها لاسيما في البلقان.

حاول الخديوي إسماعيل من خلال هذه الرسالة ايجاد مبررات دينية تعالج الاوضاع السياسية غير المستقرة التي تعاني منها الدولة العثمانية، في شمال اليمن، وجنوب الحجاز، مبتعداً عن معالجة جذور المشكلة السياسية من خلال تحسين الظروف المعيشية، والغاء التهميش السياسي لمنطقة عسير، التي يرفض أميرها التعامل معها من خلال شريف مكة المكرمة، باعتبار ان هذه الامارة اليمنية لها خصوصيتها، ومكانتها السياسية التي ترفض التعامل معها من خلال وكلاً وهذا بطبيعة الحال، كان السبب في ثورتها ضد الوجود العثماني في المنطقة، فالجواء للقوة لم يكن الا وسيلة لتوضيح المعارضة السياسية لسوء تصرفات الدولة العثمانية، في بعض مناطق سيطرتها السياسية، فضلاً عن وجود سوء نية ومبيتة لدى بعض الاشخاص الذين ركزت اليهم الدولة العثمانية، في نقل صورة عن امارة عسير، وفي هذا السياق يمكن القول: ان الطموحات السياسية والمصالح السياسية خلطت ما بين السيطرة السياسية، والاذعان الجبري باستخدام القوة، إذ استغل شريف مكة المكرمة على سبيل المثال لا الحصر مخاوف الدولة العثمانية من طموحات الأمير محمد بن عايض السياسية، فألب الدولة ضده لعدة اسباب منها:

- ١- اضعاف قوة أمير عسير في جنوب الحجاز حتى لا يطمح بالسيطرة عليها.
- ٢- محاولة ابعاد الأمير محمد بن عايض من قبول الاشراف المعارضين في امارته حتى لا يشكلوا خطر على ولاية الحجاز.
- ٣- اثاره العديد من الثورات داخل الامارة لأشغال أمير عسير عن بناء الامارة حتى لا تصبح قوة حقيقية تهدد الاستقرار في الحجاز.

غير مشروعة أو غير أخلاقية، لذا، فإن فهم الوعظ السياسي وتحليله بشكل نقدي يساهم في تقييم الأجندات السياسية وتأثيرها على الناس والمجتمع، في آن واحد.

اثارت الوثيقة التي بعث بها الخديوي إسماعيل خديوي مصر للأمير محمد بن عايض أمير عسير، جملة من النصائح السياسية، او بعبارة اخرى (الوعظ السياسي)، الذي قدمه والي مصر باسم الدولة العثمانية لصاحب عسير بين له فيها اشارات تحمل في طياتها الترغيب والترهيب السياسي، بهدف اذعان الاخير للدولة العثمانية معللاً ذلك إلى اهمية اجتماع كلمة المسلمين لمواجهة التحديات الكبيرة التي تواجه الدولة، من قبل اعدائها المتربصين بها، للسيطرة عليها، كما بين ان الاجدر بالمسلمين عدم الخروج عن من وصفه بالخليفة، في اشارة إلى السلطان العثماني عبدالعزيز بن السلطان محمود الثاني، فضلاً عن ذلك حاول الخديوي إسماعيل توضيح فكرة ان قيادة العالم الإسلامي لا يمكن اختزالها، في العرب وان ما دونهم مخالف للدين، وهذه اشارة واضحة لتسويق، فكرة ان السلطان العثماني وان كان اعجمي اللسان يعد امام المسلمين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما حاول توضيح فكرة الاجماع الاسلامي على السلاطين العثمانيين.

أشارت الوثيقة بصورة لا لبس فيها الخلط بين المفهوم الديني والسياسي القائم على الاجماع الإسلامي الذي ذكره الخديوي في شخص السلطان العثماني عبد العزيز، وأنه يمثل إمام المسلمين، وحشد في هذا الاتجاه العديد من المبررات التي تبين المخاطر المترتبة على خروج الامراء ضد ولاية الامر، وساق العديد من المبررات الدينية التي تبين حجم جريمة مخالفة اجماع المسلمين فيما يخص موضوع السلطان العثماني، وتحت هذا المبرر، أورد العديد من المخاطر منها:

- بث الفتنة والفرقة بين المسلمين ومخالفة مبدأ الوحدة والاعتصام بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا.
- مساعدة الاعداء المتربصين بالدولة العثمانية، لاسيما القوى الأوروبية التي تتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية الاقليات.

وتوجيهها ضد العثمانيين عندما تحين له الفرصة، أو عندما تتعرض مصالحه السياسية لخطر.

أدرك الأمير محمد بن عايش رغم وجود العديد من المقومات الجغرافية، والبشرية التي ترجح كفته، في الصراع السياسي مع الدولة العثمانية، إلا أنه شعر بخطورة استمرار ميزان القوى لصالحه، إذ ما قارنا الموارد الاقتصادية لإمارة عسير، مع الموارد الاقتصادية الهائلة للدولة العثمانية، التي ترجح كفة الأخيرة ضده، إذ استغل تدخل الخديوي إسماعيل بينه وبين الدولة العثمانية، من جهة، والشريف عبدالله بن محمد بن عبدالمعين من جهة أخرى، فعمل على إعلان الولاء للدولة العثمانية، وأن كان ولاء شكلي، لكنه منع أي حملة عثمانية توجه إليه، وأن كان ذلك بصورة مؤقتة بعض الشيء، في المقابل قبل السلطان العثماني عبدالعزيز هذا الولاء الشكلي من قبل أمير عسير، ريثما تتحسن ظروف الدولة العثمانية، وتعد قوتها لإخضاع عسير وأميرها بالقوة وهو الأمر الذي سنراه بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م، التي سهلت على العثمانيين السيطرة الثانية على اليمن عام ١٢٨٩هـ الموافق ١٨٧٢م.

ابتعد أمير عسير محمد بن عايش عن الاحتكاك مع الشريف عبدالله بن محمد بن عبدالمعين نظراً لقدرته في تأليب الدولة العثمانية عليه، فاستغل وساطة خدي ومصر، الذي نجح في معالجة الخصومة السياسية بينه وبين شريف مكة المكرمة، من خلال الاتفاق على معاهدة تنظم العلاقات الودية بين الطرفين، وتعالج جميع مخاوف الطرفين تجاه الآخر، والابتعاد عن الدخول في صراع ومنازعات بينهما لا يستفيد من واره أي طرف سوى انهاك قواهم المشتركة، لصالح العثمانيين، إذ جنح الطرفين لإصلاح الخلافات السياسية بينهما، وابتعاد العلاقات عن التوتر، فضلاً عن استغلال العلاقات في خدمة الجوانب الاقتصادية والسير بها نحو مجالات متقدمة لخدمة الطرفين ومصالحهم المشتركة.

يُعدّ تدخل خديوي مصر إسماعيل في هذا التوقيت الحساس من تاريخ الدولة العثمانية، وبعد مرور أربع سنوات من اعتلاء السلطان العثماني عبد العزيز حكم الدولة العثمانية، إذ حاول السلطان من خلال خديوي مصر معالجة أوضاع إمارة عسير، إذ لم يكن بمقدور الدولة العثمانية حينها القوة والقدرة على تمويل إرسال حملة عسكرية إلى عسير خلال هذه الفترة للاعتبارات الآتية:

- بعد إمارة عسير عن مركز الدولة العثمانية وأن عملية إرسال حملة عسكرية إليها تتعب كاهل خزانة الدولة الاقتصادية المتردية في الأصل.
- انشغال السلطان عبد العزيز بمعالجة أوضاع الدولة العثمانية الأخرى لاسيما في البلقان، ومناطق القوقاز.
- الاتجاه نحو معالجة الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية، بالطرق السياسية السلمية لتخفيف الضغوط الأوروبية على الدولة العثمانية.
- استخدام سياسة الشدة واللين في معالجة الأوضاع من خلال الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى.

تابعت الدولة العثمانية مجريات الأحوال السياسية في إمارة عسير بشكل مباشر، إذ زادت مخاوفها السياسية من تعاظم قوة هذه الإمارة التي تشغل موقع جغرافي ذو طبيعة جيواستراتيجية بالنسبة لجنوب الجزيرة العربية، ومن هذه المخاوف التي أثارت رعب العثمانيين هي قرب إمارة عسير من ولاية الحجاز، حيث المقدسات الإسلامية ومركز الثقل الديني والسياسي للدولة العثمانية، على مستوى العالم الإسلامي، فضلاً عن طبيعة الإمارة نفسها ذات التضاريس الوعرة التي تصعب على الدولة العثمانية إمكانية القضاء على قوة الإمارة، وهذه الطبيعة الوعرة، كانت أهم مرتكز لقوة الإمارة في أي مواجهة محتملة مع العثمانيين، لاسيما مع وجود مناطق زراعية خصبة ومياه جارية تمنح الإمارة الصمود، في أي صراع سياسي مع العثمانيين، إذ تمنحها هذه حق الاعتماد على النفس في إنتاج الغذاء، إلى جانب امتلاكها قوة بشرية مؤلفة من القبائل التي يستطيع من خلالها الأمير محمد بن عايش إثارتها،

خاتمة

تضمنت الخاتمة النتائج التالية:

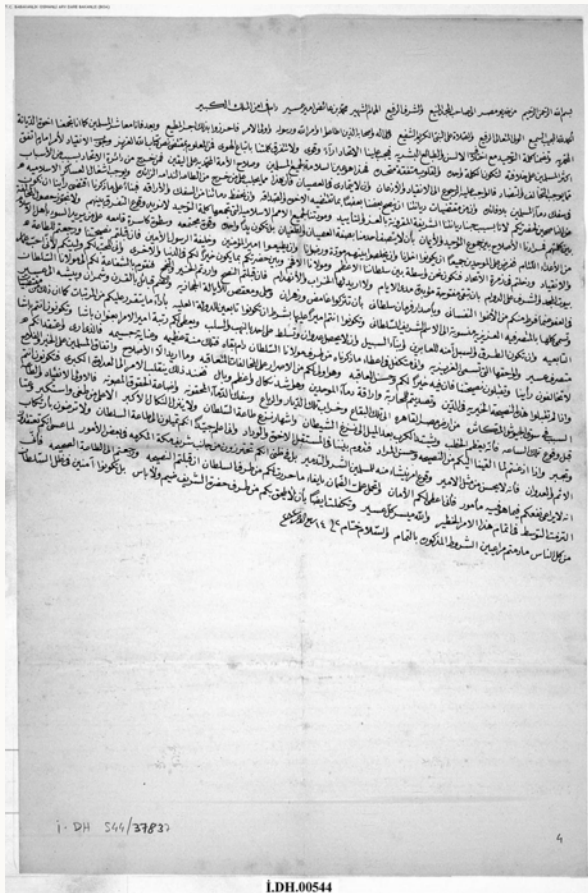
- مرت الوثيقة بعملية نقل مضمونها الحرفي من الخط العربي القديم الذي كتبت به إلى الخط العربي الحديث.
- التعريف بمصطلحات الوثيقة ورموزها التي احتواها مضمون الوثيقة.
- توضيح السياق السياسي للوثيقة من خلال تتبع الأحداث السياسية التي أشارت إليها الوثيقة.
- يفسر التحليل التاريخي للوثيقة قدرة الخديوي إسماعيل في استخدام الوعظ السياسي في التأثير على توجهات أمير عسير محمد بن عايض تجاه الدولة العثمانية.

التوصيات

- يوصي الباحث بالاهتمام بوثائق الأرشيف العثماني ودراستها لكشف جوانب الغموض عن الأحداث التاريخية المرتبطة بالوجود العثماني في المنطقة العربية.
- توجيه الباحثين نحو دراسة الوثائق التاريخية للتعرف على معلومات جديدة لا توفرها المصادر باعتبار أن الوثيقة مادة تاريخية جديدة وموثوقة تحتاج إلى دراسة وتحليل.

الملاحق

صورة لنص وثيقة التحقيق:



الإحالات المرجعية:

- (1) I. D. H. 00544
- (2) أبو عياشة محمد الدمهوري، **العقد المفرد في الفقه على مذهب الإمام أحمد**، دار ابن حزام، بيروت، ط ١، ١٤٠٢ م، ص ٥٩-٦٠.
- (3) صلاح أحمد هريدي علي، **عسير تحت الحكم العثماني (١٢٨٩-١٣٣٦هـ. ١٨٧٢-١٩١٤م)**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥ م، ص ٢٩.
- (4) محمد أحمد الحجري، **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، ج ٣، تحقيق: اسماعيل بن علي الاكوع، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط ١، ١٩٩٦ م، ص ١٠٦.
- (5) أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ج ١، دار عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨ م، ص ٦٨٦.
- (6) مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م، ص ٤١.

- (٣٥) يحيى شامي، **موسوعة المدن العربية والإسلامية**، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٢٠٥-٢٠٦.
- (٣٦) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٦١.
- (٣٧) محمد ثريا بك، **أخبار الحرمين الشريفين وولاية الحجاز في السجل العثماني**، ترجمة: هشام بن محمد علي بن حسن عجمي، مركز التاريخ العربي للنشر، تركيا، ط ١، ٢٠٢٠م، ص ٣٠٤.
- (٣٨) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٣.
- (٣٩) أحمد الزيات، إبراهيم مصطفى، المرجع السابق، ج ١، ص ٥١٤.
- (٤٠) أحمد الزيات، إبراهيم مصطفى، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٤٨.
- (٤١) I. DH. 350/23060
- (٤٢) I. D.H. 00544
- (٤٣) **الشريف عبد المطلب** (١٢٠٩-١٣٠٣ هـ - ١٨٨٥.١٧٩٤م): هو الشريف عبد المطلب بن غالب بن مساعد الحسني، من امراء مكة المكرمة، ولد وتوفي بها، ولي امارتها للمرة الأولى عام ١٢٤٣ هـ وعزل عنها بعد خمسة أشهر، فتوجه إلى الشرق، ثم إلى العاصمة اسطنبول فأقام بها من عام ١٢٦٧ هـ حتى ١٢٧٢ هـ فأعيد تعيينه في اماره مكة المكرمة، حتى العام ١٢٩٧ هـ فوكت فيها فتنة كبيرة كان سببها منع بيع الرقيق، فعزلته الدولة العثمانية عن اماره مكة واستمر حتى العام ١٢٩٩ هـ وفصل عنها بعد ان تولاه ثلاث مرات. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج ٤، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٩٥م، ص ١٥٤.
- (٤٤) إبراهيم بن علي زين العابدين الحفطي، **تاريخ عسير رؤية تاريخية خلال خمسة قرون**، تحقيق: محمد بن مسلط بن عيسى الوصال البشري، بيروت، ط ٥، ١٤١٣ هـ، ص ١١٢-١١٣.
- (٤٥) علي أحمد عيسى عسيري، **عسير من ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م - ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م**، مطبوعات نادي أبها الأدبي، أبها، ط ١، ١٩٨٧م، ص ١٧٩-١٨٠.
- (٤٦) I. MMS. 0031
- (٤٧) I. MMS. 0031/1283
- (٤٨) I. MMS31/1283
- (٤٩) **حسين بن محمد بن عون** (.... - ١٨٨٠م): هو الابن الثالث للشريف محمد بن عون اخو الشريف عبدالله باشا تولي اماره مكة المكرمة، واخو الامير علي باشا استدعي للبلط العثماني في اسطنبول ومنح الوزارة في ١٧ شعبان ١٢٩١ هـ الموافق ٢١ سبتمبر ١٨٧٤م، وتعين عضو في مجلس الشورى الدولة برتبة وزير وفي ١٨ ذي الحجة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ يناير ١٨٧٥م، تعين عضواً في المجلس الاعلى وفي شهر ربيع الثاني تعين رئيساً للدائرة الملكية وفي ١٢٩٤ هـ الموافق مارس ابريل ١٨٧٧م، تعين عضواً في مجلس الشورى الدولة وفي ١٠ يونيو ١٨٧٧م عين شريفاً لمكة، وظل في المنصب حتي تم اغتياله. محمد ثريا بك، المصدر السابق، ص ١٥٢.
- (٥٠) صلاح أحمد هريدي علي، **عسير تحت الحكم العثماني (١٢٨٩-١٣٣٦ هـ - ١٨٧٢-١٩١٤م)**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٢٩.
- (٧) أحمد الزيات، إبراهيم مصطفى، **المعجم الوسيط**، ج ١، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٧٢م، ص ٢٥١.
- (٨) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٢، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٣٣٠ هـ، ص ١١٨٧-١١٨٨.
- (٩) سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط ١، الرياض، ٢٠٠٠م، ص ١٥٤.
- (١٠) أحمد الزيات، إبراهيم مصطفى، **المعجم الوسيط**، ج ٢، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٧٢م، ص ٦٠.
- (١١) أحمد الزيات، إبراهيم مصطفى، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٥٨.
- (١٢) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٨-١١٧.
- (١٣) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٨٦.
- (١٤) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٣٣٠ هـ، ص ٢٢٨٩.
- (١٥) أحمد الزيات، إبراهيم مصطفى، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٨٠.
- (١٦) محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٨١م، ص ٥٣-٥٧٦.
- (١٧) **الفرمانات العثمانية**، الجمهورية التركية رئاسة الوزراء والإدارة العامة لأرشيفات الدولة، رئاسة الارشيف العثماني، رقم النشر ٦٣، انقره، ترجمة: سهيل صابان، دار الملك عبد العزيز للنشر، الرياض، ٢٠٠٣م، ص ١٤.
- (١٨) كيناهان كورنسواليس، **عسير قبل الحرب العالمية الأولى**، تحقيق وترجمة: علي بن سعد آل زحيفة الشهرياني، دم، ط ١، ٢٠٠٩م، ص ٧٥.
- (١٩) كيناهان كورنسواليس، المصدر السابق، ص ٧٣.
- (٢٠) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٢، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٧م، ص ٢٩٧.
- (٢١) سهيل صابان، المرجع السابق، ص ٤٥.
- (٢٢) كيناهان كورنسواليس، المصدر السابق، ص ٨.
- (٢٣) كيناهان كورنسواليس، المصدر السابق، ص ١٩٧٧.
- (٢٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ١، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٧م، ص ٥٢٨.
- (٢٥) عمر بن غرامة العمروي، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**، ج ٣، دار اليمامة، الرياض، ط ١، ١٣٩٨ هـ، ص ١٧١.
- (٢٦) سهيل صابان، المرجع السابق، ص ٢٠.
- (٢٧) أحمد الزيات، إبراهيم مصطفى، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٥.
- (٢٨) ابن منظور، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٨٤٦.
- (٢٩) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٦، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٣٣٠ هـ، ص ٤٥٥٣.
- (٣٠) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٣، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٣٣٠ هـ، ص ٢٠٥٧.
- (٣١) سهيل صابان، المرجع السابق، ص ١٢٢.
- (٣٢) مصطفى عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص ٤٣.
- (٣٣) محمد أحمد دهمان، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٣.
- (٣٤) ابن منظور، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٨٤٨.

جزيرة النكور وأهالي القبائل الريفية المجاورة من خلال وثائق مخزنية ١٨٨٠ – ١٩٠٠م

د. مصطفى الهراوي

دكتوراه في التاريخ الحديث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية



د. فريد المساوي

دكتوراه في التاريخ المعاصر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السعدي – المملكة المغربية



ملخص

كانت جزيرة النكور منذ احتلالها نقطة تواصل مهمة بين الإسبان وأهالي قبائل الريف الأوسط بحكم قربها إلى الساحل الريفي، ولهذا كان من الطبيعي أن يتم استغلالها حين اشتدت الأطماع الاستعمارية الأوربية بالمنطقة، وذلك بحكم الدسائس والمؤامرات التي من شأنها أن تورط المخزن وأهالي القبائل القريبة في قضايا مختلفة، تفتح للإسبان ذرائع للتدخل والتلاعب لتحقيق غاياتهم الدنيئة. وتجلت مخططاتهم في خلق بؤر توتر وتصادم بين التجار والمهريين من الطرفين الإسباني والريفي، وخلق صراعات بين المخزن وأهالي القبائل، واستغلال أية مسألة للضغط على المخزن لتقديم التنازلات لتحقيق رغباتهم وأهدافهم. إن موقف إسبانيا من حوادث التصادم والتوترات التي كانت تحدث بين مواطنيها والأهالي، على غرار نظرة الأوربيين بشكل عام إلى مثل هذه العلاقات، كان متحيزاً على الدوام إلى مواطنيها والمتعاونين معهم، حيث كانت تعتبرهم ضحايا أناس متخلفين رافضين للأجنبي، وللأوروبي والغربي بشكل خاص. وإذا كان هذا الموقف تعبر عنه بشكل أساسي الوثائق الرسمية الأوربية، وكذلك الكتابات الأوربية حول المغرب، ومنها الإسبانية، وتجد لها سنداً وتعليلاً في قوة تشبث المغاربة والريفيون على وجه الخصوص بدينهم وتقاليدهم، ورفضهم الشديد للاندماج والتطبيع مع العنصر الأوربي ثقافياً وحضارياً، فإن الأرشيف الوطني المغربي يكشف لنا عن حقيقة أخرى على النقيض تماماً، إذ توضح الوثائق بشكل جلي دور الإسبان في خلق الفوضى ونقط الصراع والتوتر، ثم استغلالها بشكل جد متحيز ومجحف لصالحهم باعتبارهم ضحايا لا مذنبين.

كلمات مفتاحية:

إسبانيا؛ المخزن؛ الريف؛ القبائل؛ جزيرة النكور

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٩ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢١ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.453739

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فريد المساوي، مصطفى الهراوي، "جزيرة النكور وأهالي القبائل الريفية المجاورة من خلال وثائق مخزنية ١٨٨٠ – ١٩٠٠م". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥. ص ١١٦ – ١٣٠.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: faride87@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُورِيَّة كان ٤.٠ Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أولاً: تجارة تموين الجزر

إن حاجة الجيش الإسباني المقيم بجزيرة النكور، كما بغيرها من الحصون، إلى المأكولات والمواد الغذائية الطرية (الفرشك) دفعت إسبانيا إلى إدراج بند في معاهداتها مع المغرب، يقتضي السماح بتبادل تجاري في هذا المجال بين الإسبان نزلاء الحصون وسكان المناطق المجاورة^(١)، على أن تكون المواد التي تنقل إلى الجزيرة بموجب هذا الاتفاق معفاة من الرسوم الجمركية. هنا سيقع إشكال حول ماهية المواد بالضبط التي ستستفيد من الإعفاء الجمركي، فقد جاء في وثيقة غير مؤرخة تضم قائمة للمطالب التي تطالب بها إسبانيا من المغرب في الفصل/المطلب الخامس ما يلي: «الفصل السادس من وفق ٢٤ غشت عام ١٨٥٩ والفصل ٦ من وفق ١١ يونيه عام ١٨٧١ أعطيا لإسبانيا دخول المأكولات والفرشك (...) مجاناً من غير أعشار ومع ذلك الثيران القائمة الحياة تؤدي خمسة ريال لكل رأس وحيث كان اللحم هو أساس المعيشة فينبغي تعديل الشروط المذكورة بأن الثيران التي تدخل إلى حصوننا بهذا القصد لا يلزمها شيء والتي تدخل بقصد انتفاع آخر يلزمها الأداء»^(٢).

في شهر فبراير سنة ١٩٠٠م كتب النائب محمد الطريس إلى السلطة المركزية، عقب محادثات له مع مسؤول إسباني موفد من حكومة دولته كان على وشك القيام بزيارة إلى السلطان لإجراء مفاوضات حول مختلف القضايا التي تهم العلاقات بين البلدين، ونستشف من جواب الحاجب أحمد بن موسى له بأن المسؤول المذكور منزوع من الوضعية التي عليها تجارة تموين الحصون، خاصة الشروط الموقعة من طرف السيد محمد الخطيب، وأن دولته تطالب بتعديلها، وأنها «لا يسعها السكوت على مقتضى الشرط المذكور وأنه لا يمكنه الورود على شريف الأعتاب إلا بعد تنفيذ هذا المطلب وإلا فينشأ عنه ما لا ينبغي»^(٣)، هذا رغم الملاحظة التي عامله بها النائب الطريس، ومحاولة تهدئته. ووضح أحمد بن موسى في جوابه أن المخزن كان يهدف من الاتفاق الذي أمضاه بخصوص هذه القضية إلى تحسين وتنظيم هذه التجارة، وضبط عملية تصدير

شكل المغرب خلال القرن التاسع عشر بموقعه الاستراتيجي على بوابة مضيق جبل طارق، محط أطماع العديد من الدول الأوروبية المتنافسة على مناطق الهيمنة والنفوذ. خاصة مع اقتناعهم بغني المغرب بالثروات الطبيعية والمعدنية التي لم تستغل بعد، وكذلك بكون موقعه يسمح بالتحكم في طرق الملاحة والتجارة العالمية. برزت في هذه الظروف بعض القوى التي تعتقد أنها تملك حقوقاً تاريخية في المغرب، ولها الأولوية وحق التدخل في شؤون المغرب قبل غيرها بحكم القرب والجوار، كفرنسا التي كانت قد احتلت الجزائر منذ سنة 1830م، وإسبانيا التي تتواجد بمدينتي سبتة ومليلية السليبتين إضافة إلى جزر بادس والنكور والجزر الجعفرية، وبريطانيا التي أولت أهمية كبرى للتحكم في منطقة البوغاز ومدينة طنجة نظراً لتواجدها قرب جبل طارق.

في ظل هذا الجو المشحون بحدة التنافس الاستعماري، والذي كان يقابله من الضفة الأخرى الانحطاط والتدهور الذي كانت تعيشه الدول الضعيفة، ومن بينها المغرب، بسبب مختلف أشكال الضغوطات الأوروبية، وكانت كل هذه الدول تحاول التدخل في المغرب بشتى الوسائل، لتوريطه معها في قضايا تجعلها ذريعة لابتزازه وتبرير ما تعتبره حقاً لها في هذا البلد. وتعددت مظهرات هذه التدخلات وما ترتب عنها من مشاكل وفوضى.

وسنستعرض في هذا المقال نموذج من تدخلات تلك القوى الاستعمارية، ويتمثل فيما كانت تقوم به إسبانيا من خلال إحدى النقاط المتواجدة بها على الساحل المتوسطي، وهي جزيرة النكور التي احتلتها منذ سنة ١٦٧٣م، وما ترتب عن هذا الاحتكاك من مستويات العلاقات بينها وبين المخزن، ومواطني المناطق المجاورة. وكيف استغلت إسبانيا وجودها في هذه الجزيرة بالقرب من الساحل لخدمة مخططاتها الاستعمارية. وكيف كان يساهم الإسبان في خلق الفوضى والمشاحنات التي يحاولون في الأخير الظهور فيها بمظهر الضحايا المطالبين بالتعويضات وجبر الضرر.

المؤن إلى حصن النكور، وذلك بحصر البيع والشراء في منطقة واحدة على ساحل البحر المقابل للجزيرة، وعلى الإسبان الراغبين في التسوق أن يقصدوا ذلك المكان، ولا يتجاوزهم أحد منهم إلى التوغل والاختلاط بالأهالي لما ينتج عن ذلك من المشاكل، كما لا يجوز لهم أن يأتوا معهم ببضائع من الجزيرة لبيعها هناك. ولكن الأطراف المعنية بهذه العملية لم يلتزموا بأهداف هذا الوقف، «فلم يظهر لذلك أثر، بل ازداد أمرهم بعد ذلك إلى أن عظم وتولد منه الاشتغال بجلب السلاح وما يتعلق به من رصاص وبارود وملح وكبريت وغير^(٤)».

فبسبب ما كان من تجارة في المنوعات وتهريب الأسلحة، واختلاط بعض الأجانب بالريفيين، كادت زمام الأمور بالمنطقة أن تتفلت من يد المخزن، حيث تقوى أهالي تلك المناطق وتجبروا، وصاروا يجروون على اعتراض مراكب الأجانب وحجزها بسبب الخلافات الناتجة عن تجارة التهريب. وكان المخزن في كل حالة يدفع التعويضات الباهظة «إذ بهذا تقوى رعاع الريف حتى تناولوا بمد يدهم في البحر وظهر منهم الفساد الذي ترتبت عليه مغارم ولزم جانب المخزن في علاج استقامتهم ورجوعهم للجادة صوائر لها بال^(٥)». وهذا ما دفع المخزن إلى منع أهالي تلك المناطق من الاختلاط بالإسبان، بما في ذلك الاتجار معهم، حتى صار إسبان تلك الحصون يقدمون الشكاوى مما لحق بهم من جراء هذا المنع. وهذا ما يتبين من رسالة عزيزية إلى أحد القواد بالمنطقة: «خديمنا الأرضى القائد بوبكر الورياغلي (...) وبعد فبعدما قدمنا لك الجواب بمنع المعاملة بين أهل ذلك القطر الريفي وبين سكان حجرة النكور لما قررناه لك كتب خديمنا الحاج محمد الطريس من طنجة رافعا لجانبنا الشريف تشكي أهل الحجرة المذكورة وأهل حجرة بادس بما لحقهم من الضرر بسبب منعهم من شراء القوت الذي لم يجدوا غنية عنه طالبين عدم قطع ذلك عنهم^(٦)».

حين بلغ إلى علم المولى عبد العزيز خبر شكوى الإسبان، أمر النائب الطريس بأن يستدعي إليه القائدين بناصر غنام وعبد الله بنسعيد، ليتأملوا جميعا الكيفية التي يمكن بها إعادة هذه التجارة بدون أن تترتب عنها أية أضرار للمخزن، مع استحضار الاتفاقيات الممضاة

سابقا في هذا المجال. وقد أكد على ضرورة حصر مكان التلاقي في نقطة واحدة على الشاطئ، واستمرار منع أهل الريف من الدخول إلى الجزيرة، مع جعل خمسة وعشرين من جند المخزن مع قائدهم للقيام بدور الشرطة بمكان التسوق، وأمر كل عمال المناطق المجاورة للحصون بالتعاون بحزم على تحقيق المراد من هذه المسألة «ومن تساهل منهم يعجل له بالعقوبة ويبدل على الفور^(٧)». وحين اجتمع القواد الثلاثة المذكورون اتفق رأيهم على أن المصلحة تقتضي إعادة نشاط تجارة تموين الجزر، وإصدار الأوامر بذلك لقواد وعمال الريف منذ ذلك الحين وعلى رأسهم أبو بكر الورياغلي، وإبلاغ المسؤولين الإسبان بذلك. هذا ما أعلم به الطريس السلطة المركزية فاستحسن ذلك. ليأتي جواب أحمد بن موسى مخبرا بصور الأمر إلى القائد أبو بكر الورياغلي، وبعث نسخة منه إلى الطريس ليوجهها إلى المسؤول الإسباني الذي سيوصلها على يده إلى عمال أهل الريف^(٨).

حين توصل هذا المسؤول بنسخة من رسالة المولى عبد العزيز إلى القائد أبو بكر الورياغلي قصد إبلاغها بنفسه، كدليل على اهتمام المخزن بهذه المسألة، أو لتكون بيده بمثابة حجة يقدمها لإسبان حجرة النكور ليبدأوا في النزول إلى البر للتسوق، بلغها بنفسه ولم يعد إلا ومعه جواب القائد أبو بكر الورياغلي بالامتثال للأمر السلطاني، «وزال بسبب ذلك ما كان حصل لدولة اصبانيا من القلق وما كان شائعا بطنجة على السنة الأجانب وأن سفير الدولة عزم على الوفاة على الحضرة الشريفة^(٩)»، وأما السلطان فقد سره ذلك أيضا، إذ لما بلغه الحاجب أحمد بن موسى بالمسألة، أجاب «عن تسريح تسوق القوت للحجرتين وسلامة الصدور بأن المطلوب هو إعطاء الحق الذي له موجب وسد أبواب الخرق التي لا موجب لها^(١٠)».

إثر هذا توصل النائب السلطاني بطنجة برسالة جوابية من مفوض إسبانيا يعبر له فيها عن فرحه بما تحقق من إعادة تجارة التموين إلى سابق عهدها متمنيا استمرارها، كما يخبره بكتابته إلى حاكمي الجزيرتين ليكفأ أهلها عن الخروج والاختلاط بالأهالي، إذ قال فيها: «وما ذكرت من أن البعض من سكان هولائك

أجانب كان هدفهم هو «تجنب النقاط الجمركية التي سمح المخزن بفتحها على الساحل الريفي (ديوانة مليلية، بادس والنكور) للتملص من أداء المستحقات من الأعشار»^(١٥).

في شهر دجنبر ١٨٩٤م بعث أميين من حدود مليلية برسالة إلى النائب الحاج محمد العربي الطريس، حول ما بات يحدث من تفشي ظاهرة نقل السلع من مناطق مختلفة إلى جزيرتي النكور وبادس، ليتم القيام لاحقاً بإخراجها خلسة إلى شواطئ المنطقة، وتأثير ذلك على تراجع المداخل الجمركية، «منذ حللنا بهذه البلدة ونحن نسمع من بعض التجار أن المراكب تحمل السلع من جبل طارق وتضعها بحجرة النكور وبادس وتحمل من الموسوقات كالبيض والثيران وغيرهما شتى (...) مع أن تأثير ذلك ظهر في الديوانة لقلة الداخل من المعشرات»^(١٦). يضيفان في الرسالة أنهما تأكدا من ذلك بورود مركب من جبل طارق وإفراغه بحجرة النكور خمسمائة صندوق من الغاز وعدد كبير من لفائف الثوب، بحيث ظل يوماً كاملاً يفرغ السلعة بالجزيرة، وأنه لما أكمل الإبحار إلى مليلية لم ينزل إلا ١٤ قطعة، وليس من عادته ذلك. بمعنى أن السلع التي أتى بها أنزلها كلها تقريباً بحجرة النكور، «والعسة التي لنا ثمة لا تقدر على منع من أراد إخراج السلع للبر لأن شوكة الريف القاطنين حذاء المحل المذكور قوية ولا تتألم أحكام وتزيد قوة بسبب تواردها ما ذكر ونزول الكنطربنضوا»^(١٧). ولهذا اتصل الأمينان بحاكم الجزيرة، من أجل منع تلك السلعة من الخروج للبر، فأجابهما بأن للمخزن حراسة على الشواطئ والنقاط الحدودية، ولكنه سيعمل جبراً لخاطرهما على الكتابة في القضية إلى مدريد، ويمنع تلك السلع من الخروج إلى أن يصله الجواب من مدريد.

في سنة ١٨٩٥م كانت ظاهرة التهريب قد استفحلت بالمنطقة، ونتج عنها ما بات يعرف بالقرصنة الريفية، فما عرفته قبيلة بقوة خلال هذه الفترة من غارات بحرية على السفن الأوربية كان نتيجة اختلاط بعضهم مع شبكات تهريب أوربية في علاقات أسفرت عنها نزاعات وخيانات ثم التردد للانتقام والأخذ بالثأر، فكثر شكاوى الأوربيين لدى المخزن «بما يقع من نهب مراكبهم بسواحل الريف»^(١٨). ولذلك اقتضى نظر

الحصون يدخلون في أرض الريف فقد كتبنا لحكامها ليكفونهم عن ذلك لدوام الخير والإحسان بيننا فمن مضمن كتابتكم أخبرنا به بشؤوننا كما هو الواجب علينا»^(١٩).

هكذا تم حل مشكلة تجارة التموين بما يرضي الطرفين. فالإسبان كان مبتغاهم إعادة فتح الأبواب لعسكر الجزر لاقتناء ما يحتاجون إليه من الضروريات، وبالنسبة للمخزن، فالمشكلة لم تكن تكمن في التجارة، بل في استغلالها لتمير السلع المحظورة وتهريب الأسلحة، وكذلك الاختلاط الذي لما كان يترتب عنه من الدعاوى والمطالب بالتعويضات، أو في العمليات التجارية التي تتعدد فيها الأطراف والوساطات، والتي تفضي في الغالب إلى الوقوع في النزاعات. ولذلك نجد في إحدى الرسائل المخزنية التأكيد على «أن يكون التبايع يدا بيد بحيث إذا قضى المشتري وطره في تسوق قوته فقط يذهب لحال سبيله ولا تبقى علة بينه وبين البائع وعلى شرط ألا يجلب أحد من أهل الحجرتين شيئاً لبيعه في تراب أهل الريف سواء كان ذلك المجلوب من المباح أو الممنوع وعلى ألا يصل أحد من أهل الريف لإحدى الحجرتين لا في بيع ولا شراء ولا غيرهما سواء كان المتبايع فيه مباحاً أو ممنوعاً بحيث لا يبقى سبيل لتدخل إحدى الرعيتين مع الأخرى ولا لتعدي إحدهما حدها سرا وجهراً»^(٢٠).

ثانياً: قضية التهريب

نهج السلطان المولى الحسن الأول بالمناطق الساحلية المتوسطة سياسة تركز بالأساس على مكافحة تجارة التهريب وتسرب الأجانب إلى المنطقة لما ينتج عن ذلك من مشاكل وشكاوى الأوربيين^(٢١). ولكن الدول الأوربية - وخاصة إسبانيا - التي كانت لها مخططات ترمي من خلالها إلى زعزعة الاستقرار بالمنطقة، خدمة لمشروعها الاستعماري، فقد عملت كل ما في وسعها لإفشال سياسة السلطان المذكورة. وكان من بين الوسائل التي استعملتها في هذا المجال، التشجيع أو التغاضي عن تجارة التهريب التي نشطت بالمنطقة خلال أواخر القرن ١٩م. وعرف بالانخراط في هذه التجارة مجموعة من أهالي بقوة البارعون في ركوب البحر^(٢٢)، مع تجار

هناك لتلك الأنشطة. ولذلك اشتكى الأجانب «من كبراء المحلة السعيدة بالريف بتثقيفهم الفلائك الحاملة للسلع المسرحة للشاكنين من مرسى تطوان والسلع المسرحة أيضا الخارجة من مراسي الريف بقصد تطوان محتجين بأن محل التثقيف في السلع الممنوعة الغير المسرحة. كما اشتكوا بذلك على عامل تطوان^(٢٣)».

وإذا كان النائب الطريس قد حمل المسؤولية في هذه الشكاوى «لكبراء المحلة المذكورة (لأنه بين لهم) ضابط المسرح وضابط موضوع التثقيف ولم يعملوا بمقتضاه» كما كتب لعمال الريف عن طريق عامل حدود مليلية «بإعطائهم بطائق التسريح للفلائك التي تخرج من ناحيتهم فلم يعملوا به ولا زال التثقيف على حاله»، إلا أن الحاجب أحمد بن موسى أكد له أن «المكلفين بالمحلة المذكورة لم يرتكبوا أمرا مخالفا لما صدر لهما على مقتضى ما تقدم تأسيسه على يدك بأن تأمر رئيس التريكي بجر جميع الفلائك التي يعثر عليها بمياه الكوشطة الريفية وكذلك مراكب الأجانب التي يعثر عليها واسقة أو واصمة بالمياه المذكورة»، وأن للمخزن كامل الحق في منع تجول جميع المراكب بتلك السواحل، وأنه لا يمكنه إبقاء تلك المراكب متمادية على تهورها الذي أدى إلى توريط المخزن في وقائع «لا ينساها عاقل»، كما أخبره بشكاية نائب البرتغال أيضا بحجز سلع بعض من رعيته هناك^(٢٤) طالبا منه التدخل لصالحهم فأجاب «بأن يتأمل هل لجانب المخزن مرسى مفتوحة بالريف وثقف على أحد من التجار حمل سلعته منها أو إليها وهل أذن لأحد بتوجيه السلعة بحرا لغير المراسي المفتوحة^(٢٥)».

في شهر ماي ١٩٠٠م كتب القائد أبو بكر الورياغلي إلى النائب الطريس بأنه لا تزال هناك قوارب تتوجه من مرسى تطوان وترسو في جزيرتي بادس والنكور محملة بالسلع المهربة. هذا ما يتبين من جواب أحد أمناء تطوان للنائب الطريس حول هذه المسألة، والذي يؤكد له أن القوارب لا يمكنها ذلك لأنهم نصبوا ما يكفي من الحراسة، إلا إذا كانت تلتقي في عرض البحر مع مراكب أخرى وهناك تشحن بالسلع ثم تتوجه بها. يقول في الرسالة: «فاعلم سيادتكم إنما هو من أمر هذه المرسى فإن العسة عندنا هناك منصوبة بقصد ما ذكر من أمر

المخزن تعيين أحد مركبيه الحسني أو التركي للقيام بالحراسة على طول الساحل من طنجة إلى مليلية بقصد ترصد قوارب أهل الريف التي تهاجم مراكب الأوربيين، أو التي تهرب السلع، أو المتوجهة كل هذا لاقتناع المخزن بدور التهريب في كل المشاكل التي كانت تعرفها المنطقة، ففي آخر الرسالة «فإن أصل كل علة من الكطربانض كما لا يخفى^(١٩)».

في سنة ١٨٩٧م كلف السلطان المولى عبد العزيز الأمين محمد اللبادي بإجراء مفاوضات مع نائبي إسبانيا وإنجلترا في شأن مسألة التعاون على مكافحة التهريب بين جبل طارق وحجرة النكور، فكان من نتائج ذلك أن اقترح النائب الإسباني على المخزن تعيين مراقب له بحجرة النكور لمراقبة قوارب الريفيين التي تقصد الجزيرة، ومدى التزامها ببطائق الترخيص، «ثم شافهك نائب الصبنيول بإمكان جعل مكلف من قبل المخزن بحجرة النكور لقبول ما يأتي من الفلائك ببطائق التسريح ورد ما عداها^(٢٠)». ولكن المخزن اعتبر أن ذلك غير كاف، إذ كان هدفه هو تعاون الإسبان والإنجليز في منع تلك القوارب مطلقا من نقل السلع إلى الجزيرة، لأن التظاهر بالاتجار في تلك السلع إنما هو وسيلة لنقل كل أصناف الممنوعات. ولذلك بدا للمخزن أن الحل الأجدي والأنفع هو تخصيص أحد مراكبه للقيام بمهمة حراسة سواحل المتوسطية، «فإن البابور الذي اقتضى نظر المخزن جعله وردكوشطا هو الأنفع في حسم مادة هذا الضرر من الجهتين إن شاء الله حسبما قدمناه لكم^(٢١)». إن مسألة تعيين مركب التركي أو الحسني لحراسة سواحل الريف قد اعترضتها مجموعة من المشاكل، منها حاجتهما معا إلى التوجه لإسبانيا قصد الإصلاح والمسح، وكان على المراكب المتوجهة إلى هناك الانتظار لمدة معينة بسبب الحجر الصحي، كما كانت للمخزن حاجة بهما، أو على الأقل بأحدهما في مدن مغربية أخرى^(٢٢)... ولكن بعد سنة تقريبا، وتزامنا مع إفاد المخزن للحملة التأديبية قصد تأديب بقوة، تم تكليف رئيس مركب التريكي بجر جميع قوارب الريفيين التي يجدها على الشواطئ، وكذلك القوارب الأجنبية، وحتى الراسية منها. ومنعت جميع أنشطة الملاحة التجارية من وإلى الريف بدعوى عدم توفر المخزن على مرسى مفتوح

Moreno، ويطلب إصدار الأوامر بالبحث عنه وتسليمه، «وعلى ما قاله قائد العسة المراكشية الكاينة بتلك الحدادة للحاكم المذكور، المسجون المذكور هرب إلى بتسكلى بقبيلة بقوية البعيد أربعة ساعات من حصن بادس وحالته عظيمة بسبب الجرح الصادر له عند هروبه، فالمرجو منكم تسرعوا بإعطاء الأوامر الأكيدة لمن يجب بالقبض على المسجون المذكور ورده إلى حاكم بادس»^(٢٠)، ولم يسعفنا البحث في التوصل إلى معلومات أو وثائق أخرى لمعرفة مصير هذا السجين لاحقاً.

وفي شهر يونيو ١٨٨٩م كتب النائب الطريس إلى السلطان الحسن الأول مخبراً إياه برسالة توصل بها من مفوض إسبانيا ومضمونها أن «مسجون من أحد بحريتهم اسمه مكيل لويس فر من حصن النكور في شهر غشت الفارط وأنه قاطن بقبيلة بقوية المجاورة للحصن المذكور وطالب في اسم دولته يلتمس الوقوف في طلب صدور الأمر الشريف أسماء الله بالقبض على بحريهم المذكور ودفعه لحاكم حصن النكور»^(٢١)، ويضيف في الرسالة نفسها أن سكان تلك القبائل يتعاونون مع أولئك الفارين ويحمونهم، وأنه سبق أن فر إليهم سجينان آخران فطالبهم حاكم الحصن مراراً بردهم فامتنعوا، ولذلك طالب بإلحاح بتعويض حراسة السكان المحليين بحرس محزني. وفي ٢٢ يونيو ١٨٨٩م جاء جواب السلطان بالتوصل بالرسالة المشار إليها، ومما أجاب به عليها أن «المساجين الثلاثة الفارون من النكور فقد أمرنا عامل القبائل المجاورين لتلك الحصون بالبحث عنهم ودفعهم للحاكم المذكور وأكدنا عليه في ذلك وفي ضبط أمر العسة»^(٢٢).

وفي شهر غشت ١٨٩٥، نجد رسالة جوابية من القائد محمد أنفلوس إلى النائب الطريس مخبراً إياه بالتوصل برسالته حول قضية نصرانيين فرا من حجرة النكور، واللذان كانا بمنزل رجل من قبيلة بني ورياغل يدعى «مح بن حدو»، حيث أمره فيها الطريس ببذل ما أمكن من الجهد والسياسة، من أجل الإمساك بهما وتسليمهما لحاكم الجزيرة. ولكن في جواب القائد المذكور صرح أنه قام بكل ما في وسعه دون جدوى، «نعم سيدي فقد بحثنا في قضيتهم أولاً وثانياً وما قصرنا في بعث العسكر لهنالك ومن نثق به فإذا به لم يقع أحد

الكنطريانض جاعلين عينا وأذنا عن ذلك والأمناء قائمين على ساق سالكين القاعدة في ذلك اللهم إن كانت تحمل داخل البحر من البراكوا الذين يأتون من جبل طارق ويتعرضون لهم بناحية غمارة ويتوجهون بها...»^(٢٣).

ثالثاً: فرار السجناء من الجزر

كان من بين القضايا المطروحة في العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن التاسع عشر، فرار السجناء من حين لآخر من الحصون المحتلة إلى المناطق المجاورة. فقد أشار أوجست مولييراس حين حديثه عن سجن جزيرة النكور «هذا السجن الرهيب» حسب وصفه، حيث قال أن الريفيين لا يستقبلون من الجزيرة سوى «الفارين من الجندية أو السجناء الإسبانين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والذين يفضلون الحياة بالريف على البقاء بالصخرة المربعة»^(٢٤).

هناك قصة مهمة منشورة عن تجربة أحد هؤلاء الذين فروا من سجن هذه الجزيرة، مما دونه الأستاذ عبد الحميد الرايس، وهي لخواكين إبانيث ببيدو Joaquin Ibanez Billedo قبل أن يصبح اسمه امحمد أريفي. وهو ينحدر من مدينة سرقسطة الإسبانية، كان محكوم عليه بالسجن المؤبد، وتم نقله بين عدة سجون إلى أن انتهى به الأمر في سجن جزيرة النكور، ولما طال مقامه في هذا السجن، صار يحظى ببعض الثقة لدى الحراس، حيث تحين الفرصة إلى أن أتحت له ليفر إلى قبيلة بقوية»^(٢٥).

كان الفار من الجزيرة - حسب مولييراس- يعلن إسلامه بمجرد وصوله إلى البر، فيحظى بالحماية من طرف القبيلة، وقد يحظى بسكن مريح وقطعة أرض، وإن كانت له رغبة في الزواج فإن سكان القبيلة يتنافسون في مصاهرته. كان يوجد الكثير منهم ببقوية، وبني يطففت وبني ورياغل، ومنهم من اغتنى بمدن مغربية كفاس ومراكش، أو اندمج بقبائل داخلية وخلف أحفادا لا يعرفون قصة جدهم الذي كان سجيناً أوروبياً^(٢٦).

ومن بين الوثائق التي تتضمن معلومات حول قضية فرار السجناء من الجزر، رسالة لمفوض إسبانيا بطنجة إلى النائب الطريس في غشت ١٨٨٥، حول فرار أحد السجناء من حصن بادس اسمه Jose Pastor

لمراقبة هذه الصخرة كل شهر، حيث كانت الأقسام الإحدى عشر للقبيلة تقدم رجالها بالتناوب، وكان أولئك الحراس يقضون ثلاثين يوماً على شاطئ البحر بخيامهم وأسلحتهم وكل أفراد عائلاتهم. وهم يراقبون تحركات أفراد الحامية الإسبانية، ويكونون دوماً على أهبة الاستعداد لصد كل محاولة من الإسبان يقومون بها للنزول إلى البر^(٣٥). أما جرمان عياش فإنه يتحدث عن حصار للجزيرة وعزلها حتى لا تستفيد من الاتجار مع السكان المحليين أو الحصول على شيء منهم، وهي مهمة قامت بها القبائل خير قيام، بحيث بات على الحصون أن تستورد من إسبانيا كل ما تحتاج إليه، بما في ذلك الماء^(٣٦).

إن هذا العمل الجدي والصارم لنوبات الحراسة التي تنظمها القبائل لم يكن ليرضي الإسبان الذين كانت لحصونهم الكثير من الحاجيات التي بالإمكان الحصول عليها من المناطق المجاورة، كما كانت لها مخططات وأهداف استعمارية تقتضي فتح أبواب الاختلاط بالأهالي. ولذلك ظلت إسبانيا تطالب السلطات المغربية باستبدال عناصر الحراسة المحلية بالعناصر المخزية، وذلك ما تحقق تدريجياً، إلى أن صارت دوريات الحراسة لجزيرتي بادس والنكور تتكون من الجيش، ويتم تعيينها على يد عامل طنجة^(٣٧).

كان من بين الذرائع القوية للإسبان لمطالبتهم باستبدال عناصر الحراسة الحدودية، هروب بعض السجناء الإسبان إلى الريف، وتأكيد إسبانيا أن الريفيين، بما فيهم دوريات الحرس، يتواطؤون مع أولئك السجناء ويساعدونهم على الفرار، بل ويعملون على إخفائهم وحمايتهم. «فيطلبون جعل العسة الكافية بجدادة تلك الحصون من المخزنية (...) حيث العسة الموجودة الآن هنالك هي من أهل الريف الذين يستجلبون فرار مساجنهم من الأسجان ويقوونهم على ذلك بسبب حمايتهم لهم^(٣٨)». وما لبث أن جاء الجواب من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس أنه أكد على عامل قبائل الريف «في ضبط أمر العسة والاعتناء بشأنها ريثما تجعل من المخازنية ويرتب أمرها^(٣٩)».

على أثرهما ولا وجدنا من عنده خبر بهروبهما قط^(٣٣). لذا ألا يحق لنا التساؤل: ألا تكون قصص الفرار هذه، أو بعض منها على الأقل، من اختلاق بعض المسؤولين الإسبان كوسيلة من وسائل الضغط على المخزن وابتزازهم؟ إن لم تكن هذه المسألة مؤكدة، فإن أموراً أخرى تصب في هذا الاتجاه، كانت واردة بالتأكيد، حيث كان هؤلاء الإسبان يلجأون إلى الكثير من تزييف وقلب الحقائق من أجل تحقيق مبتغاهم.

ومما تجدر الإشارة إليه؛ أنه كانت هناك أيضاً حالات فرار من الريف إلى الجزيرة، ولكنها حالات قليلة ونادرة، كما أن الجزيرة بالنسبة للفرارين من الريف كانت مجرد نقطة عبور للإبحار منها في اتجاه سبتة أو مليلية أو حتى إلى الجزائر. ومن الوثائق التي تشير إلى حالة من هذا القبيل الرسالة التي بعثها مفوض إسبانيا فرانسيسكو رفائيل فكيرة Fransisco R. Figuera إلى النائب الطريس يوم ٢١ مارس ١٨٩٣م، في موضوع رجل يدعى عبد السلام الورياغلي، والذي هرب بامرأتين إلى حجرة النكور. وقد أخبره فيها برفع القضية إلى دولته لتأمر حاكم الجزيرة بما يجب عليه فعله في ذلك. كما وعده بأنه سيعلمه فور توصله بأي جواب في القضية^(٣٤).

رابعاً: الحراسة الساحلية

كان احتلال الإسبان للثغور والجزر التي تمكنوا منها على الساحل المتوسطي، بما في ذلك جزيرة النكور المستعمرة منذ سنة ١٥٥٩م، سبباً في حالة من القلق لدى سكان المناطق المجاورة. وكان الأمر يحتم عليهم منذ البداية التفكير في أشكال وطرق مقاومة هذا الغازي الدخيل، أو على الأقل تنظيم الحراسة على طول المناطق المحيطة به بشكل مستمر ودائم، حتى لا يشعر هذا المحتل بالأمان أو يفكر في التغلغل داخل البلاد.

ومع ما كانت تطرحه هذه المسألة من صعوبات وتكاليف بالنسبة للسلطة المركزية، فقد كان ينظمها أهالي المناطق المجاورة للحصن المحتل بالتناوب. يقول أوجست مولييراس في هذا الصدد أن تواجد الإسبانين بصخرة النكور، كلف بني ورياغل تجنيد مائة حارس

السلع المهربة^(٤٣). ولكن حتى هذه المسألة اعترضتها مجموعة من المشاكل فلم تتم على الوجه المطلوب.

خامساً: الاصطدامات مع إسبان حجرة النكور

يبدو من خلال تأمل سياسة الإسبان تجاه المغرب من خلال الجيوب والثغور المحتلة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وجود مخطط كانت تهدف إسبانيا من خلاله إلى إيجاد ذرائع مختلفة لابتزاز المغرب والدفع به للتنازلات المتتالية، والتي تستغلها لتحقيق مختلف الأهداف التي كانت ترمي إليها. وإذا كانت غطرسة إسبانيا ما بعد حرب تطوان، قد اصطدمت بشجاعة وصمود سكان القبائل المجاورة للحصون والثغور المحتلة، والذين وقفوا في وجه سياساتها تجاه المنطقة، فقد فكرت في استغلالهم كورقة ضغط تشهرها في وجه المخزن الذي كانت تربطه بها مجموعة من المعاهدات والالتزامات. ولهذا كانت هناك جهات إسبانية تعمل على الدوام على خلق نقط اصطدام ويؤثر توتر مع الأهالي، ليبدأ تقديم الشكاوى للمخزن بطريقة يظهر فيها مواطنيهم بمظهر الضحية الذين يتعرضون للاعتداء والظلم على يد الريفيين.

ومن أبرز الأمثلة على ما أشرنا إليه، ما وقع من ادعاء حاكم جزيرة النكور في ربيع سنة ١٨٨٥م، من التعرض لاعتداء وضرب، رفقة خليفته ومترجمه وبحارين معه، على يد مجموعة من أهالي قبيلة بني ورياغل على الشاطئ المقابل للجزيرة^(٤٤). وحتى لا يترك مجالاً لتوجيه اللوم إليه حول داعي خروجه إلى ذلك الشاطئ على غير عادة حكام الجزيرة، فقد أقحم في القضية القائد زيان الورياغلي مدعياً أنه وجه له الدعوة للنزول للبر، ولما نزل هو ومن كان برفقته أشار القائد زيان على إخوانه بضربهم وبسرقة قارب لهم ففعلوا^(٤٥). والغريب في هذه المسألة هو أنه رغم تحقق المخزن من براءة هذا القائد مما نسب إليه، إذ «كان وقع البحث فيه فتتحقق أن زيانا بريء من ذلك وأن إخوانه فعلوه بغير إذنه بغتة»، إلا أنه سيتعرض للعقاب والسجن لمدة طويلة إرضاء للإسبان^(٤٦).

كان أكبر مشكل ترتب عن مسألة اعتماد عناصر نظامية للقيام بدور حراسة السواحل المقابلة للجزر المحتلة، هو مشكل مصدر التموين ودفع مستحقات أولئك الحرس، ذلك أن العناصر المحلية كانت تعتمد على التموين الذاتي والتآزر والتضامن الاجتماعي القائم فيما بينهم، سواء كان ذلك من منطلق الوازع الديني أو الغيرة الوطنية. بينما العناصر العسكرية التي عوضتهم عجز المخزن عن تموينها، خاصة بعد تراجع مداخيل ديوانة مليلية بسبب تفشي تجارة التهريب^(٤٧). ولذلك صار عدد العسكر المعين لذلك ينخفض تدريجياً، كما صارت دورياتهم عاجزة عن فعل أي شيء أمام تفاقم مشاكل التهريب والقرصنة والتدخلات الأجنبية. وهذا ما عبر عنه المولى عبد العزيز في إحدى رسائله حين قال: «فقد بلغ علمنا الشريف أن العدد من العسكر السعيد المعين لعستي بادس والنكور معطل ولا يقوم بشيء وقد أمرنا بتعيين غيره للقيام بذلك^(٤٨)».

وكان يحدث أحياناً أن يقع خلاف بين أفراد الحراسة المعينين من طرف المخزن وأهالي المنطقة، بسبب ما قد يحدثه من تغييرات على النمط الذي دأب عليه أولئك الأهالي، أو على علاقاتهم بإسبان الجزيرة، وتتطور تلك الخلافات إلى نزاع أو حتى مواجهات عنيفة، كما حدث في شهر غشت ١٨٩١م، وجاء في رسالة للقائدين أحمد الركينة وحميدة بناني إلى النائب الطريس «بلغنا أن عسكر عسة النكور وقع بينه وبين بني ورياغل أهل المحل شأن حتى آل الأمر إلى الضرب وجرح أحد العسكر وفروا من هناك وبقي العسة خالية ووصل منهم لبادس أحد عشر نفرًا وقائدهم سافر لشريف الحضرة^(٤٩)».

وحين تفشت ظاهرة اعتراض قوارب الأجانب، وكثرة شكاوى الدول الأوروبية المقدمة للسلطان من استهداف سفنهم بالريف، ومطالبتهم بإياه بدفع التعويضات والمغارم الثقيلة. وتفشي ظاهرة الاتجار المحظور في سائر سواحل المنطقة. قرر جعل الساحل المتوسطي كله تحت حراسة المخزن. وذلك بتعيين مراكب المخزن لحراسة السواحل، بقصد مراقبة الريفيين ومنع أنشطتهم وتقليلهم البحرية، إلا بعد الحصول على ترخيص بذلك. وكذلك مطالبة الأجانب بالإذن في تفتيش قواربهم التي تعبر هذه المنطقة للتأكد من خلوها من

تم القبض على المتورطين في هذه القضية، وكذلك على القائد زيان الورياغلي رغم علم المخزن ببراءته، أو لنقل أن المخزن أرغم على ذلك كما يتبين، «ومع ثبوت براءة زيان من ذلك قبض عليه وعلى البعض من إخوانه وعوضت لهم الفلوكة (أي لإسبان النكور) جبرا للخواطر وهذه مدة تتأهل العامين والمذكور وإخوانه بالسجن»^(٥٠)، ومما يثبت أن المخزن دفع للقبض عليهم دفعا، ما نستشفه من رسالة للسلطان الحسن الأول إلى النائب الطريس، حيث يتبين جليا عطفه وإشفاقه عليهم، ولكن يبدو أن أمر إطلاق سراحهم كان يتوقف على موافقة القنصل الإسباني، حيث يقول: «وحتى على فرض عدم براءته من ذلك فقد بلغت فيه العقوبة حدا بطول سجنه وتعين تسريحه هو وإخوانه، وعليه فنأمر أن تعرف الباشدور بذلك وبعدم بقاء وجه لسجنهم حيث الأمر كما ذكر»^(٥١).

وفي قضية أخرى، حدث مساء يوم خامس يوليوز ١٨٩٣م أن هاجم بعض من بني ورياغل قارب إسباني بخليج النكور. كان على متن هذا القارب المملوك لإسباني من الجزيرة يدعى خوكين غرسيا، مقدم عسة البحر وبحار ومترجم، إضافة إلى رجل من بقوة يدعى موحا بن عمر. كان هؤلاء حسب ما زعمه الإسبان يشتغلون بصيد السمك بالخليج، ولما رآهم الورياغليون الذين كانوا على متن قارب آخر، هاجموهم وأطلقوا عليهم النار، واستمروا على ذلك لمدة حتى أصيب ركاب القارب كلهم بجروح مختلفة، إلى أن بادد الرجل البقيوي الذي كان معهم بقيادة القارب إلى وجهة مختلفة ليحفظ نفسه ومن معه من الهلاك»^(٥٢). وأما فيما يخص وجهة النظر الرسمية المغربية إلى القضية فإنها مختلفة، ذلك أن القارب المذكور إنما كان يستعمل في التهريب، وأما الذين أطلقوا عليه النار فهم دورية الحراسة من قبيلة بني ورياغل، «وصلنا كتابكم مخبرا فيه بسبب الضرب الواقع في حجرة النكور بين ركاب أهل المركب الإصبيولي وبين عسة أهل الريف من قبيلة بني ورياغل واستخبرتم أنه كان بداخل المركب كنطريندو»^(٥٣).

إثر هذه الحادثة أمر حاكم جزيرة النكور بإلقاء القبض على خمسة رجال من بني ورياغل الذين يقصدون الجزيرة من أجل التسوق، لأنهم ذهبوا إلى

فيما يتعلق بسبب إقدام هذه المجموعة من الورياغليين على ضرب هؤلاء الإسبان فإننا نقف على روايتين مختلفتين: تقول إحداها أن «موجب فعلهم لذلك قتل نصرى النكور رجلا من بني ورياغل توجه للنكور يقبض دينا له على البعض من أهل النكور وإلقاؤهم إياه في البحر فلفظه وعثر عليه إخوانه»^(٥٤)، أما الرواية الثانية فتقول إن مجموعة من الورياغليين كان لهم دين على رجل بقيوي تماطل في أدائه لهم، فعملوا على مصادرة قارب له من إحدى مراسي بقوة. فادعى بعض الإسبان أن القارب المصادر إنما هو في ملكهم، ولذلك نزل حاكم الجزيرة وخليفته والمترجم مع بعض البحارة إلى الشاطئ لتقديم الشكوى والتداول في القضية مع القائد زيان. وهناك على الشاطئ حضر مصادرو القارب ونازعوهم في كون القارب لهم، وإنما هو للبقوي ولا دخل للإسبان في القضية، فبدأ النزاع والتدافع بين الفريقين، «ووقع بينهم لجاج أفضى إلى وقوع الضرب بالحجارة فرجعوا لفلوكتهم وذهبوا للحجرة وأخذوا في ضرب ديار الضاريين بذلك بالمدافع وهدموا دارا منها وفي ضرب من رأوه من المسلمين بالبر بمكاحل الكلاطة»^(٥٥).

أصدر المخزن إثر هذه الحادثة أوامره إلى القائد زيان للقبض على الورياغليين المتورطين في القضية، كما أمر بالاستعداد لشن حملة تأديبية على قبيلة بني ورياغل بأكملها إذا ما حاولت الدفاع عن تلك المجموعة وحمايتها، فاستقدم لذلك «عمال كلعية وأمنائها والأمين العسري والخديم مبارك الذوبلاني (...) والنزول بأنفسهم على بني ورياغل والوقوف في قبض الفاعلين». ووجه أيضا قائد الرحى العربي بن بوعزة الأودي على رأس عدد من الخيالة، لما عرف به من الحزم والصرامة والإخلاص في خدمة المخزن، للنزول على بني ورياغل، وقد تلقى الأوامر «بالجد في قبض الفعال ليجرى عليهم ما يستوجبونه من الأحكام على ذلك». وفي نفس الوقت أمر السلطان عمال بني ورياغل بالإقدام إليه مصحوبين بأعيان القبيلة بقصد «إتمام فصال النازلة وحسم مادتها»^(٥٦).

أوخذا فقال في رسالة له أنه يجب على المخزن - قبل الحديث عن إطلاق سراح المقبوضين - أداء مصاريف العلاج وتعويض الضرر لضحايا الهجوم، والذي قدره ب ١٩٥١٩,٧١ بسيطة مع زجر منفذي الهجوم. ثم أضاف فيما يشبه النص: «نطالعكم كل الأمر الذي بيدنا لترد بالكم في المصلحة الكاينة في ترك كثرة الهجوم في تلك الناحية من الإيالة بحيث إذا أداموا على هذه الحالة من غير زجر ولا معاقبة يمكن أن يصدر من ذلك ضرر ومشاحنة عظيمة»^(٥٩).

سادساً: قضية قارب إميليا فرنانديث

في الخامس من شهر يوليوز ١٩٠٠م، تقدمت امرأة من حجرة النكور تدعى إميليا فرنانديث بشكاية إلى حاكم الجزيرة مفادها أن زورقا لها يشتغل فيه رجل مسلم يدعى حمادي بوعزة على وجه الكراء، كان ينقل به الزاد كعادته من شاطئ بني ورياغل إلى الجزيرة، ولما عثر عليه بعض المخازنية صادروا منه القارب. ولما طالب الحاكم من قائد القبيلة برد القارب امتنع وصار يختلق الأعذار. وادعى الإسبان أن هذا القائد أرسل لاحقا مقدما رفقة أحد المسلمين إلى حاكم الجزيرة يطلبون منه أداء مبلغ عشرين بسيطة مقابل تسليم القارب، وما دام الحاكم لم يقبل بذلك، فقد توجهوا إلى دار صاحبة القارب نفسها وطلبا منها المبلغ، فأعطتهما إياه ليردا لها القارب. ولكنها فقدت منه بعض الأغراض من قبيل المجاديف والكرسي ورقعة كتان طولها ٢٥ مترا ومصباح، وقدرت قيمة هذه الأشياء كلها ب ١٧٥ بسيطة، فطالب الإسبان برد هذه الأشياء المفقودة مع العشرين بسيطة لتلك المرأة، إضافة إلى زجر ومعاقبة منفذي هذه المصادرة^(٦٠).

أما جواب المخزن على هذه القضية فقد تمثل فيما أجاب به النائب محمد الطريس مفوض إسبانيا في ٣١ غشت ١٩٠٠م من كون «مصارفة أهل الحجرة مع أهل الريف ممنوعة ولا تسوغ بوجه ولا بحال وإذن جانب المخزن رعاه الله مقصور على المؤنة والفرشك لا غير»^(٦١)، معنى هذا أن الزورق المذكور كان يتاجر في أمور غير تلك التي يقتصر عليها اتفاق التموين، كما أن مكان إرسائه لشراء الزاد يوجد خارج النقطة المسموح

الجزيرة على متن قارب به ثقوب للبنادق، وتبين للإسبان أنه نفس القارب الذي وقع منه الهجوم على قاربهم. كما أنهم لم يتوصلوا في القضية إلا بوعده من نائب السلطان بالبحث في النازلة، مع الإشارة إلى أنه طلب منهم على لسان السلطان بإطلاق سراح هؤلاء رغم أنه - حسب ادعائهم - لم يظهر أي دليل على التهريب^(٥٤). وفي وثيقة أخرى فإن المقبوض عليهم ستة، وقد تحقق منهم الإسبان من خلال القارب الذي وردوا به، كما أن حاكم الجزيرة دعا مقدم القبيلة للمجيء إليه للتداول في القضية فأبى ذلك^(٥٥).

بعد القبض على أولئك الريفيين، طالب المخزن على لسان حاكم قلعية من مسؤولي إسبانيا نقلهم إلى مليلية ليتم التحقيق في القضية هنالك، ولكنهم بدل ذلك أحالوا القضية على حاكم مدينة مألقة. ونستشف من رسالة للنائب الطريس إلى مفوض إسبانيا بالمغرب نوعا من الاحتجاج، حيث جاء فيها: «فلا يخفى عن جنابكم أن القبض على المسلمين المتسوقين من غير موجب ينشأ عنه أمور تكدير الخواطر وتضرر بالمقصود عند الجانبين من حسن المخالطة والجوار»^(٥٦)، وأضاف أن السلطان كلفه بالحديث معه لالتماس الوقوف إلى جانبه في مسألة نقل أولئك المسلمين إلى سجن مليلية ريثما يقع البحث الكافي في الدعوى، ومعرفة المذنبين الحقيقيين في القضية لإعطاء كل ذي حق حقه، مع إضافة في هامش الرسالة مفادها أن أولئك لم يقترفوا جرما، وأنه لا يجوز قبض مسلمين عوضاً عن إخوانهم دون موجب حق^(٥٧).

أما الإسبان فقد برروا القبض بتماطل المخزن في التعامل مع القضايا التي يرفعونها إليه، حيث جاء في رسالة المفوض فرناري أنه كان على حكام المغرب أن يثبتوا «حسن المخالطة والمحبة» التي بين الدولتين بمضاعفة مجهودهم في البحث في القضية لإعطاء الحقوق لذويها كما تفعل إسبانيا في مثل هذه القضايا، «فالواجب على حاكم بني ورياغل حالا أن يبحث البحث الكافي على الهاجمين على المركب المذكور حتى يتوصلون بهم الولايات ويجر عليهم الحكم الواجب لهم وبعده نواعدكم على تسريح الأناس المقبوضين هناك إذا لم يكن لهم مدخلا في هذه النازلة»^(٥٨). أما المفوض إميليو

خاتمة

إن الخلاصة التي يمكننا الخروج بها من دراسة مستويات العلاقة بين إسبانيا والمغرب من خلال هذا النموذج المحلي، هي أن هذه القضايا مترابطة ومتكاملة لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى، وهي تلتقي جميعاً تحت عنوان واحد وهو: جهود الإسبان لزعزعة الاستقرار بالمنطقة، والمساهمة في إنتاج الفوضى في مختلف تجلياتها، واستغلال ذلك لابتزاز المخزن عن طريق المطالبة بالمغارم والتعويضات.

ففي الوقت الذي أقام فيه المغرب إدارة جمركية لتنظيم التنقل ونقل البضائع بين البر الريفي والجزيرة، وخصص مكاناً للإتجار مع الإسبان فيما يتعلق بالتموين، كان الإسبان يتجنبون هذه النقاط ويمارسون التجارة على السواحل المهجورة البعيدة، بما في ذلك الإتجار في مختلف أنواع الممنوعات، كل هذا أمام أعين المسؤولين الإسبان، بل أكثر من ذلك كانوا يستقبلون بالجزيرة قوارب قادمة من جبل طارق محملة بالسلع، وهم يعلمون أنها لن تروج إلا في الريف. وحين يضبط قارب تهريب إسباني من طرف مسؤولي الحراسة المغاربة، فإنهم يزيفون الحقائق ويعتبرون العملية غارة قرصنية مطالبين المخزن بالتعويض ومعاقبة الفاعلين.

وحين قيام الريفيين بحراسة السواحل عن طريق التناوب والتعاون فيما بينهم، فإن إسبانيا استغلت كل الوسائل والمبررات لتجعل المخزن يستغني تدريجياً عن تطوع الأهالي ويعوضهم بحرس نظامي، ومع الوقت طرح مشكل تموين أفراد الحراسة بسبب عجز ديوانة مليلية عن ذلك لأن تفشي التهريب قضى على مداخيل الجمارك إلى حد الإفلاس.

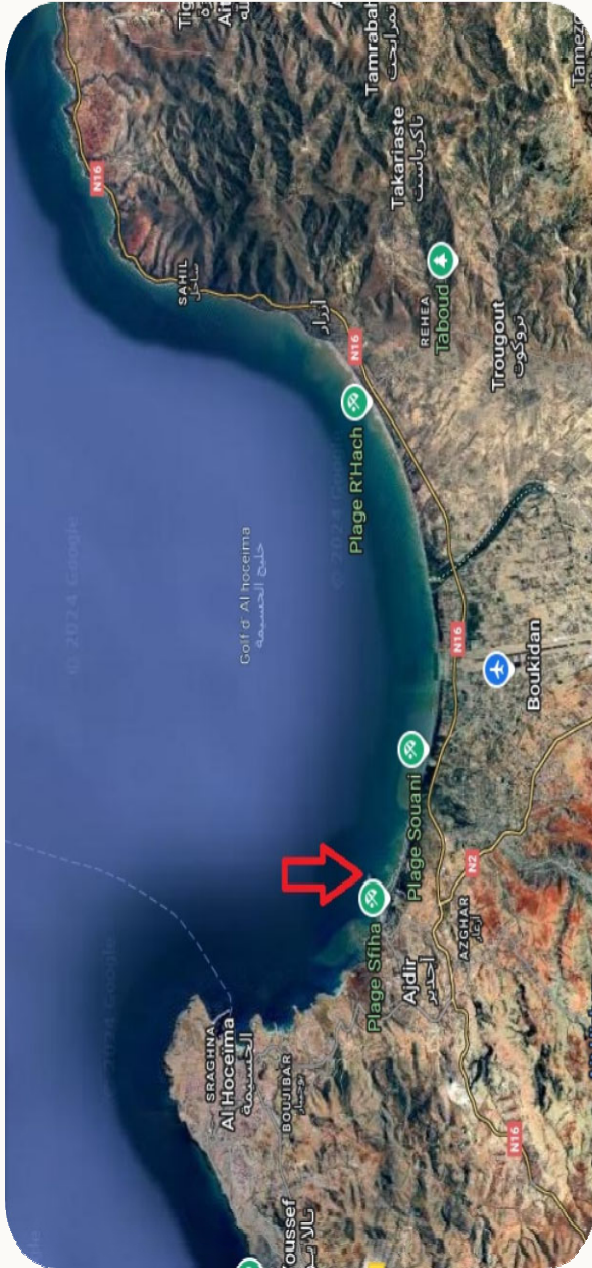
يظهر جلياً دور الإسبان في خلخلة الأوضاع الأمنية والاقتصادية بالمنطقة، مع العلم أن هذا الوضع لم يكن مقتصرًا على هذه المنطقة فحسب، بل كان مشابهاً في مختلف المناطق، فضلاً عن نفس هذه الضغوطات كانت تمارس على المغرب من مختلف الدول الأوروبية الأخرى المتنافسة عليه.

فيها بتنظيم الاتجار بين الأهالي والإسبان. يضيف في الرسالة: «وإنما المصارفة بهذا الوجه المذكور فهي تجر للمحاكمة مع جانب المخزن كما لا يخفى وحينئذ فالواجب أن تصدر إذنكم الأكيد لحاكم الحجرة بحسم مادة المصارفة مع أهل تلك الناحية لما علمت وإلا فلا محالة ترفع القضية للحضرة الشريفة لتأمر فيها بالمتعين»^(٦٢).

في التاسع من شهر أكتوبر كرر مفوض إسبانيا الكتابة للنائب الطريس بعدما أعلم حكومة دولته بالجواب المتوصل به سابقاً، ويخبره أن إسبانيا لا ترى الكفاية في ذلك الجواب، بل وترى فيه إثباتاً لعدالة مطالبهم، ما دام هناك إطار قانوني يخول لهم حق استيراد المؤن والزاد من سكان القبائل المجاورة، ذلك أن الزورق المصادر كان يأتي لهذا الغرض. وأكد له أن القوانين المعمول بها في شأن تجارة التموين تخول لهم حق استعمال القوارب لنقل البضائع المقتناة، وأن ولاية المخزن إذا رفضوا ذلك فهم مخالفون للقوانين^(٦٣). وأضاف أنه حتى ولو كان الزورق يمارس التهريب، فيكون لدوريات الحراسة الحق في حجز البضائع المهربة دون مصادرة الزورق أو تكسيهه أو مطالبة فديته بمبالغ مالية. ولذلك طلب رفع القضية إلى المخزن المركزي لحلها بدفع التعويضات المطلوبة ومعاقبة الجانين^(٦٤).

أما المخزن فقد تشبث بأن هذا الزورق قد اقترف أمراً ممنوعاً وهو الاتجار خارج المكان المسموح فيه بذلك، «الذي ثبت (...) هو كون الفلوكة قبض بها الكنطريندوا ووردت لأجله ليلاً»^(٦٥)، وأضيفت في هامش الرسالة إشارة إلى نوع البضاعة التي ضبطت الزورق متلبساً بنقلها إلى الجزيرة «وهو عدد من البقر». وأن الذين ظفروا به ليسوا من عامة الناس، بل هم رجال المخزن المكلفون بالحراسة. وأنه ما دام أصحاب هذا الزورق قد أقدموا على ارتكاب أمر لا يسوغ ارتكابه، فهم من يستحق العقوبة والزجر، «وتتوجه العقوبة على المقبوض عليه بما ذكر وجنايكم لا يكاد يوافق على ارتكابه والترخيص في شأنه»^(٦٦).

ملحق رقم (٢)
صورة فضائية لخليج الحسيمة
مع توضيح موقع جزيرة النكور
(حيث يشير السهم)



المصدر: ملتقط من خريطة google map

الملاحق

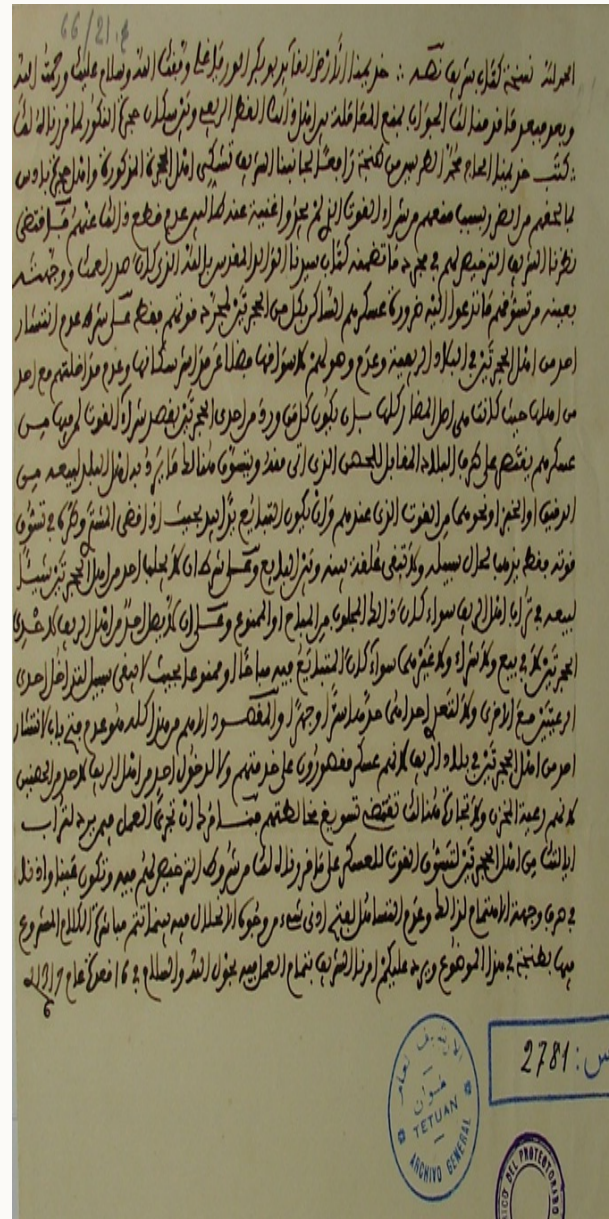
ملحق رقم (١)
صورتان حديثتان لجزيرة النكور المحتلة



المصدر: صور متداولة على شبكة الإنترنت.

ملحق رقم (٣)

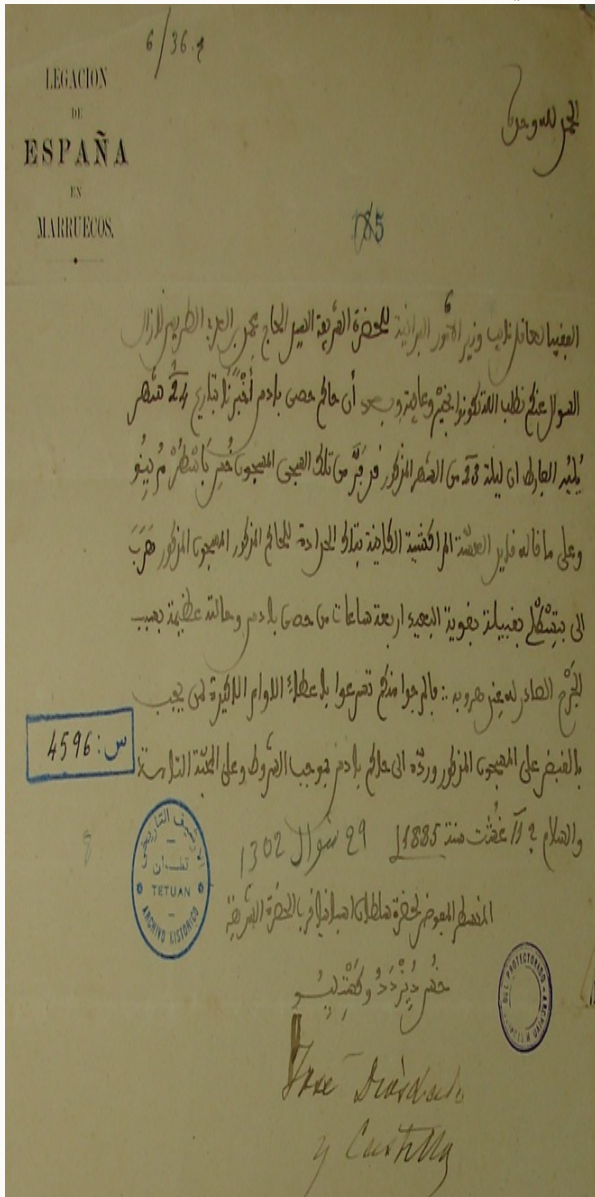
نسخة من رسالة سلطانية إلى القائد بوبكر الوريياغلي
حول تجارة التموين مع الجزر المحتلة



المصدر: المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان/ مح ٦٦/٢١

ملحق رقم (٤)

رسالة من مفوض إسبانيا بطنجة إلى النائب محمد
العربي الطريس حول قضية فرار السجناء من الجزر



المصدر: المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦/٣٦

الإحالات المرجعية:

- (٢٠) جواب من الحاجب أحمد بن موسى إلى الأمين محمد اللبادي بتاريخ ٢٦ صفر ١٣١٥هـ الموافق ٢٧ يوليو ١٨٩٧م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٢٩/٢٤ (٢١) نفسه.
- (٢٢) محمد أونين، حوليات الريف، ص. ٥١.
- (٢٣) رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٥ رجب عام ١٣١٦هـ الموافق ٨ دجنبر ١٨٩٨م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٩٧/٢٥.
- (٢٤) يتعلق الأمر بالتاجر اليهودي إسحاق بنتو الذي كان يخدم إسبانيا والبرتغال معاً.
- (٢٥) نفسه.
- (٢٦) رسالة من أحد أمناء مرسى تطوان إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٨ محرم ١٣١٨هـ الموافق ٢٨ ماي ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٩٠/٣٢.
- (٢٧) أوجست موليراس، المغرب المجهول، الجزء الأول: اكتشاف الريف، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز ٢، ص. ١٠٤.
- (٢٨) عبد الحميد الرايس، «وجوه خزامية (أحمد بوحافة: ريفي بألوان الطيف وقلب إنساني كاره للزيف)»، جريدة تيفراز، عدد ٣٢، يونيو ٢٠٠٨، الصفحة الأخيرة.
- (٢٩) أوجست موليراس، م س، ص. ١٠٥.
- (٣٠) رسالة من مفوض إسبانيا بطنجة خوسي ديزدادو كستيلو إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١١ غشت ١٨٨٥م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦٣/٦.
- (٣١) نسخة من رسالة للنائب محمد العربي الطريس إلى السلطان الحسن الأول، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٥٥/٣٧ (الوثيقة غير مؤرخة، ولكن رسالة مفوض إسبانيا التي تعلم بالتوصل بها كانت يوم ١٠ شوال عام ١٣٠٦هـ الموافق ٩ يونيو ١٨٨٩م، والمرجح أن هذه كانت بعدها بأيام قليلة).
- (٣٢) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٣ من شوال عام ١٣٠٦هـ الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٩م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٣٨/٧.
- (٣٣) رسالة من القائد محمد أنفلوس إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٤ ربيع الأول عام ١٣١٣هـ الموافق ٢٥ غشت ١٨٩٥م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٢٤/٧٩.
- (٣٤) رسالة من مفوض إسبانيا بالمغرب فرانسيسكو رفائيل فكيرة إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢١ مارس ١٨٩٣م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٨٣/٣٦.
- (٣٥) أوجست موليراس، م س، ص. ١٠٣.
- (٣٦) جرمان عياش، أصول حرب الريف، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسسماني، الشركة المغربية المتحدة، ١٩٩٢، ص. ١٢٢.
- (٣٧) محمد أونين، "القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ (١٨٥٦ - ١٨٩٨)"، ص ٣٩ - ٦٠، مجلة حوليات الريف، العدد الثاني، السنة الثانية، ١٩٩٩/١٤٢، ص. ٤٦-٤٧.
- (٣٨) رسالة من النائب محمد العربي الطريس إلى المخزن المركزي في شهر يونيو ١٨٨٩، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٥٥/٣٧.

- (١) انظر: الشرط السادس من المعاهدة المغربية الإسبانية حول توسيع حدود مليلية، والمنعقدة في ٢٤ غشت ١٨٥٩، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٣٨/٦٥.
- (٢) وثيقة غير مؤرخة تحتوي مطالب إسبانيا من الدولة المغربية، توجد في نسختين بالمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، والنسختان تحملان رقمي: مح ٦٧/٢٦، ومح ٦٧/٢٧.
- (٣) رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٧ شوال عام ١٣١٧هـ الموافق ٢٨ فبراير ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، س: ٣٣٩٢.
- (٤) نفسه.
- (٥) نفسه.
- (٦) رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى القائد بوبكر الورياعلي بتاريخ ١٦ ذي القعدة ١٣١٧هـ الموافق ١٨ مارس ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦٦/٢١.
- (٧) رسالة الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس، م س، س: ٣٣٩٢.
- (٨) رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٧ ذي القعدة ١٣١٧هـ الموافق ١٩ مارس ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١١٣/٢٦.
- (٩) رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٨ ذي الحجة ١٣١٧هـ الموافق ١٩ أبريل ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٢٤/٢٦.
- (١٠) نفسه.
- (١١) رسالة من المكلف بأشغال إسبانيا بالمغرب إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٦ ذو الحجة ١٣١٧هـ الموافق ٢٧ أبريل ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٢١٥/٣٦.
- (١٢) رسالة مخزنية إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٦ ذي القعدة ١٣١٧هـ الموافق ١٨ مارس ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦٦/٢١.
- (١٣) محمد أونين، «القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ (١٨٥٦ - ١٨٩٨م)»، ص ٣٩ - ٦٠، مجلة حوليات الريف، العدد الثاني، السنة الثانية، ١٩٩٩/١٤٢، ص. ٤٤.
- (١٤) نفسه، ص. ٥٢.
- (١٥) محمد أونين «المجتمع الريفي قبل المقاومة ١٨٩٧ - ١٩٢١ مقارنة تاريخية جديدة»، ص ٢٢٠ - ٢٢٦، مجلة أمل، ع ٨، ١٩٩٦، ص ١٣ - ١٤.
- (١٦) رسالة من القائدين أحمد مدينة وأحمد الحاحي إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية ١٣١٢هـ الموافق ٢١ دجنبر ١٨٩٤م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٥٣/٧٨.
- (١٧) نفسه.
- (١٨) رسالة مخزنية إلى النائب محمد بن العربي الطريس بتاريخ ١٨ ربيع الثاني ١٣١٣هـ الموافق ٨ أكتوبر ١٨٩٥م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦٥/١٤.
- (١٩) رسالة مخزنية إلى النائب محمد بن العربي الطريس، م س، مح ٦٥/١٤.

- (٦٢) نفسه.
- (٦٣) رسالة من المفوض الإسباني إميليو أوخيدا Emilio de Ojeda إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦/١٥٥ (رقم مكرر).
- (٦٤) نفسه.
- (٦٥) جواب من النائب محمد العربي الطريس إلى مفوض إسبانيا إميليو إوخيدا Emilio Ojeda بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية ١٣١٨هـ الموافق ١٤ أكتوبر ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦/١٥٥.
- (٦٦) نفسه.
- (٣٩) رسالة مخزنية إلى محمد العربي الطريس في ٢٣ من شوال عام ١٣٠٦هـ الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٩م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٣٨/٧.
- (٤٠) محمد أونيس، "القرصنة الريفية..."، م س، ص. ٤٧.
- (٤١) رسالة سلطانية إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٦ شوال ١٣١٢هـ الموافق ٢١ أبريل ١٨٩٥م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٩٦/١٣.
- (٤٢) رسالة من القائدين أحمد الركينة وحميصة بناني إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢ محرم ١٣٠٩هـ الموافق ٨ غشت ١٨٩١م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٤/٧٥.
- (٤٣) رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٨ ربيع الثاني ١٣١٣ الموافق ٨ أكتوبر ١٨٩٥، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٦٥/١٤.
- (٤٤) رسالة مخزنية إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ١٣٠٢هـ الموافق ٢٨ مارس ١٨٨٥م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١١/٢١.
- (٤٥) رسالة مخزنية إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٣ ذي القعدة ١٣٠٣هـ الموافق ٣ غشت ١٨٨٦م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٢٠٨/٤.
- (٤٦) نفسه.
- (٤٧) نفسه.
- (٤٨) رسالة مخزنية إلى النائب محمد العربي الطريس، م س، مح ١١/٢١.
- (٤٩) نفسه.
- (٥٠) رسالة مخزنية إلى النائب محمد العربي الطريس، م س، مح ٢٠٨/٤.
- (٥١) نفسه.
- (٥٢) رسالة من مفوض إسبانيا بالمغرب إميليو أوخيدا Emilio Ojeda إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٣ ذي الحجة ١٣١٢هـ، الموافق ٧ يونيو ١٨٩٥م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١١٤/٣٦.
- (٥٣) رسالة من مفوض إسبانيا بالمغرب مركيس دي بطسطاد فرناري Marquiz de Potestad Fornari إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٣ ربيع الأول ١٣١١هـ الموافق ١٤ شتنبر ١٨٩٣م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٩٠/٣٦.
- (٥٤) رسالة مركيس دي بطسطاد فرناري، م س، مح ٩٠/٣٦.
- (٥٥) رسالة إميليو أوخيدا، م س، مح ١١٤/٣٦.
- (٥٦) رسالة مخزنية إلى مفوض إسبانيا بالمغرب مركيس بطسطاد فرناري Marquiz de Potestad Fornari في فاتح ربيع الأول ١٣١١هـ الموافق ١٢ شتنبر ١٨٩٣م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٩٣/٣٧.
- (٥٧) نفسه.
- (٥٨) رسالة مركيس دي بطسطاد فرناري، م س، مح ٩٠/٣٦.
- (٥٩) رسالة إميليو أوخيدا، م س، مح ١١٤/٣٦.
- (٦٠) رسالة من المفوض الإسباني إميليو أوخيدا Emilio de Ojeda إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٣٠ غشت ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٤٢/٣٧ أ.
- (٦١) جواب من النائب محمد العربي الطريس إلى مفوض إسبانيا إميليو إوخيدا Emilio Ojeda بتاريخ ٥ جمادى الأولى ١٣١٨هـ الموافق ٣١ غشت ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٤٢/٣٧ ب.

نشأة النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية وتصورها للإصلاح والنهضة ١٩١٣ - ١٩٣٦

د. عاهد ازحيمي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دكتوراه في التاريخ المعاصر

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - المملكة المغربية



ملخص

أدى استعمار المغرب سنة ١٩١٢م، وتقسيمه إلى منطقة دولية وثانية فرنسية وثالثة إسبانية، إلى نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، التي كانت واعية بأهداف الحركة الإمبريالية، لذلك تنبّهت منذ الوهلة الأولى إلى أن محاربة الاستعمار يجب أن تبدأ بمحاربة الأسباب التي قادت إليه، والتي تمثلت في نظرها في الجهل والتخلف الاقتصادي والاجتماعي، وهوما جعل هذه النخبة تقتنع أن المدخل الأساسي للإصلاح هو التعليم ونشر الوعي بين المغاربة، والسعي لتأسيس اقتصاد وطني قادر على منافسة الاقتصاد الأجنبي. هذا التصور الذي تنبّهت النخبة المثقفة للنهضة والإصلاح، ترجمته في العديد من المشاريع التي شيدتها بشمال المغرب، كان أبرزها هو تأسيس المدرسة الأهلية سنة ١٩٢٤، التي شكلت مهد الوطنية، حيث تخرج منها معظم قادة الحركة الوطنية بشمال المغرب، ومن تلاميذها تألفت البعثات التعليمية نحو المشرق. كما قامت هذه النخبة بقيادة الحاج عبد السلام بنونة بإنجاز مشاريع اقتصادية جريئة بالاعتماد على الاقتصاد التضامني كان أبرزها تأسيس معمل لإنتاج الكهرباء، ومعمل الشباب الوطنية ومعمل لصناعة الزرابي، وتأسيس مطبعة المهديّة التي كان لها دور أساسي في الحركة الثقافية بشمال المغرب على عهد الاستعمار الإسباني.

بيانات الدراسة:

كلمات مفتاحية:

الحماية الإسبانية؛ النهضة الوطنية بشمال المغرب؛ المدرسة الأهلية
الحاج عبد السلام بنونة؛ البعثات الطلابية نحو المشرق؛ تاريخ شمال
المغرب المعاصر

تاريخ استلام البحث: ١١ مارس ٢٠٢٥

تاريخ قبول النشر: ١٦ أبريل ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.367304.1212

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عاهد ازحيمي، "نشأة النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية وتصورها للإصلاح والنهضة ١٩١٣ - ١٩٣٦"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥، ص ١٣١ - ١٤٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: ahidzhaymi89@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

"المثقف الذي لا يترجم فكره إلى فعل، لا يستحق لقب المثقف".

أما محمد داود فقد عرف النخبة المثقفة التي سماها بالفكرين: "هم قليل في كل أمة جردوا نفوسهم من القيود التي كانت ترزح تحت أثقالها، ومحووا من قاموس حياتهم كل ما يدل على الجبن والتواني وضحوا بشيء من مصلحتهم الخصوصية إزاء مصالح وطنهم فتقدموا للميدان الاجتماعي... باحثين عن أنجع الأدوية لإيقاف مفعول تلك الأوبئة التي تسير بصاحبها نحو المهالك والاضمحلال نهضوا ورأبوا حل أمهم وشعوبهم"^(١)

إذن فما هي ظروف نشأة هذه النخبة المثقفة؟ وكيف واجهت صدمة الاستعمار؟ وما هو موقفها منه؟ وكيف تصورت الإصلاح والنهضة التي كانت تصبو إليه؟ وما هي أبرز مشاريعها الإصلاحية التي قامت بها؟ ولإجابة عن هذه التساؤلات تم تقسيم هذه الدراسة إلى المحاور التالية:

ظروف نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، وموقفها من الاستعمار. تصور النخبة المثقفة للإصلاح والنهضة الوطنية. مشاريع النخبة المثقفة وأبرز مبادراتها الوطنية.

أولاً: ظروف نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، وموقفها من الاستعمار

قال التهامي الوزاني: "كان من صنع الله ولطفه الخفي بالمغرب، أن طور الحماية المفروضة على المغرب قارنه وجود رجال جعلوا همهم من هذه الحياة خدمة القضية المغربية، ونشر الفكرة الوطنية والاعتزاز بالمقومات الإنسانية الأخرى، حتى ولو فقدت حريتها واستقلالها"^(٢). لم يخالف التهامي الوزاني الصواب، ففي لحظة سقوط المغرب تحت نير الاستعمار، برزت للوجود نخبة مثقفة، أخذت على عاتقها مسؤولية النهوض بالبلاد وتطويره، تبدأ بإصلاح الفرد والمجتمع، وتنتهي بتحقيق الاستقلال الاقتصادي والسياسي للمغرب. وتحكم في نشأة وتكوين هذه النخبة المثقفة عاملين أساسيين اثنين هما: عامل الانتماء للأسر العينية، وعامل التكوين الثقافي الذي تلقاه. ففيما يخص عامل الانتماء، نجد أن معظم عناصر هذه النخبة نشأت

تعرض المغرب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر للعديد من الضغوطات العسكرية والمالية والاقتصادية والدبلوماسية من الطرف الدول الامبريالية، التي انتهت بسقوطه في يد الاستعمار، وفرض نظام الحماية الفرنسية عليه بتاريخ ٣٠ مارس ١٩١٢م، وتقسيمه لمنطقة فرنسية وأخرى إسبانية وثالثة دولية، وهو ما كان له بالغ الأثر على ذهنية المجتمع المغربي، الذي لم يتقبل خضوع بلاده للأجانب، ومن هنا تولدت مواقف عدة اتجه هذا الاستعمار، فالذين كانوا يعيشون في المدن المنزوعة السلاح استسلموا للأمر الواقع، مكرهين، بينما أعلن سكان القبائل الريفية والجبليّة المقاومة والجهاد ضد الاستعمار، ولم يستسلموا حتى آخر رمق من حياتهم أو بعد استنزاف كل طاقتهم ونفاذ عدتهم وعجزت أمام الآلة العسكرية الحديثة والمتطورة للمستعمر.

وإلى جانب هؤلاء كانت هناك فئة أخرى قليلة العدد، ذات إطلاع ومعرفة بالوضع الدولي العام وما يعرفه العالم المعاصر من تغيرات حضارية وتطورات سياسية، فلم تتفاجأ بهذا الاستعمار لكونها كانت جد مقتنعة بأن المغرب كان متأخراً وضعيفاً على جميع المستويات والأصعدة، لهذا أخذت هذه الفئة تفكر في مصير مجتمعه، وصارت تبحث عن حلول عملية وأكثر واقعية للأزمة المغربية، حيث انطلقت من مساءلة نقدية للذات (أي المجتمع المغربي) والبحث أن أسباب الضعف والتأخر للدولة المغربية، وكذلك الوعي بالآخر (أي المستعمر الأوروبي)، وفهم أسباب قوته وتقدمه.

ومن خلال الدور الذي قامت به هذه الفئة، أطلقنا عليها في هذه الدراسة لقب النخبة المثقفة، لأنه من بين تعاريف المثقف نجد: "هو ذلك الإنسان الذي يتجاوز دائرة ذاته، ليصل إلى المجتمع الأكبر كله، هو الإنسان القادر على أن يجعل مشاكل الآخرين هموم شخصية له وهو ضمير عصره" حسب د. جمال حمدان. وكذلك تميزت هذه النخبة بكونها لم تكتف فقط بالتوعية والإرشاد، بل أخذت على عاتقها مسؤولية تنزيل أفكارها على أرض الواقع، لأنه حسب عبد الوهاب المسيري: فإن

العديد من التلاميذ والشباب على دروس الفقهاء والعلماء الذين كانوا يقومون بإلقائها بمساجد وزوايا مدينة تطوان، وكذلك سفر بعضهم إلى فاس والمشرق لطلب العلم وأخذ المعرفة من منابعها^(٨).

وأشار محمد داود لهذه الحركة الأدبية والتعليمية المزدهرة التي عاشتها مدينة تطوان في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بقوله: "وإن الذي نذكره عن ذلك العهد، أن تطوان كانت فيها بواكير نهضة علمية وأدبية، كنا نحن ومن في طبقتنا من تلاميذها الأولين، إذ وقع من جماعة من شباب تطوان إقبال على الدروس العلمية الوحيدة بتطوان في ذلك التاريخ، وهي دروس الجامع الكبير وما حكمه من المساجد والزوايا بهذه المدينة، ودروس جامعنا الكبير لم لا يعرفها، نسخة طبق الأصل من درس جامع القرويين بفاس، في علومه وبرامجه وطريقته وشيوخه وتلاميذه، لأن مدرسي تطوان وعلماءها كلهم أوجلهم درسوا بالقرويين"^(٩).

وإلى جانب هذا الإقبال الكبير على الدراسة، برز في تلك الظرفية عامل آخر ساهم بشكل واضح في توعية العديد من المغاربة وخاصة أبناء الأسر المتتورة والمتفتحة، هو ظهور الجرائد العربية، التي كانت قد بدأت تصل إلى المغرب من المشرق وتونس والجزائر مثل: "العروى الوثقى" أو "الهلال" وكذلك "المقتطف" و"المنار"^(١٠)، أو الجرائد التي أخذت تصدر في مطلع القرن العشرين بمدينة طنجة وبعض المدن المغربية الأخرى، وكانت هذه الجرائد تتداول آخر الأخبار العالمية، وتقل أحدث المستجدات والاختراعات العلمية والتقنية، وتتبع تطورات النهضة المشرقية^(١١)، وصارت جل تلك الأخبار يتم تداولها بالأوساط والمجامع التي كانت منتشرة بمدينة تطوان بشكل كبير، وهوما زاد من وعي العديد من المغاربة بتأخر بلادهم أمام هذه المستجدات، وحاجتها الملحة إلى التطور والتقدم عاجلا لا آجلا^(١٢).

كما كانت هذه المجالس كذلك، بمثابة مدارس ومعاهد للتوعية والتثقيف بالنسبة للشباب والطلبة الذين كانوا يرتادون عليها، حيث تفتحت أذهانهم بفضلها، وذلك من خلال إطلاعهم على مجموعة من الأفكار والأحداث الجديدة، التي لم تكن في متناولهم من قبل. الشيء الذي كان له بالغ الأثر في تكوينهم المعرفي

وترعرعت في كنف عائلات الأعيان وأبناء التجار والموظفين المخزنيين والسفراء، الذين اكبوا مراحل الهيمنة الأوروبية للدول الرأسمالية على المغرب، وتولد لديهم الاقتناع المبكر بضعف وانحطاط المجتمع المغربي مقارنة مع الحضارة الأوروبية وقوتها العسكرية والسياسية^(١٣).

وتشعبت هذه الأسر العينية المتتورة بالأفكار التجديدية والإصلاحية، التي اكتسبوها من خلال رحلاتهم إلى المشرق لطلب العلم أو لأداء مناسك الحج. وكذلك بحكم مشاهدتهم للحضارة الغربية أثناء زيارتهم لبعض المدن الأوروبية لممارسة أنشطتهم التجارية أو كمبعوثين دبلوماسيين عن المخزن المغربي، ثم احتكاكهم بالأجانب ومجاورتهم لهم بحكم وظائفهم المخزنية في المدن الساحلية المغربية وخاصة مدينة طنجة^(١٤)، فكان لثرائها الفكري وتنورها منبعاً فكرياً لوريثتها النخبة المثقفة^(١٥)، مما جعل هذه الأخيرة تنشأ متحررة من كل الأفكار الخرافية والعادات الخاطئة التي كانت متفشية في المجتمع المغربي آنذاك.

أما العامل الثاني الذي تحكم في نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، هو عامل التكوين الثقافي، حيث كانت هذه الأسر العينية المتتورة واعية ومقتنعة منذ وقت مبكر بأهمية التعليم العصري، الشيء الذي دفعها لحث أبنائها وحفدتها وتشجيعهم على متابعة دراستهم بالقرويين والمشرق، بل الأكثر من ذلك هناك من ألحق أبناءه بمدارس الرابطة الإسرائيلية ومدارس أبناء الجاليات الأجنبية^(١٦)، لعدم تواجد مدارس مغربية عصرية آنذاك. هذا في الوقت الذي كان في أغلب المغاربة يعارضون التعليم العصري ويعتبرونه "بدعة محدثة"، فعلى سبيل الذكر لا الحصر نجد أحد فقهاء ذلك العصر وهو محمد بن الصديق الغماري يقول: "ما ضل العالم وانتشرت الأخلاق الفاسدة ومعتقدات المبتدعة والمتفرجة فيه إلا بواسطة الجرائد، فهي والمدارس الإفريقية العامل الوحيد في إفساد المسلمين"^(١٧).

كان هذا الرأي في الغالب هو موقف معظم المغاربة عامة وخاصة. باستثناء الأسر العينية المتتورة التي وفرت الظروف المادية والمعنوية لتعليم أبنائها وهوما نتج عنه قيام حركة أدبية مزدهرة بتطوان، تمثلت في إقبال

العلمية والسياسية والاجتماعية والعسكرية هناك وبين حالة الضعف والتأخر في بلادنا. و(هناك) الفقيه السيد الحاج محمد العربي الخطيب الذي تتلمذ على الشيخ رشيد رضا بمصر واتصل بحركة الإصلاح الديني وعاد إلى بلاده داعياً إلى السلفية وإلى إصلاح أحوال المجتمع^(١٥).

وتعززت صفوف النخبة المثقفة بشمال المغرب في العشرينات بعناصر شابة جديدة كانت ما تزال تتابع دراستها بفاس أو تطوان وكذلك المشرق^(١٦) مثل: محمد داود والتهامي الوزاني ومحمد ابن العربي بنونة، الذين ساهموا منذ وقت مبكر في "بث الوعي الوطني" بين المغاربة عن طريق الكتابة الصحفية بالجرائد المشرقية والجزائرية وجريدة "الإصلاح" التي بدأت تصدر بتطوان منذ سنة ١٩١٧م كما سيأتي ذكره^(١٧).

وتميزت هذه النخبة المثقفة بكونها كانت أكثر واقعية وعقلانية في مواقفها وطريقة تعاملها مع الاستعمار، لوعيتها واقتناعها بمدى صعوبة الدخول في مواجهة مفتوحة مع الإسبان في أي ميدان من الميادين، خاصة أنها كانت تعيش داخل المدن الواقعة تحت سيطرة الجيوش الأجنبية، وسيؤكد موقفها ذلك بالخصوص بعد اندحار المقاومة المسلحة أمام الجيوش الاستعمارية، رغم التضحيات الجسام التي بذلها سكان الريف والجبال في المقاومة المسلحة، نظراً للتفاوت في العدة والعتاد بين الطرفين وطول فترة الحرب الاستنزافية^(١٨). وهكذا أخذت هذه النخبة تتابع أحوال البلاد ومصيره، وصارت تفكر في الأسلوب المناسب والطريقة الأكثر فاعلية التي يجب اتباعها لإنقاذ المغرب والمغاربة من النكبة التي حلت بهم، فتنبّهت منذ الوهلة الأولى أن الأمر يتطلب منهم العمل على إعداد جيل من الشباب واع بماضيه وتراثه، مسلح بسلاح العلم الحديث، قادر على تحمل العبء الوطني، ويستطيع أن ينهض بالبلاد ويأخذ بيدها لتسترد استقلالها وتسترجع مكانتها. ومن هنا احتلت مسألة التوعية والتعليم ومحاربة الجهل مركزاً محورياً في فكر وتصور النخبة المثقفة بشمال المغرب^(١٩).

وتوجههم العلمي والأدبي، وهو ما أهلهم ليكونوا بعد فرض الحماية على المغرب من الرعيل الأول للنخبة المغربية المثقفة التي وضعت العديد من المشاريع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما وضعت جملة من الخطط العملية لتحقيق نهضة وطنية^(٢٠).

ومن أبرز عناصر هذه النخبة المثقفة بشمال المغربي انبعتت إلى الوجود مع فرض الحماية على المغرب نجد: الحاج عبد السلام بنونة الذي يعتبر رائد هذه النخبة وعرابها، والفقيه العلامة أحمد الرهوني، وعلي الخطيب والزيير السكيرج والحاج محمد العربي الخطيب ومصطفى أفيلال ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، والعربي اللوه وعلي السلوي ومصطفى أفيلال^(٢١).

وتحدث محمد عزيمن عن هذه النخبة المثقفة بقوله: "وأثناء العقد الأول من الحماية وأوائل العقد الثاني منها ... كانت في تطوان نخبة مستنيرة رغم قلة عدد أفرادها، كانت تتابع الأحوال وتفكر في مصير البلاد، وكانت تدرك أن الجهل والتأخر من أعظم الأسباب في وقوع البلاد تحت الحكم الأجنبي، ... وكان من أبرز أعضاء هذه النخبة المرحوم الحاج عبد السلام بنونة هذه الشخصية التي سبقت عصرها حقاً، وكان من الوعي والاستنارة ووضوح الرؤيا على درجة جعلت منه رائداً من رواد النهضة لا في تطوان وحدها، بل في المغرب كله. وكان من أعضاء هذه النخبة الفقيه الرهوني (رحمه الله) فقد كان بعلمه الواسع وتفتح ذهنه وبعمله مدة طويلة مع النائب السلطاني بطنجة الحاج محمد الطريس على اطلاع على أحوال السياسة المغربية، عارفاً بأسباب التأخر والضعف اللذين تعاني منهما البلاد، مدركاً سبل الإصلاح الواجب سلوكها. وكان من أعضاء هذه النخبة أيضاً المرحوم السيد علّال الخطيب فقد كان متصلاً بحركة الإصلاح الديني التي كان يقودها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا وكان على اتصال بصحف الشرق العربي وعلى اطلاع على بأحوال السياسة. (وكان كذلك) المرحوم السيد الزيير السكيرج وهو من أعضاء البعثة الحسنية التي وجهها السلطان مولاي الحسن الأول إلى إنجلترا حيث درس الهندسة وعاش في إنجلترا مدة استطاع أن يقارن بين حالة التقدم في الميادين

ضلال العامة والخاصة وانغلاقهم وتعصبهم لكل قديم وتشبههم به، وتقديسهم لكل موروث حتى لو كان وثنيًا، مع رفضهم المطلق لأي اجتهاد يساير مستلزمات الحياة العامة التي تتغير وتتطور مع مرور الزمن^(٢٣).

كما تبين لهذه النخبة المثقفة أن هذه الآفة ترتبت بالأساس عن غياب التعليم العصري بالمغرب، حيث لم يكن هذا الأخير يتوفر حتى حدود توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢م على أية مدرسة عصرية لا حكومية ولا وطنية، باستثناء بعض المدارس اليهودية ومدارس أبناء الجاليات الأجنبية بالمغرب، وهي مدارس كان من المستبعد أن يلتحق بها أبناء المغاربة. وبالتالي فالتعليم الوحيد الذي كان منتشرًا بالمغرب هو التعليم التقليدي الذي كان يتم داخل الكتاتيب القرآنية أو ما تسمى بالمسيد، التي صارت في تلك المرحلة تنعدم في أغلبها أبسط شروط التعلم الأساسية أو السلامة الصحية للمتعلمين، حيث وصفها تقريرًا إسبانيًا بأنها كانت عبارة: "كارثة: اكتظاظ في حجرات ضيقة وفوضى ولا نظافة ولا إضاءة ولا تهوية ولا ماء جاريًا ولا مراحيض ولا تجانس في السن ولا مراقبة صحية ولا أثاثًا مدرسيًا، وفوق كل ذلك العقاب البدني"^(٢٤).

كما أن التعلم في هذه الكتاتيب القرآنية كانت تنحصر فقط على حفظ القرآن مجردًا من أي فهم أو تدبر، هذا مع العلم أن هذا التعليم لم يكن إجباريًا، وبالتالي كان عدد الملتحقين بهذه الكتاتيب ضعيف جدًا، فعلى سبيل الذكر لا الحصر ورد في تقرير نشرته الجريدة الرسمية للمنطقة الخليفية بتاريخ ٢٥ أبريل ١٩١٣م عن حالة التعليم بالمنطقة، أن عدد التلاميذ الذين كانوا يدرسون بالكتاتيب القرآنية في مدينة تطوان إذ ذاك بحوالي ٦٢٧ تلميذًا فقط، كانوا متفرقين على ٢٩ مكتبا قرآنيًا، في حين كان مجموع الأطفال الذين هم في سن التمدرس بنفس المدينة يصل إلى حوالي ستة آلاف (٦٠٠٠) طفل. وهو ما يعني أن نسبة الأطفال الذين كانوا يدرسون بالكتاتيب القرآنية لا تتجاوز نسبتهم ١٠% من مجموع الأطفال بمدينة تطوان. والشيء نفسه بالنسبة لباقي مدن المنطقة الشمالية التي كانت خاضعة للحماية الإسبانية^(٢٥)، أما مسألة تعليم البنات فلم يكن موضوع

هذا التصور أفصح عنه الحاج عبد السلام بنونة رائد هذه النخبة في رسالته التي جاء فيها: "الاستقلال والحرية شيء يؤخذ ولا يعطى، وأخذ بقوة السلاح مع الجهل لا يدوم ونتيجته الثورة المتتابعة القاضية على البلاد وأهلها، والوصول إلى الاستقلال التام بقوة القلم وكثرة المعارف يكاد يكون من قبيل المحال اللهم إذا ساعدت الظروف بأسباب خارجية. ومحصل هذا كله أن الأمة المغربية تتوقف على رجال ذوي مقدرة في المعارف بأنواعها ليكونوا قادة للشعب يسيرونه حسب إرادتهم لمصلحة الدين والوطن، ويجب إيجاد هؤلاء الرجال عاجلا ما دام بالقبائل الداخلية رمق من الحياة الحربية"^(٢٦).

ثانيًا: تصور النخبة المثقفة بشمال المغرب للإصلاح والنهضة

كما سبقت الإشارة إلى أن هذه النخبة انطلقت في تصورها للإصلاح والنهضة من مساءلة الذات قبل الآخر، حيث انصب اهتمامها على البحث عن الأسباب والعلل التي قادت البلاد للسقوط في مهاوي الاستعمار، فتبين لها أن أكبر آفة تسلطت على المغرب والمغاربة وهدت كيانه هي آفة الجهل والجمود وتفشي الفكر الخرافي، مما ساهم بشكل خطير في تعطيل العقل المغربي عن التفكير الحر وتبليد إدراكه، حتى صار بعيدا كل البعد عن الإبداع والتطور والابتكار، وانحصر فقط حول الاهتمام بالموروث الثقافي وتقديسه والاتكال عليه دون تفحص أو تمحص ونقد أو بذل أبسط مجهود في أي عطاء فكري أو تجديد علمي.

وبناءً على ما سبق، شكل الجهل في خطاب النخبة المثقفة بشمال المغرب السبب الرئيسي في كل الأزمات والأمراض المجتمعية^(٢٧)، التي كان يعاني منها المجتمع المغربي، واعتبرته "رأس الفسائح، ومعدن القبائح ولا مصيبة أعظم منه"، حيث وصفه محمد العربي الخطيب بكونه "من المصائب التي تقضي على الإنسانية قضاء نافذا وتحكم عليها بالإعدام"، نظرًا لما للجهل من تأثيرات سلبية وأضرار خطيرة على الفرد والمجتمع لكونه "يطمس الحقائق، ويميت النفوس ويوهم العزائم ويرث الخمول ويفضي إلى الخراب والدمار"^(٢٨)، نتيجة

صحيفة الحياة الصحيحة. أَنهَضُوا كل فئة استتارت بنور العلم لتبين لغيرها فوائدها. بالعلم يدرك المرء قيمة الحياة، معنى إرادة النفس ويهزم جيوش البدع به تتقهقر عصابات الضلالات، وأرباب الغوايات. اتركوا التقاليد المنحطة المضادة لناموس الارتقاء. وتشبثوا بكل جديد نافع تعلموا لتحاربوا الجهل واليأس. تخاصروا واتحدوا على صالح العام. اعملوا لتسودوا يا أبناء الوطن، وتساووا غيركم من الشعوب الراقية^(٢٦)

هذا الوعي بخطورة الجهل الذي كان يعيشه المغرب، جعل النخبة المثقفة بشمال المغرب مقتنعة تمام الاقتناع أن المدخل الأساسي للإصلاح هو التربية والتعليم الصحيح، ونشر الوعي بين المغاربة وتثقيفهم وخاصة فئة الأطفال والشباب^(٢٧)، وذلك ما أكدته رائد هذه النخبة الحاج عبد السلام بنونة بقوله: "التعليم هو أساس كل إصلاح" وأنه "عندما تتعدم المعرفة تتعدم معها جميع وسائل الإصلاح"^(٢٨).

وبناءً على هذه القناعة قادت هذه النخبة حملة واسعة من أجل التوعية بأهمية التعليم العصري ودوره في تغذية العقول وتمييزها، حيث اعتبر محمد داود أن العلم هو السر الحقيقي في ارتقاء الأمم وانحطاطها، وأن التفريط في العلم هو الذي كان وراء تدهور العالم الإسلامي وسقوطه تحت رحمة الاستعمار، إذ يقول بصيغة التساؤل: "وهل ترقى شعب في العالم إلا بالعلم؟ وهل صير الموجودات قسمين: سيدا ومسودا إلا العلم؟ وهل كانت أمتا الإسلامية سيدة الأمم إلا بالعلم؟ وهل تدهورت في مهاوي الهلاك فخرست استقلالها وفقدت عزها ومجدها إلا لما فرطت في العلم؟ فففوا يا من لا يزالون حتى الآن غافلين أو متغافلين"^(٢٩).

ولاقتناع النخبة المثقفة أن مسألة تعليم أبناء المغاربة تتطلب جهودا كبيرا ومتضافرة من طرف مختلف مكونات المجتمع، خاصة وأنها كانت تعي جيدا أن مدارس الاستعمار لا تنشر من المعارف سوى ما يكرسها ثقافتها ويخدم وجودها الاستعماري، الشيء جعل هذه النخبة المثقفة توجه نداءات متعددة لكل شرائح المجتمع من أجل العمل على خدمة المصلحة العامة والمساهمة في إنشاء تعليم وطني عصري يرقى بأبناء المغاربة ويجعل منهم قادة الوطن وسواعده. وهكذا وجهت هذه النخبة

مفكر فيه لدى غالبية المغاربة إذ ذاك، أو على الأكثر كان لا يزيد عن موضوع خلاف بين فئة قليلة من الفقهاء^(٣٠). وبالتالي فالنتيجة المباشرة لهذا الظروف التعليمية التي كان منتشرا بالمغرب هوتفشي الأمية والجهل بشكل مهول، داخل أوساط المجتمع المغربي، فساهم هذا الوضع في تنامي العديد من الأمراض المجتمعية الأخرى التي ترتبط به، مثل الخرافات والأساطير والأوهام والأفكار السلبية التي تزرع الخوف والخمول، وتجعل الإنسان سهل الانصياع وسريع التحكم فيه والكذب عليه من قبل المشعوذين والدجالين والسحرة والطرقين وغيرهم من تجار الأزمت الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان^(٣١).

هذه الآفة التي كان عليها المغرب والمغاربة، زادت من حدة الأمور، وساهمت في انتشار العديد من البدع والخرافات والعادات والتقاليد السيئة^(٣٢)، التي أسرت التفكير وقيدت العقلية المغربية، وانزلت بالذات المغربية نحو الخمول والالتكال والخوف، وأفقدت الإنسان حريته في التفكير الحر والحق في الاختيار، ودفعه كل ذلك إلى تسليم نفسه لغيره الذي يصبح هو المتحكم في إرادته ورغباته، الشيء الذي أدى حسب تعبير محمد بن محمد الزواقي إلى: "انقياد البعض للبعض واتكال الواحد على الآخر ليستمد منه القوة والإعانة. ويستشير في الأمور المجهولة والأسرار المستورة"^(٣٣).

وهكذا ارتكز الخطاب التوعوي للنخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية على الدعوة لتوحيد الكلمة وترصيص الصفوف ضد الجهل والخرافات والجمود والضلالات والتقاليد المنحطة، والانكباب على العمل، والاجتهاد، والتشبث بالعلم، والمعرفة. وفي هذا الصدد يقول أحد كتاب جريدة الإصلاح: "يا أيها الناس قوا أنفسكم وأهاليكم وأبناء وطنكم عاقبة الجهل الذميم. واعلموا أن حياتكم الأدبية بالعلم. فأقبلوا عليه بكلياتكم. وجاهدوا في سبيله بالأموال. استفيدوا من خير مدنية العالم أجمع. زدوا أبناء وطنكم بالعلوم كي يضمّنوا مستقبل حياتهم ونأمن شر جهلهم. عضدوا نوابغكم. عظموا قدر علمائكم المصلحين، سيروا في سبيل الرقي، انبذوا الخرافات والأوهام. إياكم والاستسلام لليأس. فإن اليأس جمود. والجمود موت والموت محو من

وعملها حتى يصير في مصاف الدول المتقدمة، إذ يقول: "أيها الشباب: أنتم عماد المستقبل أنتم رجال العمل غدا. أنتم قادة الأمة بعد غد.. سعادة الوطن العزيز أو شقاؤه بأيديكم، فاختاروا لوطنكم ولأمتكم ما يرفع ذكرها بين الأمم الراقية فأنتم المسؤولون -بل أنتم هم الزمان نفسه- ضرورة أن الزمان كله صور. وهو بالنسبة إليكم كالظل - إن خيراً فخير وإن شراً فشر - وهو قلب إذا انقلبتم وعليه فلا يلام الزمان، وإنما الزمن أنتم... يا شبان المغرب: إن الوطن في حاجة إليكم، بل إلى معارفكم -فأنتم قوامه وعماده- وإن هذه العصر عصر كفاءات وشهادات وإجازات"^(٤٠). لأن المغرب حسب تعبير الحاج عبد السلام بنونة كان متوقفاً "على رجال ذوي مقدرة في المعارف بأنواعها ليكونوا قادة للشعب"^(٤١).

ثالثاً: مشاريع النخبة المثقفة ومبادراتها الوطنية

باعتبار أن التعليم كان هو المدخل الأساسي للإصلاح بالنسبة للنخبة المثقفة، وأن السياسة التعليمية للإدارة الاستعمارية الإسبانية كانت غير واضحة، ولا تزيد عن تأليف اللجان ووضع التقارير^(٤٢)، جعل هذه النخبة تفكر ملياً في تأسيس منظمة ثقافية تظم أبرز الشخصيات العلمية بالمنطقة، لذلك سيقوم مجموعة من عناصر هذه النخبة وعلى رأسهم الحاج عبد السلام بنونة والفقيه أحمد الرهوني، باتصالات مكثفة مع علماء ووجهاء المنطقة الخلفية من أجل تحقيق هذه الغاية، فتم إقناع الإدارة للاستعمارية بتأسيس منظمة تحت اسم المجمع العلمي المغربي بتاريخ ٣٠ دجنبر ١٩١٦^(٤٣). الذي ضم معظم علماء وفقهاء ومثقفي تطوان مغاربة وإسبان، كما وضع له قانون أساسي خاص به، وتشكل مجلسه، وفرزت لجانه^(٤٤).

ومن أبرز الأعمال الإصلاحية التي قام بها المجمع العلمي المغربي، تأسيس جريدة "الإصلاح"، التي صدر عددها الأول يوم ٢٩ يناير ١٩١٧، فكانت هذه التجربة أول محاولة لنشر التوعية والدعوة للنهوض بين المغاربة^(٤٥)، كما قام هذا المجمع بتنظيم التعليم بمدرسة لوقش، وبناء مدرسة الصنائع التقليدية بتطوان، وتأسيس مدرسة لتعليم اللغة العربية والإسبانية

نداء إلى الآباء والأسر من أجل السهر والحرص على تعليم أبنائهم^(٤٦)، وكذلك وجهت نداء إلى طبقة العلماء ونبهاء الوطن من أجل المشاركة في مشروع نشر التعليم قولاً وعملاً^(٤٧)، كما دعت هذه النخبة الأغنياء والميسورين والمحسنين للتكفل بتعليم أبناء المغاربة والمساهمة في بناء المدارس ودعمها^(٤٨).

ولافتتاح هذه النخبة بدور الشباب في مشروعات النهضة وجهت إليهم العديد من الدعوات لتزرع فيهم روح العمل والإبداع، وتساعدتهم على اكتشاف مواهبهم وقدراتهم ليتمكنوا من استعادة ثقافتهم بأنفسهم، ويستغلون طاقتهم للدفاع عن وطنهم وأمتهم في المستقبل الذي سيكونون هم رجاله. ولذلك اعتبرت النخبة المثقفة بأن "شبيبة كل أمة هي الحجر الأول في أساس رقيها وتقدمها... وهي (أيضاً) عنوان الصلاح والفلاح والرقي والكمال"، لكن إذا كانت شبيبة نافعة متعلمة وراقية. أما إذا كانت جاهلة منحطة فحتما ستكون "عنوان الخراب والشقاق، والتأخر والانحطاط"^(٤٩)، وتشكل خطورة على الأمة والوطن.

إن وعي النخبة المثقفة بالمكانة التي تحظى بها الشبيبة داخل كل أمة جعلها تخصص لها حيزاً مهماً من خطابها، لكونها، "كانت تؤمن بأنه إذا عجز جيلها عن مقاومة الاستعمار. فلا بد من إعداد جيل جديد واع بماضيه وبترائه، مسلح بسلح العلم الحديث يستطيع أن ينهض بالبلاد ويأخذ بيدها في عثرتها لتسترد استقلالها وتسترجع مكانتها"^(٥٠). وذلك ما عبر عنه الفقيه أحمد الرهوني الذي خاطب الشباب بقوله: "ليس أملنا في شيوخنا ولا في كهولنا لأنهم أشرفوا على ما قدموا، إنما الأمل كل الأمل في الشبان النجباء الذين نبذوا الجلوس في كسور البيوت نبذوا الانكماش في حجور الأمهات والجذات، نبذوا لذة النوم والراحة في أركان أوطانهم فطافوا البلاد وساحوا في أرض الله يبتغون فضلاً من الله ورضواناً يبتغون العلم ليرقوا بلادهم ويخرجوها من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فإليهم أوجه كلمتي"^(٥١).

وفي السياق نفسه حاول أحد كتاب جريدة الإصلاح (يحيى ابن المغرب) أن يبرز قيمة الشبيبة داخل المجتمع، وأكد على أن الوطن متوقف في المستقبل على كفاءتها

فكانت هذه المبادرة التي قام بها محمد داود هي الشرارة الأولى لتأسيس التعليم الحر بمدينة تطوان، حيث سيقوم بعض أباء أولئك التلاميذ وفي مقدمتهم الحاج عبد السلام بنونة ومصطفى أفيلال بالاتصال بمحمد داود ومفاتحته في موضوع تأسيس مدرسة عصرية، وذلك ما تم تحقيقه بعد لقاءات متعددة واجتماعات كثيرة ونداءات متواصلة، حيث تم تأسيس أول مدرسة حرة بتطوان بتاريخ يوم ٢٠ دجنبر ١٩٢٦^(٥٣) وهي المدرسة الأهلية التي شكلت "منبع النهضة التي عرفها شمال المغرب"^(٥٤)، حسب وصف أحمد بن جلون الذي يعد واحدا من تلاميذها. بفضل التكوين الوطني الذي تلقاه تلاميذها، حيث ارتبطت فيها قضية التربية والتعليم بالعمل الوطني^(٥٥)، لكون النخبة المثقفة بشمال المغرب كانت ترى بأن التعليم هو أحسن سلاح ضد الوجود الأجنبي في المغرب^(٥٦)، وهذا ما جعلهم لا يكتفون فقط بتلقين الدروس ومبادئ العلم لتلاميذهم، وإنما كانوا يلقنون لهم دروسا في القومية تحت غطاء تدريسهم مواد دراسية، كما عبر عن ذلك محمد داود بقوله: "لقد لقنت الوطنية إلى الذين أصبحوا فيما بعد قادة حزب الإصلاح الوطني، باستثناء امحمد بنونة والتهامي الوزاني"^(٥٧)

وتحدث التهامي الوزاني عن هذا الدور الذي لعبته المدرسة الأهلية في تجديد العقل المغربي بقوله: "فالواقع أن المدرسة الأهلية. ومديرها العلمي هو داود أخذ يلقي تلاميذها أن عليهم أن يحيوا في عهدهم لا في عهد الماضين الذين لم تبق عاداتهم من عجين يتكيف حسب الرغبة، بل صارت صخورا حمرية في صورة المدرسة والدكان والبيت، والجناز والأعراس، فلم تبق فائدة للعقل الخلاق، فليس أمامه ما ينشئه ولا ما يدعيه، فكل شيء يقدم له أحجارا رخامية في شكل لباس، مع لبدة تحت اليد، ورأس مغطى بالقب، وكل شيء جامد لا يتحرك ولا يتحول، فعمد داود إلى هذه التماثيل ونسفها نسفا، وحرر العقل الفتى من قشور بالية، وجلب له بدل "الأزهري على الأجرومية"^(٥٨) كتاب "الدروس النحوية"، وبدل مطالعات "ألف ليلية ليلية"، المجلات والصحف المليئة بالأحداث الجديدة. ولما لم يكن في وسع الأستاذ داود أن تكون هذه المواد الثقافية مواد دراسية، فإنه أنشأ

والرياضيات، وكذلك تأسيس مطبعة الإصلاح التي كانت الأولى من نوعها، والمشاركة في المهرجان الأدبي الذي كان ينظم بمدينة سبتة ... غير أن هذه المنظمة التي كانت خاضعة للمخزن المغربي وتحت إشراف الإدارة الاستعمارية لم تعمر طويلا، وسرعان ما توقفت أنشطتها التي بدأت بقوة كبيرة^(٥٩).

إلا أن هذا التوقف لم يكن ليحبط عمل النخبة المثقفة بشمال المغرب، أو يعرقل مسعاها، بل لجأت للقيام بمبادرات وطنية خاصة بها، حيث سيقوم محمد بن عبد الكريم الخطابي مثلا بتأسيس مدرسة عصرية بأجدير بعد انتصاره في معركة أنوال^(٤٧). ووضع "برنامج عام" للتعليم، يتضمن ثلاث وعشرين (٢٣) مادة^(٤٨)، فشكل هذا البرنامج مشروعا منسجما ومتكاملا، بحمولة معاصرة وآليات منهجية تربوية حديثة ترمي إلى تحقيق تعليم مدني عصري يراعي المصلحة العليا للإنسان المغربي على جميع المستويات، فضلا عن الهم التحريري من السيطرة الاستعمارية بمحاربة مخططاتها في مجال التربية والتعليم^(٤٩).

كما بدأت شرارة التعليم الحر بمدينة تطوان منذ سنة ١٩٢٢م، عندما أقدم الوجيه السيد علي السلاوي على إنشاء قسم دراسي لتدريس صهره عبد الخالق الطريس رفقة بعض أترابه^(٥٠)، وطلب من محمد العربي الخطيب تدريسهم، غير أن هذا الأخير سرعان ما توقف عن أداء تلك المهمة نظرا لالتزاماته المتعددة، وهو ما فتح المجال أمام محمد داود الذي كان حديث العودة من الدراسة بمدينة فاس، لخوض تجربة التدريس، فحقق نجاحا باهرا وازداد عدد تلاميذه، الذين صار يدرسهم بمكتبته الخاصة في منزله^(٥١)، وتحدث محمد داود عن هذه التجربة قائلا: "وقد شملنا في هذا العهد اطمئنان من جميع النواحي، فمحل الدراسة هو مكتبي الخاص ولا سلطة فيه لغيري، ... وحياتي كلها علمية بين دراسة ومطالعة، أولياء التلاميذ ليسوا من الأشخاص الذين يجهلون قدر العمل الجليل الذي نقوم به، والتلاميذ الأربعة كلهم نجباء مجتهدون، يتسابقون إلى الحضور قبل الوقت المعين، وإلى حفظ النصوص وفهم الدروس"^(٥٢).

ونظراً لوعي النخبة المثقفة، بأن التحرر من المستعمر لا يتوقف فقط على الحصول على الاستقلال السياسي، فإن هذه النخبة كانت جد واعية بمكانة الاقتصاد، واقتناعها بأنه من المستحيل الحصول على استقلال كامل إلا إذا استطاع المغرب تحديث وتنمية اقتصاده الوطني عن طريق الاستغلال الذاتي لخيرات البلاد، وذلك ما عبر عنه محمد داود صراحة بقوله: "هيت بنا يا أبناء الوطن العزيز إلى العلوم والمعارف والاقتصاد، فهي أساس الإصلاح، هي روح الحياة، وهي سلاح الناهضين، والبحث فيها هو أول واجب على من يحمل القلم الحر من الباحثين" (٦٤).

وهذا الاقتناع هو الذي دفع النخبة المثقفة بشمال المغرب للتفكير منذ وقت مبكر في خلق بعض المشاريع الاقتصادية البديلة عن الاقتصاد الاستعماري، وباعتبار أن معظم الصناعات الحديثة كانت تعتمد على الطاقة الكهربائية، تنبه الحاج عبد السلام بنونة منذ وقت مبكر إلى أهمية تأسيس معمل لتوليد هذه الطاقة، فسارع سنة ١٩٢٨م إلى إنشاء "شركة التعاون الصناعية الاسبانية المغربية" لتوليد الطاقة الكهربائية، التي وصل عدد المساهمين فيها حوالي ١٨٠٠ مشترك، من بين المغاربة المسلمين منهم واليهود، بالإضافة إلى بعض الاسبان، وبعد سنوات من العمل الجاد في تشييد معمل الكهرباء والسفر إلى العديد من الدول الأوروبية لاستيراد الآلات والتجهيزات الضرورية، تم تدشين هذا المعمل بتاريخ ٩ أبريل ١٩٣٣، حيث سيبدأ في ربط الساكنة بالطاقة الكهربائية بعد انسحابهم من الاشتراك في الشركة الإسبانية، ولذلك يعتبر هذه المشروع الوطني من أهم وأعظم المشاريع النهضة التي عرفها المغرب على عهد الحماية، حيث كان أول مشروع اقتحم التكنولوجيا الحديثة وتحدى الاقتصاد الاستعماري الاسباني (٦٥).

كما تم تأسيس معمل آخر للثياب بالوطنية، الذي بدأ العمل في بنائه منذ سنة ١٩٢٩، وتم تدشينه في فاتح يناير ١٩٣١. والذي كان الغرض منه هو الآخر مقاومة الصناعة الأجنبية في هذا المجال، وتنمية الاقتصاد الوطني، هذا بالإضافة إلى تأسيس معمل لصناعة الزرابي بشفشاون، الذي تم تدشينه في ١٦ يوليوز

في المدرسة ناديا (٥٩) يجتمع فيه التلاميذ في أوقات الفراغ يطالعون ما هم في حاجة إلى مطالعته ليعرفوا ما يدور حولهم من الأحداث العالمية. وكان النادي مكتبة ثقافية أكثر مما كان ناديا للشطرنج وتقضية الوقت (٦٠). وعقب تخرج فوجها الأول من المدرسة الأهلية دشّن الحاج عبد السلام بنونة عهد البعثات الطلابية إلى الشرق في إطار بعثة تجريبية على رأسها الطالبين ابنه الطيب بنونة وزميله في الدراسة محمد بن مصطفى أفيلال، اللذان التحقا بمدرسة النجاح بنابلس سنة ١٩٢٨م، فكانت هذه المبادرة أول محاولة لتكوين جيل جديد خارج المنظومة التعليمية الاستعمارية. هذا بالإضافة إلى إرسال بعثة أخرى في نفس السنة إلى مصر مكونة من الطالبين عبد الخالق الطريس ومحمد الطنجي. ثم توالى البعثات بعد ذلك نحو نابلس ومصر خلال السنوات الموالية، والتي بفضلها تم تكوين عشرات من الأطر المغربية في العديد من المجالات العلمية الحديثة كالميكانيك والصناعة والفلسفة... (٦١).

كما واكبت النخبة المثقفة هؤلاء الطلبة وتتبع مساهمهم العلمي وكانت تحفزهم للاهتمام بالعلم والعلماء والقراءة، والثبات على دينهم الإسلامي والحفاظ على هويتهم وثقافتهم المغربية، مع تغذيتها بما ينفعهم من الثقافات الأخرى. فتمكنت بذلك من تخريج جيل من الشباب متعلم وواعي بقضية وطنه، وبالمسؤولية الملقاة على عاتقه من أجل تحرير مجتمعه من أغلال الجهل، والدفاع عن استقلال البلاد وتحريرها من براثن الاستعمار (٦٢).

ولم تنحصر مهمة هذه البعثات فقط في تلقي أعضائها العلوم العصرية، وإنما تجاوزت ذلك لتلعب دوراً أكبر، حسب الطيب بنونة، الذي قال: "إن مهمتنا في البعثة والبعثات التي توالى بعد ذلك، لم تكن مجرد التزود بالمعرفة العربية الإسلامية من منابعها فقط، بل كانت هناك مهمة ثانية سامية قمنا بها كسفراء لبلادنا ودعاة لأمتنا. وهذه المهمة ابتدأت أولاً بالتعرف بالمغرب... لقد كان إخواننا العرب يجهلون كل شيء عن المغرب، عن ماضيه وحاضره وجغرافيته وطبيعته وشعبه وأوضاعه السياسية" (٦٣).

مشروع معمل السكر بمرتيل، الذي وضعه له بنونة خططه وتم تجريب، زراعة قصب السكر في حوض مرتين، غير أن الإسبان وضعوا أمام هذا المشروع العديد من العراقيل مما حال دون تحقيقه، ونفس المصير عرفه مشروع قطار سلكي معلق بين تطوان وجبل غورغيز الذي وضعت له التصاميم النهائية، وتم عرضه على اللجنة الرسمية للسياحة، واحتوى المشروع على بناء فندق من ١٨ غرفة ومطعم فوق جبل بوزيتون، غير أن هذا المشروع بقي حبراً على ورق فقط^(٧٠).

خاتمة

وعلى سبيل الختم تجدر الإشارة إلى أن كل هذه المشاريع والخطط والمجهودات التي بذلتها النخبة المثقفة بشمال المغرب على عهد الحماية الإسبانية لم تذهب سدى، بل أتت أكلها وأعطت ثمارها، ببروز جيل جديد واع ومثقف، ومتسلح بالثقافة والعلم الحديث، ومتحمس بقيم الوطنية الصادقة، ومتطلع لمغرب جديد، ومتحمس لحمل مشعل الإصلاح ومتحفز لإتمام مشروع النهضة الوطنية التي زرعت النخبة المثقفة بذرتها الأولى. وذلك ما عبر عنه التهامي الوزاني بقوله: "إن بنونة صنع الإنسان لمساعدة الظروف، وكان يود أن لو احتفظ الشبان بما لا يضر من عوائدهم، ثم أضافوا إلى ذلك ما أرادوه من الجديد الطريف ... فهؤلاء الرواد الأوائل. وجدوا بنونة أوجد لهم رأس معبر ونقطة انطلاق: ... فلما ورد الطلبة وقرروا الاستقرار بالمغرب من أجل الكفاح والنضال، لم يجدوا الأبواب مغلقة"^(٧١).

هذا الجيل الذي أشرفت النخبة المثقفة على تكوينه وتأطيره هو الذي قاد الحركة الوطنية السياسية التي انطلقت قوية ومنظمة منذ ثلاثينيات القرن العشرين، بقيادة عبد الخالق الطريس الذي بدأ عمله الوطني تحت غطاء ثقافي من خلال جمعية الطالب المغربية التي تم تأسيسها سنة ١٩٣٢م، ونظمت عشرات الأنشطة الثقافية وأحيت العديد من المناسبات الدينية وساهمت بشكل كبير في نشر الوعي بين عموم الساكنة وثقافتهم.

١٩٣٤، ووصل عدد العاملين فيه من نساء وفتيات حوالي ١٦٨ عاملة^(٦٦).

وحتى تتفادى النخبة المثقفة التكاليف المرتفعة لاستيراد الصحف والكتب المشرقية، وكذلك لجعل البرامج والكتب الدراسية في متناول الآباء، وتوفير الأرضية الملائمة لتأسيس الجرائد الوطنية، بادر الحاج عبد السلام بنونة لتمويل "مطبعة المهديّة" التي تم تأسيسها على شكل شركة مساهمة بتاريخ ٢١ نونبر ١٩٢٨، وأسندت رئاستها للفقير محمد داود^(٦٧)، الذي تولى مهامه كرئيس لمجلس إدارة المطبعة بكل مسؤولية وإخلاص في العمل والتسيير، لجعل هذه المطبعة تقوم بواجبها على أكمل وجه وبعث روح النهضة الفكرية والعلمية والأدبية في المغرب. وشكلت مطبعة المهديّة صلة وصل بين النخبة المثقفة الهادفة إلى إيقاظ روح النهضة بين فئات الشعب المتعطشة إلى ما ينعشها من ثقافة وآراء، كما كانت بمثابة متنفس للنخبة المتتورة من مثقفي وأدباء كل من المنطقتين الخاضعتين للحماية بالمغرب، لطبع أبحاثهم وانتاجاتهم الوطنية، والعلمية والأدبية، مما جعل هذه المطبعة تحظى بشرف إصدار الكثير من الكتب النفيسة لكتاب وعلماء مغاربة كبار^(٦٨).

وهكذا، لعبت مطبعة المهديّة دورين أساسيين، أولهما يتجلى في فتحها المجال لإمكانية الاتصال بين رجال الفكر النهضة بشمال المغرب وعموم الشعب المغربي، أما الدور الثاني فتمثل في كونها كانت ذات فضل كبير في طبع أهم الكتب العربية والمجلات والصحف الوطنية، مثل: مجلة السلام وجريدة الحياة وجريدة الريف وجريدة الحرية ومجلة المغرب الجديد ومجلة الأنوار ومجلة الأنيس وجريدة الأمة، وكذا العديد من الكتب والنشرات التي كانت تصدرها الحركة الوطنية^(٦٩).

كما لعبت مطبعة المهديّة دوراً كبيراً في نشر الوعي بالمغرب، حيث كان لها الفضل في طبع معظم الجرائد والمجلات الوطنية التي صدرت بشمال المغرب، وساهمت في تسهيل عملية طبع الكتب المدرسة، ومنشورات الحركة الوطنية، علاوة على طبع مؤلفات النخبة المثقفة وعلماء وفقهاء ذلك العصر، مما ساعد على تشجيع القراءة، وجعل الجريدة والكتاب في متناول الجميع. كما تم التخطيط لمشاريع أخرى لم يكتب لها النجاح مثل

- (١٣) داود، محمد، **على رأس الأربعين**، تقديم وتعليق حسناء داود، مطبعة الشويخ، ٢٠٠١، ص. ١٣٩.
- (١٤) عزيمن، محمد، **"البدايات الأولى للحركة الثقافية ودور الأستاذ الطريس فيها"**، منشورات مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص. ٣٣-٣٤-٣٥. (١٥) نفسه.
- (١٦) السعوي، عبد العزيز، **"مسألة التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال"**، ضمن ندوة: محمد داود الحركة الوطنية في الشمال **والمسألة الثقافية**، اتحاد كتاب العرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٠، ص. ٢٩.
- (١٧) عزيمن، محمد، **"البدايات..."**، م. س، ص. ٣٥.
- (١٨) ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة بمنطقة الحماية**، م. س، ص. ٦٣.
- (١٩) عزيمن، محمد، **"البدايات..."**، م. س، ص. ٣٤.
- (٢٠) رسالة من الحاج عبد السلام بنونة لولده الطيب بتاريخ ٢٢ شتنبر ١٩٣٠، أنظر: ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة حياته ونضاله**، ج ١، مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٨٧، ص. ٩٩.
- (٢١) **"تحديد التمدن"**، جريدة الإصلاح، عدد ٢٠٥، ٢٠ دجنبر ١٩٢٦، صفحة بدون رقم.
- (٢٢) عينية، عبد المجيد، **"موقف المغاربة من قضايا التربية والتعليم في العقود الأولى من عقد الحماية الفرنسية / الإسبانية"**، مجلة فضاءات تربوية، عدد ٢، مارس ١٩٩٦، ص. ١٦٨.
- (٢٣) معروف الدفالي، محمد، **أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة**، منشورات مجلة أمل، الرباط، ٢٠١٤، ص. ١٢٨.
- (٢٤) مجموعة من المؤلفين، **شمال المغرب إبان فترة الحماية وبداية عهد الاستقلال**، تنسيق المعطي منجب، منشورات المعهد الملكي للبحث العلمي في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديد، الرباط، ٢٠١٤، ص. ٢٢١.
- (٢٥) عزيمن، محمد، **"البدايات..."**، م. س، ص. ٣١.
- (٢٦) مجموعة من المؤلفين، **شمال المغرب م. س**، ص. ٢٢١.
- (٢٧) الناصر، سعاد، **"الحركة الثقافية بتطوان الحركة الثقافية في تطوان «سيدي مصطفى أفيال نموذجاً»"**، ضمن أعمال ندوة: تطوان قبل الحماية (١٨٦٠-١٩١٢)، التي نظمتها مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، مطبعة المهديّة، تطوان، ١٩٩٤، ص. ١٩٩.
- (٢٨) باحو، مصطفى، **علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم**، منشورات جريدة السبيل، ط. ٢، ٢٠٠٧، ص. ١٠٦.
- (٢٩) محمد بن محمد الزواقي، **"المنجمون والدجالون أو علماء الغيب"**، جريدة الإصلاح، عدد ٣١١.
- (٣٠) جابر المغربي، **"نظرة في الإصلاح"**، جريدة الإصلاح، ٢١٦، ١٤ فبراير ١٩٢٧، صفحة بدون رقم.
- (٣١) الناصر، سعاد، **"الحركة الثقافية"**، م. س، ص. ١٩٩.
- (٣٢) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية**، ج ١، م. س، ص. ١٤٣.
- (٣٣) فتى المغرب (محمد داود)، **"نحن والعالم الإسلامي (اعملوا لنشر العلم أيها المغاربة)"**، جريدة الإصلاح، عدد ٢٠٩، ١٧ يناير ١٩٢٧.

كما وظف هؤلاء الشباب العمل الصحفي من خلال جريدة الحياة التي أسسها عبد الخالق الطريس سنة ١٩٣٤م لنشر فكرة الوطنية الصحيحة، وتوجيه الرأي العام المغربي وتغذية العقول بالأفكار المتتورة، هذا إلى جانب عملهم التربوي من خلال المدرسة الأهلية والمعهد الحر الذي تم تأسيسه سنة ١٩٣٥م، وتخرج منه شريحة عريضة من الشباب، الذين ساهموا بشكل كبير في تعزيز صفوف الحركة الوطنية بشمال المغرب وخاصة بعد تأسيس حزب الإصلاح الوطنية سنة ١٩٣٦م.

الإحالات المرجعية:

- (١) داود، محمد **بدايات الفكر الوطني بالمغرب**، سلسلة شراع، عدد ٧٣ يوليو ٢٠٠٠، ص. ٢٢.
- (٢) الوزاني التهامي، **مذكرات عن مؤسسي الوطنية بالمغرب**، مخطوط بالخرانة العامة والمحفوظات، تطوان، ص. ١.
- (٣) ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية لمشروع النهضة الوطنية (١٩١٣-١٩٣٦)**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٢٠، ص. ٤٤.
- (٤) سبيلا، محمد، **المغرب في مواجهة الحداثة**، منشورات الزمن، الكتاب الرابع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، ص. ٢٨-٢٩.
- (٥) مشبال، عثمان، **"التهامي الوزاني والشعور الوطني في شمال المغرب"**، ضمن أعمال ندوة: التهامي الوزاني: الكتابة-التصوف-التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٨٩، ص. ٢٣-٢٤.
- (٦) بناني، عثمان، **"الخطابي محمد"**، معلمة المغرب، ج ١١، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ص. ٣٧٦٧.
- (٧) ابن الصديق الغماري، أحمد، **التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق**، مطبعة السعادة، مطبعة مصر، ١٣٦٦هـ، ص. ٦٦.
- (٨) داود، محمد، **تاريخ تطوان**، ج ١، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٩، ص. ٣٠١.
- (٩) داود، محمد، **تاريخ تطوان**، ج ١١، تخريج ومراجعة، داود، حسناء، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠٠٩، ص. ٣٠١.
- (١٠) بوخزة، محمد، **"علي أو علل الخطيب"**، معلمة المغرب، ج ١١، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ص. ٣٧٧٦-٣٧٧٧.
- (١١) المنوني، محمد، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ج ٢، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، شركة النشر والتوزيع المدارس، مطبعة المتوسط ببيروت لبنان، ١٩٨٥، ٣٠٧-٣٠٨.
- (١٢) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠١١، ص. ١٠٩.

(57) BENJELLOUN, Abdelmajid, *Approches du colonialisme Espagnol et du mouvement nationaliste Marocain Dans l'ex-Maroc Khalifien*, OKDA, Rabat, 1988, p. 94.

(٥٨) يقصد شرح الأجرومية لخالد الأزهرى

(٥٩) تأسيس هذا النادي بتاريخ ٨ شتنبر ١٩٢٥، لكي "يجتمع فيه التلاميذ في أوقات فراغهم يطالعوا ما هم في حاجة إلى مطالعته ليعرفوا ما يدور حولهم من الأحداث العالمية: وكان النادي مكتبة ثقافية"، لمزيد من التفاصيل حول هذا النادي أنظر: ازحيمي، عاهد، **النخبة المثقفة ...**، م.س، ص. ٢٦٢-٢٦٤.

(٦٠) الوزاني، التهامي، **مذكرات ...**، م.س، ص. ٣.

(٦١) الصفار، حسن، **حزب الإصلاح الوطني ١٩٣٦-١٩٥٦ دراسة تحليلية**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الرسالة الرباط، ٢٠٠٦، ص. ١٦.

(٦٢) عزيان، محمد، **"البدايات الأولى ..."**، م.س، ص. ٤٢.

(٦٣) **"الحديث الذي ألقاه الطيب بنونة بمكتبة عبد الخالق الطريس حول مرحلة ما بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٣٥، بتاريخ ٢ أبريل ١٩٧٩"**، أنظر: وثائق أبو بكر بنونة، ملف من أعلام تطوان الأستاذ الطيب بنونة، ج. ٢، م.س، ص. ٣٣٥.

(٦٤) داود، محمد **بدايات الفكر ...**، م.س، ص. ٣٣.

(٦٥) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة ...**، ج. ١، م.س، ص. ١٩٦-١٩٧.

(٦٦) بنونة، الطيب، **نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة**، طنجة، مطبعة دار الأمل، ١٩٨٠، ص. ٢١٦.

(٦٧) الصفار، حسن، **حزب الإصلاح الوطني ...**، م.س، ص. ١٨.

(٦٨) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، م.س، ص. ١٠٢.

(٦٩) الصفار، حسن، **حزب الإصلاح ...**، م.س، ص. ١٨.

(٧٠) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة ...**، ج. ١، م.س، ص. ٢٢١-٢٢٢.

(٧١) الوزاني، التهامي، **مذكرات ...**، م.س، ص. ٣٤.

(٣٤) المغربي سعيد، **"إليك سادتي التباء"** جريدة الإصلاح، عدد ٢١٦، ١٤ فبراير ١٩٢٧، صفحة بدون رقم.

(٣٥) المغربي، سعيد، **"إليك سادتي معاشر العلماء"**، جريدة الإصلاح، عدد ٢١٢، ١١ فبراير ١٩١٧، صفحة بدون رقم.

(٣٦) تطواني، **"حول الشبيبة والنهضة الأدبية"**، جريدة الإصلاح، عدد ٢٥٦، ٢٩ فبراير ١٩٢٨، صفحة بدون رقم.

(٣٧) نفسه.

(٣٨) عزيان، محمد، **البدايات ...**، م.س، ص. ٣٣.

(٣٩) الرهوني، أحمد، **الرحلة المكية**، م نشر معهد فرانكو لأبحاث العربية اللسانية، تطوان، ١٩٤١، ص. ٢٧-٢٨.

(٤٠) يحي ابن المغرب، **شباب الوهم؟**، م.س، صفحة بدون رقم.

(٤١) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية ...**، م.س، ج. ١، ص. ٩٩.

(٤٢) المساري، محمد العربي، **المغرب بأصوات متعددة**، سلسلة شرع، ع. ٢، ط. ٢ ماي ١٩٩٧، ص. ١٤٩.

(٤٣) داود، محمد، **تاريخ تطوان**، م.س، ج. ١، ص. ٣٠٣.

(٤٤) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية ...**، م.س، ج. ١، ص. ١٥٥.

(٤٥) الخزاز، عبد القادر، **تطوان وريادة الصحافة مجلة الإصلاح**، مجلة دار النيابة، ع. ١٣، ١٩٨٧، ص. ٢٨.

(٤٦) لمزيد من التفاصيل، أنظر: ازحيمي عاهد، **تصور النخبة المثقفة لمشروع النهضة الوطنية ...**، م.س، ص. ١٨٨-٢٠٣.

(٤٧) الرايس، محمد، **شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الطريم الخطابي**، منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص. ٢٨.

(٤٨) الطيبي، عبد الرحمان؛ الإدريسي، الحسين، **التربية والتعليم في برنامج محمد بن عبد الكريم الخطابي**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٤، ص. ٢٥٩-٢٦٤.

(٤٩) نفسه، ص. ٩.

(٥٠) الخطيب، إسماعيل، **محمد العربي الخطيب رائد الصحافة بالمغرب**، منشورات جمعية "البعث الإسلامي"، تطوان، ١٩٩٤، ص. ١٠٥.

(٥١) داود، حسناء، **"الأستاذ محمد داود في ميدان التعليم"**، ضمن كتاب: محمد داود والحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية، مطبعة دار المعارف الجديدة الرباط، ١٩٩٠، ص. ٥٨.

(٥٢) داود، حسناء، **"الأستاذ محمد داود ..."**، م.س، ص. ٥٧.

(٥٣) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية ...**، م.س، ج. ١، ص. ١٨٧.

(٥٤) الصفار، حسن، **"الفقيه محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية"**، ندوة: محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية، اتحاد كتاب العرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٠، ص. ١٢.

(٥٥) السعود، عبد العزيز، **"مسألة التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال"**، ضمن ندوة: محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية، اتحاد كتاب العرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٠، ص. ٣٠.

(56) BENJELLOUN, Abdelmajid, *pages d'histoire du Maroc: Le patriotisme Marocain face Au Protectorat Espagnol*, Imprimerie El Maarif Al Jadida, Rabat, 1993 pp. 258-259.

تدبير المحاكم العرفية بقبائل زيان لقضايا خروج الزوجة بيت الزوجية خلال عهد الحماية نماذج منتقاة

د. حنان اقشيبيل

دكتوراه في التاريخ والترات
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس – المملكة المغربية



ملخص

أعاد النقاش بشأن التعديلات المرتقبة على مدونة الأسرة في المغرب منذ نهاية ٢٠٢٤ كثير نقاش بين مختلف شرائح المغاربة في البيوت والفضاءات العامة، وعلى مواقع التواصل الافتراضي، وأمام أبواب وعلى ممرات محاكم القضاء الأسري. من هنا جاء التفكير بحكم اهتماماتنا بدراسة الأعراف الأمازيغية في تقديم بعض طرائق تدبير المحاكم العرفية بقبائل زيان الأمازيغية وسط المغرب لقضايا خروج المرأة من بيت الزوجية وما يرافق ذلك من تفاعلات وإشكالات. وتتبع طرق تدبيرها، والأحكام الصادرة فيها بمنطق عصرها. وكذا المساهمة بتاء التأنيث في إغناء النقاش في هذا الاتجاه من خلال بسط مجموعة مختارة من قضايا الفرار من بيت الزوجية التي عرضت على أنظار المحاكم العرفية بقبائل زيان في محاولة لرصد جزء من البنيات الثقافية لمجال الدراسة تاركين للقارئ فرصة ربط الماضي بالحاضر واستخلاص مظاهر التبدل والاستمرارية فيها.

كلمات مفتاحية:

الأعراف؛ قبائل زيان؛ عهد الحماية؛ بيت الزوجية؛ المحاكم العرفية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٦ مارس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٠ أبريل ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.453897

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حنان اقشيبيل، "تدبير المحاكم العرفية بقبائل زيان لقضايا خروج الزوجة: بيت الزوجية خلال عهد الحماية نماذج منتقاة". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون: سبتمبر ٢٠٢٥، ص ١٤٣ - ١٥٠.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: hananekchibel2016@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أعاد النقاش بشأن التعديلات المرتقبة على مدونة الأسرة كثير نقاش بين مختلف شرائح المغاربة في البيوت والفضاءات العامة، وعلى مواقع التواصل الافتراضي، وأمام أبواب وعلى ممرات محاكم القضاء الأسري. إذ تُعدّ قضايا الأسرة شأنًا عامًا للمغاربة عبر العصور، وباعتبارها إحدى القلاع المنيعَة لتحسين المجتمع. نقاش يحاول الباحث في التاريخ الخوض فيه من زاوية تخصصه، يضع فيه نصب عينيه مصادر القاعدة القانونية الشرعية منها والوضعية. ويستحضر حالات ونماذج عامة (عرفتها البلاد ككل) أو خاصة (يعمل بها في مناطق بعينها) صادفها خلال أبحاثه.

ومعلوم أن العرف كان وما يزال واحداً من أهم المصادر التي استند إليها المشرع المغربي عبر التاريخ في صياغة قواعده القانونية كلما أثبتت هذه الأعراف صوابيتها في تدبير الأمور العامة والخاصة، خاصة في قضايا الأحوال الاجتماعية. من هنا جاءت فكرة المساهمة ببناء التأنيث في إغناء النقاش في هذا الاتجاه من خلال بسط مجموعة مختارة من قضايا الفرار من بيت الزوجية التي عرضت على أنظار المحاكم العرفية بقبائل زيان التي تشمل جنوب من الأطلس المتوسط الهضبي وجزءاً من الهضبة الوسطى، وتتبع طرق تدبيرها، والأحكام الصادرة فيها بمنطق عصرها في محاولة لرصد جزء من البنيات الثقافية لمجال الدراسة تاركين للقارئ فرصة ربط الماضي بالحاضر واستخلاص مظاهر التبدل والاستمرارية فيها.

أولاً: نبذة تعريفية بقبائل زيان وأعرافها وتركيبها محاكمها العرفية

١/١-نبذة تعريفية بقبائل زيان

تقع أرض قبائل زيان على ممر السلاطين بين فاس ومكناس ومراكش، وتربط شرق المغرب بغربه. تشكل حوالي ٨٥% من إقليم خنيفرة الحالي، وتمتد على مساحة تقدر بحوالي ٤٠٠٠ كلم^(٢). يصل طولها إلى حوالي ١٢٠ كلم، ويتراوح عرضها ما بين ١٥ و ٥٥ كلم. يصعب تحديد مجال جغرافي ثابت لقبائل زيان، نظراً

لوعورة وتداخل تضاريسها وتنقلاتها المستمرة. ورغم ذلك يمكن القول إن بلادهم تُحد بقبيلة بني مَكِيل شرقاً، وزمور شمالاً، وقبائل زعير وورديفة غرباً، وبني زمور على ضفاف واد كرو (grou)، وإشقيرن جنوباً. تشكل منخفضاً ضيقاً على ضفاف واد سرو، وسلسلة جبال حقيقية عند أجدير وأروكو. تمتد على وحدتين جغرافيتين متباينتين بنويًا وتضاريسياً هما: الأطلس المتوسط الهضبي أو جبل زيان (الجبل) والهضبة الوسطى (أزاغار).

وقبائل زيان فرع من اتحادية آيت اومالو من صنهاجة^(١) وأهم ركائزها. جاء معظمهم من الجنوب المغربي والأطلس الكبير واستقروا حول سجلماسة. وصلوا إلى مواقعهم مع نهاية القرن الثالث عشر الميلادي^(٢) عبر مسلكين: الأول هو جبل العياشي، والثاني عبر تيزي نلتغمت الرابط بين الأطلس الكبير وتافيلالت. ومع استفحال الأزمة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، زاد تدفقهم نحو جبال فازاز الغنية بثرواتها الطبيعية. واشتد بذلك التنافس بين القبائل الوافدة والأصلية، وبين الوافدين فيما بينهم حول المواقع والموارد. واستفاد زيان من التحولات التي عرفتها الخريطة البشرية بالمغرب خلال نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر الميلادي، مع سيادة قاعدة اقتسام المجال على أساس القوة^(٣) ليستقروا في مجالاتهم الحالية. وخلال القرون الموالية صنعوا لأنفسهم نمط عيش خاص بهم. وصفهم دوفوكو زِيَان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي بأنها قبيلة رحل متعددة الأفراد^(٤)، بلغ عدد عائلاتها قبيل معركة لهري ٩٠٠٠ عائلة^(٥) أي ما يناهز ٤٥ ألف نسمة^(٦)، وضمت الاتحادية سنة (١٣٣٨هـ/١٩٢٠م) حوالي أحد عشر ألف ومئتي خيمة، أي حوالي ٥٦ ألف نسمة^(٧).

٢/١-نبذة تعريفية بأعراف وتركيبها المحاكم

العرفية بقبائل زيان

العرف لغة "عرف" العين والراء والفاء أصول صحيحة يدل أحدها على تتابع الشيء متصلاً ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة^(٨). اشتقت الكلمة من

في كل جماعة يقوم بتوثيق الأحكام الصادرة عن المحكمين، ومن الجماعة (إجماعاً)، ومندوب للمخزن، بالإضافة إلى ضابط عسكري.

فصلت هذه المحاكم في مختلف القضايا وقضايا العاملات التجارية والديون، والرهن الأمانة، وقضايا النزاع على الأرض والمواشي والحدود، وقضايا السقي وتوزيع المياه، وقضايا والقسم والشفعة، والأوقاف والتحالفات الاجتماعية. وفصلت في قضايا الأحوال الشخصية كالخطبة، والزواج، والطلاق، والحضانة، والنفقة والإصانة، والتبني، والنسب، والإرث، وقضايا الفرار من بيت الزوجية وهي بيت قصيد المحور الثاني.

ثانياً: تدبير محاكم زيان العرفية لقضايا خروج الزوجة بيت الزوجية خلال عهد الحماية: نماذج منتقاة

١/٢- رفض الزوجة البقاء في بيت الزوجية

دون سبب معقول مع ادعاء الحمل

تضمنت بعض القضايا المرفوعة أمام المحاكم العرفية ببلاد زيان إصدار أحكام لعدة في قضية واحدة بشكل يعطي للقارئ فكرة عامة عن تدبير المحاكم العرفية المحلية لهذه القضايا بشكل يعفيه من قراءة كل قضية منفردة. نسوق نموذجاً لها القضية التي تقدم بها مدع من آيت بومزوغ آيت الحياتي^(١٩) ضد زوجته (إيطو) ووالدها من آيت بومزوغ آيت أحمد أوعمو بتاريخ ٢١ فبراير ١٩٥٣، والتي تضمنت رفض الزوجة البقاء في بيت الزوجية دون سبب معقول مما جعل المحكمة تفعل القانون العرفي الذي يلزمها بدفع ضعف ما تسلمته من مال وذبائح.

وهكذا وخلال جلسة ٢٧ فبراير ١٩٥٣ رفضت المدعى عليها رفضاً قاطعاً الرجوع إلى بيت زوجها، وأجلت القضية أسبوعين للاستماع إلى ثلاثة محكمين محليين (نواظر) مقبولين من قبل طرفي النزاع. وخلال جلسة ١٣ مارس ١٩٥٣ استجوبت المحكمة النواذر الثلاث فأكدوا بالإجماع تحت القسم أن الزوجة كانت دائماً ترفض البقاء في بيت زوجها دون أن يفهموا أسباب ذلك.

عَرُوفٌ عارفٌ يعرفُ الأمور ولا ينكر أحداً رآه مرة، والعَرِيفُ والعارفُ بمعنى مثل عليم وعالم^(٩)، وقِيمٌ يتولى شؤون الجماعة أو القبيلة. وعَرَفَ فلان على قوم: أي دبر أمرهم وقام بسياساتهم^(١٠). يعني العرف في اللغة أعلى عنق الفرس، وسمي بذلك لتتابع الشعر عليه^(١١). وردت الكلمة في قوله تعالى "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"^(١٢)، كأمر إلهي لنبيه الكريم في هذه الآية بالعرف أي أن يتعارف الناس فيما بينهم على أمر فعلي أو قولي، فتستطيع نفوسهم وتتقبله عقولهم وإلا لا فائدة منه. ترادفه في أمازيغية وسط المغرب (تمازيغت) كلمة "إزرفان" ج إزرف (izerf) التي تدل في اللغة العربية على التقدم، ومنه "أَنْزَرَفُو" وهو القاضي، وَزَرَفَ أي قدم ذعيرة^(١٣).

العرف اصطلاحاً: هو مجموعة من القواعد الوضعية وآليات التدبير الذاتي التي فرضتها الضرورة الاجتماعية. تسهر القبيلة على سنّها لتنظيم شؤونها الداخلية والخارجية سواء تعلق الأمر بالجرائم، أو المس بالأعراض، أو لحماية الملك الخاص والعلم^(١٤). ويصبح بذلك قانوناً صادراً عن جهاز قبلي تختاره الجماعة التي تمثل مختلف مكونات القبيلة^(١٥)، في مجتمع تتعدم فيه سلطة فوقية تقوم بهذا الدور^(١٦). يخص منطقة أو جماعة دون غيرها، ويتميز بقبليته للتطور.

تنفيذاً لبنود معاهد معاهدة فاس في ٣٠ مارس ١٩١٢م التي نصت على قيام سلطات الحماية بإصلاحات إدارية وقضائية لم يتأخر المستعمر في تقليص دور القضاء الشرعي لصالح المحاكم العرفية خاصة في المناطق الأمازيغية. وهكذا بلغ عدد المحاكم العرفية سنة ١٩٢٩ إحدى وثمانين محكمة موزعة على مختلف المناطق الخاضعة للنظام المغربي. وفرت لها سلطات الحماية العدة والعدد الكافي للتدبير والتسيير، ولتحقيق التواصل والوساطة بين الأمازيغ والعرب والفرنسيين. وارتفع عددها بالمغرب تدريجياً^(١٧) ليصل تسعين محكمة ابتدائية^(١٨)، حددت منها لزيان سنة ١٩٣٤ عشر محاكم عرفية ابتدائية تألفت كل واحدة منها حاكم تعيينه الأطراف المتنازعة لفض منازعاتها، أو تتولى الجماعة تعيينه عندما يتم الاختلاف بشأن اختياره. يساعده في عمله كاتب ترجمان تعيينه سلطات الحماية

وخلال جلسة ٢٣ شتبر ١٩٥٣ رفضت المدعى عليها رفضاً قاطعاً العودة إلى بيت الزوجية، فعينت المحكمة ثلاثة نواظر^(٢٢) صرح الأول أنه لم ير ولا يعلم شيئاً، وأكد الثاني والثالث أن الزوج فعل "القَاعِيْدَة"^(٢٣) عند إعادة زوجته إلى بيت الزوجية سابقاً، لكن هذه الأخيرة فرت مرة أخرى لأنها خيرته بينها وبين ابنته من زوجة أخرى. وبناءً على ذلك وانطلاقاً من تحرياتهما، تبين للمحكمة أنها ليست المرة الأولى التي تغادر فيها الزوجة بيتها، والسبب كان دوماً هو الصراع بينها وبين ربيبها، لذلك اشتركت "أَجْمَاعَةً" في حل هذه القضية وقررت بمساعدة هذه الأخيرة إعادة الزوجة إلى بيتها، وإلزام الزوج بضمان احترام العلاقة بين الزوجة والريبة^(٢٤) أو التفريق بينهما في المسكن إن لزم الأمر.

٣/٢-الفرار من بيت الزوجية بسبب العجز الجنسي

يُعدّ فسخ الزواج بسبب عجز جنسي من أحد الطرفين بعد استيفاء الفرص الممنوحة له، أمراً متداولاً بين الزينانيين. ومثال ذلك الشكاية التي تقدم بها مدع من آيت معي آيت بنعلي ضد زوجته وعمها من آيت معي آيت ايكو بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٥٣. اتهمها بالفرار من منزل الزوجية دون أي سبب وطالبها عن طريق المحكمة بالعودة إلى البيت. وخلال جلسة ٢٨ يناير ١٩٥٣ رد عم المدعى عليها بأن سبب فرارها من البيت هو أنها ما تزال عذراء رغم مرور عامين من زواجها بالمدعي. وقدم تأكيداً لأقواله حكماً صادر عن ذات المحكمة سنة ١٩٥٢ تم فيه منح الزوج فترة تنتهي في ٥ مارس ١٩٥٣م لإثبات فحولته لزوجته. وخلال جلسة ١٢ مارس ١٩٥٣، أعلن الطرفان أن الأمور ما زالت على ما عليه. وبناءً على ما سبق ونظراً لإدراك الزوج لعجزه الجنسي، وبناءً على القانون العرفي الزيناني الذي يعتبر أن عجز الزوج الجنسي هو سبب من أسباب فسخ الزواج، حكمت المحكمة العرفية زيان بأكلموس برفض طلب وبفسخ الزواج بين الأخير والمدعى عليها^(٢٥).

٤/٢-حكم فرار الزوجة الحامل من بيت الزوجية

سلكت المحاكم العرفية ببلاد زيان مسطرة انتظار ولادة جنين الحامل الفارة من بيت الزوجية قبل البث في باقي الملفات. ونسوق لذلك نموذج قضية اتهم فيها مدع

بناءً على ما سبق، وفي مثل هذه الحالات يترك القانون للزوج الخيار بين إبقاء الزوجة في حالة فرار أو الطلاق وتلقي ضعف مبلغ الصداق (المال) و"الذبايح". أعلنت الزوجة في هذه الحالة إصرارها على فسخ الزواج، فأمرت المحكمة المدعى عليها بدفع ضعف "المال" و"الذبايح" المدرجين في شهادة الزواج، أي بقرتين، ومهر واحد، وعجلين، وأربعة ذبايح (تيمغراس) في أجل لا يتعدى ثلاثة أشهر.

وبعد صدور القرار وانتهاء أجل الدفع وتحديد في ٨ ماي ١٩٥٣ أعلنت المحكمة مراجعة القضية بعد ظهور الأعراض المبكرة للحمل على المدعى عليها التي ادعت أنها حامل من المدعي. وتعهد هذا الأخير أن يقبل أبوة المدعي مقابل تنازلها عن النفقة وبناءً على ذلك وافقت محكمة زيان أكلموس^(٢٦) على اتفاق الطرفين ووثقته في سجلاتها^(٢٧).

والملاحظ في هذه القضية أن التصريح بالحمل أو بداية ظهور علاماته قبل صدور الحكم العرفي يعيد القضية إلى بدايتها، وذلك إيماناً من قضاة هذه المحاكم بأن مصلحة الأبناء فوق أي رغبات شخصية من الطرفين. وتزكي القضية في ذات الوقت فكرة محلية مفادها أن رجال بلاد زيان لا يتخلون عن أجنحتهم، إلا إذا ثبت العكس.

٢/٢-الفرار من بيت الزوجية بسبب الصراع مع

الريبات

يُعدّ الصراع بين الزوجة وريبها أحد أسباب خروج إحدهما من البيت، وغالباً ما تأرجح الزينانيون بين حالتين:

- يدعمون في الأولى رأي الزوجة ويطردون البنت، وهذه الحالة لا تستدعي دعاوى قضائية ولا يصل صدها إلى المحاكم العرفية.
- وتكون الزوجة في الحالية الثانية هي من يغادر البيت، كما فعلت (رابحة) من آيت بُوَحْدُو آيت بويشي، مما دفع زوجها من نفس الفخدة لرفع شكاية ضدها وضد والدها طالبها فيها بالعودة بحجة أنها غادرت البيت دون سبب معقول.

تمديد المواعيد التي حددها العرف، ولم يتمكن والدها من العثور على المدعى عليها. تبعاً لذلك قررت المحكمة تأجيل أداء والد المختفية اليمين إلى جانب ١٠ محلفين آخرين لتأكيد حسن نيته. لكن المدعي تنازل عن القسم وتم الاتفاق على أن يقدم الأب ابنته أمام هذه المحكمة بمجرد عودتها إلى القبيلة^(٢٧).

٦/٢-العرف وفرار الزوجة من بيت الزوجية بأطفالها الصغار

عندما يكون للزوجة الهاربة أطفال رضع (أقل من سنتين) وترفض العودة إلى بيت الزوجية ويرفض الزوج تطبيقها، تجعل المحاكم العرفية المحلية مصالح الرضيع فوق كل اعتبار وتسمح ببقاء الزوجة في بيت عصبها وتحمل الزوج نفقة الابن(ة) حتى يبلغ السنتين ثم يتم النظر في القضية من منظور جديد.

مثال ذلك شكاية زوج من آيت مَعِي آيت قسو ضد زوجته (فاطمة) ووالدها من آيت مَعِي آيت منصور بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٥٣، طالبها فيها بالعودة إلى بيت الزوجية. وخلال جلسة ٢٨ يناير ١٩٥٣، قدم عقد زواج مؤرخ في ٢٨ نونبر ١٩٥١، وأضاف أنه نتج عن علاقتهما ابن يبلغ من العمر حوالي ١٨ شهراً. وعند استجواب المدعى عليها من طرف المحكمة العرفية رفضت رفضاً قاطعاً العودة إلى منزل زوجها. أجلت المحكمة القضية لأسبوعين تسهيلاً للتوافق بينهما. وخلال جلسة ١٢ فبراير ١٩٥٣، جددت رفضها على الرغم من العرض المقدم لها من المحكمة بتحديد ثلاث "نواظر" من اختيارها.

وخلال جلسة ٢٤ فبراير ١٩٥٣، خيرت محكمة زِيَان بخنيفة الزوج بين الطلاق مع تعويض "المال" و"الذبايح"، وتسلم تعويض قدره ٢٠٠٠٠ فرنك، وشاة من عصب الزوجية الفارة، أو وضعها في حالة خروج من بيت الزوجية تحت مسؤولية هذا الأخير. اختار الزوج الاقتراح الثاني فأمرت المحكمة أن تبقى المدعى عليها في منزل والدها، وأن يبقى الطفل في حضانتها حتى يبلغ سنتين، أي خلال ستة أشهر على الأقل، وفرضت المحكمة على المدعي أن يدفع لصهره معاشاً شهرياً قدره ٢٠٠ ريال اعتباراً من التاريخ أعلاه^(٢٨).

من آيت سيدي بوعباد آيت عبي زوجته (حدوم) من آيت سيدي بوعباد آيت علا بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩٥٣ بمغادرة بيت الزوجية وهي حامل دون سبب مقنع. وأضاف أنه عثر عليها خارج القبيلة بمدينة الحاجب ببلاد آيت نظير، وطالبها عن طريق المحكمة بالعودة إلى البيت دون جدوى.

وخلال جلسة ١٤ دجنبر ١٩٥٣، رفضت المدعى عليها رفضاً قاطعاً الرجوع إلى بيت زوجها رغم اقتراح المحكمة ثلاث نواظر من اختيارها. وبناء على طلب المحكمة، قدم المدعي عقد زواجه بها الذي تم سنة ١٩٥١، ورفض تطليق زوجته مؤكداً أنه قد دفع لها صداقاً قدره ٤٠٠٠ ريال وكبش. وبناء عليه، قررت المحكمة أن تبقى الزوجة في حالة فرار من بيت زوجها تحت ضمانته والدها، وتأجيل النقاش إلى حين وضع الجنين المحتمل، خاصة أنها ادعت الحمل دون وجود دليل واضح عليه^(٢٩).

نشير في هذه القضية إلى أن احتمال الحمل وارد، وتتحمل المحكمة مسؤولية عدم تأكيد خلو رحم الطليقة من أي حمل قبل إصدار الحكم. وذلك إما عن طريق قابلة تقليدية، أو عن طريق العدة المتعارف عليها في العرف. كما لا تستبعد فرضية الحمل خارج مؤسسة الزواج لتجنب دفع ضعف الذبائح، ومال الصداق الذي تضمن مكونات ليست في متناول السواد الأعظم من أسر الفخدة المذكورة خلال تلك الفترة.

٥/٢-اختفاء الزوجة الفارة من بيت الزوجية

يُعد اختفاء الزوجة الفارة بعد خروجها من بيت الزوجية من القضايا الأكثر شيوعاً في أعراف بقبائل زيان خلال عهد الحماية. وذلك نظراً لحجم الضغوط التي تتعرض لها من طرف عائلتها ومن طرف الجيران وأبناء القبيلة للرجوع إلى بيتها في مجتمع يعتبر فرارها منه عيباً. ونموذجنا في ذلك الشكاية التي تقدم بها مدع من آيت مَعِي آيت قسو ضد زوجته (فاطمة) والدها من نفس الفخدة بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٥٣ طالب فيها زوجته التي غادرت منزل الزوجية دون سبب جدي بالعودة إليه. وخلال جلسات ٢٦ فبراير و١٢ مارس و٢٧ مارس و١٥ أبريل ١٩٥٣ غابت المدعى عليها المختفية بالرغم من

٧/٢-مسطرة إثبات العرف الزياني لزنى

المرأة المغادرة لبيت الزوجية

كان اتهام الزوجة الفارة من بيت الزوجية بالزنى من التهم الأكثر شيوعاً بين القبائل لتسريع وثيرة التقاضي، ولكن يبقى إثباتها للمحاكم العرفية أمراً في غاية الصعوبة لضعف وسائل التوثيق والحصول على الأدلة، ولتعدد مساطره.

نمذجنا في ذلك الشكاية التي تتقدم بها مدع من دوار الباشا ضد زوجته (رقية) وشقيقها من دوار أمهروق (المقدم موحى أوحمو) بتاريخ ١٠ شتنبر ١٩٥٢ اتهمها فيها بالزنى ومغادرة بيت الزوجية دون أي سبب وطالبها عن طريق المحكمة بالعودة إلى بيت الزوجية. وخلال جلسة ١٦ أكتوبر ١٩٥٢، رفضت المدعى عليها العودة إلى منزل زوجها بحضور ناظرين^(٢٩). أعلن الأول عدم علمه بشيء، وأكد الثاني أن المدعى عليها كانت مريضة في منزل شقيقها المدعى عليه الثاني وكلاهما طلب إعفائه من المهمة لأنهما يواجهان التهديد بدفع نفقة لأخ المدعى عليه لأن المدعي والمدعى عليه شقيق المرأة كانا يتشاجران وسط الشارع.

أكد أن المدعى عليه أنه رافق الأخيرة في شوارع مدينة خنيفرة. وردت المدعى عليها بأنها كانت في المدينة لأنها استدعيت من قبل المحكمة لتسوية نزاعها مع زوجها، واعترفت بأنها كانت برفقة المدعى عليه عند الغسق في شوارع خنيفرة، ونفت وجود أي علاقة حميمة مع المدعى عليه الثاني وعند استجوابه أقر المدعي أنه لم يكن معها على اتصال جسدي. وعليه اعتبرت المحكمة أن المتهمين لم يرتكبا أي أفعال ذات طابع إجرامي، وأعلنت أن الشارع ملك عمومي للجميع، وأنه لا يمكن أن يكون هناك جريمة الزنا أمام المارة وبالتالي رفض الطلب وتقرر أن تبقى المرأة في حالة عصيان مع شقيقها^(٣٠).

٨/٢-دور آجَمَاعَة في حل قضايا الفرار من

بيت الزوجية المعروضة على المحاكم

نادراً ما تتدخل آجَمَاعَة في قضايا فرار الزوجة من بيت الزوجية المعروضة أمام المحاكم العرفية، إلا أننا سجلنا وجود بعض الحالات نذكر منها تلك التي تقدم بها

مدع من آيْت مَعِي آيْت بنعلي ضد زوجته (فاظمة) من نفس الفخدة طالبها فيها بالعودة إلى بيت الزوجية. وخلال جلسة ٩ نونبر ١٩٤٤، أكدت المدعى عليها أنها كثيراً ما فرت من بيت الزوجية بسبب سوء معاملة زوجها. وتدخلت آجَمَاعَة التي أدانت المدعى عليها لأنه لا يظهر عليها أي أثر واضح للعنف. وأمرتها المحكمة بالعودة على الفور إلى خيمتها وعينت أحد أقاربها نظيراً للزوجين^(٣١). وهو حكم لا يستند في نظرنا إلى دلائل موضوعية قياساً لأحكام عرفية مشابهة.

٩/٢-تدبير العرف الزياني لطلب عودة

زوجة فارة من بيت الزوجية محتمل حملها

لطفل راقد

الراكد بالدارجة المحلية، أو (أنْجُونْ anjoun) في تمازيغت الأطلس المتوسط جزء من التراث الثقافي الشعبي المغربي. يقصد به نوم أو تنويم الجنين في بطن أمه لمدة تفوق المدة الطبيعية للحمل أضعافاً مضاعفة أحياناً. ويعد الجنين النائم من الظواهر الاجتماعية القديمة ليس في المغرب فقط، بل في العديد من الحضارات والدول عبر العالم. إذ يُعدّ الطفل الراقد في بطن أمه لمدة تقل عن ٥ سنوات من الأمور التي كانت مألوفة في المجتمع الإسلامي بصفة عامة^(٣٢) والمجتمع المغربي، وخاصة بلاد زيان خلال عهد الحماية حيث يسود الاعتقاد بينهم أنه يستغرق في بطن أمه مدة غير محدودة ولا يقبلون تكذيب ذلك ويعتبرونه "مكتاب" لأن الله وحده من يعلم الغيب. لذلك نجد الاعتقاد به راسخ لدى العامة، وقد ترفع بشأنه دعاوى قضائية كما هو الحال بالنسبة للشكاية التي تقدم بها مدع من آيْت بومزوغ آيْت أحمد أوعمو بطلب عودة زوجة محتمل حملها لطفل راقد ضد زوجته (إيزة) ووالدها القاطنين بزاوية آيْت إسحاق^(٣٣) المركز (المقدم موحى نعيشة) بتاريخ ٢٢ ماي ١٩٥٣. طالبها فيها بالعودة إلى بيت الزوجية وخلال جلسة ١٠ يونيو ١٩٥٣ قدم المدعي عقد زواج عوم بغير "مال" ولا "صداق" قانوني مسجل سنة ١٩٥١، وبعد دعوتها للعودة إلى منزل زوجها ترفض رفضاً قاطعاً.

خاتمة

ترسيخاً لدور التاريخ في ربط الماضي بالحاضر واستشراف المستقبل، يمكن القول إن الأعراف، وخاصة الأعراف ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي اخترقت الزمن لتضمن استمراريته في مجتمعنا حتى اليوم. ولضمان استمراريته نجحت الأعراف في التكيف مع التطور الذي يعرفه المجتمع، خاصةً تزايد تعقيدات القضاء الإداري وتزايد الظغوط الاجتماعية على معظم شرائح المجتمع. فرض هذا الأمر العودة إلى مجموعة من الركائز الرئيسية لهذا العرف كنوع من تخفيف الضغط على المحاكم، لذلك نجد أن مؤسستا "آجماعة" و"أمغار" مازال لهما الكلمة العليا في العديد من قبائل مجال الدراسة، فقرارات "آجماعة" برئاسة شيخ القبيلة (أمغار) قرارات لاتناقش، وعدم الامتثال لها يُعدّ خروجاً من الجماعة التي "لا يخرج منها إلا إبليس اللعين". واستمرارية تدبير معظم قضايا فرار المرأة من بيت الزوجية وتدبير عقود العمل في الزراعة وتربية الماشية.... بالأحكام العرفية حتى اليوم دليل آخر على نجاعتها واعتراف بقدرة أهل العرف على التدبير والتسيير، وحنكة الوسطاء في تفعيل بنوده.

وهذا ما يستلزم:

- رقمنة الرصيد الوثائقي للقضاء العرفي وإخراجه إلى حيز الوجود في زمن الرقمنة.
- فتح المحاكم العرفية في وجه الباحثين خاصة أرشيفات بعض محاكم المملكة حتى لا يتعرض ماتبقى منها للتلف والضياع، وتضيق معه فرصة مهمة لفهم البنيات الاجتماعية والذهنية للمغاربة خلال الفترة المدروسة.

قررت المحكمة بعد ذلك الاستماع إلى النواظر الحاضرين^(٣٤)، اللذان أكدا تحت القسم، أن المدعي غالباً ما يضرب زوجته دون الإفصاح عن الأسباب، وطبق الزوجان "القاعدة" عندما هربت المرأة وأنها لم تأت لتشرح لهم أسباب الاعتداء وأضافا أنه ليس للزوجين أطفال؛ لكن الزوج يعلن أن زوجته تحمل "أنجون" يبلغ من العمر عامين في بطنها. قدمت المدعى عليها شهادة طبية مؤرخة في ١٠ يونيو ١٩٥٣ تثبت أنه لا تظهر عليه أي علامة معينة للحمل، وتدعوها للعودة في غضون شهرين لإجراء فحص جديد لحالتها. وبناءً على رفض الزوج طلبها بحجة أن الشهادة الطبية لم تحسم حالة الحمل من عدمها ذلك، ووفقاً للعرف والعادات المحلية قررت محكمة زيان أكلموس أن تبقى المدعى عليها تحت المسؤولية الكاملة لوالدها والعودة بعد شهرين إلى أن يثبت حمل المعنية من عدمه أو توصل الطرفين لاتفاق جديد وفق العرف المحلي^(٣٥)

الإحالات المرجعية:

(18) Plantey Alain, *La Réforme De La Justice Marocaine, La Justice Makhzen Et La Justice Berbère*, Thèse Pour Le Doctorat En Droit, Université De Paris, Faculté De Droit, Imp, Du Parnasse, 1951.

(١٩) ينوب عنه والده بتوكيل قانوني.

(٢٠) مركز حضري وجماعة قروية تقع على بعد ٣٢ كلم شمال شرق مدينة خنيفرة، وتعد معقلا لقبائل آيت حركات أكلموس، وتضم أهم مراعي سهل زيان.

(21) A.C.KH, Tribunal Coutumier De Zayans, Jugement N° 299 Du 8mai 1953

(٢٢) موحى أوعقى، أوبوعمر، وحدو الحسين

(٢٣) عادة يقوم من خلالها الزوج الراغب بعودة زوجته الفارة إلى بيت الزوجية بذبيحة وشراء بعض الهدايا

(24) A.C.KH, Tribunal Coutumier d'Ait Krat, Jugement N° 366, Du 23 Septembre 1953

(25) A.C.KH, Tribunal Coutumier De Zayans, Jugement N° ١٥٤, Du 1٢ Mars 1953

(26) .C.KH, Tribunal Coutumier d'Ait Krat, Jugement N° 453, Du 14 Décembre 19٥٣

(27) Cercle De Khénifra, Tribunal Coutumier De Zayane ١٥ Avril 1953, Jugement N°2٢٥

(28) A.C.KH, Tribunal Coutumier De Zayane, Jugement N°٩7, Du 12 Février 1953

() بناصر نمحمد أوعقى، أحمد ونوح 29

(30) A.C.KH, Tribunal Coutumier De Zayans, Jugement N°٤٠٥, Du 16 Octobre 1952,

(31) A.C.KH, Tribunal Coutumier d'Ait Harkat, Jugement N°٤٩٧, Du 9 Novembre 1944

(٣٢) واعترفت الأحكام الفقهية الإسلامية ضمناً بالظاهرة فاتفقت على أن أقل مدة للحمل في ستة أشهر، واختلفت بشأن أقصى مدة للحمل بين سنتين وسبع سنوات. فروي عن عائشة أنها قالت: سنتين، وفيه قول الحنفية. وفيه قول ثان: وهو أن ذلك يكون ثلاث سنين. وفيه قول الزهري: أن المرأة قد تحمل ست سنين، وسبع سنين. وفائدة هذا الخلاف امتداد التريض بالمرتابة، وأن المطلقة إذا أتت بولدٍ لأكثر من مدة الحمل من وقت الطلاق لم يلحق به، للمزيد انظر: الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، **الوسيط في المذهب**، تحقيق أحمد محمود إبراهيم، محمد محمد تامر، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/ النيسابوري أبو بكر محمد بن إبراهيم، **الإشراف على مذاهب العلماء**، تحقيق صغير أحمد الأنصاري أبو حماد، منشورات مكتبة مكة الثقافية، رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤، ج٥، ص٣٤٧/ أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي (ت. ٥٤١هـ)، **الجامع لمسائل المدونة**، تحقيق مجموعة باحثين في رسائل دكتوراه، منشورات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، توزيع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ج١، ص٥٧٢.

(٣٣) جماعة قروية يقع مقرها على بعد حوالي ٣ كلم جنوب غرب من مدينة خنيفرة على بعد ٣ كلم من الطريق الرئيسية المؤدية إلى قصبة تالة.

(٣٤) وهما البدو الرجل عبد القادر نسيدي لحسن وزمومو بن عمر

(35) A.C.KH, Tribunal Coutumier De Zayans, Jugement N°٢١٢, Du 10 Juin 1953,

(١) **صنهاجة**: نقصد بهم **صنهاجة الظل (آيت اومالو)**: وهم سكان الجبال، في حين قسمهم آخرون إلى صنهاجة الشمال وورغة، وصنهاجة غدو، وصنهاجة مصباح، و**صنهاجة الأطلس المتوسط** التي تعد زيان أهم فروعها (الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج٨، ص ١٣٤، المنصوري أحمد، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق وتقديم محمد بلحسن منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة الرباط، ط١، ٢٠٠٤، ص٧٣/ المنصوري أحمد الزياتي، **تاريخ بلدة خنيفرة**، تحقيق محمد أمحزون، دار الثقافة للتوزيع والنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦، ص ٣٤)

(٢) **تاويريت-ن-زيان**: هضبة زيان على واد مزيزل.

(٣) عشاق مولود، **جوانب من تاريخ منطقة زمور**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، مطبعة فيديريانت، الرباط، ط١، مارس، ٢٠٠٥، ص ٣٩.

(٤) دوفوكو شارل، **التعرف على المغرب**، ترجمة المختار بلعربي، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩، ج١، ص ٦٤

(٥) كيوم أوغسطين ليون، **البربر المغاربة وتهدة الأطلس المركزي (١٩١٢-١٩٣٣)**، ترجمة وتقديم محمد العروصي، بني ملال (دون ناشر)، ٢٠١٦، ص ١٥٢.

(٦) العلمي أحمد، " **صفحات من مقاومة قبائل زيان للاستعمار الفرنسي- مقاومة موحى وحمو نموذجا** "، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط (١٩٠٧-١٩٥٦م) منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وجيش التحرير، مطبعة بني يزناسن، سلا، ١٩٩٩، ص ٨٩.

(7) Peyronnet. R, *Tadla Pays Zayane Moyen Atlas...*, Op, Cit, Pp.87-100.

(٨) بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، منشورات دار الجبل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩١، ج٤، ص ٢٨١.

(٩) نفس المصدر، ج٩، ص ٢٣٦.

(١٠) إبراهيم مصطفى، الزيات أحمد، حامد عبد القادر، النجار محمد، **المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار العودة، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٥٩٥.

(١١) ظهرت خلال العقدين الأخيرين أنواع جديدة من الحلاقة، يعتمد فيها الشباب ترك خط متتابع من الشعر وسط الرأس مع حلق الباقي، فيقال إن الواحد منهم ترك عرفا على رأسه.

(١٢) القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع، **سورة الأعراف**، الآية ١٩٩.

(١٣) بوسلام محمد، **معجم الدارجة المغربية**، دار أبي رقرق، الرباط، ط١، ٢٠١٥، ج١، صص ٥١٥.

- **الذعيرة**: وتكون غالباً إطعاماً جماعياً يتم فيه مناقشة القضايا العالقة، وتصرف فيه كل الأحقاد والخلافات بين أفراد القبيلة وصلة الأرحام وتشارك "الطعام" الذي يُعدّ تحالفاً اجتماعياً تصيب المخالف لعنته. وزرف أصل الكلمة الدارجة "زرفو" أي دفعه لارتكاب الخطأ.

(١٤) بوبريك رحال، **زمن القبيلة: السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط١، ٢٠١٢، ص ٦٩.

(١٥) نفسه، ص ٧٦.

(١٦) نفسه، ص ٧٠.

(١٧) مونيبي محمد، "ظهير تنظيم المحاكم العرفية ما حقيقته في تاريخ المغرب المعاصر؟"، ضمن **الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ**، ٢٠٢١-٢٠٢٠، ٢٣ يوليوز ٢٠٠٠، الدورة السادسة للجامعة الصيفية، جزء ٢، ص. ١٠٠.

التعليم العمومي الفرنسي من منظور المؤرخ جول ميشليه مساهمة في تحديد الأبعاد

د. ياسين زينون

أستاذ متعاقد تاريخ معاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحسن الثاني - المملكة المغربية



ملخص

خلال القرن التاسع عشر الميلادي أصبحت القضايا التربوية في أوروبا من القضايا العملية الحياتية، وركزت المناهج على حاجات واهتمامات المتعلمين، وهذا كان تنمة للنزعة الواقعية. وازداد في هذا القرن الاهتمام بالأسس النفسية للعملية التعليمية-التعلمية والتركيز في المناهج بصورة واضحة على التربية القومية. تتناول هذه الدراسة التعليم العمومي الفرنسي كما تمثله ميشليه، من خلال تحديد الأبعاد التي اتخذتها المدرسة العمومية في المشروع الحداثي لمؤرخ جعل التعليم همًا وشرطًا أساسيًا للنهوض بأوضاع فرنسا. وقد تم تقسيم هذا المقال إلى ثلاثة محاور رئيسية هي: المدرسة العمومية مؤسسة للتربية الوطنية والأخلاقية؛ والمدرسة العمومية مؤسسة للتعليم العلماني والمنتكامل؛ والمدرسة العمومية مؤسسة للارتقاء الاجتماعي. وقد اعتمد البحث مقارنة نقدية تأويلية أتبع المنهج التاريخي، واستند إلى قراءة متأنية لأهم المصادر والمراجع في الموضوع؛ ما مكّنه من الظفر بجملة من النتائج أوردها في سياقاته وخاتمته.

كلمات مفتاحية:

المدرسة العمومية؛ التربية الوطنية؛ المدرسة العمومية؛ المشروع الحداثي؛ القرن التاسع عشر

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ فبراير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٤ مارس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.453898

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ياسين زينون، "التعليم العمومي الفرنسي من منظور المؤرخ جول ميشليه: مساهمة في تحديد الأبعاد"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥، ص ١٥١ - ١٦٥.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: zainoune.yassine@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

خلال القرن التاسع عشر الميلادي أصبحت القضايا التربوية في أوروبا من القضايا العملية الحياتية، وركزت المناهج على حاجات واهتمامات المتعلمين، وهذا كان تنمة للنزعة الواقعية. لقد شُرعَ في وضع التطبيقات التربوية انطلاقاً من الأسس العلمية؛ بمعنى أن التربية العملية أصبحت هي الأسس الناظم، بالإضافة إلى تبني الأسس العلمية والعقلية. وهذا كله يُعزى إلى نمو النزعة التجريبية المعتمدة على المشاهدة والتجربة التي بدأت بواردها في التطور قبل هذا القرن، ولكنها تعمقت ونمت وأصبحت جزءاً من آليات المجتمع. وازداد في هذا القرن الاهتمام بالأسس النفسية للعملية التعليمية-التعلمية والتركيز في المناهج بصورة واضحة على التربية القومية. وفي هذا الإطار، باعتباره ضمير وطنه وكمثقف غير منفصل عن هُوم عصره سَاعَ إلى تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ مجتمع فرنسي عصري ومتحضر، مندمج ومتضامن، جعل "ميشليه" Michelet^(١) ربّما قبل غيره التعليم في صلب اهتمامات الدولة. كما يشير إلى ذلك متسائلاً: "ما هو أوّل مجال للسياسة؟ التعليم، والثاني؟ التعليم، والثالث؟ التعليم"^(٢). فكان هذا القطاع قُطْبَ الرّحى في المشروع الحداثي^(٣) لهذا المؤرخ الذي تمثّل مدرسة عمومية فرنسية بأبعاد محدّدة، تُعزّز التجسيد الحقيقي للأمة^(٤) وتُدرّس مبادئ ومناهج مقرّرة واضحة^(٥). فما الامتدادات التي اتخذتها المدرسة العمومية في مشروع ميشليه الحداثي؟

أولاً: المدرسة العمومية مؤسسة للتربية

الوطنية والأخلاقية

١/١- التربية الوطنية

في مقاله "القرن التاسع عشر الممتد" كتب المؤرخ "كريستوف شارل" "Christophe Charle" (١٩٥١-...) ما يلي: "لكن أقوى إحاء بُني في القرن التاسع عشر، وبشكل كونيّ تقريباً، هو بدون شك ذلك الذي لا يُفكّر فيه كثيراً من هذه الزاوية، ألا وهو حُبُّ الوطن، وشكله المبالغ فيه، أي القومية (...). يتعلّق الأمر بثورة ذهنية (...). كانت قد قامت على فكرة ما فتئ يشاطرها إحاء قومي يُبرّر التضحية العظمى"^(٦). ففي مناخ عام مُوغلٍ

في القومية كهذا ما كان لميشليه بوعيه التاريخي الحاد إلا ليُجزم بأن فرنسا حاملة لواء الحضارة والتقدم لن تُتقدّ من شَبَحِ الفناء الذي يتهدّدها جرّاء وَهْنِهَا المعنوي إلا إذا استعاد المجتمع الفرنسي لحمته وتجانسه. وهو ما لن يتأتّى في الأصل إلا بتربية وطنية تنطلق داخل المدرسة بصفاتها فضاء مؤسساتها لها نصيب مهم في "جَعْلِ الْمُتَعَلِّمِ، باعتباره ابناً للأسرة ابناً للوطن"^(٧)، يقول هذا المؤرخ الشوّفي^(٨) في فقرة معبّرة حول ضرورة احتضان المدرسة للطفل بقوة واحتوائه ووجوب تعلقه الشديد بها كأساس لنجاح التربية الوطنية: "وبالنسبة للأطفال الصغار، لأبْدُ لنا جميعاً أن نَكُونْ آبَاءَهُمْ، وأن نفتح لهم ذراعينا، وأن نَكُونْ المدرسة مأواهم، مأوى ناعما وكريما، وأن يَكُونْ جيّداً بالنسبة لهم، وأن يذهبوا إلى هناك من تلقاء أنفسهم، وأن يحبّوه بقدر ما يحبون البيت الأبوي وأكثر، بيت فرنسا هذا، (...) فإذا كانت والدتك لا يُمْكِنُها أن تُطعمك، وإذا كان والدك يسيئ معاملتك، إذا كنت عارياً، وإذا كنت جائعاً، تَعَالِ يا بُنَيَّ، فالأبواب كلّها مفتوحة على مصراعيها، وفرنسا تقف على العتبة لتقبيلك واستقبالك، أبدأً لَنَ يَحْمَرَّ وَجْهُ هذه الأمّ العظيمة خَجَلاً من أن تَكْفَلَ لك رعاية المُربِّيَّة، سَتُعَدُّ لك بيدها البَطُولِيَّة^(٩) حَسَاءَ الجندي، وإذا لم يكن لديها ما تَلَفُّ به وتدْفِي أطرافك الصَّغيرة الخَدِرَةَ، فسوف تُمرِّقُ لأجل ذلك جزءاً من عِلْمِها"^(١٠).

وحتى يُعزّز التعليم الابتدائي الحس الوطني لدى التلميذ - عبر تمجيد البطولة الوطنية بشكل خاص^(١١) -، ستتخذ التربية الوطنية منحى أساسيين. يرسخ الأول الوطن كعقيدة ومبدأ في ذهن الصبي بتبيان بطولات "بتول أورليان" "la Pucelle d'Orléans" (١٤١٢-1431)، ونبوغ الثورة الفرنسية التي قدمت للعالم طوعاً الحرية والانعقاد، ودينامية سنة ١٧٩٢ التي توجّت بخلع لويس ١٦ Louis XVI (١٧٥٤-١٧٩٣) وإعلان قيام الجمهورية الفرنسية الأولى في ٢١ شتبر من هذا العام مما شكل إيذاناً بانتهاء الحكم الملكي في فرنسا، وقِيم المساواة والحرية والإخاء التي يرمز لها العلم الثلاثي الألوان، وعِفَّة "مارسو" "Marceau" (١٧٦٩-١٧٩٦) ونُبُل "هوش" "Hoche" (١٧٦٨-١٧٩٧)، وكذا شهرة معركتي "أركول" "Arcole"^(١٢) و"أوسترليتز"

Austerlitz " (١٣) . ويُبَيَّنُ الثاني الوطن كأسطورة في وجدانه؛ بتعريفه بجلال الجمعيات السيادية الفرنسية سواء: "الجمعية الوطنية الدستورية" "L'Assemblée Nationale Constituante" (يونيو ١٧٨٩-شتتبر ١٧٩١) أو "الجمعية التشريعية" "L'Assemblée Législative" (أكتوبر ١٧٩١-شتتبر ١٧٩٢) أو "الجمعية الوطنية" "La Convention Nationale" (شتتبر ١٧٩٢-أكتوبر ١٧٩٥)، وإشعاره بأن فلسفة الثورة الفرنسية إنما تتبني على إرساء السلم والتآخي بين الأمم، وإطلاعه على الكفاءة الجمّة التي اضطلع بها أسلافه على درب الولاء وبذل النفس، وكيف افتدت فرنسا العالم بنفسها غير ما مرة، حتى يجعل هذا التهذيب الوطني التلميذ الصغير فخورا بماضيه ويكون له سندا ونبراسا وهاجا يهتدي به على درب مواصلة مسيرة الأجداد وفي ما سيضطلع به في زهرة شبابه من مهام جسام سواء داخل أو خارج فرنسا. يقول: "الوطن أولاً بوصفه عقيدة ومبدأ، ثم الوطن كأسطورة: (...). من خلال بتول أورليان، ومن خلال الثورة، وزخم ٩٢، ومعجزة العلم الشاب، وجزالاتنا الشباب الذين بكأهم العدو وآثاروا إعجابه، وطهارة مارسو، وشهامة هوش، ومجد أركول وأوسترليتز، (...) وبدرجة أعلى عظمة مجالسنا السيادية، والعبقرية السلمية والإنسانية حقاً لـ ٨٩، لما قدّمت فرنسا للجميع الحرية والسلام عن طيب خاطر، (...) أخيراً، وقبل كل شيء، وكدرّس أعلى، القُدرة الهائلة من التفاني والتضحية التي أظهرها أبوانا، وكم ضحّت فرنسا في العديد من المرات بحياتها من أجل العالم. وأنتَ طفلٌ، فليكن هذا إنجيلك الأول، ودعم حياتك، وغذاء قلبك. ستَتذكّرهُ في الأعمال غير المُجرّية والشاقة حيث ستقذف بك الحاجة قريباً. سيكون بالنسبة لك علاجاً فعالاً، سيأتي لينقذك، سوف يَسحرُ ذاكرتك في أيام الحرث الطويلة، وفي الملل الأعظم للمصنع؛ سوف تجده في صحراء إفريقيا كَجُرعة مفيدة من الشعور بالحنين إلى الوطن، وفي كآبة المسيرات والحراسات، وأنت الحارس المفقود على بُعد خطوات من البرابرة" (١٤).

ولا مناص من القول إن تكريس الوطن كعقيدة وأسطورة في وجدان الطفل يتغيى من جهة نسج علاقة أمومة بين الطفل ووطنه. وهو ما يوضحه ميشليه بقوله: "فماهيته [أي التعليم] هو العادات الوطنية كما أشرتُ إلى ذلك، فعلى الطفل أن يتعلم في البداية أن فرنسا هي أمُّهُ (...). وأنه ثمرتها، فماذا كانت؟ وكيف عاشت؟ فهذا ما يتعين عليه أن يعرفه" (١٥). ومن أخرى، تحقيق توافقه وتناغمه مع وطنه ومع العالم عبر منحه مرجعية ثقافية متبادلة مع غيره وجعله مقبولا في محيطه ومنسجما معه. وهو ما يفصح عنه هذا المؤرخ متسائلا: "تعليمنا العام، (...) ما الذي يريده؟ وما غايته؟ يريد مواءمة الطفل مع الوطن ومع الوطن الكبير، العالم. (...) وهو يعتزم بالخصوص إعطاءه خلفية فكرية مشتركة مع الجميع؛ ويريد أن يجعله معقولا، والحيولة دون أن يكون متعارضا مع ما حوله؛ وأن يمنعه من أن يكون بلا ثياب في هذا الاحتفال الكبير" (...). وبما لا يدع مجالا للشك أن هذا الصبي لن يتردد في شبابه في الدؤد عن حيّاض وطنه الذي تهدده مخاطر خارجية (١٦). وقد نبّه ميشليه إلى خطورة الوضع قائلاً: "أيها الأولاد! أيها الأولاد! أقول لكم: اصعدوا إلى جبل، أمل أن يكون عالياً بما يكفي، أنظروا في كل مكان، لن تجدوا إلا أعداء" (١٧). وحتى تجمع مقاعد الدراسة التلاميذ الذين ستجمعهم الخدمة العسكرية في وقت لاحق، ومن أجل تثبيت الشعور الوطني في وجدان التلميذ وترسيخه، دعا ميشليه إلى تخصيص سنة أو سنتين في نهاية الطور الابتدائي لدراسة فرنسا دون سواها؛ كي يعمق أطفال مختلف الفئات والخلفيات معرفتهم بوطنهم، ويعو أن فرنسا هي ضامن عيشهم الكريم وما ينعمون به من منافع. مما من شأنه أن يؤصل في نفوسهم شعورا قويا بحُب بلدهم، وأن يدخل التلميذ في بروفة إعدادية للوطن الفعلي حيث جميع المواطنين سواسية بغض النظر عن انتمائهم الاجتماعي، توحدهم نفس المرجعيات والتطلعات، وهو ما سيؤهله بلا شك وهو في ريعان شبابه إلى خدمة وطنه والإسهام في رفعة ونهضته. يقول: "أتحدث عن مدرسة مشتركة حقاً، حيث الأطفال من كل الطبقات ومن كل مناحي الحياة، سيأتون سنة أو سنتين للجلوس معاً، قبل التعليم الخاص [أي

نَجْعَلُهُ يَمُوتُ جَوْعاً (...) فمن خلال المُعَلِّمِ فقط سيكون بإمكان فرنسا أن تتحدث لأطفالها، لذلك يجب تَبْنِيَهُ بشكل شامل، وأن نقول له: "أنت هو الابن الشرعي للجمهورية" وأن نَكْفُلَ بَيْتَهُ (...) وأن نُزَوِّجَهُ (...) (٢٥). من جهته وحتى يتوفق في رسالته التربوية، سيكون لزاماً على المُعَلِّمِ إثراء فكره بمطالعة إصدارات حديثة، مما من شأنه الرُّفْع من جودة التعليم الفرنسي في سلكه الابتدائي وتحسين مُخْرَجَاتِهِ. ويوضح ميشليه في هذا الصِّدَد: "إننا نُطالبه ببعض المجهودات والمطالعات الجديدة (...) فإذا كانت الرُّوح بصحة جيدة وظلَّ الفكر حياً، فستتم ملازمة هذه الطاقة الصِّحِّية في كل مكان، وستعود الحياة إلى المدرسة" (٢٦).

ثانياً: المدرسة العمومية مؤسسة للتعليم العلماني والمتكامل

١/٢- عُقْم المناهج البيداغوجية وتجريدها

نعت ميشليه النظام التعليمي (٢٧) في فرنسا بالعقم والتجريد، لأن البرامج موجهة بالأساس إلى دراسة النحو واللاهوت اللذين يُكْرَسُ لهما التلميذ بكل جوارحه. واعتبر من جهة أخرى المناهج التعليمية المتداولة في المؤسسات وعلى مختلف المستويات المسؤول الأول عن إخراج جيل منعزل مشوّش البال ومحدود العقل. كما يُقَرُّ بذلك متسائلاً: "والعقل في حد ذاته، من يُشَوِّههُ بشكل حَاسِمٍ منذ نقطة البداية؟ إنها الثقافة المجردة على الإطلاق المقدّمة لنا، وهذه الكمية من التعاويذ التي تُشَوِّشُ وتُزَعِّجُ الفكر، أعني المدارس. فالعقل لا يضيق عن طواعية: بل ثمة أسباب اصطناعية جداً، تتمثل على وجه التحديد في هذه الثقافة المدرسية التي أدّت به رغماً عنه إلى اتخاذ تلك الأشكال الجافّة والمصقولة التي تعزله عن الحياة وتُبعده أكثر فأكثر عن الناس. طفل مَدَارِسِنَا (...) تم تَشْبِيَتُهُ جَسَداً وَعَقْلاً، فهو مَطْمُورٌ في النحو أو التعليم المسيحي، أي في التجريد، وأكاد أقول في المستحيل وبعيد المنال (...) هذا التعليم الرّهيب هو نفسه تماماً عند الكهنة وعند العلمانيين" (٢٨).

التعليم الإعدادي أو المهني]، وحيث لن نتعلم شيئاً سوى فرنسا (...) سيتلقّى الطفل هنا إحساساً بالوطن لا ينمحي، وهو يجده [أي الوطن] في المدرسة لا باعتباره دراسة وتعليماً، ولكن كوطن حيّ، وطن طفل، مشابه له، مدينة أفضل سابقة "للمدينة" "La cité" (١٩)، مدينة مساواة حيث سيجلس الجميع في مأدبة روحية واحدة. ولا أريده [أي الطفل] فقط أن يتعلم ويرى الوطن، بل أن يُحَسِّه كغناية، وأن يتعرّف عليه كأمٍّ ومُرْضِعَةٍ بحليبها المقوي ويدفئها بالمنعش" (٢٠).

٢/١- تربية أخلاقية على القيم الجمهورية

يقول ميشليه: "فرنسا، فاعلموا، لن يكون لها أبداً إلا اسم واحد، لا يُمحي، هو اسمها الحقيقي الأبدي: الثورة!!" (٢١). ومن هذا المنطلق فقد نادى بمدرسة عمومية جمهورية تكون أساساً للهوية الوطنية وبوتقة انصهارٍ وتقدّمٍ ولحمة مشروع بناء الوطن، يَحْصُلُ فيها التلاميذ على تعليم مشترك يستند في المقام الأول إلى إيديولوجيا الثورة الفرنسية، يمتح من القيم الجمهورية ويرفض الملكية والقيصرية البونابرتية (٢٢). ولما كان بلوغ هذه المرام رهينا برد الاعتبار إلى مُعَلِّمِ المدرسة بصفته مؤسس القيم التربوية الجمهورية لدى التلاميذ ومهندس نظامهم الفكري وحامل رسالة الجمهوريين لجميع الطبقات الاجتماعية، وفي ظل إعفاء عشرة آلاف معلم من مهامهم غداة انقلاب ٢ دجنبر ١٨٥١ مما عرّضهم للفاقة والجوع (٢٣)، فقد دعا هذا المؤرخ إلى النهوض بأوضاع مُعَلِّمِ المدرسة مكانة وتأهيلاً، أو كما قال: "الشيء المقدّس بالنسبة لي، (...) هو الجَبْرُ المستحق لشهيدها، وضحيّتها. أقول إنّه من بين كل الناس، الذي عانى أكثر من غيره هو مُعَلِّمُ المدرسة؛ فعشرة آلاف بعد ٢ دجنبر تم عزلهم من أوّل مرّة وسأقول قتلهم" (٢٤). وذلك عبر تخصيص راتبٍ معقول للمُعَلِّمِ يَمَكِّنُهُ من إعالة نفسه، وألاً توكل مسألة تغذيته بأولياء أمور تلامذته، وهو ما قد يعرضه للفاقة والجوع، مع تمكينه من ظروف العيش الكريم وتزويجه، مما سيساعده على تأدية عمله في أحوال حسنة وسيؤكد له بالبيئة أنّه عماد النظام السياسي الجمهوري. يقول: "لكن اليوم فأن نثَق بالقرية لتغذية مُعَلِّمِ المدرسة، فهذا يعني من دون شك أن

في القطاع الهندسي إلى الابتكار والتصميم والتحليل والإنشاء والبناء ولاسيما إلى تقديم أفكار وابتكارات من أجل توسيع آفاق المجال القائم^(٣٦). ويستجيب من جهة أخرى، لحاجيات المناطق من الكوادر والكفاءات، ويتكيف مع خصوصيات كل منطقة. يقول: "تَفُوقُ فرنسا الجديدة، الكادحة والنشطة، هو دَمَجُ الفكر مع العمل، والثقافة مع الحركة. فالمرء فيها متخصص بِحِدَّةٍ أَقْل، مقارنة مع المجتمع السابق. فئات متميزة نشأت (ويتصدرها مهندسون)، الذين يجمعون لحسن الحظ بين كلا الحياتين [أي بين المعارف النظرية والمعرفة العملية التطبيقية]. رجال كَامِلُونَ حَقًّا (...)"^(٣٧). ويضيف: "يوما ما ستكون للتعليم آلاف الأشكال، وستحقق الحرية نتائج مثمرة. وسوف تستجيب معاهد مختلفة تماما لآلاف المتطلبات وللنفار الدقيقة للطبيعة. فحتى في التعليم الابتدائي الذي يمكن أن يتغير، قد تختلف بعض الأشياء؛ فلن نُعَلِّمَ طفلا من "لاكروز" "La creuse"^(٣٨) سَيَكُونُ بَنَاءً في المستقبل كما سَيَعَلِّمُ بحار "مارسيليا" "Marseille"^(٣٩) الصَّغِير أو تاجرها الشاب"^(٤٠).

أفي المرحلة الابتدائية

على المستوى النظري، إسوة بفلاسفة القرنين ١٧ و ١٨ أمثال "دنيال دوفوي" "Daniel de Föe"^(٤١) و"فيكو" "Vico"^(٤٢) و"فولتير" "Voltaire" (1694-1778) الذين نَظَرُوا لأطروحة أن الإنسان خُلِقَ للعمل وسيَخْلُصُ نفسه من خلال العمل^(٤٣)، و"بروسو" "Rousseau" (1712-1778) المناادي بالطبيعية المتأصلة في الطبيعة الإنسانية، وكذا ببعض معاصريه من المفكرين "كفرويل" "Fröbel"^(٤٤) الذي دعا إلى تطوير موهبة الإبداع لدى الطفل وربط أفكاره عبر العمل^(٤٥)، بنى ميشليه كل بيداغوجيته على المبدأ الفلسفي القائل بفكرة أن الروح الإنسانية تُولَدُ بريئة وتضم في داخلها عناصر كل تطور ثقافي وأخلاقي، وأن التعليم لا يجب أن يكون قَيْدًا مادام لا يستهدف القمع أو العقوبة، وإنما قيادة الإنسان في قنواته العادية بوضعه في ظروف يفعل فيها الخير بشكل طبيعي، ولا أن يصير شيئاً غريباً مفروضاً على الطفل باعتباره تطورا عاديا للمكاته

وفيما يتعلق بالتعليم الابتدائي، استتكر هذا المؤرخ طرق التدريس المتبعة المبنية أساساً على التلقين والشحن. إذ غالبا ما كانت تهمل الأنشطة التي تؤدي إلى اكتساب الخبرات وتحفز في الصبي ملكة الحفظ من غير توجيه وجهته إلى الفكر والنظر. وحسب التلميذ أن يَسْمَعَ ويحفظ من دون مفاهمة ولا مناقشة، مما لا يساعده على تنمية ملكاته الإبداعية وتطويرها. يقول: "التعذيب في صفوف نظام التعليم الحالي، هو السلبية والجمود والصمت المحكوم بها على الطفل الذي يتلقى دائما دون أن يُعطي شيئا، وهذا يختلف كل الاختلاف مع الحياة"^(٢٩).

٢/٢- آراء ميشليه البيداغوجية ومقترحاته

لإصلاح التعليم

طالب ميشليه بإصلاح المناهج البيداغوجية سواء تعلق الأمر بطرائق التدريس أم بالمقررات، وأصبح هذا الرهان شغله الشاغل. وقد ضمن كتاباته رؤاه التربوية وتوصياته بهذا الخصوص انطلاقا من قناعاته وتمرسه في الميدان^(٢٠). يقول "غابريال مونود" "Monod Gabriel" (١٨٤٤-١٩١٢): "كُتِبَ "الحُب" "L'Amour" (١٨٥٨) كان تمهيدا "لأبناؤنا" "Nos Fils" (1869)، حيث بسط [أي ميشليه] آراءه حول القضية الأساسية للتعليم، كما تحدث عنها في "الشعب" "Le Peuple" (١٨٤٦) و"المرأة" "La Femme" (١٨٦٠)^(٢١). وفي هذا الصدد، فقد اعتبر "الجامعة" "L'université"^(٢٢) المسؤول الوحيد عن المبدأ الحديث وإيديولوجيا مؤسسة ١٧٨٩^(٢٣). وهي القناعة التي يختزلها في: "تظل الجامعة وحدها ومع ذلك الوصي على مبدأ ٨٩ وعلى عقيدة العدالة، فخارجها يُعتبر باطلا كل تعليم"^(٢٤). وفصل في نوعية التعليم الذي ينبغي للمدرسة العمومية العلمانية أن تقدمه في فرنسا الكادحة التي شيدها عمال المصانع بسواعدهم وهي تدخل عصر الآلة^(٢٥). فبين أنه تعليم متكامل يوازن بين الدروس النظرية والأعمال التطبيقية بغية خلق إنسان فرنسي فاعل ومبادر؛ كما يتبدى في المهندس ذي التكوين الذي يشمل العلوم البحتة والتطبيقية والمرتكز على العلوم التطبيقية في المقام الأول، ما أهل المختص

خريطة مُفَصَّلَةً لليونان، سيرغبون في تلوينها. بعد ذلك سَنَحْرُكُ الإنسان على هذه الأرض: اليونان بملامحها التاريخية الكبرى (...) لكن ما اللّغة التي تَحَدَّثُهَا هؤلاء الأبطال؟ سنعطيهـم منها بعض الكلمات (...) فالفن الإغريقي يبقـى لغة في حد ذاته.

أن يَعْرِضَ نفس الرَّجُلِ [أي نفس المعلم] الإغريق من أربع نواحي، سيكون ذلك كثيراً. وبعد كفاية التناغم القوي لهذا التعليم، سيعمقه مُعَلِّمُونُ خاصّون، الأربعة كلهم.

أريدهم متفّقين هؤلاء المعلمين، وأن يَعْرِفُوا كُلَّ أسبوع أين وصل زملاؤهم، وأن يتلاقوا وأن يتفاهموا فيما بينهم؛ فمن المؤسف أن نرى اليوم اللّغة الإغريقية وهي تُدرّسُ بمعزل عن التاريخ الإغريقي. فالأساتذة لا توجد لديهم معرفة بما يفعله زملاؤهم مع نفس الأطفال، بل لا يعرفون حتى بعضهم البعض^(٤٩).

ولكي لا يتعرض تلامذة المرحلة الابتدائية للاستلاب الثقافي جرّاء انفتاحهم على الحضارة اليونانية، ثمة حاجة إلى تجاوز المقاربة الجزئية المعتمدة في دراسة الحضارتين الإغريقية والرومانية ولغتيهما؛ بتبني مقاربة شمولية تستجلي انطلاقاً من مكوني اللّغة والتاريخ المكانة التي احتلتها هاتان الحضارتان بين المجتمعات الإنسانية ومدى تأثرهما بالأمم التي سبقتهما وتأثيرهما في تلك التي تلتهم. وهو ما يبرهن عليه ميشليه متسائلاً: "ألن يُؤثّر بشكل كبير هذا التعليم التوافقيّ لنفس الشيء (...)، وألن يخلق يونانيين صغاراً ومُقلّدين مُطيعين؟"

الاعتراضُ سَيَسبّبُ مشاكلًا، لو أعطينا كما نفعل اليوم شعباً واحداً أو شعبين، ولغتين: الإغريقية والرومانية؛ لكن في التعليم الجديد (...) سوف نرى بشكل أفضل عبر اللّغة والتاريخ المكانة التي احتلتها هذه الشعوب في الجماعة الضخمة، وعلاقتها مع المجتمعات التي سبقت أو تلت^(٥٠).

وفضلاً عن ذلك، لا يريد ميشليه لتلاميذ الطّور الابتدائي أن يتعمّقوا في دراسة النحو، ليس لعجزهم عن استبيان مواقع الكلمات داخل الجملة والعلاقات النحوية بينها ومعرفة أحوال الكلام إعراباً وبناءً. فالتلاميذ المتراوحة أعمارهم بين ثمانية وثلاث عشرة سنة يملكون

الطبيعية التي نعطيهـا بِقَدَرٍ الأغذية اللاّزمة لنموها. لذا فإذا كانت نقطة الانطلاق في التعليم لدى هذا المؤرخ هي الطّبيعية الطبيعية للإنسان، فإن الهدف منه هو تكوين الإنسان من أجل "العمل" "L'action"^(٤٦). ويقول في هذا الشأن: "العمل! العمل! إنّه الخلاص"^(٤٧).

على المستوى الإجرائي، دعا ميشليه إلى تلقّي تلميذ السّلك الابتدائي تعليماً متكاملًا تُؤلّفُ موادّه وحدة متجانسة تُعلّمُ الملحوظ لا التجريدي. وتأسيساً على ذلك، أهاب بتلميذ الأقسام الأولى من الطّور الابتدائي المداومة على رسم ما يجذب انتباهه كالحوانات والنباتات وتعلّم أبجديات الكتابة أولاً ثم القراءة بعد ذلك التي يبقـى تعرّفها أكثر صعوبة، ووضع خرائط مجسّمة للمجال المدرّس قبل رسم خريطته على الورق والاستعلام عن جغرافيته ونبّيته الجيولوجية، وكذا الاطلاع على تاريخ تشكّل الأرض مما سيقوده إلى تبين تاريخ البشرية. يقول: "يَجْدُرُ بنا اليوم الوصول إلى رؤية شاملة وزيادة مواءمة الدّراسات، وأن نجعل منها وحدة عضوية؛ لذا سنلقّنُ العقول الشابّة كُتلاً ومجموعات، والملموس وليس المجرد. أريد أن يتعلّم الأطفال رسم الأشياء الحيّة، قبل أن يتعلّموا وضع الحروف والكتابة، (...) فهكذا فقط يُمكن أن تسبق الكتابة القراءة التي تبقى أكثر صعوبة. وأن تتصدّر خرائط التضاريس التي يصنعها التلاميذ الخرائط المُسطّحة المرسومة على الورق والجغرافيا وشيئاً من الجيولوجيا، أمّا دراستهم لتاريخ الأرض فستقودهم إلى الاطلاع على تاريخ الإنسانية"^(٤٨).

في الأقسام التالية من السلك الابتدائي سيكتسبُ التلاميذ على يد مُعلّمهم معطيات عامّة عن جغرافية بلاد الإغريق، وتاريخها، ولغتها، وفنها. على أن يُدرّسَ هذه الموضوعات بعد ذلك مُعلّمٌ مختص يعطي التلاميذ معرفة معمّقة بالحقل الذي يشتغل عليه وفيه. دون أن يَغفُلُ المُعلّمون تنسيق دروسهم حتى توفر تعليماً مُتساوياً يُقدّمُ معرفة شمولية عن بلاد الإغريق، لا سيما في ظل غياب الانسجام والتوافق بينهم. وهو ما يوضحه هذا المؤرخ بقوله: "التاريخ واللّغة والفن ثلاثة أشياء يجب أن تُقدّمَ كُلّيةً بالنسبة لكل أمّة، وليس بمعزل عن بعضها البعض (...) في البداية سيُرسّمُ الأطفال على الورق

في إطار هذا التوجه الرامي إلى تمكين التلميذ من تعليم متكامل يُراوح بين التكوين النظري والتطبيق. وبموازاة دروسهم النظرية سيقوم تلامذة المرحلة الإعدادية برحلات يُشرف عليها أساتذتهم لاستطلاع ودراسة المظاهر الجيولوجية والنباتية للمناطق الفرنسية مما سَيَنمي معرفتهم بوطنهم فرنسا. وسيزورون بين الفينة والأخرى المدارس الصناعية والفلاحية لاستلهم قيم خدمة الصالح العام والصبر والاجتهاد. ويتحدث ميشليه عن ذلك قائلاً: "كم تمنيت رؤية تلاميذ مرحلتنا الإعدادية (...) وهم يزورون المدارس البئية للصناعة والفلاحة، (...) ويكتسبون بالتحديد الإحساس بالعمل والفعّال والمتعب والجاد"^(٥٤). شأنهم في ذلك شأن طلاب المدارس الثانوية حتى يَقرُّنوا العلم بالعمل.

ج- في المرحلة الجامعية

متبنيًا أطروحة "رابلي" "Rabelais" (١٤٨٣) أو (١٤٩٤-١٥٥٣) القائلة بانخراط المتعلّم في الحياة اليومية^(٥٥)، ومن أجل مُتعلّم فاعل ومتفاعل مع قضايا محيطه المحلي، يُقدّر ميشليه أنّه من واجب الطالب الفرنسي المُفَعّم بالحيوية والمتسرع والذي يميل إلى إصدار أحكام عامّة بالاستناد إلى حالات خاصة وحتى يقف على رزنامة من الحقائق الحيّة التي يُدركها الإنسان في حياته بالتدريج الاطلاع على واقع قريته المعاش والإسهام في إيجاد حلول لمشاكلها، لأن في ذلك انفتاحاً له على الإنسان المُجدّ وعلى حقيقة الحياة. يقول: "في رأيي، ثمة حاجة لمعرفة مآسي البلدات هذه، فهذه التفاصيل هي الواقع نَفْسُهُ والحياة والإنسان الحي، (...) فمن المفيد للغاية لطلابنا الفرنسي (الحيوي وناقد الصبر والمعمّم) عند عودته إلى قريته أن يُعَمِّل فكره في معرفة الأشياء التي نأخذها في الواقع المعاش واحدة تلو أخرى"^(٥٦).

وعلاوة على ذلك، يرى هذا المؤرخ أنّه من الأجدى ألا يقتصر تكوين الطبيب على تعلم الفيزيولوجيا وتكوين رجل القانون على دراسة الحقوق. مقترحاً في هذا الصدد، أن يحضّر طلبة الطب والحقوق درساً وسيطاً ومختصراً، يُلقّن استقصاء الحياة الواقعية، تَكُونُ مبادئ المواطنة^(٥٧) تيمته الأساس. يتعلّم فيه طالب الطب بعض

كل الطاقات لذلك، لكن انكبهم على دراسة النحو سيبقيهم عقيمين على الدوام. لذا سيتعلمونه عبر الإملاء والكتابة فحسب بالقدر الذي يساعدهم على القيام بواجباتهم المنزلية وليس من خلال مقرر دراسي يكتنفه الغموض والصعوبة، يشوش على التلميذ ويحبطه سلفاً. على أن تُقدّم لهم بموازاة ذلك مَوَادُّ مفهومة ومحسوسة تثير العقل. يقول هذا المؤرخ: "إذا أعطينا القليل من النحو، يجب أن يكون فقط كمساعدة وتبسيط للقيام بالواجب المنزلي. وهو مملوّ ومكتوب، غير مأخوذ في كتاب كبير مجرد النظر إليه يُبهر ويُربك ويُثبِّط مقدّماً، بسبب التعقيد والظلام الحال لكاتب تعاويد غير مفهوم.

لا يعني ذلك أن هؤلاء الصغار لن يفهموا هذا الكتاب إذا ربطناهم به، وأن يكونوا حتى صالحين جداً لهذه الدراسة (...). فالأطفال المتراوحة أعمارهم بين ثماني وثلاث عشرة سنة لهم قدرة متميزة على فهم الأشياء الدقيقة (...). لكن ذلك سيجعلهم جافّين وسيبقيهم إلى الأبد دقيقين وضعافاً وقاحلين (...). بل على العكس من ذلك سنة لهم نعطيلهم أشياءً جسيمةً وسميكةً ومستوعبةً وملموسةً، تُغذّي دون الكثير من الصَقَلِ"^(٥٨). وقد نبّه في هذا الصدد إلى أن التلميذ لا يُحصَلُ إلا النزر اليسير من المعارف كل يوم لأن قريحته لا تقدر على توالي الجد قائلاً: "تفعل كمية العمل هنا أقل بكثير مما نعتقد. فالأطفال لا يتعلمون إلا الشيء القليل كل يوم؛ إن الأمر شبيه بمزهريّة مدخلها ضيق، أُسْكَبُوا فيها القليل أو الكثير، فأبداً لن يدخل الكل دفعة واحدة"^(٥٩).

ب- في المرحلتين الإعدادية والثانوية

جَهلاً منهم بجدوى الألعاب الرياضية ولتَركُزِ اهتمامهم على جني فائدة آنية، لم يول هذا المؤرخ كبير اهتمام لمزاولة تلامذة المدارس الإعدادية للتمارين الرياضية. وفي ذلك كتب يقول: "لا تجذب الرياضة طلبة المدارس بشكل كبير، طالما أن الفرنسي الشاب [يقصد تلميذ المرحلة الإعدادية] يحتاج إلى ملازمة نتيجة لحظية. (...) فهي [أي الألعاب الرياضية] تظلّ هنا عديمة الفائدة، ولا تهّم التلميذ بتاتا ولا يشعر بهدفيها"^(٥٩).

التغيير، نذكر من بينهم، المهندس "جاك إيلي لومباردي" Jacques-Élie Lambardie (1747-1797)، وعالم الكيمياء "أنطوان فرانسوا فوركروي" Antoine-François Fourcroy (1755-1809)، وأستاذ الرياضيات بجامعة باريس "غاسبار مونج" Gaspard Monge (1746-1818). فمواكبة منها للتحويلات التي تعرفها فرنسا، كانت مدرسة البوليتيكنيك سبّاقة إلى الربط بين المعرفة النظرية والعلم العملي التطبيقي: عبر إعطاء طلبتها دراية بالفروع الرئيسة للإنتاج وبالمبادئ العملية التي تعتمد عليها وإكسابهم عادة التعامل مع آلات العمل وتنمية قدراتهم الفنية المنتجة وتأسيس حب العمل اليدوي وتقديره في نفوسهم وإمدادهم بخلفية تقنية أو فنية واسعة مع إتاحة فرصة اختيار العمل المناسب والإبداع فيما يتطلبه الإنتاج من أعمال. الأمر الذي أكسبهم مهارات العمل المنتج النافع للمجتمع وسهل انخراطهم كل في مجال عمله لخدمة المجتمع وتقدمه ورفعته^(٦١). وفي ذلك يقول هذا المؤرخ: "أنا أتحدث عن المدرسة المركزية، مدرستنا للبوليتيكنيك، فبعد الدفعة الشابة العملية التي أخذتها من الثورة، تلاشت في الجبر، كانت تميل لأن تصبح أرستقراطية الحساب. عندها رجال إيجابيون ملتزمون تجاه واقع تعليم متواضع وقوي، (مهندس، وكيميائي وأستاذ) احتلوا المكان الذي تركته المدرسة العليا وجعلوه لهم، قريبا جدا من النموذج الذي نشأ سنة ١٧٩٤، وكان مُتمراً للغاية. معهد فرنسي بَحَثُ [أي مدرسة البوليتيكنيك]. فرنسا أكثر من أي دولة شعرت "بترباط العلوم" La solidarité des sciences^(٦٢). من المدرسة الجديدة توهج شيء جديد لم يُكتشف في أوروبا، "ترابط الفنون" La solidarité des arts. كان يُعتقد في السابق أن ذكاءنا السريع الذي يربط ويعمم طائفة من الأنشطة، يظل هبة عظيمة، قوي في النظريات، سيء في التطبيق. ليتضح فجأة الصوت العملي في أشياء كثيرة: فالعديد من الرجال الذين تخرجوا من المدرسة الجديدة ومن إشعاع الفنون هذا، نجحوا خارج العمل الذي بحثوا عنه. وبسهولة كبيرة طبّقوا مهاراتهم المُرنة على موضوعات جديدة تماما. (...) أرى صانع أقفال، أصبح فجأة مهندسا بارعاً، وهو إضافة إلى ذلك، لا يزال

المبادئ القانونية، ويتلقى من خلاله طالب الحقوق معطيات عن الواقع المعاش، ويتعرفان العادات الوطنية التي تستمد منها القوانين وشؤون الحياة، ويستوعبان أساسيات التدبير المنزلي: كتحقيق الحاجيات الضرورية للاستهلاك الأسري، وتقدير المصروفات اللازمة خلال وقت معلوم، وتوفير حاجيات ومتطلبات المنزل في حدود الوقت والموارد المتاحة، وتربية الأطفال على حسن الاستهلاك وعدم التبذير في المأكّل والملبس. مما سيؤهل طالب الطب للانفتاح على الحياة العملية، وسينبه طالب الحقوق إلى أن القوانين المجردة التي بين دقّات كتبه، ماهي إلا ترجمة مقتضبة للحياة. وعن هذا الموقف كتب يقول: "يتعين بالتأكيد خلق وسيط (...) فيجب أن يُوجد دَرَسٌ يُعلّم فيه الجميع ما هو مشترك بينهم. يرى فيه الطبيب ما يحتاج إلى معرفته عن الحق، ويرى فيه المُشرّع ما يجب عليه تعلّمه عن الحقيقة. أقول فقط القناة: فلا يتعلق الأمر هنا بدراسة معمّقة، (...) أريد أن يُعطى هذا الدرس الوسيط في البداية المبادئ الضرورية للقانون الاجتماعي المتمثلة في الحق والواجب، وأن يُعلّم البحث عن الحياة الحقيقية واستكشافها، وأن يُظهر للطلبة ما هو ضروري لهذا أو ذاك منهم، (...) كالحياة والاقتصاد المنزلي والتغذية، (...) واللباس، إلخ، دون أن يَفُكّل تلقين العادات الوطنية التي تُستنبط منها القوانين. فهنا سيمهّد طالب الطبيعة [أي الطالب بكلية الطب] لعالم القانون، وهنا سيشعر قاضي التحقيق الجنائي الشاب أن قانونه، هذا الكتاب الذي يبدو بهذه البرودة، هو تجسيد مركز للحياة"^(٥٨).

تُجسّد طبيعة التعليم الذي تقدمه "المدرسة متعدّدة التّقانات" أو البوليتيكنيك "École Polytechnique"^(٥٩) النموذج الأمثل للتعليم المتكامل الذي ينشده ميشليه. فبعد انخراطها في الزخم العملي المتولد من الثورة الفرنسية^(٦٠)، ورغبة من القيميين عليها في أن تكون رائدة الأبحاث الرياضية في أوروبا طغى على المدرسة لبعض الوقت توجه تجريدي في الحساب والجبر والهندسة وغيرها أفقدها تألقها، عادت هذه المؤسسة الفرنسية الخالصة إلى توجيهها التطبيقي المميّز لها منذ تأسيسها سنة ١٧٩٤ والذي كان مُنتجا للغاية. وذلك مع ثلة من العلماء المفعمين بروح

في مسارهم المهني، مما من شأنه الرّفْع من رصيدهم المعرفي ومساعدتهم على النجاح في رسالتهم التربوية. ومن أخرى، في تجهيز المدارس لاسيما في الكميونات الفقيرة بالأدوات البيداغوجية كالخرائط ومجسمات الكرة الأرضية، والأوراق، والأقلام، والألوان. يقول: "المدرسة لن تكون حُرَّة حقًّا إلا بقدر ما يرى المعلّم بجانبه جمعية نشيطة وحيوية، تهتم بالمدرسة وبه، وتدعمه إذا لزم الأمر، وتساعد على أن يكون عادلا (...)". أنا سأضع ثقتي أكثر في تجار الجملة المعتزلين، وفي الطبيب خاصة، وفي الصيدلاني، وفي المزارعين الأقل تعليما، (...) وأودُّ أن أضيف لهذا المجلس سيّدة أرملة وبدون عائلة، برّوح صارمة وحكيمة. والأهم من ذلك، متحرّرة من القساوسة، تضع في المدرسة رعايتها وأمومتها (...). بالتأكيد سيكون لهذا المعلّم الذي نادرا ما يتقف نفسه لتمثال مهامه، الشيء الكثير ليتعلّمه مع هؤلاء الأشخاص ذوي الخبرة (مثل الطبيب، وتاجر الجملة السابق الذي سافر، إلخ). إنّه كأصدقاء، ونذاً لِنِدِّ، يُمْكِنهم أحيانا استوضاحه ألف شيء مفيد لم يكن لديه الوقت لتعلّمه، وأن يبحثوا لأجله وأن يقدموا له الكتب التي يمكنها أن ترفع من روحه المعنوية، (...) وأن تُقَوِّيه في مساره. فتزيين المدرسة والخرائط التي تغطي وتلَوّن الجدران والكُرَاتُ الأرضية المفيدة جداً والأوراق والأقلام لرسم الخرائط ونماذج الرّسم، إلخ، كل هذا يتطلب اهتمام المجلس في بلدياتنا الفقيرة" (٦٦).

٢/٣- في المرحلة الابتدائية

يمكن الدّور الأسمى والمبدئي لهذه المجالس في الانتقاء الأمين للتلاميذ النّجباء ممّن هم أهل للدّعم والعون حتى يُحَرِّزُوا أعلى الدّرجات العلمية؛ بمواظبة أعضائها على حضور الحصص الدّراسية في جميع المستويات داخل المدارس الابتدائية في الأرياف. مهتدين في ذلك بكياستهم وإطلاعهم وحصافة النساء الأرامل اللّاتي سيتعرفن بتلقائية التلاميذ الأحق بكفالة المجالس تقودهن في هذا الشأن عاطفة الأمومة. يقول ميشليه: "ولكن ما أطلبه أكثر، وما أعتبره واجبا ساميا في المقام الأول، هو أنّه بحضوره [أي المجلس المحلي للتعليم] المعتاد إلى الدّروس، سيميّز وسيقدم عبّر مراقبة سرّية

صانعا ماهراً، وأرى صانع آلات بخارية، هو الآن، كيميائي ومدير مصنع للأواني الزجاجية، إلخ" (٦٣). وإذا أمعنا النظر في هذا التعليم المتكامل الذي ينشده ميشليه، لاحظنا أنّه مسير للتطورات التي كانت تعرفها فرنسا القرن التاسع عشر وما فرضته من تحديات. فعلى خلفية استعار لهيب التنافس الإمبريالي بين القوى الأوروبية خلال القرن التاسع عشر الباحثة عن مجالات جديدة لتصريف فائضي السكان والإنتاج وتأمين موارد أخرى، تبقى الغاية الأسمى من هذا التعليم هي تهييء رجال قادرين، عبر تأهيل الشاب الفرنسي للاضطلاع بمهام طارئة ترتبط بالمشروع الاستعماري الفرنسي. ويبدو هذا التصور واضحا لدى ميشليه وهو يقول: "مع امتداد نطاق أنشطتنا في كل العالم، في ألف موقف عليه [أي الطالب الفرنسي] أن يواجه كل شيء، وأن يقوم بألف شيء غير متوقع" (٦٤). ويأتي في طبيعة هذه المهام إقامة مؤسسات سياسية واقتصادية واجتماعية متينة في البلدان المستعمرة بغية التأسيس فيها لاستعمار فرنسي طويل الأمد. وهو ما يفصح عنه هذا المؤرخ بقوله: " باختناق أوروبا، يتعيّن علينا أن نتوجّه بأنظارنا إلى الخارج، ليس لنقوم كما كان الحال في الأمس القريب بغزوات ونعود، بل لإنشاء مؤسسات قوية" (٦٥).

ثالثا: المدرسة العمومية مؤسسة الارتقاء الاجتماعي

١/٣- مجالس محلية للتعليم

حتى تكون المدرسة سلّماً للارتقاء الاجتماعي، اقترح ميشليه إحداث مجالس محلية للتعليم في كل البلديات القروية الفرنسية، تضم أعضاء ذوي دراية لم ينالوا حظا وافراً من التعليم كتجار الجملة المتقاعدون والفلاحين، فضلا عن نساء أرامل ليس لهن أطفال يسبغن على التلاميذ عنايتهم وحنانهم يتّسمن بالحزم والرّشد والتحلّل من تعاليم القسّس، وأعضاء مثقفين من قبيل الأطباء والصيادلة. تتحدد مهمة هذه المجالس من جهة، في مساندة المعلّمين بمدارس القرى وإعانتهم على أن يكونوا مُنصّفين بين تلاميذهم، وإطلاعهم على الأمور البناءة، وتزويدهم بكتب تعمّق فهمهم وإدراكهم وتدعمهم

لديه أبٌ أيضا؛ وكم سيُشعر هذا الأب المسكين الذي قد يكون عاملا بانتعاش قلبه إذا انتصرت في المعركة، وتم إرسال الطفل المستحق من قِبَل البلدية إلى مدرسة أعلى (مدرسة المحافظة) ^(٦٨).

٣/٣- في المرحلتين الإعدادية والثانوية

بحكم فقر آباء التلاميذ المكفولين وانشغالهم سيتعذر عليهم إعالة أبنائهم أو حتى عيادتهم باستمرار. لذا سيواصل أعضاء المجالس تتبعهم بعد حصولهم على منح البلديات والتحاقهم بمؤسساتهم التعليمية الجديدة في المدن، بزيارتهم المطردة قصد استطلاع أخبارهم حتى لا يستشعر أساتذتهم وحدتهم وانعزالهم، وأيضا من أجل تأمين متطلباتهم كي لا يعيشوا ظروفًا بائسة. ولاحظ أن النساء الأرامل سيؤديان وعن طواعية دورا مهماً في ذلك، بمساندتهن وحثهن لهم على تكريس صورة التلاميذ المجتهدين التي كانوا في القرى حتى يظلوا في الريادة بين أقرانهم. يقول هذا المؤرخ: "ولكن هذا الأب الذي دون مواردٍ والملتزم بعمل، بالكاد يمكنه أن يساعد [أي ابنه]، ولن يكون قادرا على زيارته في كثير من الأحيان. أثق هنا في الوصاية الدؤوبة لمجلسي المحلي، فكم من الأشياء تنقص صاحب المنحة، وكم هي أوضاعه مزرية!

فالأشخاص الذين يهتمون به ويتابعونه بعيونهم لن يفوتوا فرصة الذهاب إلى المدينة الكبيرة والتحدث مع رؤسائهم، حتى لا يرى فيه هؤلاء منعزلا ومنسيا وطفلا ضائعا. تتقدمهم السيدة [أي المرأة الأرملة] الطيبة التي ستشرف على متابعته دون تدليله، وسينصب اهتمامها على دعمه وتشجيعه وجعله يرغب في البقاء كما كان في القرية: الأكثر جدارة" ^(٦٩).

٤/٣- في المرحلة الجامعية

ألح ميشليه على متابعة التلاميذ المكفولين دراستهم العليا وعدم اكتفائهم بالباكلوريا. لذا أهاب بالمجالس تعضيدهم إن مكثوا جادين مستحقين، والسهر على عدم تغليب النفوذ البورجوازي على كفاءاتهم، حتى يلجأوا بموجب اجتهادهم والنقاط التي حصلوا عليها في امتحان الباكلوريا أرقى مؤسسات التعليم العالي الفرنسية، من قبيل المدرسة المركزية ^(٧٠) ومدرسة البوليتيكنيك والمدرسة العليا للأساتذة ^(٧١). مما من شأنه

الأطفال المستحقين الذين سيكوّنون فعليا أبناء البلدية. قصد تشجيعهم ومساعدتهم لبلوغ مستوى عالٍ من التعليم. (...). لكن رجال اللبافة والخبرة، ولاسيما السيّد الحكيم التي تحدثت عنها سيُشعرون بذلك جيدا. وبالأخص تلك التي لم تعد لديها عائلة، فيبتحيز الأمومة ستري من خلال القلب، وسوف تميز على مقعده المخلوق الصغير المتواضع (وَلَدٌ أَوْ فَتَاةٌ، أَيَا كَانَ)، ودون التحدّث ستقول: ها هو" ^(٧٢).

وحتى لا يحسوا بأنهم مُسَانَدون ومُميزون، يبقى لزاما على أعضاء المجالس عدم تبني التلاميذ الذين قرّروا التكفل بهم، لأن من شأن ذلك أن يوهن عزيمتهم على الدرس والتحصيل. لذا سيكتفون بمتابعتهم بدقة ودون تهاون، وتبيانهم أنه إن وصلوا اجتهادهم ومثابرتهم فسيؤمنون لهم الاستفادة من منحٍ تساعدهم على متابعة دراستهم الإعدادية بالمدينة. مستندين في ذلك، إلى مؤهلاتهم التي قد يتم الالتفاف عليها وإلى درجاتهم في الامتحانات الكتابية، وكذا إلى أدائهم العام خلال الموسم الدراسي. لا سيما إذا نافسهم في هذا الخصوص أبناء الوجهاء الذين لأبائهم أفضال على القرى ومدارسها، لذا ربما تكون مكانتهم الاجتماعية مُسوَّغا لترجيح كفتهم على الأجدد بكفالة المجالس من التلاميذ الذين لن يثُلج صدور أولياء أمورهم وهم في الغالب من العمال، سوى ربح البلديات الرهان بإرسال فلذات أكبادهم لمتابعة دراستهم بالمدن. يقول ميشليه: "هل هي مسألة تبني؟ لا صراحة. الأبناء المُتَبَنُّونَ والواثقون كثيرا من مصيرهم، يصبحون أيضا متخاذلين مثل الأبناء. دَعْنَا نواجه الحقيقة، (...) فَالْإِخْمَارِ طِفْلٌ، يكفي تَبْنِيهِ. اكبحوا قلوبكم، حتى لا يشعر الطفل كثيرا أنه مُدَعَّمٌ ومُعِينٌ. تتبّعوه عن كثب ودون تراخٍ، وأظهروا له فقط، أنه إذا استمر وثابرا، فسيتم تمكينه من تعلّم المزيد، بأن يُرْسَلَ إلى مدرسة أعلى. إنه في اليوم الحاسم سيَعْمَلُ مساره من أجله. كيف؟ بالكشف عن مؤهلاته القوية التي يمكن التحايل عليها: "لكن ذلك لديه كُلُّ هذا العقل! لقد أجاب بشكل جيد!". اعتمدوا على الاختبارات الكتابية وعلى ملاحظات السنّة بأكملها. - "لكن والد ذاك أسدى خدمات...". هذا لا يكفي؛ إذا كان الطفل لا يستحق، فوالده ليس لَقَبًا حتى يَسْتَبْعِدَ الأكثر جدارة. ولكن هذا

خاتمة

وفي المحصلة، وعياً منه بأن النظام التعليمي مفتاح كل رُقْيٍ محتمل، وبأن المسألة التعليمية تهم المجتمع برمته وأنها مُحدِّد مسار الأمة الفرنسية ومُبلور هويتها في الحاضر والمستقبل، نشد ميشليه - المؤرخ الجمهوري - مدرسة عمومية فرنسية بامتدادات ثلاثة: الأول: - وطني أخلاقي - بأن تُحَفِّزَ وتُعَزِّزَ لدى النشء الانتماء والولاء للوطن، وتُربِّيهِ على القيم الجمهورية. والثاني - علماني متكامل - بأن تُقدِّمَ تعليماً تاماً يبني الإنسان الفرنسي الوفي لثوابته الحداثيّة الفاعل في محيطه والمتفاعل مع قضاياها. والثالث - مُكرِّس لمبدأ الارتقاء الاجتماعي - بأن تُرسي هذا المبدأ داخل المجتمع على أساس الاستحقاق. واضعاً بالتالي الإطار النظري الذي مأسَسَ للمدرسة الجمهورية الفرنسية، وحدد هويتها قبل تأسيسها الفعلي في الفترة ما بين ١٨٧٩ و١٨٨٦.

فما مصير هذه الآراء البيداغوجية والمقترحات الإصلاحية؟

كانت هذه الرؤى والتوصيات المنهج الذي سار وفقه بُناة المدرسة الجمهورية الفرنسية وأُتار لهم الطريق، مما جعل "جوليان باستور" JULIEN PASTEUR^(٧٣) يُصرِّح قائلاً: "رجالات نظام ثمانينيات القرن التاسع عشر، وجدوا دون عناء في الكمِّ الكبير للمؤرخ ما يكفي لتكوين صورة عن المواطن مناسبة تماماً لتطلّعات العصر (...). وبالتالي، يمكننا دون مخاطرة كبيرة القول: إنَّ النموذج المقدَّس للجمهورية الثالثة يدين لميشليه بالكثير. فحتى بداية القرن العشرين، على الأقل في السنوات التي تَفَصَّلُهُ عن حرب ١٩١٤، فهو بالنسبة للجمهوريين أحد الشخصيات الفكرية الأبوية الذي أتاح إرثه بطريقة سَلَسَةٍ نوعاً ما، تَطَابَقَ صورة الإنسان والمواطن"^(٧٤).

إدخال السّرور إلى نفوس المزارعين والعمّال وإخماد ضغائنهم ضد البورجوازية، وبالتالي تقليص البؤس الشاسع بين البروليتاريا والبورجوازية الفرنسيّتين. وفي هذا الصّد، صرَّح هذا المؤرخ قائلاً: "عزّيزتي البلدية! لا تتركه. يجب على طفلك، هذا القروي الصّغير الذي أُرسل إلى المدرسة الثانوية للدائرة، والذي سيصبح رئيساً للعمال، أن يرتفع أكثر. لا تتركه (...). راقبي ذلك جيداً. إذا كان هنا ما كانه في المنزل، إذا كان لا يزال أكثر جدارة، فعَلَيْنا أن ندعمه في هذه المدينة الكبيرة المركز، وألاً يسود التأثير الأرستقراطي على مؤهلاته، وأن يلجَ بموجب عمله المستمر وامتحاناته المدرّسة المركزية. أعني المدرسة العليا المركزية، والبوليتيكنيك، والمدرسة العليا، أو غيرها. أقصد أنه يجب أن يصل إلى أعلى مستوى. فكّرُوا ملياً في أن قلب مائة ألف عامل سيتم الارتقاء به، وسيهدأ ألف حَقْدٍ وألف حَسَدٍ"^(٧٢).

الإحالات المرجعية:

- الفرنسية الألمانية ل. ١٨٧٠-١٨٧١ قائلا: "فرنسا لم تهزم: إنها ما تزال فرنسا الهائلة والقوية مرفوعة الرأس" (٣).
- (1-) Jules Michelet, Histoire de France, tome. I, Moyen Age, Ernest Flammarion, Paris, 1893, p. XLV.
235. (2-) J. Michelet, Le Peuple, op.cit., p.
- (3-) Jules Michelet, La France devant l'Europe, Successeurs le Monnier, Florence, seconde édition, 1871, Préface, p. IX.
- للمزيد حول شوفينية ميشليه، راجع:
- Jules Michelet, Introduction à l'histoire universelle, Ernest Flammarion, Paris, 1893, pp. 446-471.
- J Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. 67-74.
- J. Michelet, Le Peuple, op.cit., pp. 230-249.
- (٩) حول مفهوم البطل عند ميشليه، انظر، ياسين زينون، "البطل من منظور ميشليه"، **دورية كان التاريخية**، السنة الثالثة عشرة، العدد السابع والأربعون، مارس ٢٠٢٠، ص. ٢١٣-٢٢٦.
- (10) J. Michelet, Le Peuple, op.cit., pp. 266-267.
- (11) J. Bouillon, F. Brunel, AM. Sohn, F. Autrand, M. Bordet, Le XIX(ème) siècle et ses racines, Bordas, Paris, 1981, p. 278.
- (١٢) دارت هذه المعركة في الفترة ما بين ١٥ و١٧ نونبر ١٧٩٦ على بعد ٢٥ كيلومتر جنوب شرق مدينة "فيرونا" "Vérone" الإيطالية، وخلالها هزم الجيش الفرنسي نظيره النمساوي.
- (١٣) تُعرف أيضا باسم معركة الأباطرة الثلاثة، وقد جرت في ٢ دجنبر ١٨٠٥ قرب بلدة أوسترليتز الواقعة اليوم في "سلافكوف أو برنا" "Slavkov u Brna" بجمهورية التشيك، وفيها هُزم نابليون الجيشين الروسي والنمساوي محققا بالتالي أكبر انتصار له خلال الحروب النابليونية (١٨٠٣-١٨١٥).
- (14) J. Michelet, Le Peuple, op.cit., pp. 267-268.
- (15) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., Introduction, p. XII.
- (16) Jules Michelet, Le Prêtre, la femme et la famille, Chamerot, Paris, 1861, p. 299.
- (١٧) في نظر ساسة الجمهورية الثالثة (١٨٧٠-١٩٤٠) يجب أن تكون المدرسة العمومية الفرنسية وسيلة لمحاربة الجهل وتمكين فرنسا من استدراك تأخرها تجاه ألمانيا، ولأنهم كانوا يريدون توسيع نطاق التعليم الابتدائي والمساهمة في تحرير الوطن وتقديم الديمقراطية وأن يأخذوا من الكنيسة تكوين الشباب، فقد انصب اهتمامهم منذ مستهل ثمانينيات القرن التاسع عشر على التعليم والعلمانية وبدأوا سياسة مناهضة للكنيسة. وفي هذا الإطار، باشروا إصدار سلسلة من القوانين وفرت الإطار القانوني والأساس التنظيمي للمدرسة الجمهورية الفرنسية، من أهمها: قانون بول بيرت Paul Bert (١٨٣٣-١٨٨٦) في ٩ غشت ١٨٧٩ المتعلق بإنشاء مدارس تكوين المعلمين، وقانون ٢١ دجنبر ١٨٨٠ الذي أغلقت بمقتضاه المدارس والأديرة التابعة للجمعيات الرهبانية الممنوعة في فرنسا كاليسوعيين وأنشئت ثانويات البنات، وقانونا ١٦ يونيو ١٨٨١ و ٢٨ مارس ١٨٨٢ اللذان أقرّا التعليم الابتدائي الإلزامي لجميع الأطفال بين سن السادسة وثلاث عشرة سنة، وقانون روني كوبلي René Goblet (١٨٢٨-١٩٠٥) في ٣٠ أكتوبر ١٨٨٦ الذي علّم هيئة التدريس (١). ومن جهة أخرى، تم إعداد المناهج والمقررات

- (١) جول ميشليه: (١٧٩٨-١٨٧٤)، مؤرخ فرنسي، من بين أهم مؤلفاته: "تاريخ فرنسا" "Histoire de France" الذي أصدره في سبعة عشر جزءا خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٨٣٣ و١٨٦٧.
- انظر: ياسين زينون، "منطق الكتابة التاريخية عند المؤرخ جول ميشليه Jules Michelet"، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ٢٠١٣ - 2014م، (مرفوعة).
- (2) Jules Michelet, Le Peuple, Marcel Didier, Paris, 1946, p. 269.
- (٣) للمزيد حول المشروع الحداثي لميشليه، راجع:
- Jules Michelet, Cours professé au Collège de France par Jules Michelet 1847-1848, Chamerot, Paris, 1848, pp. 1-303.
- J. Michelet, Le Peuple, op.cit., pp. 203-272.
- Paul Viallaneix, Cours au Collège de France par Jules Michelet, Tome 2, Gallimard, Paris, 1995, cours de 1849, L'Amour comme éducation, pp.439-522, cours de 1850, Éducation de la femme et par la femme, pp. 523-626, cours de 1851, Mon droit et mon principe, pp. 627-709.
- زينون، **منطق الكتابة التاريخية**، ص ٤٦-426.
- (4) بخصوص الامة الفرنسية كما تمثلها ميشليه، انظر، ياسين زينون، "الامة الحداثية الفرنسية من منظور جول ميشليه"، **دورية كان التاريخية**، السنة الحادية عشرة، العدد التاسع والثلاثين، مارس ٢٠١٨، ص. ١٠١-١٧.
- (٥) للمزيد حول المشروع التربوي لميشليه، انظر، ياسين زينون، "رؤى ميشليه التربوية ومقترحاته لإصلاح التعليم الفرنسي"، **مجلة أمل، التاريخ والثقافة المجتمع**، العدد: ٥٦، ٢٠٢٢، ص. ١٢٢-١٢٨.
- (٦) كريستوف شارل، "القرن التاسع عشر الممتد"، ترجمة محمد حبيدة، ضمن **تاريخ العالم في القرن ١٩**، إشراف بيير سينغا رافيلو وسيلفان فينير، نسق الترجمة وراجعها محمد حبيدة، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، (سلسلة ترجمات)، الدار البيضاء، ٢٠٢٠ م، ص. ٨٤.
- (7) Mostapha Hassani Idrissi, "L'enseignement de l'histoire au Maroc et la construction de l'identité nationale", In Notes pour les VI Jornadas de Recerca en Didàctica de les Ciències Socials, Barcelone, 12-13-14 Février 2009, Barcelone, 2009, p. 03.
- (٨) عديدة هي المرات التي اعترف فيها ميشليه بحبه القوي لفرنسا، ومن أمثلة ذلك، قوله: "حسنًا! يا فرنسا العظيمة، لو استلزم الأمر للحصول على حياتك، أن يكلّف رجل نفسه، وأن يمر ويعيد المرور عدة مرات بدروب الموتى، سيواسي نفسه، ويشكر مرة أخرى. وألمه الأعظم، هو أن عليه أن يترك هنا" (١)، أو وهو يقول: "كنت في المقابر التي تُسمّى سجونا ومخاضًا وهناك، فتحت رجلا، حسنًا، في هؤلاء الموتى، حيث كان الصدر فارغا، خمنوا ماذا وجدت؟ (...). فرنسا مرة أخرى، الشرارة الأخيرة التي ربما من خلالها يدعون أنهم على قيد الحياة" (٢)، أو حينما يعلق على هزيمة فرنسا في الحرب

- (2) Mona Ozouf, L'École, l'Église et la République: 1871-1914, Cana/Jean. Offredo, Paris, 1982, p.22.
- (3) Ernest Lavissee, Histoire de France contemporaine depuis la révolution jusqu'à la paix de 1919, Tome 1: La Révolution 1789-1792, Hachette, Paris, 1920, p. 436.
- (4) Ernest Lavissee, Histoire de France: Cours moyen, 1(ère) et 2 (ème) années, Armand Colin, Paris, 1894, (Introduction).
- Jérémy Mazoyer, " L'école française avant 1914, entre patriotisme et propagande", Le Point, Publicité, www.lepoint.fr

شوهده بتاريخ: ٣ فبراير ٢٠٢٥.

- (18) J. Michelet, Le Peuple, op.cit., p. 28.
- (١٩) يُعرّف أرسطو (384 قبل الميلاد- ٣٢٢ بعد الميلاد) المدينة بما يلي: "المدينة أو الجماعة السياسية" "Politike. koinonia" هي جماعة ذات أسس أخلاقية وأبعاد سياسية معا، تتألف من مواطنين أحراراً ومتساوين، وتعمل في ظل قوانين وقواعد تعتبر مجتمعة إقصاءً عن جملة من القيم هي روح الجماعة، ما يجعلها الشكل الأرقى للتنظيم الاجتماعي الذي يميز الإنسان عن الحيوان، على اعتبار أن المواطن هو الذي يعيش في المدينة ويرضخ لسلطة القانون، فيما يبقى المتوحش الرافض لهذه السلطة خارج أسوار المدينة وبالتالي في حالة الطبيعة".
- سفاصن سعيدة، "الحق في المدينة كبعد من أبعاد المواطنة: قراءة في المفهوم" "The right to the city as a dimension of citizenship: a reading of the concept", **مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية**، المجلد ٨، العدد ٢، جوان ٢٠٢٣، ص. ٢١٢-٢٢٢.
- حول مفهوم المدينة عند ميشليه، انظر، زينون، " الأمة الحداثية الفرنسية"، ص. ١٢.

- (20) J. Michelet, Le Peuple, op.cit., pp. 264- ٢٦٦.
- (21) Ibid., p. 29.
- (22) J. Bouillon, F Brunel, A.M.Sohn, F.Autrand, M.Bordet, Le XIX(ème) siècle ..., op.cit., p. 278.
- (٢٣) للمزيد حول التضييق الممارس على الحريات بفرنسا في خمسينيات القرن ١٩، راجع:
- J. Bouillon, F Brunel, A.M.Sohn, F.Autrand, M.Bordet, Le XIX(262 et 264., op.cit., pp....ème) siècle
- (24) J. Michelet, Nos Fils, op.cit. p. 322.
- (25) Ibid., p. 323.
- (26) Ibid.

- (٢٧) لما استحدث نابليون بونابرت (Napoléon Bonaparte 1769-1821) كوزارة مركزية للتربية تُشرف على إدارة التعليم في فرنسا، نشأ نظام التعليم المدني الحديث المستقل عن المدارس الكاثوليكية. ومنذ ذلك التاريخ صار هناك نظامان فرنسيان للتعليم أحدهما مدني تشرف عليه الدولة والآخر ديني ترعاه الكنيسة مستقل عن سلطة الدولة، وهو الوضع الذي ظل قائما حتى قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة في ٤ شتنبر ١٨٧٠.
- مما فتح الطريق واسعا أمام تأسيس نظام تعليمي فرنسي جمهوري إجباري وعلماني. ولابد من التأكيد على أن تعليم غالبية

والمواد والتعليمات الموجهة إلى الأساتذة لتجعل من التلميذ مواطنا صالحا ووطنيا، خلال فترة طغى فيها هاجس فقدان "الألزاس" "Alsace" و"اللوورين" "Lorraine" وفكرة نزاع مسلح وشيك مع ألمانيا وسادها الاعتقاد بأن "سيدان كانت انتصارا لمعلم المدرسة الألماني" (٢) ما جعل المدرسة الفرنسية إحدى أدوات الوطنية الجمهورية والدعاية، بشكل أصبح معه الخط الفاصل بين الوطنية والدعاية رفيعا جدا، إن لم نقل صعب التحديد. وتظل الكتب المدرسية المعتمدة وقتئذ أهم مكونات هذه الوطنية المدرسية، ويتعلق الأمر بكتابين مفتاحين في النظام المدرسي الفرنسي قديما للأطفال المدارس صورة فرنسا كبلد يعيش من خلال تاريخه وجغرافيته منذ فجر التاريخ في الوحدة وحب الوطن. الكتاب الأول: "لأفيس الصغير" "Le Petit Lavissee" (١٨٧٦) لإرنست لأفيس Ernest Lavissee (١٨٤٢-١٩٢٢)، المؤرخ البارز بجامعة السوربون والعارف بتاريخ فرنسا وبروسيا، وهو نسخة مبسطة للصغار لكتاب "تاريخ فرنسا منذ أصولها الأولى حتى الثورة" "à la Révolution" 'Histoire de France depuis les origines jusqu' تسعة أجزاء بين عامي ١٩٠١ و ١٩١١، والذي يُعرّف بالأحداث الكبرى والشخصيات العظيمة لمعرفة الاتجاه العام لتاريخ فرنسا ووضعا كل سرد للأحداث التاريخية في علاقته مع هدف التربية الوطنية هذا، حيث تُجسّد الجمهورية التي نبعت من رحم الثورة الخلاص من الاستعباد والأفق "لتحقيق الجثة على وجه الأرض" (٣)، وقد جاء في مقدمته: "سترون أن آباءكم سَفَكُوا دماءهم في معارك ميّدة، حتى تحمل فرنسا مكانة مُشرّفة بين الأمم. وستتعلّمون ما عليكم من دين إزاءهم، ولماذا عليكم أولا وقبل كل شيء حب وطنكم، أي حب أرض آباءكم" (٤). لقد كان لهذا الكتاب بالغ الأثر في نماء الحس الوطني عند الأطفال والتلاميذ، وعموم الفرنسيين، بإذكاء عظيمة الدولة وروح الانتقام من هزيمة ١٨٧٠ أمام ألمانيا. أما الكتاب الثاني فهو "جولة في فرنسا من قِبَلِ طفلين صغيرين" "Tour de France par deux petits enfants" (١٨٧٧) لمؤلفته أوجيستين فويي Augustine Fouillé (١٨٣٣-١٩٢٣) أو برونو Bruno وهو اسمها المستعار، الذي يحكي قصة تعود فصولها لأعقاب الحرب الفرنسية الألمانية ١٨٧٠-١٨٧١ بطلالها أندريه André وجولييان Julien وهما طفلان ينحدران من منطقة اللورين المحتلة من قِبَلِ الألمان، وعدا والديهما وهو على فراش الموت بالعثور على عمّهما؛ ليعودا سرّا بعد وفاة الوالد إلى فرنسا التي اكتشفا جمالها وهما يجوبانها بحثا عن غايتهم. لقد ظل هذا الكتاب في فرنسا الكتاب المدرسي الرئيس في المرحلة الابتدائية خلال نهاية القرن ١٩ والأداة الأولى للأفكار الوطنية للجمهورية، ففي قراءته ودراسته يتعلم التلميذ الفرنسي القيم الأخلاقية للجمهورية ويكتشف على خطوات أندريه وجولييان الحياة والمهن والتقنيات الجديدة المتصلة بالثورة الصناعية الأولى. وللاّ حظ أنه في بداية الحرب العالمية الأولى كانت الأناشيد التي رَدّدها الجنود الفرنسيون في محطات القطار وهم في الطريق إلى الجبهة في غشت ١٩١٤ هي تلك التي حفظوها في المدرسة وهم تلاميذ.

- (1) J. Bouillon, F.Brunel, A.M Sohn, F.Autrand, M.Bordet, Le XIX(ème) siècle ..., op.cit., p. 274.

- 1787 أستاذ التاريخ الحديث "بجامعة السوربون" "Sorbonne" (1834-1835)، فأستاذًا بمنبر "التاريخ والأخلاق" "Histoire et morale" بـكوليج دوفرانس "Collège de France" (1838-1851).
- (31) Gabriel Monod, Les Maîtres de l'histoire, Renan Taine, Michelet, Calmann Lévy, Paris, 1894, p. 216.
- (32) جامعة فرنسا: تُعرّف عادةً "بالجامعة" "L'université" وأيضًا باسم "الجامعة الامبراطورية" "L'Université impériale"، هو الاسم الذي أعطى خلال القرن 19 للإدارة الفرنسية المشرفة على التعليم التي أسسها نابليون بونابرت في 10 ماي 1806 ونظمها ظهور 17 مارس 1808.
- (33) ينعث ميشليه الثورة الفرنسية بالمؤسسة لأنها مثّلت بمبادئها وتوصياتها قطيعة مع النظام القديم. للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:
- P. Viallaneix, Cours au Collège de France, op. cit., Tome 2, (1845-1851), cours de 1845, L'esprit et la portée de la Non pas la Révolution mais la : Révolution, premier semestre Fondation, pp. 17-47.
- (34) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., p. 223.
- (35) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية برلين-السوربون-استراسبورغ من المنهج إلى التناهي**، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2018، ص. 16.
- (36) U.S. Department of Labor (2006), "Engineers", Occupational Outlook Handbook, 2006-07 Edition.
- مؤرشف من الأصل في 20/07/2018. شوه بتاريخ 03 فبراير 2020.
- (37) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., p. 214.
- (38) إقليم فرنسي يقع في وسط فرنسا، سمي باسم كروز نسبة إلى نهر كروز.
- (39) تقع مارسيليا على ساحل فرنسا الجنوبي المطل على البحر الأبيض المتوسط، وهي عاصمة إقليم "بوش دو رون" "Bouches-du-Rhône" ومنطقة "بروفنس ألب كوت دازور" "Provence-Alpes-Cote d'Azur".
- (40) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., p. 329.
- (41) دنيال دوفوي: (حوالي 1660-1731)، رجل سياسة وكاتب إنجليزي، من بين مؤلفاته: "معلم الأسرة" "L'instituteur de famille" الذي أصدره سنة 1710.
- (42) شيكو غيامباتيستا: (1668 - 1744)، فيلسوف إيطالي، من بين مؤلفاته: "العلم الجديد" "La Science nouvelle" الذي أصدره سنة 1720.
- (43) G. Monod, Les Maîtres de l'histoire..., op. cit., p. 278.
- (44) فريدريك فروبيل: (1782-1852)، عالم تربية ألماني، من بين مؤلفاته: "تربية الإنسان" "De l'éducation de l'homme" الذي أصدره سنة 1826.
- (45) G. Monod, Les Maîtres de l'histoire..., op. cit., p. 281.
- (46) Ibid., pp. 277-278.
- (47) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., Introduction, p. VIII.
- (48) Ibid., pp. 232-233.

الفتيات خلال الجزء الأكبر من القرن ظل بيد الكنيسة؛ فقد تضاعف عدد الجمعيات الرهبانية النسائية ووجدت حتى داخل المدارس العمومية، فيما اتبعت المدارس الخاصة العلمانية للبنات والمدارس العمومية تحت الإشراف العلماني النموذج التعليمي السائد، وفي هذا الصدد كتب القس الكاثوليكي الفرنسي فيليكس دوبانلوب Félix Dupanloup (1802-1878) عام 1867 يقول: "تربى الفتيات الصغيرات في حضن الكنيسة" (1). غير أن السياسة التي تبناها الجمهوريون منذ مجيئهم والقوانين الصادرة التي واكبتها، لاسيما قانونا علمنة البرامج (28 مارس 1882) وقانون علمنة هيئة التدريس (3 أكتوبر 1886) أدت إلى استبدال تدريجي للجمعيات النسائية وإن على نحو أبطأ من مدارس البنين. ولتوضيح ذلك، فإذا كانت المادة 18 من القانون الأخير قد نصت على أن استبدال الموظفين العلمانيين بموظفي الجمعيات في مدارس البنين يجب أن يتم في غضون خمس سنوات، فإنها لم تنص على شيء من ذلك بخصوص مدارس البنات لعدم وجود مدرّسات علمانيات بأعداد كافية. فيما عجل قانون 7 يوليو 1904 الذي يحظر التدريس على أي جماعة بعملية علمنة المدارس العمومية، ما حذا بالزاهيات إلى العلمنة والتدريس في مدارس مستقلة: وهي مؤسسات خاصة غير متعاقد معها، بمعنى أنها لم تبرم أي اتفاق مع الدولة الفرنسية كانت غير ملزمة بالسير على المناهج الدراسية ولا باحترام توقيت التعليم العام، ما ميزها عن باقي التعليم الخاص في فرنسا، لكنها كانت مع ذلك مطالبة بتمكين تلامذتها من اكتساب الحد الأدنى من قاعدة المعارف والكفاءات المشتركة والمعرفة والثقافة.

(1) Félix Dupanloup, Controverse Sur l'éducation des filles, Tome 3, E. Plon et Cie, Paris, 1874, p. 29.

عمر جاسم محمد العبيدي، **"نظام التعليم في فرنسا (ظهور العلمانية واختفاء الدين)"**، الحوار المتمدّن، <https://m.ahewar.org/s.asp?aid=288924&r=0>، شوه بتاريخ: 03 فبراير 2020.

Françoise Mayeur, "L'éducation des filles en France au XIX (ème) siècle: historiographie récente et problématiques", Actes des séminaires organisés par l'École française de Rome et l'Universita De Roma-la Sapienza (janvier-mai 1985), Publications de l'École Française de Rome/ Année 1988 /104/ p. 81.

(28) J. Michelet, Cours professé..., op.cit., deuxième leçon, (23 décembre 1847), pp. 40-42-43.

(29) Jules Michelet, Nos Fils, A. Lacroix et C(ie), Paris, sixième édition, 1877 p. 237.

(30) كانت لميشليه معرفة عميقة بهذا القطاع كطالب ثم كأستاذ تدرّج في مختلف أسلاك التعليم. إذ بدأ مساره المهني كمعيد بمدرسة "بريون الداخلية" "Institution Briand" (1821-1822)، ثم أستاذًا مناوبا "بثانوية شارلمان" "Lycée Charlemagne" (1821-1822)، فأستاذًا للتاريخ "بكوليج سانت بارب" "collège Sainte Barbe" (1821-1826)، قبل أن يلتحق بالتعليم العالي كأستاذ للفلسفة والتاريخ "بالمدرسة العليا للأستاذة" "Supérieure" "École Normale" (1827-1829)، ثم بديلا لجيزو (1874-1874).

- (65) Ibid., p. 272.
- (66) Ibid., pp. 332-333.
- (67) Ibid., pp. 333-334.
- (68) Ibid., p. 334.
- (69) Ibid., pp. 334-335.
- (٧٠) المدرسة المركزية لباريس "École centrale de Paris": اسمها الرسمي المدرسة المركزية للفنون والصناعات، أسسها جان باتيست دوما Jean Batiste Dumas (١٨٠٠-١٨٨٤) سنة ١٨٢٩، وتُعد واحدة من أرقى مدارس تكوين المهندسين الفرنسية.
- (٧١) المدرسة العليا للأساتذة "École normale supérieure": هي مؤسسة فرنسية للتعليم العالي تأسست بباريس سنة ١٧٩٤، تتولى تكوين باحثين وأساتذة في الاختصاصات الأدبية والعلمية والتكنولوجية.
- (72) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., pp. 335-336.
- (٧٣) جوليان باستور: (١٩-٢٠)، أستاذ مؤهل في الفلسفة بجامعة "بوركون إفرنش كمتيه" Bourgogne - Franche-Comté، ومن بين مؤلفاته: "الورثة المنزعجون- بحث في الروح الجمهورية خلال القرن ١٩" Les héritiers contrariés - Essai sur le "spirituel républicain au XIX ème siècle" الذي أصدره سنة ٢٠١٨.
- (74) Julien Pasteur, "Michelet pédagogue: la citoyenneté ou la république des esprits", In : L'éducation à la citoyenneté [en ligne], Besançon Presses universitaires de Franche-Comté, 2018, (généré le 18 aout 2023), Disponible sur internet: <<http://books.openedition.org/pufc/11828>>. ISBN: 9782848677613, DOI: <https://doi.org/10.4000/books.pufc.11828>, p.105.
- شوهده بتاريخ: ٣ فبراير ٢٠٢٥.
- (49) Ibid., pp. 233-234.
- (50) Ibid., p. 234.
- (51) Ibid., p. 233.
- (52) J. Michelet, Le Peuple, op.cit., pp. 18-19.
- (53) Ibid.
- (54) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., p. ٢٣٨.
- (٥٥) عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، (مسألة التجاوز)**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص. ٣٦٦.
- (56) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., p. 305.
- (٥٧) تُعرّف دائرة المعارف البريطانية المواطنة بأنها: "العلاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة". "وأن المواطنة على وجه العموم تُسبغ على المواطن حقوقاً سياسية، مثل حق الانتخاب وتولي المناصب العامة".
- نورا عبه جي، "مفهوم المواطنة- The concept of Citizenship - الموسوعة السياسية Political- ENcyclopedia encyclopedia.org شوهده بتاريخ: ٣ فبراير ٢٠٢٥.
- (58) J. Michelet, Nos Fils, op.cit., pp. 270- 271.
- (٥٩) تأسست هذه المدرسة سنة ١٧٩٤ تحت اسم "المدرسة المركزية للشغال العمومية" "École centrale des travaux publics".
- (٦٠) حول الثورة الفرنسية كما تمثلها ميشليه انظر مقالاتنا التالية: ياسين زينون، "جول ميشليه ووحى الثورة الفرنسية"، **دورية كان التاريخية**، السنة الرابعة عشرة، العدد الثاني والخمسون، يونيو ٢٠٢١، ص. ٢٢٢-٢٣٧. وكذلك: "ميشليه وديانة الثورة الفرنسية"، **مجلة أمل التاريخ والثقافة المجتمع**، العدد ٥٥، رصد ونظر في التصوف، ص. ٢٧٧-٢٨٩. وأيضاً: "ميشليه رسول الثورة الفرنسية"، **دورية كان التاريخية**، السنة الرابعة عشرة، العدد الرابع والخمسون، ديسمبر ٢٠٢١، ص. ٢٦٦-٢٥٢.
- (٦١) مشاعل بنت رجا عامر الحيزان، "طبيعة النظرية البوليتكنيكية (التطبيقية) في العملية التعليمية"، الجزيرة، الأربعاء ١٢ يناير ٢٠٢٢، www.al-jazirah.com/20220112/ar6.htm
- شوهده بتاريخ: ٣ فبراير ٢٠٢٥.
- (٦٢) تقوم "النظرية البوليتكنيكية أو التطبيقية في المنهج" "theory Polytechnic curriculum" على الربط بين المدرسة والعمل المنتج النافع للمجتمع من خلال الدمج بين المعارف النظرية والمعرفة العملية التطبيقية وإعطاء المتعلمين معلومات وإكسابهم مهارات تتعلق بعمليات الإنتاج. وتعود جذورها إلى الفكر الماركسي الذي يُنسب إلى كل من الفيلسوفين الألمانين كارل ماركس Karl Marx (1818-1883) وفريدريك إنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠-١٨٩٥) والذي تبنته روسيا على يد فلاديمير ألييتش أوليانوف Vladimir Ilitch Lénine المعروف "بلينين" (١٨٧٠-١٩٢٤). ولقد أثرت هذه النظرية على طبيعة المدارس والمناهج الدراسية سواء في الاتحاد السوفيتي المنهار أو في الدول الاشتراكية التي تبنت النظرية ذاتها وأقامت نظمها التعليمية وفقاً لها.
- رجا عامر الحيزان، "طبيعة النظرية البوليتكنيكية (التطبيقية)".
- J. Michelet, Nos Fils, op.cit., pp. 245-246. (٦٣)
- (64) Ibid., p. 247.

الجال المغربية وقوانين الحماية الفرنسية السياق ومجالات التوظيف

شرف ازناك

مرشح للدكتوراه

جامعة القاضي عياض - مراكش

فاس - المملكة المغربية



ملخص

اتسمت البنية التشريعية والقانونية بمغرب ما قبل الحماية الأجنبية بغلبة وسيادة النصوص الشرعية والعرفية في تنظيم مختلف الأحكام والمعاملات بين مكونات المجتمع المغربي المتعدد حسب درجة التأثير والتأثر، لكن مع توقيع معاهدة فاس سنة ١٩١٢، ستسعى سلطات الحماية الفرنسية إلى تعزيز هذه النصوص بنصوص وضعية جديدة تتماشى مع طموحاتها وغاياتها، محاولة جعل النصوص التشريعية وسيلة وأداة شرعية للهيمنة والسيطرة على مختلف الموارد المغربية، من غابات ومعادن وموارد مائية وأراضي صالحة للزراعة، وذلك من خلال تقنينها وتنظيمها، إلى جانب التحكم في المجال والسكان، وهو ما تحاول هذه الدراسة إبرازها مع التركيز على الجبال المغربية دون مختلف المجالات التضاريسية الأخرى، بحكم كون الجبال منبع ومجال تركيز معظم الثروات. وجدير بالذكر أن النصوص التشريعية تعدّ مادة مصدرة إضافية للباحث في التاريخ في إطار التلاقح بين مختلف العلوم الاجتماعية والانسانية، فقليلة هي الدراسات التي عكفت على توظيف النصوص التشريعية كمادة مصدرة مباشرة في أبحاثها التاريخية، على الرغم مما تتيح من إمكانيات تسمح بقراءة الأحداث من زوايا ومنظور متعدد وقدرة أكثر للتأويل والتفسير.

كلمات مفتاحية:

القانون؛ الجريدة الرسمية؛ أشكال الاستغلال؛ الجبال المغربية؛ الحماية الفرنسية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٤ سبتمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٤



10.21608/kan.2025.305546.1149

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

شرف ازناك، "الجال المغربية وقوانين الحماية الفرنسية: السياق ومجالات التوظيف"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون، سبتمبر ٢٠٢٥، ص ١٦٦ - ١٨٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: aznague77@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يُعدّ موضوع الجبل^(١) في علاقته بالنص والخطاب الرسمي القانوني في تاريخ المغرب، من المواضيع التي قل فيها البحث أو يأتي القانون فيها عرضاً دون تركيز، ولم يحظ بإقبال كثيف من قبل الباحثين في التاريخ المعاصر^(٢)، رغم ما يقدمه من إضاءات حول السياسة الاستعمارية التي طبقتها فرنسا خلال فترة الحماية، ومن معطيات حول دور السياسة القانونية المتبعة من قبل المنظرين الاستعماريين في بسط السيطرة والتحكم في المجالات التي هددت البقاء الفرنسي بالمغرب^(٣)، إلى جانب كون هذه القوانين ما تزال تشغل حيزاً مهماً من النقاش السياسي والقانوني بالمغرب الحالي.

أولاً: قوانين الحماية الفرنسية (سياق الظهور واشكاليات التوظيف)

١/١-قوانين الحماية الفرنسية وسياق الظهور

من المعلوم أن التركيبة القانونية بالمغرب عرفت تغييرات جذرية واكبت التطور العام للأحداث التاريخية والسياسية والطبيعية التي مر منها، فمغرب ما قبل الحماية الفرنسية تميز بسيادة القانون العرفي التقليدي الموروثة عن زمن القبيلة ومؤسساتها الجماعية^(٤)، وكذا أحكام الشريعة الإسلامية حسب المجالات ودرجة التأثير والتأثر، هذه البنية كانت تشمل كل ما يتعلق بالحياة اليومية للمجتمع المغربي، وما يتولد عنها من حقوق والتزامات بصفة عامة^(٥).

كما كان لمعاهدة فاس بتاريخ ٣٠ مارس ١٩١٢^(٦) سند فرنسا ومرجعها الرسمي في احتلال المغرب^(٧)، تأثير كبير على بنية القانون المغربي، ذلك أن بموجبها عملت فرنسا على إحداث نظام جديد يسمح بإدخال مجموعة من الإصلاحات الإدارية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فأصدرت بذلك الجريدة الرسمية^(٨) المصدر الرسمي الموثوق به، والأداة الإعلامية الإخبارية التي تنشر فيها مختلف القوانين والقرارات والمراسيم، الصادرة عن الجانب المغربي الذي يمثلته الصدر الأعظم، أو عن الجانب الفرنسي والممثل في المقيم العام، كما تتضمن بعض الأخبار الرسمية ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعسكري^(٩).

وعقب تعيين الجنرال هوبير ليوطي كأول مقيم عام بالمغرب^(١٠)، أصدر قراره المؤرخ في ٢ شتبر ١٩١٢م، بإصدار: الجريدة الرسمية للدولة المغربية المحمية، وتضمن هذا القرار ثلاثة فصول^(١١).

- الفصل الأول: تم إصدار جريدة رسمية للحكومة الشريفة، وللحماية الفرنسية بالمغرب موجهة لنشر المراسيم، والقرارات الصادرة عن حكومة الجمهورية بالمغرب، وأيضاً قرارات المقيم العام.
- الفصل الثاني: أن الجريدة الرسمية ستصدر في نسخة عربية وفرنسية.
- الفصل الثالث: أن إدارة وتحرير الجريدة الرسمية مهمة موكلة إلى رئيس الديوان المدني للمقيم العام.

وقد كانت الجريدة الرسمية تصدر أسبوعياً باختلاف حجمها الكمي، أو بقلّة المواد المنشورة وتضمنت ظواهر وقرارات إما من المقيم العام أو من الحكومة الشريفة، ومراسيم ودوريات مختلف المصالح الحكومية من أشغال عمومية أو فلاحية، صحية...، كما أنها تحتوي على مقتطفات من الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية، يمكن تسميته بالجانب الرسمي^(١٢)، وفي جانب الجانب فيتضمن أخبار مختلفة ذات مواضيع عامة، كالحديث عن الأوضاع السياسية والعسكرية للمغرب خلال فترة معينة، أو إعلانات قضائية وإدارية^(١٣).

٢/١-قوانين الحماية الفرنسية وإشكالية

التوظيف والاستغلال

تطرح النصوص القانونية الواردة في الجريدة الرسمية خلال الحقبة الاستعمارية الكثير من الصعوبات والاشكاليات عند الرغبة في توظيفها، بعضها مرتبط بنوع الاستعمار الذي تعرض له المغرب وتجزء مؤسساته بين المنطقة الدولية والخليفة والسلطانية، وكذا ما نتج عنه من تقسيم للمجال الجغرافي للمغرب، وخاصةً الوحدات الجبلية موضوع هذه الدراسة، مما يلزم الباحث على ضرورة الاطلاع على مختلف ما نشر عن المناطق الثلاث وبلغاته المتعددة، إلى جانب صعوبات أخرى أبرزها^(١٤):

- النسخة العربية لا تحتوي على مختلف القرارات الصادرة في النسخة الفرنسية.
- مشكل المصطلح، خصوصاً عدم ضبط النسخة العربية للمصطلحات الدقيقة وإعطائها مرادفات أخرى.
- احتواء النسخة العربية على أخطاء في تواريخ القرارات الصادرة عن الجانبين.
- أعداد النسخة العربية أقل من نظيرتها الفرنسية.

ثانياً: قوانين الحماية الفرنسية ومجالات التدخل

١/٢- جرد لأهم القوانين

تُعدّ الجريدة الرسمية أداة إخبارية وإعلامية تصدر فيها مختلف القوانين التشريعية المنظمة للحياة في المغرب بصفة عامة بما فيها الجبال، ومن أهم التشريعات والنصوص القانونية الصادرة بالجريدة الرسمية زمن الحماية الفرنسية نجد:

- صدور العدد الأول للجريدة الرسمية في نسختها العربية بتاريخ 25 فبراير ١٩١٣، بينما الموقع الإلكتروني الرسمي للجريدة الرسمية، يحمل تاريخاً آخر وهو ٠١ فبراير 1913م، وموادها القانونية ليست هي تلك الواردة في النسخة الورقية.
- غياب التطابق بين النسختين، العربية والفرنسية.
- وجود صفحات يصعب قراءتها نظراً لنوع وحجم الخط الذي كتبت به.
- صعوبة ترجمة بعض القوانين التي تحتوي على ما يزيد عن أربعة أبواب.
- النسخة الفرنسية أكثر تعبيراً ووضوحاً عما تحتويه، على عكس النسخة العربية المترجمة بأسلوب بسيط وأحياناً غير مفهوم.
- النسخة العربية ماهي إلا ترجمة لما يصدر بالنسخة الفرنسية، وفي بعض الحالات تكتفي النسخة العربية بالإحالة على النسخة الفرنسية، لذلك تكون النسخة العربية أقل حجماً من نظيراتها بالفرنسية.

العدد B.N°	تاريخ الصدور Date De Publication	موضوع الظهير أو المرسوم أو القرار الصادر في العدد		
		ظهير Dahir	قرار Arrête	مرسوم Décret
١٦٨	١٠ يناير ١٩١٦	ترسيم حدود مجال الغابات الدولة.		
١٩١	١٩ يونيو ١٩١٦		إعادة تنظيم إقليم تازة.	
٢٦٢	٢٩ أكتوبر ١٩١٧	ظهير تنظيم استغلال واستعمال الغابة.		
٢٦٢	٢٩ أكتوبر ١٩١٧		تحديد الأراضي التي يسري عليها نظام الغابات الذي فرضه ظهير ١٠ أكتوبر ١٩١٧.	
٣٠٥	٢٦ غشت ١٩١٨			بيع الأخشاب في غابات الدولة.
٣١٠	٣٠ غشت ١٩١٨		طلب يتعلق بترسيم حدود غابة الغرب من طرف رئيس دائرة المياه والغابات.	
٣١٢	١٤ أكتوبر ١٩١٨	استكمال بعض بنود ظهير ١٠ أكتوبر ١٩١٧ بشأن		

العدد B.N°	تاريخ الصدور Date De Publication	موضوع الظهير أو المرسوم أو القرار الصادر في العدد		
		ظهير Dahir	قرار Arrête	مرسوم Décret
		صيانة الغابات واستغلالها .		
٣١٢	١٤ أكتوبر ١٩١٨		كيفية الوقاية من حرائق الغابات .	
٣٢١	١٦ دجنبر ١٩١٨	ترتيب الأولوية بين العديد من طلبات تحديد عدد المناجم .		
٣٦٨	١٠ نونبر ١٩١٩		تغييرات في التنظيم الإقليمي لإقليم مراكش .	
٣٦٩	١٧ نونبر ١٩١٩	إنشاء ترتيب للأولوية بين عدة طلبات للحصول على تصاريح البحث في مجال التعدين ..		
٣٧١	٠١ دجنبر ١٩١٧	إنشاء ترتيب للأولوية بين عدة تطبيقات للحصول على تصاريح التقيب عن التعدين .		
٣٧١	٠١ دجنبر ١٩١٩		إنشاء ترتيب للأولوية بين عدة تطبيقات للحصول على تصاريح التقيب عن التعدين .	
٣٧١	٠١ دجنبر ١٩١٩	ترتيب الأولوية بين عدة طلبات للحصول على تصاريح أبحاث التعدين .		
٣٩١	٢٠ ابريل ١٩٢٠		تنظيم الخدمة الجغرافية للمغرب .	
٤٠٥	٢٧ يوليوز ١٩٢٠		تعديل تنظيم القيادات الإقليمية .	
٤٠٧	١٠ غشت ١٩٢٠	القيام بإنشاء مكتب الشريف للفوسفاط .		
٤٠٩	٢٤ غشت ١٩٢٠	لوائح التقيب عن المناجم واستغلالها في المنطقة الفرنسية للإمبراطورية الشريفة .		
٤١٠	٣١ غشت ١٩٢٠		ترسيم حدود الجبال المشجرة في دائرة أكادير .	
٤١٤	٢٨ شتبر ١٩٢٠	إعلان المنفعة العامة للمنشآت اللازمة لاستغلال الفوسفاط .		
٤١٩	٠٢ نونبر ١٩٢٠	تطوير وتوسيع قرية بركان .		

العدد B.N°	تاريخ الصدور Date De Publication	موضوع الظهير أو المرسوم أو القرار الصادر في العدد		
		ظهير Dahir	قرار Arrête	مرسوم Décret
٤٢٣	٣٠ نونبر ١٩٢٠		تحديد معدل ما يسمى ببدة التخييم المخصص لضباط الغابات.	
٤٢٦	٢١ دجنبر ١٩٢٠		تعديل تنظيم جهة مراكش.	
٤٢٦	٢١ دجنبر ١٩٢٠		تنظيم طريقة ممارسة الحق في المراعي بغابات الدولة.	
٤٢٦	٢١ دجنبر ١٩٢٠		إحداث مركز جديد للاستعلامات بإقليم تادلة.	
٤٣٢	١٥ يناير ١٩٢١		تنظيم طريقة ممارسة الحق في المراعي بغابات الدولة.	
٤٥١	14 juin 1921		تعديل تنظيم المجتمع الأهلي المحلي لأحمر جيش (إضافة قسمين جديدين: سكتانة، غيغاية، أوريكة.	
٤٥٣	٢٨ يونيو ١٩٢١		تنظيم طريقة ممارسة الحق في المراعي بغابات الدولة.	
٤٥٣	٢٨ يونيو ١٩٢١		الموافقة على عمليات ترسيم حدود الغابات.	
٤٥٥	١٢ يوليوز ١٩٢١		جرد لجماعات القبائل بمنطقة تازة.	
٤٦٣	٠٦ شتبر ١٩٢١	تعديل لائحة التعدين.		
٤٦٧	٠٤ أكتوبر ١٩٢١		تحديد المناطق التي يسري عليها ظهير نظام الغابات ١٠ أكتوبر ١٩١٧ بإقليم مكناس.	
٤٧٨	٢٠ دجنبر ١٩٢١	تعديل لظهير ١٠ أكتوبر ١٩١٧ بشأن الحفاظ على الغابات واستغلالها.		
٤٨٧	٢١ فبراير ١٩٢٢	إحداث دائرة للمياه والغابات مرتبطة بالتوجه العام للزراعة والتجارة والاستعمار.		
٤٨٧	٢١ فبراير ١٩٢٢		تكوين مجموعات من الكسور في قبائل الأنجاديين، المحياس، بني عقيل، ذكرى، بني يالاو وجدة (السيطرة المدنية على وجدة).	
٥٠٠	٢٣ ماي ١٩٢٢		إعادة تنظيم جماعة القبائل من السيطرة المدنية لبني يزناسن (منطقة وجدة).	
٥٠٠	٢٣ ماي ١٩٢٢		تغيير أعضاء مختلف الجماعات التابعة لدائرة واد زم.	
٥٠٢	٠٦ يونيو ١٩٢٢		إعادة تنظيم مجتمع الادخار الأصلي لبني يزناسن	

العدد B.N°	تاريخ الصدور Date De Publication	موضوع الظهير أو المرسوم أو القرار الصادر في العدد		
		ظهير Dahir	قرار Arrête	مرسوم Décret
			(المنطقة المدنية بوجدة).	
٥٠٢	٠٦ يونيو ١٩٢٢		استبدال عضو مجلس إدارة جمعية الادخار الأصلية لحد كورت دائرة وزان.	
٥٠٢	٠٦ يونيو ١٩٢٢		تحمل التعديلات والإبداعات في التنظيم الترابي لجهة مراكش.	
٥٠٩	٢٥ يوليوز ١٩٢٢		تعديل المرسوم الوزاري الصادر في ٢٠ غشت ١٩٢٠ بإنشاء جمعية الادخار الأصلية لدائرة بني ملال.	
٥١٠	٠١ غشت ١٩٢٢	تعديل المادة ٦٤ من ظهير ١٠ أكتوبر ١٩١٧ المتعلق بالمحافظة على الغابات واستغلالها.		
٥١٤	٢٩ غشت ١٩٢٢		افتتاح القنص بمنطقة مكناس.	
٥١٤	٢٩ غشت ١٩٢٢		الاستحواد لفائدة الملك الخاص للدولة الشريفة على حقوق عدة أفراد في الأرض البريدية لواد أمليل (جهة تازة).	
٥١٥	٠٥ شتبر ١٩٢٢		إعادة التنظيم الإقليمي في دائرة وزان.	
٥١٥	٠٥ شتبر ١٩٢٢		تعديل تنظيم القيادات الإقليمية.	
٥١٥	٠٥ شتبر ١٩٢٢		تعديل تنظيم القيادات الإقليمية (إتزر).	
٥١٨	٢٦ شتبر ١٩٢٢		افتتاح الصيد عام ١٩٢٢ في ملحق تاوريرت.	
٥١٩	٠٣ أكتوبر ١٩٢٢		تغيير التنظيم الترابي لمنطقة تازة.	
٥٢٤	٠٧ نونبر ١٩٢٢		إعادة التنظيم في دائرة أزيلال إقليم مراكش.	
٥٤٠	٢٧ فبراير ١٩٢٣	تعديل المادة ٢٤ من ظهير ١٠ أكتوبر ١٩١٧ بشأن الحفاظ على الغابات واستغلالها.		
٥٤٣	٢٠ مارس ١٩٢٣		توسيع النظام الغابوي لأراضي المنطقة المدنية بوجدة.	
٥٤٣	٢٠ مارس ١٩٢٣		تحديد حالات تمنح فيه مكافأة تشجيعية للخواص الذين أنفقوا التشجير.	
٥٤٨	٢٤ أبريل ١٩٢٣		تحديد المرتفعات الشجرية بدائرة حاحا الجنوبية كسيفة، مركينة، الواقعة في مجال القبائل التالية: إمكراد، أيت زلطن، إدا أوبوزية، إدا أوزمزم، إدا أوكلول والتابعة لدائرة حاحا الجنوبية كسيفة- مركينة.	
٥٧٠	٢٥ شتبر ١٩٢٣	ظهيرينص على امكانية		

العدد B.N°	تاريخ الصدور Date De Publication	موضوع الظهير أو المرسوم أو القرار الصادر في العدد		
		ظهير Dahir	قرار Arrête	مرسوم Décret
		التدخل المباشر للإقامة الفرنسية في الصناعة الاستخراجية.		
٥٧٩	٢٧ نونبر ١٩٢٣		الترخيص بفتح مدرسة خاصة ببوعرفة.	
٦٢٤	٠٧ أكتوبر ١٩٢٤		تحديد المرور على الطريق رقم ٢٥ من موكادور إلى تارودانت عبر أكادير لأجل محدد.	
٦٤٣	١٧ فبراير ١٩٢٥		نزع الملكية لدواعي المنفعة العامة للأراضي اللازمة لبناء الجزء من خط السكة الحديدية من طنجة إلى فاس.	
٦٥١	١٤ أبريل ١٩٢٥		تقييد حركة المرور على الجسر الخشبي يغريغرة (مسار ايطو عين اللوح).	
٦٥٧	٢٦ ماي ١٩٢٥		إزالة جماعة من قبيلة بين عتيق، وبني أوريمش، وهي جماعات بني ميمون.	
٦٧٢	٠٨ شتبر ١٩٢٥		خلق جمعية احتياط لدائرة أزيلال تنقسم إلى ٤ شعب.	
٦٩٥	١٦ فبراير ١٩٢٦		تقنين مياه واد أوريككة.	
٦٩٨	٠٩ مارس ١٩٢٦		تغيير في تركيبة جمعية الاحتياط لدائرة أزيلال بإضافة قبيلة ولتانة.	
٧٤٧	١٥ فبراير ١٩٢٧		تنظيم حركة المرور على جسر ١١٣ على الطريق رقم ١٥ من فاس إلى تازة.	
٧٥٨	٠٣ ماي ١٩٢٧		التصريح بالإجراءات المتبعة في حالة نزع أراضي من النظام الغابوي.	
٧٨٠	٠٤ أكتوبر ١٩٢٧		بناء سد على واد نفيس في للاتاكركوست (إقليم مراكش).	
٨١٥	٠٥ يونيو ١٩٢٨		التأكيد على عملية تحديد المرتفعات الشجرية لحاحا الجنوب.	
٨٢٠	١٠ يوليوز ١٩٢٨		تحديد غابة دبدو (إقليم وجدة) الموجودة بمحيط قبائل: بني ريس، علوانة، أهل دبدو، بني فاشت، ولاد عفور، زواس، ولاد حميد.	
٨٦٥	٢١ ماي ١٩٢٩		فتح تحقيق في مشروع التصريح باستخدام المياه بوادي وراين لفائدة السيد بونو مستوطن سي حمو مفتاح.	

العدد B.N°	تاريخ الصدور Date De Publication	موضوع الظهير أو المرسوم أو القرار الصادر في العدد		
		ظهير Dahir	قرار Arrête	مرسوم Décret
٨٧٣	١٦ يوليوز ١٩٢٩		التأكيد على عملية نزع أراضي جماعية تسمى " بلاد حشلاف " و " بلاد فرت " الموجودة في منطقة قبائل بين منكوش المتواجدة في الجنوب (بني يزناسن).	
٩٢٥	١٨ يوليوز ١٩٣٠		انطلاق أعمال تغيير الطريق رقم ٥٠٢ من مراكش إلى دادس إلى قنطرة واد الزات.	
٩٤٠	٣١ أكتوبر ١٩٣٠		تحديد المرور على الطريق رقم ٥٠٢ من مراكش إلى دادس عبر تيزي نتيشكا، والطريق رقم ٥٠٦ من تارودانت إلى ورزازات، وعلى الطريق غير المعبدة التي تربط تازناخت باكدر (مزكيطة= درعة).	
١٠٥٣	٣٠ دجنبر ١٩٣٢		إعلان المنفعة العامة إحداث منطقة التشجير في جبل زرهون.	
١١٤٨	٢٦ أكتوبر ١٩٣٤	ظهير ينص على إنشاء المنتزهات الوطنية.		
١٣٧٨	٢٤ مارس ١٩٣٩		الأمر بترسيم الكتل الشجرية لقبائل آيت عتاب وانتيفة	
١٤٥١	١٦ غشت ١٩٤٠		تحديد غابات كادارتايمزيلن، تيمرستين، تيكوين إيفورارزن، ايموزار، أولجداد، تنكرتن إزدرموتيكوين (أكادير).	
١٥٢٩	١٣ فبراير ١٩٤٢		انشاء المنزه الوطني لتوبقال.	
١٥٨٨	٠٢ ابريل ١٩٤٣	تصنيف موقع بوكافر.		
١٥٨٨	٠٢ ابريل ١٩٤٣	تصنيف موقع دادس.		
١٧٥٤	٠٧ يونيو ١٩٤٦		تعديل ظهير ١٠ أكتوبر ١٩١٧ بشأن الحفاظ على الغابات واستغلالها.	
١٧٧٤	٢٥ أكتوبر ١٩٤٦		إعلان بإحداث مركز جرحي بتدوت.	
١٧٩٣	٧ مارس ١٩٤٧			إشعار بتحصيل القوائم الضريبية في مختلف المحليات.
١٨٧٥	٢٢ فبراير ١٩٤٧			تصنيف موقع إمين افري (دمنات).
٢٠٠٩	٢٧ ابريل ١٩٥١	حماية وإصلاح الأراضي.		

العدد B.N°	تاريخ الصدور Date De Publication	موضوع الظهير أو المرسوم أو القرار الصادر في العدد		
		ظهير Dahir	قرار Arrête	مرسوم Décret
٢٠٠٩	٢٧ أبريل ١٩٥١		تحديد لوائح لحماية وإصلاح الأراضي.	
٢٠١٥	٠٨ يونيو ١٩٥١	اقتطاع قطعة أرضية من الغابة المخزنية لبني يزناسن (وجدة).		
٢٠٤٧	١٨ يناير ١٩٥٢		تحديد الحد الأقصى للإعانات النقدية التي يمكن تخصيصها لعمليات التشجير أو إعادة التشجير.	

الخنادق ضد النار، وإنشاء الخطوط الهاتفية، والطرق الغابوية أو طرق الاختراق، ومجموعة من المسالك، كما أن هذا الظهير يوضح كيفية استغلال هذه الغابات وكيفية التصرف في منتوجاتها.

تم تلاه القرار الصادر في ٤ شتنبر ١٩١٨^(١٦)، ينص على كيفية الوقاية من حرائق الغابات من خلال خلق مساكن وبنيات الاستغلال والملاجئ المبنية والموجودة وسط أو على مدى ٢٠٠ متر من الأشجار والغابة والتي تستعمل فيها النار سواء للحاجيات المنزلية أو الصناعية يجب أن تكون محاطة بخندق عرضه ٢٥ مترا خالي من الأشواك أو النباتات العشبية، إلى جانب إحاطة المنازل بخندق عرضه ٥ مترا وضرورة توفر الخنادق في الأفران المستخدمة لحرق المعادن من أجل تنقيتها واستغلالها.

كما اكتسى تحديد المجال الغابوي أهمية كبرى عند المستعمر، فعلى سبيل المثال أصدر قراراً بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٣١^(١٧)، يعلن عن تحديد غابة دبدو (إقليم وجدة) الموجودة بمحيط قبائل: بني ريس، علوانة، أهل دبدو، بني فاشت، ولاد عفور، زواس، ولاد حميد، (إقليم وجدة)، وكذا القرار الصادر في ١٦ غشت ١٩٤٠^(١٨) بتحديد غابات ادراوت، إمزيلن، تيمرسين، تيكوين، إفورزان، إموزار، أولجداد، تنكرت، إزدرم، تيكوين (إقليم أكادير)، والمرسوم الصادر في ٢٩ ماي ١٩٥٦^(١٩) بتحديد الغابة المخزنية إيموزار مرموشة، أراضي ايش اسكور، ايش تينمرت، تيزي تملوت، واولزمت وجبل عياد (ناحية فاس).

إلى جانب اهتمام سلطات الحماية الفرنسية بإخراج قوانين تهم تحديد المرتفعات الشجرية، كالقرار الصادر

إن ما يستشف من البطاقة أعلاه لمختلف النصوص التشريعية الصادرة عن سلطات الحماية تنوعها بين الظهائر والقرارات والمراسيم، مع غلبة القرارات، وتوظيف المستعمر لسلطات السلطان في إصدار بعض الظهائر تخص القطاعات الحيوية كالموارد المائية والمعدنية والقطاع الغابوي، كما أن هذه النصوص تتباعد من حيث الزمن تبعا للظروف الخارجية والداخلية للمغرب وفرنسا المستعمرة.

٢/٢-قوانين الحماية الفرنسية ومجالات

التدخل

تتصف قوانين الحماية الفرنسية بالتنوع والاختلاف في مجالات التدخل ولم تنحصر في مجال واحد أو قطاع مستقل على الرغم من التباين فيما بينها حسب الأهمية والمنفعة وتبعا لاختلاف الإمكانيات والمؤهلات وقدرات سلطات الحماية وكذا حسب الوحدة الجغرافية المشكلة للجبال المغربية، ومن أهم هذه القطاعات نجد:

(٢/٢) ١-القطاع الغابوي

شهد القطاع الغابوي زمن الحماية الفرنسية، سن العديد من القوانين بدعوى إنقاذ الغابة المغربية واستصلاحها، بحكم تراجع وتقلص مساحتها ومواردها بفعل الاستغلال البشري وأولى هذه التدخلات تمت حين أصدرت الإقامة العامة ظهير ١٠ أكتوبر ١٩١٧^(٢٠)، الذي يعتبر نقطة انطلاق تنظيم استغلال واستعمال الغابة، هذه الإجراءات سارت بموازاة مع أعمال أخرى تتمثل في إنشاء منازل غابوية التي شكلت الوسيلة الأساسية والفعالة لحماية الغابة، بالإضافة إلى أعمال حفر

أجل إرجاعها إلى القطاع الخاص للدولة الشريفة لإقامة مصلحة المياه بمشروع حمادي.

ومن المجالات الأخرى التي اهتمت بها سلطات الحماية ضمنها سياستها التشريعية نجد:

(٢/٢) ٢-قطاع التعدين

أولت سلطات الحماية الفرنسية لقطاع التعدين أهمية بالغة، فكل عمليات البحث والتقيب والتنظيم والاستثمار وإنجاز المشاريع والمراقبة صناعة فرنسية أوربية خالصة، وعلاقة بالنصوص التشريعية فظهر ١٨ يناير ١٩١٤^(٣٠) يعد أول نص قانوني صدر عن سلطات الحماية في هذا الشأن، وقد تضمن الحصول على ترخيص للمشاريع الخاصة للقيام بالتقيب والاستغلال المنجمي، ووضع نظام استثنائي بالنسبة لاستغلال الفوسفات، وقد أعيد فيه النظر بتاريخ ١٥ شتبر ١٩٢٣^(٣١)، ونص الظهير الجديد لأول مرة على إمكانية التدخل المباشر للإقامة الفرنسية في الصناعة الاستخراجية، وسمح للمصالح والمؤسسات العامة بالمطالبة بمستندات منجمية، ولكن هذا الإمكان ظل نظريا، لأنه لم يكن يوجد في المغرب في ذلك الوقت مصلحة رسمية مختصة بهذا النوع من النشاط سوى مصلحة المناجم.

(٢/٢) ٣-القطاع الزراعي

شملت تدخلات الحماية الفرنسية على مستوى النشاط الفلاحي والزراعي منه بالخصوص، استصلاح الأراضي وحمايتها، وخلق استغلاليات زراعية، وقد اتسمت النصوص التشريعية في هذا المجال بالضعف لارتباطها بالمجال الجبلي الذي يطرح الكثير من المعوقات يصعب تجاوزها، فمن النصوص التشريعية ذات الصلة بحماية الأراضي واستصلاحها نجد: الظهير الصادر في ٢٠ مارس ١٩٥١^(٣٢) والذي تم التأكيد فيه على أن المبرر لهذه العملية هو ضعف أو انعدام الاحتياط الزراعي نتيجة للتطور الديموغرافي، وكذا الضرر الملحق بها خاصة على مستوى المنحدرات وبمناطق السهوب بسبب التزايد المفرط في عدد المواشي، وكذا الضغط السكاني على المساحات الفلاحية الخصبة، إلى جانب كثرة

في ٢٤ أبريل ١٩٢٣^(٣٠) يعلن عن تحديد المرتفعات الشجرية بدائرة حاحا الجنوبية كسيفة، مزكينة، الواقعة في مجال القبائل التالية: إمكراد، أيت زلطن، إذا أوبوزية، إذا أوزمزم، إذا أوكلول والتابعة لدائرة حاحا الجنوبية كسيفة- مزكينة، إلى جانب القرار الصادر في ٥ يونيو ١٩٢٨^(٣١) يؤكد عملية تحديد المرتفعات الشجرية لحاحا الجنوب، والقرار الصادر في ٢٤ مارس ١٩٣٩^(٣٢) يعلن عن تحديد المرتفعات الشجرية لقبائل أيت عتاب وانتيفة.

كما نجد نصوص تشريعية شجعت عملية التشجير والمحافظة على الغابة وتحديد مجالاتها، بفعل تعرضها للتدهور، وفقدانها لأهميتها الاقتصادية وكنموذج لهذا النوع من النصوص نذكر القرار الصادر في ٢٠ مارس ١٩٢٣^(٣٣) المحدد للحالات التي تمنح فيها مكافأة تشجيعية للذين أنفقوا نفقات للتشجير، بعد تحديد المساحة الإجمالية للأراضي المشجرة، وعدد وأنواع الأغراس الموجودة فيها، والوقت الذي تمت وانتهت فيه عملية التشجير، وكذا طريقة التشجير ومختلف العمليات الأولى التي سبقتها.

كما أصدرت سلطات الحماية قوانين تهم تحديد مناطق الرعي وتربية المواشي، ومنها: القرار الوزاري الصادر في ١٥ أبريل ١٩٤٦^(٣٤) الخاص بتهيئة المرتفعات الرعوية الغابوية، والأماكن المفتوحة للرعي، والحد الأقصى لعدد الحيوانات التي ستقبل فيه، وكذا إحصاء المستعملين للمجال وقطيعهم، مع ذكر للضرائب والغرامات المفروضة على القطعان^(٣٥) ومكان أدائها^(٣٦).

ثم هناك قوانين اتجهت نحو نزع أراضي من القطاع الغابوي وكمثال على ذلك نجد: القرار الصادر في ٢٩ مارس ١٩٤٧^(٣٧) يصرح بالإجراءات المتبعة في حالة نزع أراضي من النظام الغابوي، بحيث أن كل عملية نزع أرض خاضعة للنظام الغابوي لا تتم إلا بدافع المصلحة العمومية، وكنموذج لهذا نجد القرار الصادر في ١٤ يونيو ١٩٢٩^(٣٨) يؤكد عملية نزع أراضي جماعية جنوب بني يزناسن مساحتها تقريبا ١,٥٥٣ هكتار، والظهير الصادر في ١٤ ماي ١٩٥١^(٣٩) باقتطاع قطعة أرضية من الغابة المخزنية لبني يزناسن مساحتها أربعة هكتار، من

وشبه منعدمة إذا استثنينا القرار الصادر في ٢٨ يناير ١٩٢٥^(٣٨) بنزع أراضي من أجل المنفعة العامة لبناء جزء من السكة الحديدية الرابطة بين طنجة وفاس باتفاق مشترك بين سلطات الحماية الفرنسية والاسبانية ومنطقة طنجة الدولية، على طول ٣١٥ كلم.

(٢/٢) ٥-تدبير واستغلال الموارد المائية

سعت الإقامة الفرنسية إلى تنظيم واستغلال الثروة المائية^(٣٩)، فقامت بمجموعة من الأعمال كأمين المياه في مناطق الندرة، وتفجير العيون، إلى جانب حفر الآبار والاستفادة من الأساليب التي كان الأهالي يتبعونها مع تحسينها باستعمال السواقي، وبناء السدود الكبرى، بهدف تحسين الزراعة وخدمة المستوطنين^(٤٠). إلى جانب اصدار مجموعة من التشريعات التي تساعد على التحكم في المياه السطحية والجوفية، منها ما اهتم ببناء السدود، كالقرار الصادر في ٢١ شتنبر ١٩٢٧^(٤١) ببناء سد على واد نفيس في للاتاكركوست (ناحية مراكش)، وبناء سد ومصنع بين الويدان (ناحية أزيلال) ونفق أيت أوغرضة الذي يبلغ طوله ١٠ كلم و٥٠٠ متر، والذي تجري فيه المياه ويلقى بها من علو ٢٣٠ متر في معمل أفورار^(٤٢). كما تم اصدار قوانين تهم توزيع المياه بين ذوي الحقوق ومنها: القرار المؤرخ بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٢٦^(٤٣) والخاص بتقنين مياه واد أوريك، بحيث سيتم توزيع مياه ساقية تالفونت التي تأخذ الماء من الضفة اليسرى لواد أوريك في ساقية ساقية تاريت.

(٢/٢) ٦-حماية البيئة

إن حماية الوسط الطبيعي كانت أيضا من اهتمامات الإقامة العامة، فقد قامت بإنشاء منتزهات وطنية للمحافظة على الغابات وتنظيم استغلالها، ومن القوانين التي أصدرتها في هذا الشأن: الظهير الصادر في ١١ شتنبر ١٩٣٤^(٤٤) الخاص بإنشاء المنتزهات الوطنية وضمنه تم منع الكثير من الأنشطة والممارسات البشرية كمنع قطع الأشجار أو فتح خنادق أو إقامة مباني دائمة أو مؤقتة، وكذلك الرعي إلا إذا صدر أمر بذلك من إدارة المياه والغابات، ومنع استغلال المناجم، القنص، الصيد وكذا الرعي داخل المنتزه، إلى جانب القرار الصادر في ١٩ يناير ١٩٤٢^(٤٥) يعلن عن انشاء المنتزه الوطني لتوبقال

الفيضانات في المناطق الجبلية ونتائجها السلبية على الأراضي.

أما على مستوى خلق وإحداث محيطات للأراضي واستغلاليات زراعية نجد: القرار الصادر في ١٨ يناير ١٩٥٢^(٣٣) الخاص بخلق محيط لحماية وإصلاح الأراضي في أراضي جبل حمرا في إقليم وجدة بمساحة تقارب ١٢٠٠ هكتار، والقرار الصادر في ٢٩ نونبر ١٩٥٢^(٣٤) بخلق محيطات لحماية وإصلاح الأراضي في سيدي موسى في حوض واد ايسلي (إقليم وجدة) على مساحة تناهز ٥٤٠٠ هكتار، وفي إقليم مراكش بمساحة ٤٠٠ هكتار، وحوض واد افران (إقليم اكادير) تقريبا بمساحة ١٨٠٠٠ هكتار.

(٢/٢) ٤-قطاع المواصلات

إن أهم ملاحظة يمكن تسجيلها حول هذا المجال محدودية وقلة النصوص التشريعية الصادرة عن سلطات الحماية الفرنسية والتي تهم قطاع المواصلات في المناطق الجبلية، على غرار المناطق السهلية المنبسطة، وهذه القلة توحى بضعف الاهتمام، رغم كون البنيات التحتية والمواصلات ستساعدتها أكثر في توطيد سيطرتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، وتمهد الطريق لتدفق المستوطنين واستقرارهم، وتسهيل سبيل استغلالهم لثروات المغرب المتنوعة، وعلاقة بالنصوص التشريعية فقد أصدرت سلطات الحماية بعض النصوص المتعلقة بتحديد المرور بالطرق الجبلية ومنها القرار الصادر عن المدير العام للأشغال العمومية^(٣٥) يحدد المرور على الطريق رقم ٢٥ من موكادور إلى تارودانت عبر أكادير والقرار الصادر في ٢١ أكتوبر ١٩٣٠^(٣٦) المحدد للمرور على الطريق رقم ٥٠٢ من مراكش إلى دادس عبر تيزي نتيشكا، والطريق رقم ٥٠٦ من تارودانت إلى ورزازات، وعلى الطريق غير المعبدة التي تربط تازناخت باكدز (مزكيطة).

كما اهتمت سلطات الحماية بإخراج قوانين تهم تغيير مسارات واتجاهات الطرق كالقرار الصادر بتاريخ ٣ يونيو ١٩٣٠^(٣٧) بتغيير الطريق رقم ٥٠٢ بين مراكش ودادس إلى قنطرة واد الزات. وبدورها فالقوانين التي اهتمت بخطوط السكك الحديدية بالمناطق الجبلية قليلة

خاتمة

حاولنا من خلال هذه الدراسة تتبع الخطاب الرسمي القانوني للإدارة الاستعمارية الفرنسية في علاقته بالمجال الجبلي للمغرب، وما يمكن قوله أن تدخلات الإقامة الفرنسية ضعيف مقارنة مع باقي المجالات الجغرافية الأخرى، فقد أصدرت الإقامة الفرنسية طوال مدة تواجدها بالمغرب أزيد من ٢٦٥ نصا قانونيا ذات الصلة بالمجال الجبلي، بدء مع ظهور ١٠ أكتوبر ١٩١٧، وهذه النصوص همت قطاعات مختلفة بشكل متفاوت حسب الأهمية والمنفعة، لكن ما يغلب عليها هو تنظيم واستغلال وتقنين الموارد الطبيعية من مياه ومعادن وتربة وغطاء نباتي، وقطاعات أخرى بشكل محدود كالمواصلات والخدمات الاجتماعية، ولم تكن كافية لإخراج هذه المناطق من وضعيتها المتردية. وهذه النصوص القانونية تطرح الكثير من الإشكاليات للباحث الراغب في دراستها ودراسة منجزات الحماية الفرنسية وأثارها بالمغرب، كما تُعدّ بعضها أسس وامتداد للنصوص القانونية المغربية الراهنة، والركيزة الأساس لبنية القانون العصري الوضعي.

(ناحية مراكش)، بمساحة تقدر ب ٣٦ ألف هكتار، والقرار الصادر في ١٤ دجنبر ١٩٤٩^(٤٦) بإنشاء المنتزه الوطني لتازكة (جنوب تازة).

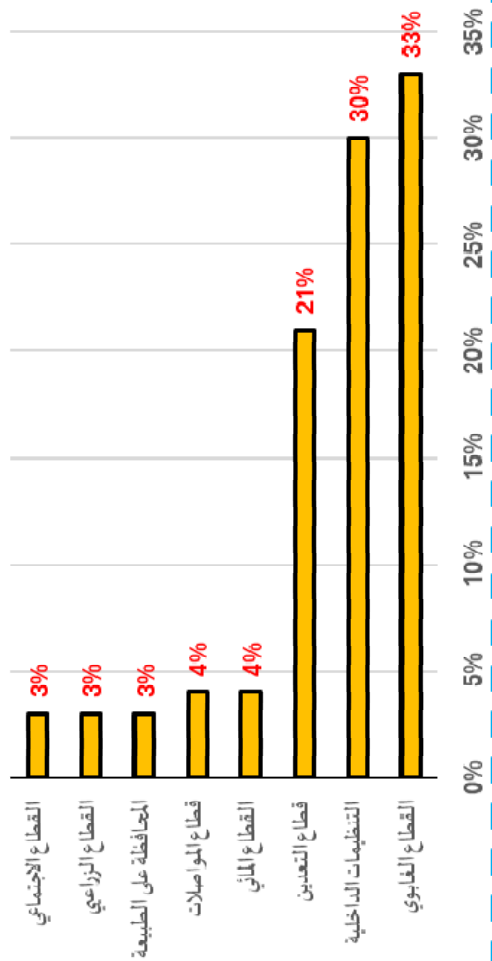
كما عملت الحكومة الفرنسية على تصنيف العديد من الأماكن كمواقع ايكولوجية بيئية، والحث على ضرورة المحافظة على الأنواع النباتية والصخور الموجودة بها ومنها الظهير الصادر في ٢٧ فبراير ١٩٤٣^(٤٧) بتصنيف مضائق دادس موقعا ايكولوجيا مع التأكيد على منع بناء مباني على النمط الأوروبي، والسماح بإقامة خطوط جوية وكهربائية وهاتفية وبريدية، وكذلك الظهير الصادر في ١ مارس ١٩٤٣^(٤٨) والخاص بموقع كتلة بوكافر، وظهير ٨ فبراير ١٩٤٣^(٤٩) الخاص بشلالات اوزود، والقرار الصادر في ١ أكتوبر ١٩٤٨^(٥٠) عن تصنيف منطقة إمي ن إفري (ناحية دمنات) منطقة ايكولوجية.

كما سعت الإدارة الفرنسية إلى تنظيم عدد من القطاعات الأخرى كالقطاع الاجتماعي ببناء مدارس ومستوصفات، إلى جانب مؤسسات تنظيمية إدارية، لكن تبقى محدودة بالمجال المدروس.

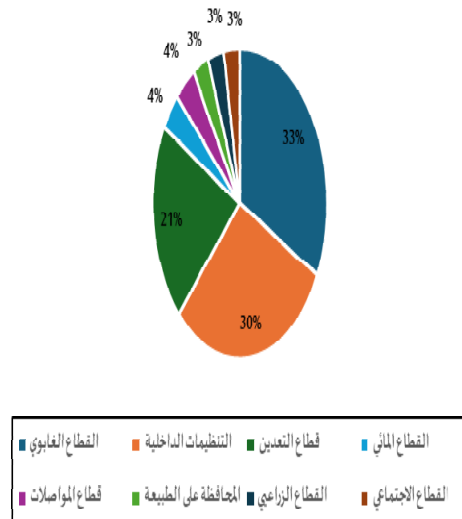
الملاحق

قطاعات التدخل في الجبال المغربية من خلال
الجريدة الرسمية (إعداد الباحث)

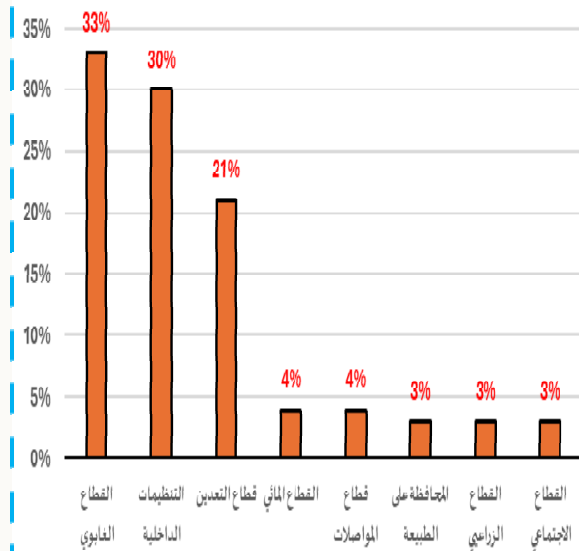
قطاعات التدخل في الجبال المغربية من خلال الجريدة الرسمية



قطاعات التدخل في الجبال المغربية من خلال الجريدة الرسمية



قطاعات التدخل في الجبال المغربية من خلال الجريدة الرسمية



الإحالات المرجعية:

- القبطان كنون سعيد: **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلد زايان، المجال والانسان والتاريخ**، تعريب محمد بوكبوط، منشورات الزمن، سلسلة ضفاف، العدد ١٨، نونبر ٢٠١٤، مطبعة بني ايزناسن - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٤.
- الكريفة عبد الجليل: **تدبير الأخطار ذات المصدر الطبيعي بالمناطق الجبلية، حوض غيغاية نموذجاً**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.
- مجموعة من الباحثين: **التراث في جبال الريف، واقع وآفاق**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة دراسات وأبحاث، رقم ٤٠، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣.
- مجموعة من الباحثين: **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢٢.
- مجموعة من الباحثين: **الجبل الأمازيغي، التاريخ، الثقافة ورهانات التنمية**، منشورات جمعية أجدير خنيفرة إيزوران للثقافة الأمازيغية، ط/ الأولى ٢٠٢٠.
- مجموعة من الباحثين: **المدن الجبلية ورهانات التدبير الترابي**، منشورات الملتقى العلمي الثقافي لمدينة القصيبة، ط/ الأولى ٢٠١٧.
- مجموعة من الباحثين: **جباله مجال وممارسات**، منشورات جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الفينيطرة، مجموعة متعددة الاختصاصات للبحث حول جباله، ط/ الأولى ٢٠١٦.
- مجموعة من الباحثين: **قضايا محلية من التاريخ المغربي**، أعمال مهداة إلى الأستاذ محمد بن لحس، مطبعة ووراقة بلال - فاس، ط/ الأولى ٢٠٢٢.
- مجموعة من المؤلفين: **الريف، التاريخ والمجال والانسان**، مطبعة دار القلم - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢١.
- مراوي الشرقاوي: **الموارد الغابوية وآفاق التنمية المحلية حالة غابة آيت ويرة بأطلس القصيبة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.
- المساوي سفيان: **المنتجات المحلية بالمجالات الجبلية بين تحديات التثمين ورهان المساهمة في التنمية الترابية، حالة حوضي نفيس وغيغاية بالأطلس الكبير الغربي**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٨-٢٠١٩.
- معتكف هشام: **هنتاتة زمن الموحدين، القبيلة والجبل والدولة**، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
- مؤلف مجهول: **الموروث الثقافي القانوني المكتوب بالأطلس الصغير، اللوح المنسوب إلى تامالوكت**، تحقيق عبد العزيز ياسين، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٥.
- ميشو بيلير إدوارد: **صورة جباله في الوعي الكولونيالي الفرنسي، نصوص مختارة من الوثائق المغربية**، ترجمة حنان المدراعي، منشورات باب الحكمة - تطوان، ط/ الأولى ٢٠١٨.
- هارت دافيد مونتجمري: **القانون العرفي الريفي**، ترجمة محمد الولي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الترجمة والتوثيق

- (١) ظلت الجبال المغربية، موضوع اهتمام علماء الأرض والجغرافيين وقلما لفتت أنظار المؤرخين، ويستشف هذا من حجم الأعمال والأبحاث المنجزة حوله ومنها:
- ايت احمو أحمد: **دينامية الوسط الطبيعي وآليات التنمية الترابية بدير الأطلس الكبير: حالة الجماعات الترابية: أمزميز، أمغراس، تركزوست، سيدي بدجاج، وزكيطه**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
- ايت ايشو عبد الله: **الهشاشة الاجتماعية وتأثيرها على المجال الغابوي بعالية حوض نفيس، حالة الجماعات الترابية أغبار، تلت نيعقوب، اجوكاك**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢١-٢٠٢٢.
- مجموعة من المؤلفين: **تنظيم وهيئة المجال الريفي بالمغرب، أبحاث وتحذلات**، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٨٦، ومعهد الدراسات الإفريقية، والمعهد الوطني للتهيئة الحضرية، ط/ الأولى ٢٠١٦.
- حالي كمال: **تدبير الموارد المائية بدير أطلس مراكش بين وادي اغدات ووادي للزمزم الواقع والتحديات**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
- رزقي محمد: **الدينامية الحالية للمجال الغابوي والسفوح بالأطلس الكبير الأوسط، حالة حوض تاكلفت، دراسة بتوظيف نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.
- زويباكا دانييل: **أسير بجبل الشلوح، تعريب وتعليق صالح شكاك**، منشورات مجلة أمل، مطبعة الرباط نت - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦.
- سعدي عبد الله: **دينامية القبيلة بالأطلس الصغير الغربي خلال القرن العشرين، حالة قبائل إسافن**، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير، ٢٠٢١-٢٠٢٢.
- عمراوي محمد: **الطرق والمسالك الجبلية بالأطلس الكبير الشرقي قبل الاستعمار إسهام في دراسة المجال والإنسان**، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
- عودي علي: **المنتزه الوطني لتوبقال من قطاع للحماية البيئية إلى مجال للتنمية الترابية، مقارنة بالموارد الترابية والفاعلين**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.
- الفارسي مولاي لحسن: **الدينامية المجالية لأطلس مراكش حالة حوضي غيغاية وأوريكة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٥-٢٠١٦.
- فنيك عبد الواحد: **إشكالية تدبير الموارد المائية والتنمية المحلية بدير أطلس بني ملال**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٦-٢٠١٧.

- بالسفوح الجنوبية لأطلس الكبير الأوسط، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٢-٢٠٢٣.
- الحجري فاطمة: **المدن المندرسية بالأطلس الكبير الموقع والطوبونيميا**، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٣-٢٠٢٢.
 - أعيار فاضمة: **حلفي تكوزالت وتاحكات والمخزن خلال القرن التاسع عشر ميلادي**، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٢-٢٠٢٣.
 - عزاب زكرياء: **قصة القايد أوبلا أزروال بمنطقة الشياظمة: دراسة تاريخية وأركيولوجية ومعمارية**، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٢-٢٠٢٣.
 - الراشدي فاطمة الزهراء: **الولاية والصلاح بالأطلس الكبير من القرن الخامس الهجري إلى القرن التاسع الهجري**، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٢-٢٠٢٣.
 - بنساسني لبنى: **الجبل من خلال كتب الرحلة دراسة حالة القرن ١٦م والقرن ١٨م**، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٢-٢٠٢٣.
- (٣) كان للبعثة العلمية التي سبقت الغزو الفرنسي للمغرب أهداف، تتمثل في التعرف على المجال المغربي من مختلف جوانبه الطبيعية والبشرية والثقافية، وقد ارتكزت تلك الأبحاث أكثر على المجتمعات القبلية ذات الأصل الأمازيغي وهذا ما يستشف من مجموعة من الأبحاث ذات الصلة بها ومنها:
- Eugène Aubin : **Le Maroc d'aujourd'hui**, Ed, Armand Colin - Paris 1904.
 - Montagne Robert : **Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, Essai sue la transformation politique des Berbères sédentaires**, Ed, Librairie Félix Alcan - Paris 1930.
 - Douuté Edmond : **Marrakech, Gouvernement général de L'Algérie**, Ed, Comité du Maroc - Paris, 1905.
 - Piquet Victor : **La colonisation Française de L'Afrique du Nord : L'Algérie - Tunisie – Maroc**, Ed, Librairie Armand Colin – Paris 1914.
 - Piquet Victor : **Le Peuple Marocain le bloc Berbère**, Ed, Librairie Emile Larose - Paris 1925.
 - Aspinion Robert : **Contribution à l'étude du droit coutumier Berbère marocain, Etude sur les coutumes des tribus Zayanes**, Ed, MOYNIER - Fès, 1937.
 - Brives Abel : **Voyages au Maroc 1901-1907**, Ed, A, Jourdan- Alger, 1909.
- (٤) عن تنوع الأسماء المعبرة عن العرف مجاليًا، راجع:
- بنكرعي حليمة: **تحديد بعض المفاهيم المتصلة بالعرف**، ضمن أعمال ندوة، **الأعراف بالبادية المغربية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- القنيطرة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٤، ص ٥٠ - ١٠٠.

والنشر والاتصال، سلسلة الترجمة، رقم ٣، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٤.

- وشالة ميلود: **الدينامية المجالية وتدبير الأخطار ذات المصدر الطبيعي بالمناطق الجبلية، حالة حوضي أوركا وغيفاية (الأطلس الكبير الغربي)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
 - Lecompte Michel : **Biogéographie de la Montagne Marocaine, Le Moyen-Atlas central**, éd, Centre National de la Recherche Scientifique - Paris 1986.
 - Timilt Soufiane: **Capacités de création des petites entreprises touristiques autour de la valorisation des ressources territoriales spécifiques dans les vallées de Ghyghaya, L'Ourika et Ait Bouguemmez**, Mémoire pour l'obtention d'une maîtrise en géographie, Université Cadi Ayad, Faculté des Lettres et Sciences Humanines, Saison ٢٠١٩-٢٠٢٠.
- وعن هذا الموضوع ومدى استئثار الجبل في أبحاث الجغرافيين أنظر:
- الإدريسي الفقيه: **مساهمة البحث الجامعي في دراسة تاريخ الأطلس المركزي، حصيلة وأفاق**، ضمن أعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٥٣-٨٠.
 - أوعسو خالد: **مغرب الجبال في الحاجة إلى المصالحة**، ضمن أعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٣٣١-٣٤٦.
 - بوبكراوي الحسن، المباركي حسن: **تطور الخطاب العلمي عن أطلس مراكش**، ضمن أعمال ندوة، **المجالات الجبلية والتنمية المستدامة، نموذج أطلس مراكش**، مجموعة البحث حول التدبير الجهوي والتنمية السياحية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- مراكش، سلسلة دراسات مجالية، عدد ٣ دجنبر ٢٠٠٨، ص ١٤-٢١.
 - جمال عبد اللطيف، الغازي العثماني: **الجبل المغربي في البحث الجغرافي**، ضمن أعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٩٧-١١٢.
 - جنان لحسن: **الجغرافيا القروية من المقاربة الكلاسيكية إلى النظرة المعاصرة**، منشورات مؤسسة مقاربات - فاس، ط/ الثانية ٢٠٢١.
 - Chouiki Mustapha : **La Recherche Géographique au Maroc, entre la recherche de l'identité à la recherche de l'unité**, Revue Cahiers géographiques, N° 07, Année 2010, pp : 02-17.
- (٢) من الأعمال المنجزة ضمن وحدة تكوين الماستر في موضوع الجبل في تاريخ المغرب بجامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش نجد:
- قابوش هاجر: **المجال الجبلي وبناء الدولة المغربية في العصر الوسيط الدولة الموحدية (١١٤١-١١٤٦م)**، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٠-٢٠٢١.
 - معتكف هشام: **هتاتة زمن الموحدين القبيلة والجبل والدولة**، رسالة لنيل شهادة الماستر في شعبة التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ٢٠٢٠-٢٠٢١.
 - أيت اوشن نورالدين: **علاقة الزاوية بالقبيلة والمخزن ما بين القرن ١٩ ومنتصف ق ٢٠ من خلال وثائق محلية**، حالة زاوية مولاي عبد المالك

- هراج نعيمة: **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان الحسن الأول**، منشورات جامعة محمد الخامس - الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ٦٨، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الثانية ٢٠١٣.
- مكوار الخمار: **الصراع الألماني - الفرنسي حول المغرب ١٨٧٠-١٩١٢**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة أوكوم - القنيطرة، ط/ الأولى ٢٠٢٠.
- Norbert Allainmat: **Me Maroc au début du XX(e) Siècle sous le règne du Sultan Moulay Abd El Hafid 1908-1912**, Ed : Patrimones - Casablanca, 2017.
- (٧) سنت الدولة الفرنسية بقيادة الرئيس اليميني "جاك شيراك"، في الثالث والعشرين من شهر فبراير سنة ٢٠٠٥، قانونا يعبر عن اعتراف الأمة الفرنسية بالجميل لكل الرجال والنساء الذين أسهموا في تكريس "الحضور الفرنسي الحضاري" سواء في شمال أفريقيا أو في الهند - الصينية، أو غيرها من مناطق ما وراء البحار. صالح بالحاج سلوى: **الفاعل السياسي والتاريخ بين السلبية والإيجابية**، ضمن كتاب: **التاريخ والسياسة، مقاربات وقضايا**، منشورات مختبر المغرب والعالم الغربية، مطبعة Force Equipement - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣، ص ٦٤-٦٦.
- باسكون بول: **إعادة النظر في دراسة الاستعمار**، ضمن كتاب: **بول باسكون أو علم الاجتماع القروي**، مطبعة دار القرويين - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣، ص: ١٣١ - ١٤٠.
- وعن سياسية فرنسا للاستعمارية بالمغرب، راجع:
 - مجموعة من المؤلفين: **الحماية، المفاهيم والإشكاليات القانونية**، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦.
 - لمكي الناصري محمد: **فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى**، ط/ الثانية، مطبعة بابل - القاهرة، ١٩٣٤.
 - بودرة عبد العزيز: **القضاء العرفي بالمغرب خلال فترة الحماية الفرنسية ١٩١٢-١٩٥٦**، ط/ الأولى، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة أوكوم - القنيطرة، ٢٠٢١.
 - الدقاق لحبيب: **مدخل لدراسة العلوم القانونية**، ط/ الأولى، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، الرباط - أكدال، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ٢٠١٥.
 - بارون بيير: **تطويع الأهالي زمن الاستعمار الفرنسي مغرب ١٩٣٩-١٩١٢**، ترجمة عبد الرزاق لكريط، مطبعة بلال - فاس، ٢٠١٦.
 - دوكلأس أشفور: **التطورات السياسية في المملكة المغربية**، ترجمة عائدة سليمان عارف، وأحمد مصطفى أبو حاكم، دار الكتاب البيضاء، ١٩٦٣.
 - شعاعبي رضوان: **صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين ١٩١٢-١٩٥٦**، ط/ الأولى، مطابع الرباط نت- الرباط، ٢٠١٦.
 - لكريط عبد الرزاق: **مؤسسة الحماية الفرنسية مخاض الأفل ١٩٣٥-١٩٤٥**، ط/ الأولى، مطبعة أنفوبرانت - فاس، ٢٠١٤.
 - المريني عبد الحق: **محطات في تاريخ المغرب المعاصر ١٨٩٤-١٩٥٦**، ط/ الأولى، منشورات الزمن سلسلة قضايا تاريخية عدد ١٣ السنة، ٢٠١٢.
 - وليام هويسنطن: **الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوكيس ١٩٤٣-١٩٣٦**، ترجمة إبراهيم بوطالب، منشورات جامعة محمد الخامس، جامعة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، ٢٠٠٢.

- العثماني امحمد: **ألواح جزولة والتشريع الإسلامي، دراسة لأعراف قبائل سوس في ضوء التشريع الإسلامي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط/ الأولى ٢٠٠٤، ص ١٠١.
- حنداين محمد: **العرف والمجتمع السوسي (قراءة في إحدى قبائل سوس) ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م**، ضمن ندوة الأعراف بالبادية المغربية، ط/ الأولى، جامعة ابن طفيل القنيطرة، مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية، مكتبة دار السلام - الرباط، ٢٠٠٤.
- رشيد الحسين: **العلاقات الاجتماعية في المجال الأمازيغي بين العرف والقانون**، ط/ الأولى، مطابع امبريال - أكادير، ٢٠٠٤.
- لكريط عبد الرزاق: **الإثنولوجيا والعرف والدين، الثابت والمتحول في الخصائص المجتمعية لقبائل حوض ملوية الوسطى**، منشورات دار النماء الحديثة، ط/ الأولى ٢٠١٨.
- بالحاج ناصر: **القوانين والنظم العرفية المكتوبة لدى مجتمع وادي مزاب**، مجلة أسيناك، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، العدد ١٦، السنة ٢٠٢١، ص ٦٣-٧٤.
- مجموعة من الباحثين: **التراث في جبال الريف، واقع وآفاق**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة دراسات وأبحاث، رقم ٤٠، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣.
- مؤلف مجهول: **الموروث الثقافي القانوني المكتوب بالأطلس الصغير، اللوح المنسوب إلى تامالوكت**، تحقيق عبد العزيز ياسين، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٥.
- مجموعة من الباحثين: **جباله مجال وممارسات**، منشورات جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة، مجموعة متعددة الاختصاصات للبحث حول جباله، ط/ الأولى ٢٠١٦.
- هارت دافيد مونتجيري: **القانون العرفي الريفي**، ترجمة محمد الولي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الترجمة والتوثيق والنشر والاتصال، سلسلة الترجمة، رقم ٣٠، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٤.
- آيت عدي مبارك: **العرف والتاريخ المحلي ملامح من تاريخ ساكنة جبال باني، ضمن أعمال ندوة، الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٢٥٣-٢٦٨.
- (ه) إذ الفقيه أحمد: **النظام العرفي المتبع في توزيع مياه إيمي ن واسيف المال**، ضمن كتاب: **نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي**، شرعا وعرفا وتشريعا، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٢، ص ٢٣٧.
- (٦) **للاستفاضة أكثر في موضوع احتلال المغرب يمكن العودة إلى الدراسات والأعمال الآتية:**
 - الخديمي علل: **الحركة الحفيفية أو المغرب قبيل فرض الحماية الفرنسية، الوضعية الداخلية وتحديات العلاقات الخارجية ١٨٩٤-١٩١٢**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٩.
 - المخلوفي محمد الصغير: **انتظار المغرب الأقصى بيد ثوراه دواعي الإصلاح والتنظيم**، مذكره الحوي نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين، مطبعة المعارف الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الثانية ١٩٩٥.
 - فيبر غابرييل: **في حصة سلطان المغرب (١٩٠١-١٩٠٥)**، ترجمة وتقديم عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، ط/ الأولى ٢٠٠٩.
 - مجموعة من المؤلفين: **حرب تطوان (١٨٥٩-١٨٦٠)**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٠.

(١٤) اهضير عزيزة: التشريعات المائية الصادرة بالجريدة الرسمية ما بين ١٩١٢-١٩٢٥، م/س، ص ٨٨.

• بيضا جلمع: **الجريدة الرسمية بالمغرب**، معلمة المغرب، ج/٩، م/س، ص ٢٩٧-٢٩٧٢.

- (١٥) **الجريدة الرسمية**، العدد ٢٦٢، بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩١٧.
- (١٦) **الجريدة الرسمية**، العدد ٣١٢، بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩١٨.
- (١٧) **الجريدة الرسمية**، العدد ٨٢، بتاريخ ١ يونيو ١٩٣١.
- (١٨) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٥١، بتاريخ ١٦ غشت ١٩٤٠.
- (١٩) **الجريدة الرسمية**، العدد ٢٢٧٨، بتاريخ ٢٩ ماي ١٩٥٦.
- (٢٠) **الجريدة الرسمية**، العدد ٥٤٨، بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩٢٣.
- (٢١) **الجريدة الرسمية**، العدد ٨١٥، بتاريخ ٥ يونيو ١٩٢٨.
- (٢٢) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٣٧٨، بتاريخ ٢٤ مارس ١٩٣٩.
- (٢٣) **الجريدة الرسمية**، العدد ٤٤٣، بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٢٣.
- (٢٤) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٧٥٤، بتاريخ ٧ يونيو ١٩٤٦.
- (٢٥) **الجريدة الرسمية**، العدد ٤٣٢، بتاريخ ١٥ يناير ١٩٢١.
- (٢٦) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٧٩٣، بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٤٧.
- (٢٧) **الجريدة الرسمية**، العدد ٧٥٨، بتاريخ ٣ ماي ١٩٢٧.
- (٢٨) **الجريدة الرسمية**، العدد ٨٧٣، بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٢٩.
- (٢٩) **الجريدة الرسمية**، العدد ٢٠١٥، بتاريخ ٨ يونيو ١٩٥١.
- (٣٠) **الجريدة الرسمية**، العدد ٦٦، بتاريخ ٣ يناير ١٩١٤.
- (٣١) **الجريدة الرسمية**، العدد ٥٧، بتاريخ ٢٥ شتنبر ١٩٢٣.
- (٣٢) **الجريدة الرسمية**، العدد ٢٠٩، بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩٥١.
- (٣٣) **الجريدة الرسمية**، العدد ٤٧، بتاريخ ١٨ يناير ١٩٥٢.
- (٣٤) **الجريدة الرسمية**، العدد ٢٠٩٢، بتاريخ ٢٨ نونبر ١٩٥٢.
- (٣٥) **الجريدة الرسمية**، العدد ٦٢٤، بتاريخ ٧ أكتوبر ١٩٢٤.
- (٣٦) **الجريدة الرسمية**، العدد ٩٤، بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٣٠.
- (٣٧) **الجريدة الرسمية**، العدد ٩٢٥، بتاريخ ١٨ يوليوز ١٩٣٠.
- (٣٨) **الجريدة الرسمية**، العدد ٦٤٣، بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٢٥.

(٣٩) اهضير عزيزة: التشريعات المائية الصادرة بالجريدة الرسمية ما بين ١٩١٢-١٩٢٥، م/س، ص ٣١-٤٣.

(٤٠) محمد خير الدين فارس: **تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب ١٩١٢-١٩٣٩**، دار المقتبس - دمشق ط/الأولى، ١٩٧٢، ص ٣٥٦.

(٤١) **الجريدة الرسمية**، العدد ٧٨٠، بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩٢٧.

(٤٢) البير عياش: **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، دار الخطابي - الدار البيضاء، ط/الأولى ١٩٨٥، ص ١٥٦.

- (٤٣) **الجريدة الرسمية**، العدد ٦٩٥، بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٢٦.
- (٤٤) **الجريدة الرسمية**، العدد ١١٤٨، بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٣٤.
- (٤٥) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٥٢٩، بتاريخ ١٣ فبراير ١٩٤٢.
- (٤٦) **الجريدة الرسمية**، العدد ٢٦٢، بتاريخ ١٤ دجنبر ١٩٤٩.
- (٤٧) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٥٨٨، بتاريخ ٢ أبريل ١٩٤٣.
- (٤٨) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٥٨٨، بتاريخ ٢ أبريل ١٩٤٣.
- (٤٩) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٥٨٤، بتاريخ ٥ مارس ١٩٤٣.
- (٥٠) **الجريدة الرسمية**، العدد ١٨٧٥، بتاريخ ١ أكتوبر ١٩٤٨.

• الطاهري عبد العزيز: **التاريخ والذاكرة، المغرب خلال الفترة الاستعمارية ١٩١٢-١٩٥٦**، ط/الأولى، دار أبي رقراق - الرباط ٢٠١٦.

• ياسين إبراهيم: **التحولات في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالأطلس الكبير على عهد الحماية**، مجلة أمل عدد ٥، السنة ١٨، ص ٦٣-٦٤.

• بوعسيرة بوشنة: **التنظيم الإداري في عهد الحماية الفرنسية بمنطقة زرهون ١٩١١-١٩٣٩**، ضمن كتاب، دراسات تاريخية مهداة للفقيه جرمان عياش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، العدد ٣٢، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط/الأولى ١٩٩٤، ص ٢٣٩-٢٤٠.

• Berque Jacques: **Le Maghreb entre deux guerres**, éd. Seuil - Paris, 1962.

• Berque Jacques: **Structures sociales du Haut-Atlas**, collection sociologie d'aujourd'hui, Presse Universitaires de France, Paris, 3(ème) éd, 1978.

• Oved Georges : **la gauche française et le nationalisme marocain, 1905- 1955**, 2T, éd, harmattan - Paris 1984.

• Pascon Paul : **Le Haouz de Marrakech**, 2T, éd, Marocains internationales- Tanger, 1983.

• Rezette Robert : **Les partis politiques Marocains fondations nationales des sciences politiques**, préface Duverger Maurice, Cahiers de la Fondation nationale des Sciences politiques, éd, Colin - Paris, 1955.

• Rivet Daniel : **Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc 1912-1925**, 3Vol, éd, Harmattan, Histoire et perspectives méditerranéennes, Paris, 1996.

• Montagne Robert : **Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires, groupe chleuh, Librairie Felix Alcan - Paris, 1930.

• Roger le Tourneau: **Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane 1920-1961**. Armand Colin 1962.

(٨) **عرف العهد العزيمي والحفيظي محاولات من أجل تأسيس جريدة رسمية خاصة بالمخزن المغربي**، راجع بيضا جلمع: **الجريدة الرسمية بالمغرب**، معلمة المغرب، ج/٩، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ط/الأولى ١٩٩٥، ص ٢٩٧.

(٩) **نفسه**: ص 2970.

(١٠) بوطالب إبراهيم: **ليوطي هوبير**، معلمة المغرب، ج/٢٠، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ط/الأولى ٢٠٠٤، ص ٦٩١٧.

(١١) **نفسه**: ص ٦٩١٧.

(١٢) اهضير عزيزة: **التشريعات المائية الصادرة بالجريدة الرسمية ما بين ١٩١٢-١٩٢٥**، رسالة لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، الموسم الجامعي ١٢-٢٠١٣، ص ٢٨.

• بيضا جلمع: **الجريدة الرسمية بالمغرب**، معلمة المغرب، ج/٩، م/س، ص ٢٩٧٢.

(١٣) اهضير عزيزة: **التشريعات المائية الصادرة بالجريدة الرسمية ما بين ١٩١٢-١٩٢٥**، م/س، ص ٢٨.

• بيضا جلمع: **الجريدة الرسمية بالمغرب**، معلمة المغرب، ج/٩، م/س، ص ٢٩٧٢.

معادن مناجم الريف بشمال المغرب المنافسة الأوربية والاستغلال الاستعماري الإسباني

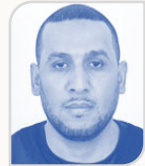
مراد التعريتي

أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



عبد الرحيم الوسيدي

أستاذ التعليم العتيق وباحث في سلك الدكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



ملخص

يعالج المقال الراهن جانب من المنافسة والاستغلال الاستعماري الأوربي لمعادن مناجم الريف خلال البدايات الأولى للقرن الماضي، وتتناول بشيء من التحليل صيغ نهب معدن الحديد الذي تم تصديره بالكامل إلى أسواق الصناعة الأوربية. في البداية كان من بين الأشياء التي عرفها الأوربيون منذ ما قبل الاستعمار واحتفظوا بها لأنفسهم هي الثروة المعدنية الهائلة التي تتوفر عليها منطقة الريف بشمال المغرب. ومع نهاية القرن التاسع عشر حاولوا التأكيد منها وإبرازها على وجه التحديد. وقد أشار الرحالة الفرنسي مولييراس (Moulièras) في مؤلفه المشهور المغرب المجهول المتكون من جزأين الأول اكتشاف الريف، والثاني اكتشاف جباله، إلى اعتبار أن الريف كالبيرو أو "الإلدورادو الجديد"، وتحدث عن تلك الثروات في غالبيتها. ومما ساعد الأوربيين في الوصول إلى معادن الريف خلال بدايات القرن العشرين مدينة مليبية المحاذية للمنطقة، واستغلال أيضا تأزم أوضاع المغرب الداخلية نتيجة التمردات على السلطة الحاكمة، تمرد الجيلالي الزرهوني في نفس المنطقة وتمرد مولاي أحمد الريسوني بالجهة الغربية للمنطقة ذاتها. وفي السياق نفسه، عرف المغرب منافسة حادة من طرف القوى الأوربية الطامعة في استغلال خيراته لا سيما من طرف فرنسا وألمانيا وإسبانيا. وفي أعقاب التفاهم حول مسألة المغرب من طرق القوى المتنافسة، قامت إسبانيا بغزو المنطقة وتأسيس شركات للشروع في الاستغلال جبل "أو كسان" الذي يقع بمجال قبيلة آيت بوفزور الغنية بالحديد، والرصاص، والزنك، والمنغنيز. وقد لعبت الأوليغارشية المالية الإسبانية دوراً كبيراً في تمويل الشركات بسبب العجز الواضح الذي طرأ في رصيد ميزانية الحكومة الإسبانية.

كلمات مفتاحية:

المعادن؛ مناجم الريف؛ الاستغلال الاستعماري؛ الأوليغارشية؛ الشركات
الإسبانية؛ التنافس الأوربي؛ شمال المغرب

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ مارس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.453907

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحيم الوسيدي، مراد التعريتي. "معادن مناجم الريف بشمال المغرب: المنافسة الأوربية والاستغلال الاستعماري الإسباني". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الحادي والسبعون؛ سبتمبر ٢٠٢٥. ص ١٨٣ - ١٩١.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: abderrahim261116@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُورِيَّة كان ٤.٠ Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

ذكرهما، تعملان على إقامة خط حديدي يربط مناجم آيت بوفزورر بمليبية في رعاية الجيلالي الزرهوني وتحت حمايته^(٢). وما شجع الزرهوني الملقب بـ "بوحمارة" على مساعدة الإسبان، هو استغلاله تأييد الريفيين له ضد السلطان عبد العزيز منذ سنة ١٩٠٣ لأنهم اعتبروا هذا الأخير مسؤولاً عن التغلغل الأجنبي في المغرب وعن المآسي والمصائب التي عمت البلاد. ولكن حينما أقدم علماء المغرب عزل السلطان عبد العزيز وبايعوا شقيقه المولى عبد الحفيظ ١٩٠٨ خلفاً له، بدأت المقاومة الوطنية تنمو في الريف ضد الجيلالي الزرهوني باعتباره ثائراً على السلطان وصديقاً للإسبان وحامياً لمصالحهم في الريف^(٣). وفي المنطقة الغربية أصبح مولاي أحمد الريسوني^(٤) يسيطر بقبضة من حديد على معظم قبائل هذه المنطقة من واد لاو شرقاً نحو شفشاون إلى الغرب من أصيلا ومصب وادي لكوس. وكان من أنصار السلطان مولاي عبد الحفيظ ومن أوائل مؤيديه^(٥).

يعزى العمل الاستعماري الجديد في المغرب إلى التصعيد العسكري الذي ميز التوسع العسكري الإسباني خلال الفترة ما بين ١٩٠٧ - ١٩٢١، والذي كان له تداعيات مهمة على مشروع الصناعة المرتبطة أساساً باستخراج المعادن من شمال المغرب. في هذه الفترة التي خرجت فيها إسبانيا لاستغلال معادن شمال المغرب، كانت الأوليغارشية المالية تلح كثيراً على استغلال مناجم الريف، لا سيما وأن المنطقة الجغرافية قريبة من إسبانيا، وبالتالي فلا ينبغي للمنافسين الأوروبيين استغلال مناجم الريف، ففي نظرهم كل الحقوق الاستعمارية تعود لإسبانيا. جاء هذا اللاحاح من طرف الأوليغارشية الإسبانية، بعد العجز السلبي الحاصل في رصيد الميزانية الإسبانية منذ عام ١٩٠٩^(٦).

تم رصد واكتشاف معادن الريف منذ نهاية القرن التاسع عشر من قبل الأوروبيين المقيمين في المغرب. فقد تمكن الألمان والفرنسيون من خلال نشاطهم الاستكشافي بحثاً عن ضمانات الاستغلال الفوري للمعادن الثقيلة اكتشاف مجموعة من المعادن، كالحديد والرصاص والزنك... وتحول المغرب إلى مختبر مفتوح، فبات موضوع منافسة مجموعة من المنقبين للسبق في

من بين العوامل التي حركت الاحتلال الأوروبي للمغرب خلال بدايات القرن العشرين، هو استغلال الموارد الطبيعية المعدنية والحصول على الامتيازات التجارية والاقتصادية. في شمال المغرب بدأ الاحتلال الإسباني مبدئياً بعد التوقيع على الاتفاق السري مع فرنسا في أكتوبر ١٩٠٤. ومن أجل الاختراق والتوسع داخل المنطقة، استغلت إسبانيا بعض الاضطرابات والمشاكل الداخلية التي كانت تقلق المغرب وتزيد في تأزم أوضاعه السياسية كتمرد الجيلالي الزرهوني في الجهة الشرقية، وتمرد مولاي أحمد الريسوني في الجهة الغربية من منطقة الريف. ولم تجد إسبانيا صعوبة في إقامة علاقات سلمية وودية معها لا سيما الجيلالي الزرهوني باعتباره سيد الريف وحاكمه المطلق. ومن أجل الحصول على الدعم المادي من إسبانيا، قام الجيلالي الزرهوني تفويت حق استغلال مناجم الحديد بجبل أو كسان للشركة الإسبانية خلال سنة ١٩٠٧. الشيء الذي شجع الحكومة الإسبانية اللجوء إلى احتلال المناطق التي تتركز فيها المناجم المعدنية وبالأخص في الريف الشرقي. في المنطقة الغربية استطاعت إسبانيا أن تحتل العرائش وأصيلا والشريط الساحلي الممتد بينهما، وكذلك القصر الكبير ومناطق أخرى ساحلية مجاورة لسبتة وتطوان، وذلك بمساعدة مولاي أحمد الريسوني الذي أدخل الإسبان إلى المنطقة الغربية من الريف ما بين سنتي ١٩١١ و ١٩١٩.

أولاً: أطماع استغلال مناجم الريف قبل معاهدة الحماية

ولدعم إسبانيا، أعطى الجيلالي الزرهوني^(١)* خلال سنة ١٩٠٧ حق استغلال مناجم الحديد والرصاص في المنطقة التي يسيطر عليها للشركات الإسبانية، وسمحت التنازلات التي أعطيت للشركات الإسبانية ببناء خطوط السكك الحديدية، ومنشآت تليفونية، وكل ما يتعلق بالأعمال المنجمية، وقد امتدت أعمال الشركات الإسبانية لا سيما "شركة شمال إفريقيا" و"الشركة الإسبانية لمناجم الريف" لمسافة تزيد عن ١٦ كلم، وبعد ذلك مباشرة بدأت الشركتان الإسبانيان السالف

بالمبادرات المقدمة من طرف خبراء اتحاد التعدين بكل حماس، إلا أنه جعل تنفيذها مرهونا بقرار السلطة السياسية^(١١). وفي دجنبر ١٩٠٣، تأسس اتحاد عمال المناجم وشركة شنايدر المكلفة بتدوين المعادن الصلبة في مدينة طنجة. وبهذه الطريقة نجحت نخب السلطة السياسية والأوليغارشية المالية في التعاون بين مصالحها. ومن ثم حصل التقارب نحو أقصى غرب شمال إفريقيا، المجال الحيوي المفضل لفرنسا العازمة على تأكيد طموحاتها الاستعمارية في جميع أنحاء المغرب العربي^(١٢).

وعلى أرض الواقع احتدم الصراع بين ثلاث مجموعات أوروبية احتكارية:

١- مجموعة الإخوة مانسمان (Les Frères Mannesmann)، حملت هذه المجموعة أفكار ومشاريع واعدة وإستراتيجية مسطرة، ولكن أعوزتها الرساميل وروح المبادرة والتفعيل، ويكمن مصدر قوة المجموعة في قدرتها على استغلال معيقات خصومها، وعقدتها لتحالفات متنوعة أكسبتها تأييد الدوائر السياسية^(١٣). من الناحية القانونية استوحى مشروع الإخوة مانسمان من النموذج البروسي الألماني، وبالتالي ناشدا الإخوة مانسمان السياسة المحلية أو أولئك الذين يطالبون بنظام الحرية الاقتصادية (التجارية والصناعية) القائم على سياسة الباب المفتوح التي تجسدت في روح نص قانون الجزيرة الخضراء إلى تطبيقها قصد الشروع في استخراج المعادن، لا سيما وأن المرحلة اشدت فيها الصراعات الدبلوماسية بين القوى المتنافسة^(١٤). وفي ذات السياق، هاجم مؤتمر الجزيرة الخضراء مسألة التعدين التي أصبحت القضية الأساس للتنافس الأوروبي بالمغرب.

٢- مجموعة فيغوروا (Figueroa)، وتطابقت مصالحها في شمال المغرب وأهداف السياسة الإسبانية، فتم الاتفاق على استعمال كل ما أوتي من وسائل من أجل الحيلولة دون تسرب رؤوس أموال غير إسبانية ومنعها من الاستثمار في المنطقة. ووجدت المجموعة كامل الدعم من الدوائر العسكرية وأوساط الأفريقانيين^(١٥).

٣- اتحاد المناجم المغربية (Union des Mines Marocaines)، وهو ائتلاف دولي للدراسات والأبحاث

تهيئة الملفات الموجهة إلى أصحاب المصالح الذين بدورهم دخلوا على الخط للضغط على حكوماتهم حتى تحول إلى مكاسب موثق لها وموثوق بها^(١٦). وقاموا بتحريات ميدانية بها، على وجود مواقع منجمية في الريف خاصة في جزأيه الشرقي والأوسط: جبل الحمام وآيت سعيد، وآيت بويفرور، وآيت بويحيي... وقد أشار هنري دو لا مارتينيير سنة ١٨٩٤ إلى وجود منجم كبير نسبيا في مجال آيت بويفرور ويتعلق الأمر بمنجم للرصاص والانتومون وأخرى غير مستغلة للحديد في أو كسان^(١٨) وبالغنى الطبيعي الذي تتوفر عليه جغرافية المغرب وتوزع الثروة التعدينية على كامل المساحة الإقليمية، دخل الأوروبيون في منافسة للحصول امتيازات الاستغلال. وبعد الحماية الفرنسية الإسبانية سنة ١٩١٢ وتقاسم مناطق الاستعمار بينهما في المغرب. شرعت إسبانيا التي ترى في منطقة شمال المغرب المنطقة التي تحتوي على رواسب سخية من الحديد، وعلى رواسب من معدن الرصاص ومعدن الزنك والمنغنيز، في السيطرة عليها قصد استغلالها^(١٩).

وفعلًا زار المنطقة الشرقية عارفون بالشأن المنجمي، أحدهم هو لويس أنطوان ذيل أولميت (Luis Anton del Olmert)، عاين سنتي ١٩١٥-١٩١٦ موقع آيت بويفرور، وخلص إلى أنه " لا يتعلق الأمر بمنجم، وإنما بجبال معدنية بالكامل، جبال ضخمة ومفعمة بالحديد ليس من اللازم الحفر ولا التنقيب عنها، يكفي فقط ملئ العربات. إن سطح الأرض معادن، والسفوح كذلك، والقمة وكل الجوانب تنبض معان. يخيّل لناظر أن بركانا قذف لمدة قرن بالحديد ومستخلصاته. نحن فعلا أمام مشهد خارق وأسطوري بشكل لا متناه"^(٢٠).

ثانياً: الاهتمام الفرنسي والألماني

وفي قلب الاهتمام القوى الأوروبية، قام اتحاد التعدين الفرنسي بقيادة شنايدر Schneider، وشاسيلوب Chasseloup، ودي فوغ De Vogue، وغيرهم من خبراء علم المعادن بالضغط على وزارة الخارجية كي دورساي منذ سنة ١٩٠٢ من أجل مهاجمة المغرب المتصدع بالأزمات والحصول على تراخيص التنقيب في مناطقه. وعلى الرغم من ترحيب ديلكاسي Delcassé

ذاته، عرفت الأراضي الغربية ناحية غمارة للتقيب المكثف في مجال التعدين، لا سيما أثناء الحملة العسكرية للمارشال بيتان ١٩٢٥ - ١٩٢٦، وتم اكتشاف معدن الأنثيموان^(٢٠) والمنغنيز وكذلك الحديد والرصاص في رواسبها، على الرغم من أن استغلالها لم ين مكثفا أو مريحا على الإطلاق.

ومنذ أن حصل اليقين عند رجال الأعمال والصناعة والتجارة الإسبان، في مليلية ومدير، بأن أرض الريف تزخر حقا بالحديد، دخلوا في مفاوضات مع السلطة القائمة في المنطقة، وكانت حينئذ في يد الثائر الجيلاي الزرهوني الذي تلقبه الأدبيات المخزنية بـ "بوحماره" أو "الروكي". وأثمرت المفاوضات تفويت "بوحماره" سنة ١٩٠٧ لحقوق الاستغلال مقابل خمسة ملايين بسيطة. وفي السنة نفسها، تشكل الائتلاف الإسباني لمناجم الريف من أربع مجموعات اقتصادية كبرى، تمثل كل واحدة شخصية نافذة داخل الأوساط السياسية والعسكرية والاقتصادية^(٢١). وكان خام الحديد من المناجم المغربية مرغوبا فيه من طرف الإسبان والفرنسيين على حد سواء، وليس بسبب وفرة أو بسبب الظروف السهلة التي يوفرها لاستخراجه، ولكن بسبب قيمته والكمية المستخرجة، حيث وصل في بعض الرواسب إلى متوسط يصل إلى أكثر من ٦٣ % في منطقة اكسان على وجه التحديد^(٢٢).

وعلى إثر الثروة التعدينية الهائلة التي تزخر بها المنطقة الشرقية للريف بالمغرب، والاستغلال على نحو كبير من طرف إسبانيا وفرنسا، دخلت أطراف أخرى من أجل الحصول على حقها من رواسب التعدين، وأكثر الدول التي تدخلت هي تلك الموقعة على قانون الجزيرة الخضراء ١٩٠٦.

في المغرب كانت المصالح الفرنسية طغت بشكل لافت، مما ترتب عنه احتدام صراع في المصالح التجارية بين مستشاري باريس وبرلين وامتد الصراع فيما يتعلق بالقضية المغربية ككل. في هذا الإطار، قدمت شركة الاخوة مانسمان في ٧ دجنبر ١٩١٠ مشروع بشأن امتيازات التعدين والاستغلال. غير أن باريس أعاقته بدافع أن التعقيدات الدولية بخصوص مسألة المغرب بلغت موجة كبيرة من التوترات بين برلين وباريس، تعرف

المنجمية تأسس بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٠٧ بمبادرة أرباب الصناعة الفرنسيين. ومن أهدافه المسطرة جعل الثروات المنجمية بالمغرب من اختصاصاته لوحده^(١٦).

وبالنظر إلى الأهمية القصوى التي بلغتها قضايا الاستغلال المنجمي، فإن ممثلي القوى الاستعمارية المجتمعين في الجزيرة الخضراء لمناقشة أوضاع المغرب وتقرير مصيره، أعطوا للملف قسط وافر من المفاوضات. وأخلصوا في النهاية إلى وجوب استصدار السلطان المغربي ظهير يحدد شروط حيازة الاستغلال مستلهما حيثيات ومقتضيات من القوانين الدولية المعمول بها، والتي تقوم إجمالا على أحد المبادئ التالية:

- تقويت الحق المنجمي لصالح مالك الأرض (الدول الأنجلوساكسونية)

- التقويت لصالح الدولة ذات السيادة على الأرض (فرنسا).
- التقويت لصالح المستثمر (إسبانيا)^(١٧).

ثالثا: الأوليغارشية المالية الإسبانية ومعادن أوكسان

لم تتوان الحكومة الإسبانية في اتخاذ قرار تقويت مصالح الاستخراج والتصدير والبيع للطبقة الأوليغارشية المالية، وفي هذا الإطار، تم تصدير الحديد المستخرج من مناجم الريف بنسبة تتجاوز ٩٠% من اجمالي المستخرج، إلى الأسواق الصناعية الأوروبية، كالمملكة المتحدة، وفرنسا، وهولندا، وألمانيا. مما كانت لها مساهمة كبيرة في الاستثمارات الصناعية الأوروبية والدولية خلال فترة استخراج معادن الريف^(١٨).

وعلى كامل منطقة الريف التي ترجع للاستعمار الإسباني، تمكنت إسبانيا من تحديد الجهة الأكثر توفرا على الرواسب المعدنية، وكانت منطقة كرت كما كان يطلق عليها أثناء الاستعمار الإسباني نسبة إلى واد كرت بالريف الشرقي. هي المنطقة الأولى التي تقع فيها هذه الرواسب المعدنية بسهلها وجبالها، حيث اكتشفت إسبانيا فيها رواسب الرصاص على شكل كبريت وكربونات. وتعد منطقة كرت أغنى منطقة بخام الحديد في منطقة الحماية الإسبانية بأكملها^(١٩). في السياق

القانوني وأن يكون مقرها المركزي في إسبانيا. وحتى تؤكد على انخراطها بالكامل في المنظومة الإسبانية، فإن المصرفي ليون كوكاني (Léon Cocagne)، وهو المدير السابق لبنك إسبانيا للقرض، كان صاحب أكبر حصة مالية، كما ضم مجلس إدارتها العديد من الشخصيات السياسية الإسبانية، على رأسهم رئيس إدارتها أنطونيو عاريسيا أليكس وهو وزير محافظ سابق^(٢٥)

حصلت الحكومة الإسبانية من المغرب من خلال معاهدة مؤرخة بتاريخ ١٧ نونبر ١٩١٠ تسوية المشاكل التي خلفتها القوات الإسبانية والمقاومة المحلية بزعامة الشريف محمد أمزيان^(٢٦)* ترخيص على نقل ٥٥% من عائدات التعدين لصالحها وتخصيص صلاحيات الاشراف من خلال تعيين موظفين خاصين. وفي هذا الإطار، تم تأسيس شركات التعدين بهدف استخراج الثروات المنجمية للمنطقة ولم تأبه الحكومة الإسبانية للمناقشات الفرنسية الألمانية في هذا الجانب، حيث بدأت شركات التعدين الإسبانية تنفيذها قانونيا وتمويلها مالياً، ثم صناعياً وتجارياً لاحقاً.

من أهم الشركات الإسبانية التي تأسست لغرض استغلال مناجم الريف، شركة شمال افريقيا، وشركة الجمعية الإسبانية لمناجم الريف، وشركة سيتولازار Setolazar والتي ستشكل مع الكانتينا Alicantina وهيسبانيو - أفريكانا Hispano-Africana، وهي مجموعة من خمس شركات استخراجية تم تأسيسها وتشغيلها خلال هذه الفترة بالضبط. الشركات الخمسة كلها شركات إسبانية^(٢٧) وحددت عمليات استغلالها في الرواسب الموجودة بمنطقة بني بوفورور في جبل أوكسان. تم استخراج أكثر من ٦٧% من الحديد و ١١,٠% من الكبريت و ٢,٠%. كانت المنطقة بالمعنى الدقيق للكلمة، أفضل منطقة ثروة في شمال المغرب بأكملها، سواء بمتوسط درجة المعدن أو وفرة الرواسب الجوفية، فعلى الرغم من الأوضاع التي سادت المنطقة الشرقية بعد حروب نتج عنها عدم استقرار الأوضاع منذ سنة ١٨٩٣ حتى بعد استسلام عبد الكريم الخطابي ١٩٢٦.

أدت الاستثمارات المالية من قبل الأوليغارشية الإسبانية إلى التركيز على تمويل شركات التعدين

هذه المسألة بالأزمة المغربية الثانية التي عرفت مفاوضات بين باريس وبرلين، وتم حلها بعد لجوء الطرفين إلى تنازلات سياسية وتقسيم المستعمرات بإفريقيا.

تضمن المادة الخامسة من الاتفاقية الفرنسية الألمانية المؤرخة في نونبر ١٩١١، الاعفاء الجمركي لخام الحديد المصدر إلى أوروبا من الموانئ المغربية باستثناء ضريبة عامة ورسم ثابت، بحسب كل هكتار من المساحة المستكشفة كل سنة، فضلاً عن نسبة تتناسب مع الناتج الإجمالي المستخرج. في السنة الموالية ١٩١٢ تمكنت فرنسا من توقيع عقد الحماية مع المغرب، حيث استخدمت فصول هذه الاتفاقية لإجهاض مشروع المانيا الخاص باستخراج تعدين المغرب. خاصة وأن فرنسا قامت بربط المدن الكبرى والموانئ المغربية بشبكة من الطرق والسكة الحديدية واعتبرت أن القانون الدولي يخول لها بموجب عقد الحماية التصرف في التجارية المغربية. وبذلك أنهى هذا الفصل من المنافسة الدولية التي كانت الموارد المنجمية المغربية منخرطة فيها عن كذب، على الرغم من الحضور الألماني الذي كان مكثفاً، لكنه لم يستمر إلا بضع سنوات^(٢٨).

أدى اندلاع الحرب العظمى صيف سنة ١٩١٤ إلى شل توسع ألمانيا الاستعماري، وتمكن الحلفاء فصل مصالح الارتباط الألماني بالمغرب. على أثر ذلك قامت فرنسا من تعزيز عملة الفرنك الفرنسي على الموارد الطبيعية المغربية، بررت سلطة باريس هذا القرار بالرغبة الاقتصادية التي أوقفها الأوضاع الدولية والظروف الداخلية المعاكسة التي لم تخضع للاستعمار الأوربي^(٢٩).

رابعا: عمل شركات التعدين الإسبانية في شمال المغرب

في سنة ١٩٠٨ تأسست مجموعتان منجميتان هما، الشركة الإسبانية لمناجم الريف، وشركة شمال إفريقيا، اللتان جعلتا نصب أعينهما استغلال المناجم الموجودة في جبل أوكسان. كانت الحصة الكبرى من رساميل شركة شمال افريقيا من أصول فرنسية أكثر من ٨٠% منها. وحرص مؤسسوها على أن تكون إسبانية الوضع

تعاملت إسبانيا مع معادن الريف، كما لو أنه معدن بسيط أو سلعة في ملكيتها، تم نهبه وتصديره بكل بساطة إلى المركز الصناعي دون التفكير في خلق صناعة محلية والجدول أسفله يبين خام الحديد المصدر من قبل كل شركة من شركات النشطة في المنطقة ما بين سنتي ١٩١٤ و ١٩٣٠ (النسبة بآلاف الأطنان)^(٢٤).

المخصصة لاستخراج معادن منطقة بني بوفرو، التي أنتجت لوحدها حوالي ٩٥ % من مجموع ثروات باطن الأرض. بينما خصصت الرأسمالية المالية الإسبانية الناشئة التي حصلت على جزء كبير من الرأسمال العائد من تعدين الريف ولا سيما معادن ذات الجودة العالية جدا، وبسبب الطلب المتزايد من طرف بريطانيا على شراء معادن بني بوفرو من إسبانيا على اعتبار أن بريطانيا دولة صناعية، وكان على إسبانيا لا بد من تصديرها بالكامل تقريبا^(٢٨).

ارتبطت الشركة الإسبانية لمناجم الريف بالأوساط السياسية. فقد كان أول رئيس لمجلسها فيانوفيا (Villanueva)، إطارا في الحزب الليبرالي ووزيرا سابقا، وغالبية المساهمين في رأس مالها الذي بلغ ستة ملايين بسيطة ينتمون إلى الارستقراطية الحاكمة ممن نسجوا شبكة تحالفات حزبية وبرلمانية متداخلة، قطباها عائلتان عريقتان، فيغيروا وغويل، مكنتهم من الهيمنة على الشأن العام بين سنتي ١٩١٠ و ١٩١٢^(٢٩). وقد حرص هؤلاء جميعا على أن تكون للشركتين ظاهريا صلات رسمية ومباشرة مع الحكومة الإسبانية، ولكن العلاقات مع الدوائر السياسية كانت بشكل جعل مصالحها مرتبطة بمصالح الطبقة السياسية، ثم إنه وجب تأمين سلامة العاملين في نشأتها من طرف القوات المربطة في مليلية^(٣٠). ومهما يكون من أمر، فإن ماكان الإسبان يعنونه بعبارة مناجم الريف، هو مجموع المناجم الموزعة على مساحة تتراوح بين أربعة إلى خمسة كيلومترات مربعة، وهي من قيمة مختلفة، على لرأسها مناجم أو كسمان - لعسارة^{(٣١)*}، ومناجم أفرا^{(٣٢)**}.

وقد حظيت بالاهتمام مواقع منجمية أخرى من مستوى وقيمة أدنى متفرقة على المجال الريفي، منها التي في مجال منطقة تطوان وغمارة التي كانت تحت تسيير ألماني يدعى "لاو كينهيم Law Genheim" الذي أنشأ طريق يمتد من باب تازة إلى بني خالد عبر أكثر من عشة كلم جنوب شرق الشاون^(٣٣)، بينما خصصت شاحنات لنقل المعادن إلى الموانئ ومن ثم تصديرها إلى السوق الصناعية الأوروبية.

السنوات	الشركة الإسبانية لمناجم الريف	شركة اليكانتيا وسيتولازار	شركة شمال افريقيا	الشركة الإسبانية الافريقية	المجموع
١٩١٤	٦,١	-	-	-	٦,١
١٩١٥	٧٤,١	١٣,٦	-	-	٨٧,٧
١٩١٦	١١١,٦	٧٨,٢	-	-	١٨٩,٨
١٩١٧	١٢٥,١	٧٢,٤	٥,١	-	٢٦٨,٦
١٩١٨	٢٠١,٨	٦٦,٧	-	-	٢٦٨,٥
١٩١٩	١٧٣,٦	٩١,٦	٢,٩	-	٢٦٨,١
١٩٢٠	٣٢٠	٩٩,٧	-	-	٤١٩,٧
١٩٢١	١٠١,٢	-	-	-	١٠١,٢
١٩٢٢	٢٣٠,٤	٥٧,٣	١٣,١	-	٣٠٠,٨
١٩٢٣	٣٦٠,٨	٣٥,٩	٧,٠	-	٤٠٣,٧
١٩٢٤	٣١٤,٧	٨٠,٦	٧,٨	-	٣٩٩,١
١٩٢٥	٢٧٩,٨	٨٨,٨	١٠,٩	-	٣٧٩,٥
١٩٢٦	٣٨٠,٩	٨٧,١	٩,٥	٢,٥	٤٧٧,٥
١٩٢٧	٦٩٦,٦	٢٤٤,٧	١٤٣	٤,٢	٩٥٥,٦
١٩٢٨	٨٥٠,٠	٢٠٢,٤	١٢,٤	-	١٠٦٤,٨
١٩٢٩	٧٩٨,٥	٢٣٨,٥	١٥,٣	٢,٥	١,٠٥٤,٨
١٩٣٠	٦٠٢,٤	١٨٩,٤	١٢,١	٤,٢	٨٠٨,١

اتفاقية التجارة الإسبانية الألمانية^(٣٥)، التي سهلت التبادل بين الدولتين.

أدى استغلال وتصدير خام الحديد من منطقة بني بوفيرور المتميزة إلى حرمان شمال المغرب عن التركيز الصناعي الذي يمكن من خلاله تلبية الطلب الوطني المتزايد. وفي هذا الصدد، حققت الأوليغارشية الإسبانية أرباحا كبيرة من خلال بيع الحديد المستخرج من المنطقة الشرقية للريف في الأسواق الأوروبية الأكثر طلبا على معادن الريف، كما اعتبرت أن المغرب يمثل وفق جميع المواصفات مستعمرة قابلة للاستغلال الفوري، ومجالا مواتيا لاستثمار الرساميل على قلتها وضعفها. وقد خلص فكتور موراليس ليثكانو أن الاستغلال المنجمي للشركات الأوروبية وظف لصالحه كل

ابتداءً من سنة ١٩١٤ بدأت إسبانيا من تصدير أول شحنات معادن مناجم الريف إلى الموانئ الأوروبية، واستمر حسب المعطيات والبيانات الظاهرة بالأرقام في الجدول أعلاه، بالنسبة لخمس شركات إسبانية مسار إنتاج وقيمتها. إذ يسجل ما بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ تطور قوي لنشاط استخراج معادن الريف مما يفسر طلب الدول الأوروبية الصناعية مع شراء خام حديد مناجم الريف. بينما إذا رجعنا إلى سنة ١٩٢١ فهي تمثل أقل نشاطا للشركات الإسبانية المستخرجة للمعادن بسبب الهزيمة الكبرى للجيش الإسباني في صيف من السنة ذاتها. ومنذ البداية كانت ألمانيا أقوى مستهلك للحديد المصدر من ميناء مليلية، خلال الحرب العالمية الأولى عبر هولندا، كما حدث في العشرينيات عندما تم توقيع

خاتمة

ومما سبق يتبين أن الاستغلال الاستعماري الذي تعرضت له مناجم الريف كان مهولاً نظراً للاستغلال المفرط الذي استمر لأكثر من نصف قرن، مع غياب شبه تام لخلق على الأقل أية تنمية للمنطقة التي توجد فيها هذه المناجم أو تأهيل طرقها أو موانئها، مما يعكس ذلك حجم النهب الهائل الذي أحدثته شركات المستعمرين بشمال المغرب. فالأنفاق والخنادق شاهدة إلى يومنا هذا عن هذا النهب. ونظراً لأهميته في كونه من بين أهم وأجود معادن شمال إفريقيا، استمر الاستغلال الإسباني في استخراجها من جوف أراضي الريف الشرقي بشمال المغرب من سنة ١٩٠٧ إلى ما بعد حصول المغرب على الاستقلال، وبالصيغ سنة ١٩٦٧، حيث تغيرت مجموعة من الأمور في المغرب، ونتيجة لذلك استرجع المغرب حقوق الملكية ابتداءً من نفس السنة، ومن ذلك التاريخ ظل في استغلال الدولة حتى سنة ١٩٩٨ حيث تم إيقاف المناجم بشكل نهائي وتم تسريح العمال، وبالتالي أصبحت المنطقة مهجورة.

أعيد فتح منجم أوكسان في غشت ٢٠٢٤ حيث فتح المكتب الوطني للهيدروكربورات والمعادن بالرباط، عقداً جديداً لإعادة استغلال مناجم الحديد "أوكسان" مع شركة المجموعة الصينية China Railway Construction، الشركة عازمت على إنتاج مليوني طن من مسحوق الحديد المكرر وتصديرها عبر ميناء الناظور إلى أوروبا. وحسب تقديرا المكتب الوطني للهيدروكربورات أنه من المتوقع استخراج ما يناهز ٣٦ مليون طن من الحديد من منجم "أوكسان" ومنجم "لعسار" ومنجم سوطولازا. من المتوقع أن تساهم معادن أوكسان في تأهيل الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة حيث توفر مجموعة من فرص الشغل لأبناء المنطقة، وخلق شبكة من الطرق المتقدمة وجذب الاستثمارات، في أفق إتمام أشغال بناء ميناء الناظور غرب المتوسط الذي سيشكل اللبنة الأساس في خلق اقتصاد متكامل وعموم المنطقة بالجهة الشرقية والمساهمة في رفع الاقتصاد الوطني المغربي.

ما أوتي من امتيازات، من أهمها اليد العاملة ووفرته، وهو ما يفسر بوافر الاستثمارات واهتمام الأبنك والمصارف الخاصة. وكانت المحفزات الاقتصادية من صلب الامبريالية الإسبانية لتحقيق مزايا وأرباح طائلة في وقت قصير في المجالات الأكثر استراتيجية، وتتحصّر في واقع الأمر في مجالين وقع في شأنهما الإجماع، الثروات المعدنية وطرق المواصلات.

وتجدر الملاحظة هنا، أن هذا الكم بهذا الحجم الهائل من المعادن المستخرج من جوف الأرض كان موجهاً بالكامل إلى التصدير خارج المغرب، ولم يتم بناء سوى مسبكة واحدة في مدينة العرائش وأخرى في تطوان ما بين سنتي ١٩٢٣ - ١٩٣٠، المسبكتان معا أنشأتها شركة التعدين المغربية ووجهتها إلى الاستجابة للطلب الداخلي^(٣٦).

في تصريح لأنفونصو ذيل بايي أحد مؤسسي الشركة الإسبانية لمناجم الريف الذي أكد على أن شركته "كانت بحق من العناصر التي سهلت المبادرات السياسية الإسبانية في الريف، وساعدت على حصول التطور الاقتصادي، وفتحت وسائل الاتصال، فظهرت مصادر عيش جديدة وأنشئت مراكز حضرية"^(٣٧). وفضلاً عن ذلك فقد استفادت الأنشطة المنجمية، بالإضافة إلى العوامل الداخلية وأخرى خارجية على اعتبار أن الدول الموجهة إليها التصدير كانت في حاجة ماسة إلى المعادن المغربية وخاصة في مرحلة ما بين الحربين^(٣٨)، لا سيما فرنسا وألمانيا وإنجلترا الأكثر إلحاحاً. في سنوات ما بعد استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي حصلت الشركة على أكثر كميات الاستخراج المعادن من تربة أراضي أوكسان والمناطق المجاورة.

الإحالات المرجعية:

- (١٢) ماريا روسا ذي ماداريكا، م، س، ص. ٤٣.
- (١٣) ميمون أريزا، **الريف زمن الحماية الإسبانية**، م، س، ص. ١٥٣.
- (14) Victor Lezcano, p.76.
- (١٥) ميمون أريزا، م، س، ص. ١٥٣.
- (١٦) نفسه.
- (١٧) نفسه.
- (18) Ibid, p. 71.
- (١٩) ماريا روسا ذي ماداريكا، في خندق الذئب، ص. ٤٣-٤٦.
- (٢٠) * الأمتنمون معدن فضي أبيض يستخدم في صناعة الإلكترونيات والزجاج
- (٢١) ميمون أريزا، **الريف زمن الحماية الإسبانية**، م، س، ص. ١٥٦.
- (22) Victor Lezcano, Op. cit, p.73.
- (23) Victor Lezcano, Op. cit, p.78.
- (24) Ibid.
- (٢٥) ميمون أريزا، **الريف زمن الحماية الإسبانية**، م، س، ص. ١٥٧.
- (٢٦) * زعيم المقاومة في منطقة الريف الشرقي (١٩٠٩-١٩١٢).
- (27) Ibid, pp.79-80.
- (28) Victore Lezcano, **El colonialismo...** Op. cit, p.82.
- (٢٩) ميمون أريزا، م، س، ص. ١٥٨.
- (٣٠) نفسه.
- (٣١) * شرع في استغلاله سنة ١٩١٤ من طرف الشركة الإسبانية لمناجم الريف. كان المستخرج من تربته يشحن في قاطرات على خط السكة الحديدية إلى مليلية. يسبق هذه العملية حمل المعدن على ظهر شاحنات موجهة إلى بلدة أرغنان. وفي سنة ١٩٢٨، لجأت الشركة الإسبانية إلى خدمات شركة ألمانية لبناء غسالة ضخمة للمعادن المستخرجة، بنيت على ضفة بحيرة مارتشيك إلى جانب جبل أطلايون.
- (٣٢) ** مناجم أفرا: تقع بالقرب من بلدة تويمة على بعد ٩ كلم جنوب غرب الناظور، وكان يمر بها خط السكة الحديدية القادم مناجم سوطولاسار، المتوجه صوب مليلية، تم اكتشافه سنة ١٩١٦، وكان في البداية في ملكية شركة انجليزية هي مناجم أوربا وشمال إفريقيا. انظر: ميمون أريزا، م، س، ص. ١٦٠-١٦١.
- (٣٣) نفسه، ص. ١٦١.
- (34) Victor Morales Lezcano, **El colonialismo...** Op. cit, p.83.
- انظر أيضا: ميمون أريزا، م، س، ص. ١٥٢-١٦٦.
- رشيد يشوتي، **إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان ١٩١٢-١٩٠٩ مساهمة في دراسة العلاقات المغربية-الإسبانية في بداية القرن العشرين**، مطبعة RABAT NET MAROC، الرباط، ٢٠١١. ص. ٢٦٣-٢٧٨.
- (٣٥) * تم توقيع اتفاقية تجارية التي كانت أساس الموجة الجديدة من الاستثمارات الألمانية في إسبانيا، والتي ظلت سارية المفعول في عهد الرايخ الثالث باعتبارها تسوية مؤقتة بين البلدين. انظر: Victor Morales Lezcano, Op. cit, p.85.
- (٣٦) ميمون أريزا، م، س، ص. ١٦٢.
- (37) J. Ignacio, Minas de Hierro El Rif, Brochure déposée à la Bibliothèque Nationale de Madrid, p.16.
- أورده ميمون أريزا، **الريف زمن الحماية الإسبانية**، م، س، ص. ١٨٤.
- (٣٨) نفسه، ص. ١٦٥.

(١) * الجيلالي بن دريس الزرهوني ويُعرف بـ (بوحمارة) و (الروكي)، كان يعمل في بداية حياته ببلط السلطان مولاي الحسن، واتهم في مؤامرة وألقي عليه القبض وقضى سنتين بالسجن. وبعد ذلك ذهب إلى الجزائر ثم إلى تونس واختلط بجماعات الطرق الصوفية، وعاد إلى المغرب وقد اشتهر بالتقوى والورع وأخذ يطوف البلاد وينشر تعاليمه في القبائل، واستقر في منطقة تازة قرب فاس سنة ١٩٠٢، وقد جمع حوله الكثير من الأنصار، ولمنه اضطر للنسحاب إلى الشمال بعيداً عن فاس مركز السلطة بعد أن هزمه قوات السلطان مولاي عبد العزيز في يناير ١٩٠٣. وتوجه الجيلالي الزرهوني إلى الريف واستقر هناك في سلوان، على بعد ٢٥ كلم جنوب غرب مليلية، واستطاع أن يجمع حوله قبائل الريف باعتباره ابناً شرعياً للسلطان مولاي الحسن، وصاحب الحق الشرعي في السلطنة والمدافع المخلص عن المملكة في وجه الأجانب. وقد تمكن الجيلالي الزرهوني من إنشاء قوة مسلحة تسليحاً ممتازاً ويبلغ عدد أفرادها ٢٠٠٠ رجل ساعدت على نشر نفوذه من وادي الملوية حتى قبيلة بني ورياغل وخليج الحسيمة. انظر:

(٢) عثمان بناني، **محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط، نت، الطبعة الأولى، الرباط، ١٩٠٢. ص. ٣١-٣٢.

(٣) نفسه، ص. ٣٣.

(٤) * ولد مولاي أحمد الريسوني سنة ١٨٧٣ م بزينات (قرية صغيرة قريبة من طنجة) وهو ينتسب لأسرة مولاي إدريس الثاني مؤسس فاس، والتي تضم بين أفرادها المشهورين مولاي عبد السلام بن مشيش الذي عاش في القرن السابع الميلادي والمدفون في علم بأرض قبيلة بني عروس في قلب جبال المنطقة الغربية. وما تزال زاويته حتى اليوم محجاً يحج إليه الحاج من جميع أنحاء المغرب. قضى مولاي أحمد الريسوني جزءاً من طفولته في تلقي علوم الدين، لكنه تفرغ في بداية شبابه لمطاردة عصابات اللصوص في منطقة طنجة بعد أن قامت إحدى تلك العصابات بالهجوم على منزل أسرته وقتلت أمه ونهبت ممتلكاته. وقد أثار نشاطه انتباه السلطان مولاي الحسن، فطلب منه القضاء على الفوضى في المنطقة الواقعة بين سبتة وطنجة. انظر:

روزيता فوريس، **الريسوني سلطان جبالة سيرة حياته كما روتها روزيتا فوريس**، ترجمة بشرى المصباحي، منشورات ساكي أخوين، طنجة، ٢٠٢٣.

(٥) عثمان بناني، **محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني**، م، ص. ٣٦-٣٧.

(٦) Victor Morales Lezcano, **El Colonialismo Hispanofrances en Marruecos (1898-1927)**, Madrid ; 1976, pp.64-70.

(٧) ميمون أريزا، **الريف زمن الحماية الإسبانية ١٩١٢-١٩٠٦ الاستعمار الهامشي**، ترجمة محمد حاتمي وجمال حيمر، منشورات ملتقى الطرق، الدار البيضاء ٢٠٢١. ص. ١٥٢.

(٨) ميمون أريزا، **الريف زمن الاستعمار الإسباني**، م، س، ص. ١٥٤.

(٩) Victor Morales Lezcano, Op. cit, p. 72.

(١٠) نفسه.

(١١) ماريا روسا ذي ماداريكا، **في خندق الذئب معارك المغرب**، ترجمة كنزة الغالي، مؤسسة الغنى للنشر، مطبعة دار أبي رقرق، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١٠. ص. ٤٣.

How effective was Germany in mobilizing its economy before and during the Second World War?



Dr. khalil M. Othman
 Dep. of history, college of Arts
 University of Duhok
 Kurdistan region – Iraq.



M.A. Diman I. Ameen
 Dep. of history, faculty of Science and Education
 University of Duhok
 Kurdistan region – Iraq.

ABSTRACT

This article analyzes the effectiveness of Germany in mobilizing its economy before and during World War II. The Nazi regime initiated the "Four-Year Plan" in 1936 to prepare the economy for war, focusing on military autarky and self-sufficiency. Early investments in military production were made, and by 1939, Germany had built a strong military-industrial base. However, the economy was unprepared for the long-term demands of the war, with insufficient raw materials, poor coordination between the military and industry, and a lack of readiness in production capacities. During the war, Germany initially maintained a "peace-like war economy," focusing on civilian satisfaction in the early years. However, inefficiencies arose in mass production, and financial issues hindered military production. The shortage of essential materials and the underutilization of female labor further weakened the economy. Ultimately, Germany's economic strategies, while initially effective, were unsustainable and inadequate for the prolonged conflict, contributing to the collapse of its economy by 1945. The paper concludes that despite early successes, Germany's economic mobilization was hindered by strategic errors and inefficiencies, leading to its failure during the war.

Keywords:

Four-Year Plan; Autarky; Mass production; Raw materials; Economic mobilization

Research info:

Received: 19 February 2025
Accepted: 30 March 2025
DOI: 10.21608/kan.2025.453946

Citation:

khalil M. Othman, Diman I. Ameen, "How effective was Germany in mobilizing its economy before and during the Second World War?" - Historical kan Periodical. - Vol. (18) Issue (71); September 2025. Pp. 192 – 197.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: culturalduhok@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في جُورِية كان
 التَّارِيخِيَّة لِلأَعْرَاضِ الْعِلْمِيَّةِ وَالبَحْثِيَّةِ
 فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ
 والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

Introduction

The Second World War was a significant war in history which lasted from 1939 to 1945. Many historians assert that World War II started on the 1st of September 1939 and that Europe was the centre of the struggle which spread around the world (Taylor, 1976: p11). In this regard, according to Harrison (2001), the economics of the second world war analyses the war experiences of six great powers such as the United States, the United Kingdom, Germany, Japan, Italy and Soviet Union. In addition, mobilization of the economy was a significant part of the war strategy for each of these powers. For example, before starting the war, the Axis powers (German, Italy and Japan) prepared their economies first, and then the Allies powers (USA, UK and Russia) mobilized their economies during the start of the war (Harrison, 2000: p22-23).

The aim of this paper is to focus on how effective Germany was in preparing its economy before and during World War II. This research will show that the economy of German was effective in some points, for example organizing a four-year plan preparing for war by the Nazi regime in 1936 and providing resources for consumption during the first two years of the war. This is supported by Overy (1995, p198) who stated that the German economy was considered as a strong source of military power in the West, and between the three Axis, Germany was the single source of economy in armament. However, this paper will suggest that the economy of Germany was not effective before and during the Second World War especially in terms of investing enormous amounts of money, problems with raw material, the high quality of mass production and encouraging Germany to be self-sufficient. It is clear that the German economy was weak during World War II particularly owing to starting war too early, a poor relationship between industry and the army, not utilizing women in the industrial factories and destroyed German cities through bombing.

How effective was Germany in mobilizing its economy before and during the Second World War?

Many historians have debated and argued about the state of Germany economy before and during the Second World War. The ways that Germany was effective in mobilising its economy are still discussed among generations of historians today. This section will discuss the economic focus of the Nazi regime between 1933 and 1945 (Kershaw, 1993: p41). It is important to mention that on 30th of January 1933, Hitler came to power as a German chancellor (Hillgruber, 1981: p58), a time when Germany's economy was not stable.

Pre-war German's economy

One point that shows the German economy was not effective before the start of the war regards investment. It is believed that by Scherner (2013) from the mid-1930s, the Nazi party invested large amounts of money in preparation for the war. At this time, the Nazi regime had gained motivation for developing the capacities of military equipment and autarky industries, with increasing expenditure for military and particularly improves the ways of funding them. In addition, Overy (1995: p199-200) mentions that before starting the war in 1938, Hitler admitted their enormous war potential that would make Germany the first power of the coming war. However, after starting the war in 1939, it was hindered from being the superpower of the era as it cut short expenses and time for continuous and effective military production.

To look at this in another way, the German economy proved to be successful during the four years plan before starting the war. This is supported by Meier (2000) who stated that from 1936 Germany had organized the four-year plan for war in order to achieve the aim of improving economic autarky and mobilising its economy. Furthermore, Overy has highlighted that by the year of 1936, there were the significant investments in autarky industries from the context of four-year plan in order to encourage Germany self-sufficient and to mobilize its economy for war (Schermer, 2010).

Therefore, in the prewar period the autarky investments were increased considerably and during the war, between 1940 to 1943, it reached its height (Schermer, 2010). Hence, the Nazi regime was the master of the economy by 1936 (World Historia, 2005). However, Copeland, (1996) stated that Hitler decided to improve autarky for the war preparation by 1936, as he considered it as an essential for Germany's economic capability for long time. This decision was made during the four-year plan. Despite this, autarky could not be continued as there were limitations that could not remove. It seems that autarky did not provide enough resources for long term, and the mobilising of the economy was not suitable for a long war.

Another way that had a negative effect on Germany's economy was that the war was started too early. At that time, Hitler came to power and the economy in Germany was not ready. It is argued by Harrison (2000, p154) that the German's economy was being developed at high speed by September 1939, while the step was not still complete and industry of German was not ready for starting the war. However, Hillgruber (1981, p62) stated that in four years' time Hitler determined that before starting the war "the German army be ready for action and the German economy capable of waging war".

The economy of German during the war

On the other hand, another point that proves that the economy was mobilised was that the economy of Germany was peaceful during the first couple years of war. It is supported by Scherner (2010) during the first two years of the war; the German economy was described as a 'peace-like war economy' by some scholars. The aim of this policy was to provide resources for consumption. In addition, Scherner (2013) states that before starting the war and during the first two years proponents of the 'Blitzkrieg hypothesis' support that Hitler intentionally under-mobilized its economy, in order to prepare its resources for providing consumer

goods to satisfy of the German's civilian from the Nazi's hostile policies. It is clear that the Germany's civilian economy was quite well during the first two years of the war.

Production tactics

Another possibility that had a negative effect on Germany's economy was the independent system of mass production Nazis adopted, because of their prejudice, was the other reason which caused German to fail because of problem of timing, having expensive and high-quality products through skilled craftsman, though insufficient production in the final (Overy, 1995: p 202). According to Tooze (2006, p662) in the summer of 1939, the German armaments economy was being significantly pressed by financial problems. On the other hand, weapons production must have been much greater; a slight increase was there by industrial stagnation, for example "there was 8000 aircraft in 1939, 10000 in 1940, only 11000 in 1941". While Germany produced 425 different aircraft models and by the middle of the war there were 151 different makes of lorry and 150 motor-cycles that were equipped by the German army (Overy, 1995: p200-201)). In addition, the mobilisation of the war economy in Germany was significantly incompetent. Because of the portion of armament industries increased from 61% in 1939 to 79% in 1940, and between 1939 to 1940 it was more than double. During the first years of the war, war-related industrial investments was peaked (Schermer, 2010). Hence, due to massive rearmament the German economy was limited in 1939 (Schermer, 2013). It might be argued that mass production was difficult to continue because of financial problems and problem of timing.

In addition, Failure to prepare the biggest mass-producing industry was not the only reason for the issues in German war economy. In fact there was many other factors to this problem. It is important that a technical advancement was required for producing large quantities of standard weapons. This became reality when Hitler in December 1941 ordered German industries to simplify and increased efficiency in armament production. And

also, he planned German industry to go into mass production (Overy, 1995: p203). However, by the year 1944, only a few chosen weapons were produced, for example only five aircraft models selected from the available 42 models, for mass production only 23 lorries models were selected from the available 151. A dozen of anti-tank weapons got replaced just one. Finally, the whole range of German weaponry industry went through drastic changes to encourage the mass production of war weaponries (Overy, 1995: p204). However, according to Harrison (1998) between 1939 to 1941 Germany and Japan reached the high level of the military qualities not the quantity, but in Germany there was no strong connection with the level of economic development. Quality of armies and armament was essential for the German and Japanese strategy, but for the Allied strategy quantity was significant stage. Despite that German reached the high level of military qualities during the World War II, while there was not a strong relationship with the level of economic development. It is clear that the economy was not effective because Germany emphasized on qualities not the quantities, whereas the Second World War was a mass war and Germany had to produce huge production.

On the other way another alternative factor that led to Germany's economy to become weak was short with raw materials. When the war started in September 1939 supplies of raw materials were enough for almost one year, and expected that it also had to be imported (Hillgruber, 1981: p63). Hence, in that time Germany industry depended on foreign sources, for example 70% of its copper, 80% of its rubber, 65% of its tin (Hillgruber, p75). Despite this, Tooze (2006, p661) mentioned that in September 1939 when Germany started the war, there was no considerable material or technical superiority among more developed military power of the West. Therefore, by 1941 there was a convincing economic case for Hitler's decision to expand the war, for example Germany tried to

access some raw materials from the Soviet Union such as grain and oil (Tooze, 2006: p666).

As can be seen in this paragraph by the opening of war, the economy suddenly conscripted and it was restricted to the people, and many unnecessary businesses were shut down. Due to by 1941 more than half of industry manpower went for army (Overy, 1995: p200). In this regard, there was a poor relationship between industry and army in Germany. Hence, economy in Germany was not effective because of many issues and it never became efficiency. It is supported that by Overy (1995: 201-202) there were the poor coordination in business system of Nazism as a result of a recent feeling towards the corrupted and self-centred Nazis. The businessman did not like to involve in any benevolent and voluntary to help economy. On the other hand, were the exhausted German engineering system whose inadequacy and inefficiency were because of the niggardly and chaos of orders. Moreover, Schweitzer (1946) states that there was no power relationship between party and big business in whole process of the regime.

This point is looking of Germany's economy was weak allies economically. Before starting the war, the Axis powers prepared their economies first. Whereas when war was declared as inevitable, the western Allies powers started to organize their economies. Thus, the Allies powers prepared their economy equally and found that the qualitative benefits of the Axis powers were counteracted by only quantitative effort (Harrison, 1998). Another important point that has to be mentioned is that, surrounding, economic conflict and using political influence were the strategy that Allies had planned to separate German. From this way they started their struggling to put Germany in economic quarantine (Overy, 1998: p85).

On the other hand, the greatest number of financial resources that Germany received was from occupation costs that France had to pay for a long time. Hence, the funds were enough for Germany's aims, but by 1942 expenses increased considerably. In addition, Germany responded by rising

occupation costs France had to pay in order to decrease expenditure and inflation (Boldorf, Scherner, 2012). According to Harrison (1998) during the period war, 30-40 percent of the national products of France, the Netherlands and Norway were extracted successfully by German occupation policies. However, According to Overy (1995: p:200) the conquered supplements of coal and steel resources from France, Belgium and Luxemburg still could not fill the gap between reality and the first plan of Hitler.

However, this paragraph is looking of bombing that had a negative effect in Nazi Germany particularly in its economy. It is evident that the Nazi regime did not have plan for a long war, and the effects of a strategic bombing was a significant issue especially on damaging industrial plants (Scherner, 2010). Thus, at last, the German economy collapsed in 1945, as a result of combining of heavy bombing with a huge attack from both east and westsides (Harrison, 1998). . It is argued that the civilian economy in Germany was suffered as a result of throwing bombing from Allied powers. This is supported by Meier (2000) Allies powers destroyed the German cities by bombing in 1944.

In addition, this point shows the biggest critical mistake that effect Germany's economy was that they did not permit to utilize women in the industrial factories. It is supported that by (World Historia, 2005), during the Second World War, forbidding women to employ as a source of labour was the most enormous mistakes that made by Germans. According to Nazi party ideology, the place of German's women was at home, and it was not in factory, they failed to have advantages of this significant unused reserve for the making of war material. In addition, another point that affected German's economy was that Nazis paid married women credits if they did not continue with their job.

Conclusion

This essay has shown the Germany's economy before and during the Second World War. Therefore, it has described several arguments about how effective Germany in mobilising its economy before and during the period of Nazi regime between 1933 to 1945).

Germany mobilised its economy before starting the World War II in several strategies such as Nazi regime organised a four-year plan to be ready for preparing its economy in Germany and achieving some financial resources from the occupation during the war. However, there are some evidences that showed Germany's economy before and during the Second World War that was not effective, for example investing large amounts of money for military equipment, bombing from Allies powers that led to destroying many industrials in large cities. In addition, Germany has weak Allies economically and the government emphasized large quality not the quantity on mass production.

In addition, another alternative that can have negative effect on economy of Germany includes the regime not having enough raw materials for industries, effecting autarky on production to become poor and Nazi party did not utilize women to work in industrial factories. As a result of this, the Germany's economy had many issues and never become efficient, despite decreasing its economic production during the war.

Bibliography:

- Boldorf, M., Scherner, J. "France's Occupation Costs and the War in the East: The Contribution to the German War Economy, 1940–4", 2012, Journal of Contemporary History, vol. 47, no. 2, pp. 291-316.
- Dale C. Copeland 1996, "Economic Interdependence and War: A Theory of Trade Expectations", International Security, vol. 20, no. 4, pp. 5-41
- Harrison, M. (1998) 'The economics of World War II: an overview'. Available at: <http://www2.warwick.ac.uk/fac/soc/economic/s/staff/academic/harrison/public/ww2overvieww1998.pdf>
- Harrison, M. 2000, The economics of World War II: six great powers in international comparison, Cambridge University Press, Cambridge.
- Harrison, M. & Levesque, J. 2001, The economics of World War II.
- Hillgruber, A. 1981, Germany and the two world wars, Harvard University Press, Cambridge, Mass.
- Kershaw, I. 1993, The Nazi dictatorship: problems and perspectives of interpretation, E. Arnold, London.
- Overy, R.J. 1995, Why the Allies won, Pimlico, London.
- Overy, R.J. 1998, The origins of the Second World War, Longman, London.
- Meier, D. (2000) 'Adolf Hitler's Rise to Power'. Available at: <http://www2.dsu.nodak.edu/users/dmeier/Holocaust/hitler.html> (Accessed: 7 Nov 2013).
- Schweitzer, A. 1946, "Big Business and the Nazi Party in Germany", The Journal of Business of the University of Chicago, vol. 19, no. 1, pp. 1-24.
- SCHERNER, J. 2010, "Nazi Germany's preparation for war: evidence from revised industrial investment series", European Review of Economic History, vol. 14, no. 3, pp. 433-468
- SCHERNER, J. 2013, "'Armament in depth' or 'armament in breadth'? German investment pattern and rearmament during the Nazi period", The Economic History Review, vol. 66, no. 2, pp. 497-517.
- Taylor, A.J.P. 1976, The Second World War: an illustrated history, Penguin, Harmondsworth.
- Tooze, A. 2006, The wages of destruction: the making and breaking of the Nazi economy, Allen Lane, London.
- World Historia (2005) Nazi Economic Policies Effect on the War. Available at: http://archive.worldhistoria.com/german-economy-during-world-war-ii_topic1888.html (Accessed: 11 Nov 2013).

ما مدى فاعلية ألمانيا في تعبئة اقتصادها قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية؟

أ.م.د/ خليل مصطفى عثمان

قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة دهوك، إقليم كردستان جمهورية العراق

م.م/ ديمن إبراهيم أمين

قسم التاريخ، كلية العلوم والتربية-عقرة، جامعة دهوك، إقليم كردستان جمهورية العراق

ملخص المقال:

لقد أظهر هذا المقال الاقتصاد الألماني قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، وبالتالي تم وصف العديد من النقاط حول مدى فاعلية ألمانيا في تعبئة اقتصادها قبل وأثناء فترة النظام النازي بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤٥. قامت ألمانيا بتعبئة اقتصادها قبل بداية الحرب العالمية الثانية من خلال عدة استراتيجيات، مثل تنظيم النظام النازي لخطة الأربع سنوات استعداداً لتحضير للاقتصاد الحربي في ألمانيا وتحقيق بعض الموارد المالية من خلال احتلال عدد من الدول الأوروبية خلال الحرب. ومع ذلك، هناك بعض الأدلة التي أظهرت أن اقتصاد ألمانيا قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية لم يكن فعالاً بما يكفي لمواجهة الحلفاء والاستمرار في الحرب لمدة تزيد عن سبعة سنوات، منها على سبيل المثال، استنزاف مبالغ طائلة من الأموال في صنع المعدات العسكرية، بالإضافة إلى القصف والدمار الذي تعرض لها ألمانيا من قبل القوات الجوية للحلفاء أثناء الحرب، مما أدى إلى تدمير العديد من الصناعات في المدن الكبرى. بالإضافة إلى ذلك، كانت ألمانيا تمتلك حلفاء اقتصاديين ضعفاء، وركزت الحكومة على الجودة الكبيرة بدلاً من الكمية في الإنتاج الضخم. بالإضافة إلى ذلك، هناك بدائل أخرى كان لها تأثير سلبي على اقتصاد ألمانيا، بما في ذلك عدم توفر المواد الخام الكافية للصناعات، وتأثير الاكتفاء الذاتي على الإنتاج الذي أصبح فقيراً، وعدم استغلال حزب النازي للنساء للعمل في المصانع الصناعية. نتيجة لذلك، واجه اقتصاد ألمانيا العديد من المشاكل ولم يصبح فعالاً، على الرغم من تقليص إنتاجه الاقتصادي خلال الحرب.



2008 - 2025



مُؤَسَّسَةُ كَانِ لِلدِّرَاسَاتِ وَالترجمة وَالنشر
Kan Foundation for Studies,
Translation and Publishing

<https://kan.journals.ekb.eg>

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

<https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449>
<https://www.facebook.com/historicalkan>